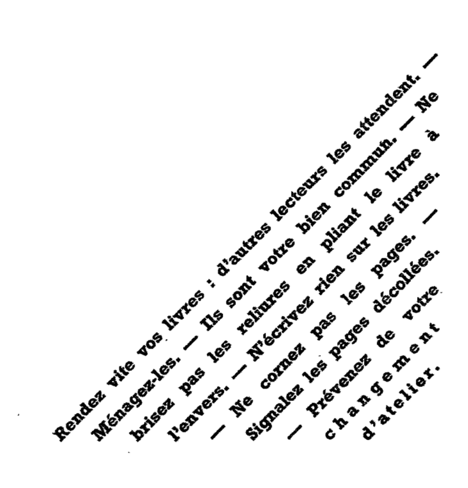

يب محفوظ
السراب
دار القلم

MAH MAHFOUD Najib

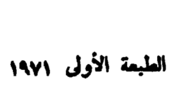
ASSARABE

LE MIRAGE





السراب


الطبعة الأولى ١٩٧١

نجيب محفوظ



دار القلم
بيروت - لبنان

ص . ب ٣٨٧٤
بيروت - لبنان

اني أعجب لما يدعوني للقلم ، فالكتابة فن لم اعرفه لا بالهواية ولا بالمهنة، ويمكن القول بأنه فيما عدا الواجبات المدرسية على عهد صباي، والأعمال المكتبية المتعلقة بوظيفتي ، فانني لم اكتب شيئاً على الاطلاق . والأعجب من هذا اني لا اذكر اني سودت خطاباً أو رسالة طوال الدهر الذي عشته في الدنيا وهو ما ينيف على ربع قرن من الزمان . والحق ان – الرسالة – كالكلام – رمز للحياة الاجتماعية ، وعنوان للوشائج التي تصل ما بين الناس في هذه الحياة ، ولست من ذلك كله في شيء . ألسنا نشذب الأشجار فنبتر ما اعوج من أغصانها وفروعها ؟ فلماذا نبقى على من لا يصلحون للحياة من أفراد الناس ؟!. لماذا نتسامح بل نهمل فنفرضهم على الحياة فرضاً أو نفرض الحياة عليهم كرهاً ؟. لهذا يسعون في الأرض غرباء مذعورين ، وقـــد بلغ الذعر منهم أحياناً ان يخبطوا على وجوههم كالمحمومين فيدوسوا بأقدامهم المتعثرة ضحايا ابرياء .

اقول مرة أخرى انني لا اذكر انني كتبت كتابة تستحق هذا الوصف. كذلك طالما أعياني الحديث وأعجزني، فكنت إذا اضطررت إلى كلام تلعثمت وادركني العي والحصر، ولم يكن الماء في قوة النطق أو ملكة الكتابة ، انه اجل من ذلك وأخطر وان العي والحصر والعجز لأتفه عواقبه على وجه اليقين . ولذلك حق لي أن اتساءل عما يدفعني الآن إلى الكتابة . وليس الأمر قاصراً على رسالة تدون، انه شوط طويل تنقطع دونه الأنفــاس ، واني لأعجب لما يستفزني من نشاط لم أعهده ، وحماس لم آلفه ، حتى ليخيل إليّ اني سأواصل الكتابــة دون تردد أو تعب ، في الليل والنهار ، وبعزيمة لا تعرف الخور ، فلماذا يا ترى هذا العناء كله؟ ألم آو عمري إلى الصمت والكتمان ، ألم تظفر الأسرار مـن صدري بقبر مغلق

تستكن فيه وتموت ؟ ، فما سر هذا الالحاح العنيف ؟ وكيف سللت القلم لأنبش قبراً تراكم عليه ثراء الاخفاء ! . لقد ضاعت الحيـاة ، والقلم ملاذ الضائع ، هذه هي الحقيقة . ان الذين يكتبون هم في العـادة من لا يحيون ، ولا يعني هذا اني كنت أحيا من قبل ، ولكني لم اكن آلو أن ارنو لأمل بسام استضيء بنوره ، وقد خمد هذا النور . ولست اكتب لانسان ، فليس من شأن المرضى بالخجل ان يطلعوا انساناً عـلى ذوات نفوسهم ، ولكني اكتب لنفسي ، ونفسي فحسب ، فطالما داريت همساتها حتى ضللت حقيقتها ، وبت في اشد الحاجة إلى جلاء وجهها المطموس ، في صدق وصراحة وقسوة ، عسى أن يعقب ذلك شفاء غير مقدور . أما محاولة النسيان فلا شفاء يرجى منها. والحق ان النسيان خرافة بارعة وحسبي ما كابدت من خرافات . ولعل في شروعي في الكتابة آية على انني قد عدلت عن فكرة الانتحار نهائياً ، وما كان الانتحار بالجزاء الذي لا يستحقه انسان قضى على نفسين ، بل هو دون ما يستحق بكثير ، ولكن ما حيلتي والحيـاة لا تتورع عن وسيلة في سبيل الدفاع عن نفسها ؟. ولو كان الماضي قطعة من المكان المحسوس لوليت عنـه فراراً ، ولكنه يتبعني كظلي ، ويكون حيثما اكون ، فلا مناص من ان ألقاه وجهاً لوجه بعين غير مختلجة ، وقلب ثابت ، ومهما يكن من أمر فالموت أهون من الخوف من الموت. وانه لعمل فيه سحر ، تستحيل به هذه الصحائف نفساً خالصة بغير حجاب. ولست ادعي العلم ، فما تاصبت شيئاً العداء كالعلم ، واني لفي كسول ، ولكني عانيت تجـــارب مرة زلزلتني زلزالاً ، وليس كالتجارب كاشف عن مطاوي النفوس ، اني لأتلهف على رفع النقاب ، وهتك الأسرار ، لأضع اصبعي على موطن الداء ومكمن الذكريات ومبعث الآلام ، ولعلي بذلك أتفادى نهاية محزنة ، وأنجو من آلام لا قبـل لي بها ، وأتلمس في الظلماء سبيلا . لست في الواقع إلا ضحية ، ولا أقول ذلك تخفيفا من ذنبي ، ولا تهربا من تبعتي ، ولكنه حق وصدق ، فالحق اني ضحية ، إلا أنني ضحية ذات ضحيتين . وأشد ما يحز في نفسي أن إحدى الضحيتين هي أمي !. أفظع بها من حقيقة لا تصدق . كيف ، أنسيت إنها سر حياتي وسعادتي ، وانني لا أحتمل الحياة بدونها ! ولكني كنت أحيا على حافة عالم الجنون ، وهكذا فقدت كل شيء ، ووجدت نفسي في خلاء مظلم مخيف . إني رجل مؤمن عميق

الايمان ، وأعلم علم اليقين إني سأبعث حيا في اليوم الموعود ، ولست أخشى آلام ذلك اليوم وأهواله – اذا تجردت أمام الله بما في يميني وبما في شمالي – قدر ما أخشى أن أبعث على الحال التي عانيتها في دنياي . أروم بعثا جديدا حقا ، ويومذاك تصبح آلامي لا شيء ، يطويها الفناء إلى الأبد ، فيمكنني لقاء احبائي بقلب صاف ونفس نقية طاهرة .

كانت أمي وحياتي شيئاً واحداً ، وقد ختمت حياة أمي في هذه الدنيا ، ولكنها لا تزال كامنة في أعماق حياتي ، مستمرة باستمرارها . لا أكاد أذكر وجها من وجوه حياتي حتى يتراءى لي وجهها الجميل الحنون ، فهي دائماً أبداً وراء آمالي وآلامي ، ووراء حبي وكراهيتي ، أسعدتني فوق ما اطمع ، واشقتني فوق ما أتصور ، وكأني لم احب أكثر منها ، وكأني لم أكره اكثر منها ، فهي حياتي جميعاً ، وهل وراء الحب والكراهية من شيء في حياة الانسان ؟!. فلأعترف بأني اكتب لأذكرها هي ، ولأستعيد حياتها هي ، بذلك تعود الحياة كلها . وبذلك أصل ما انقطع من حبل حياتي ، لعل الأمل ان يتجدد في النجاة . يبدو لي كل شيء الساعة غامضاً متوارياً ، كأن الشيطان يذر في عيني رماداً ، ولكن مهلا اني أتلمس سبيلي في صبر واناة ، ورائدي امل الغريق في النجاة ، ومن ورائي نية صادقة في تجديد حياتي وبعثها خلقاً جديداً ، ولئن شق علي الطريق أو تولاني القنوط ، او خذلني حناني ، فلن يبقى امامي إلا الموت ...

* * *

ما جزاء الميت – عندنا معشر الأحياء – اذا واراه التراب ؟.. أن نفرّ من ذكراه كما نفرّ من الموت نفسه !. ولعل في هذا حكمة غالية ، ولكن انانيتنا تأبى إلا ان تضفي على هذه الحكمة أسفا حانقا مضحكا . ولقد فررت من بيتنا مولياً كل شيء ظهري كالخائف المذعور ، ثم مضيت اثوب الى رشدي في هدوء نسبي ، وادرك هول الخطب الذي نزل بي ، ففاض بي حنين موجع ، وفزعت يدي الى خزانة الذكريات فاستخرجت كل ما بقي منها ، الا وهي صورة !.

هي صورة كبيرة ، يظهر فيها جدي جالساً على مقعد كبير ، بجسمه الضخم

وكرشه الكبيرة ، وشاربه الأبيض كأنه هلال فوق فيه ، في بذلته العسكرية المحلاة بالنياشين ، وأقف انا عند ركبتيه لا أكاد اجاوزهما إلا قليلا ، أتطلع الى عدسة المصور بعينين باسمتين وقد التصقت شفتاي في توتر من يغالب ضحكة تغالبه . ووقفت أمي إلى يمين جدي معتمدة بساعدها اليسرى مسند الكرسي الكبير ، في فستان طويل يشتمل عليها من العنق الى القدمين ، ولا ينحسر من ساعديها الا عن اليدين ، بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حالمة تقطر حناناً ولا تخلو من بريق ينم عن الحيوية وحدّة المزاج . يا له من وجه شاء الرحمن ان يكرره في وجهي حتى لقد قيل انه لا يفرق بيننا إلا الشباب !. هذه صورة تطل علي من عالم الذكريات. ولقد ثبت عيني الملتهبتين على الوجه المحبوب طويلا حتى لم أعد ارى شيئاً سواه . كبرت قسماته في عيني حتى خلتني روحاً صغيرا يعيش في احضانها ، واشتد ما يحيط بي من صمت فيهيأ لي أن هذا الفم المطبق سيفتر باسماً ويسمعني من عذب الحديث ما العهد به غير بعيد . ان الصورة شيء عجيب فكيف غابت عني هذه الحقيقة ؟. هذه أمي بجسمها وروحها ، هذه أمي بعينيها وانفها وفمها ، وهذا الصدر الحنون الذي التصقت به عمري . رباه .. كيف اقتنع بأنها رحلت عن الدنيا حقاً ؟!. اجل ان الصورة شيء عجيب ، ويبدو لي الآن أن كل شيء عجيب في هذه الدنيا ، وقاتل الله العادة فهي التي تقتل روح العجب والإعجاب فينا . كانت هذه الصورة معلقة بحيث تراها العين في كل حين ، بيد أني أراها الآن شيئاً جديداً ، اطالع في صفحتها حياة عميقة كأن نفحة من الروح الطليق قد استكنت بها ، وأرى في هاتين العينين نظرة شاردة تبعث الألم . ان هذه الصورة حية بلا ريب ، ولن استرد بصري منها ولو جننت . عكفت عليها طويلا ، بلا ريب ، ثم تملكتني رغبة قوية في تخيل حياة صاحبتها في جميع اطوارها من المهد إلى اللحد . تخيلتها طفلة تحبو ، وصبية تلهو بعرائسها . إلا ليتهـا خلفت لي صوراً استعيد بها احلام طفولتها السعيدة ! ثم تخيلت عهد الشباب الرطيب ، وهي غادة حسناء ترنو بطرفها الساجي الى الأمل والسرور وتلهو بلذة الفتوة المشبوبة ، لقد عاصرت عهده الحلو ، وكنت ثمرة لخصبه ونضارته ،

ومع ذلك فقد ضاعت معالمه وولت آثاره . غشيه الظلام كأنني لم أرتع حضنه وأرضع ثديه . وكنت اذا تخيلته فيا مضى من أيامي تخيلته في حيرة وقلق ، وساءلت نفسي في خجل واستياء ألم تنبض بدمه الحار تلك الرغبات الجامحة التي تستأثر الشباب ؟!. ولعل عاطفتي الغامضة تلك هي التي دفعتني في صباي إلى تمزيق الاثر الباقي لهذا الشباب الأول . فقد دخلت حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدت أمي منكبة على درج مفتوح في صوان الملابس تنظر في شيء بين يديها ، فاقتربت منها في خفة تحدوني شطارة الغلمان المدللين ، وأدخلت رأسي ذراعها المبسوطة ، فرأيتها ممسكة بصورة عرسها ! وبادرت تحاول ارجاعها إلى مخبئها ، ولكني امسكت بها في عناد ، وحملقت فيها بدهشة ، فرأيت شاباً جالساً وأمي واقفة مستندة إلى كرسيه كالوردة الناضرة. وتعلقت عيناي بصورة الرجل فأدركت انه أبي ، وان كنت اراه أول مرة ، بل اراه بعد ان امتلأ الفؤاد له خوفاً وكراهية ، وارتعشت يداي ، واتسعت عيناي انزعاجاً ، ثم لم أدر الا ويداي تمزقانها أرباً ، ومدت لي يداً تحاول استنقاذها ، ولكني تغلبت عليها في حنق وهياج، فلبثت صامتة وقد لاح في عينيها الصافيتين الحزن والأسف وكأنني لم اقنع بما فعلت فتصديت لها غاضباً وسألتها بلهجة تنم عن الاحتجاج: علام تأسفين ؟!. فبسطت اسارير وجهها بشيء من الجهد وقالت: يالك من طفل مشاكس !.. الا ترى اني آسف على صورة شبابي ؟.. لقد مزقت صورة امك وانت لا تدري . وكانت ذكرى تلك الحادثة تعاودني في فترات متباعدة فتحز في نفسي ، وتملأني حيرة وقلقاً ، فأمضي متسائلاً عما دهاها حقاً إلى الاحتفاظ بتلك الصورة ولماذا أحزنها تمزيقها ؟ ، ثم احاول ان انفذ بخيالي إلى ما فاتني من حياتها ، فأنقلب متفكراً مغتماً .. هكذا فقدت صورة الشباب الأول ، وانني لآسف على فقدانها — الآن — أسفاً خالصاً ، ولكن أليس ذلك أسفاً مضحكاً بعد أن امتدت يدي إلى صاحبة الصورة نفسها فقضت عليها ؟!.

* * *

ولم أكن الحظ العاثر الوحيد الذي ابتليت به حياتها . روت لي يوماً قصة زواجها ، في حذر وحرص شديدين ، خاصة وهي تسرد الذكريات الباسمة على ندرتها ، فكانت تذكرها في عجلة واقتضاب وتحرج ، وكأنها في أعماقها تخشاني،

أو كأنها اشفقت مني أن تخفف لطافة الذكرى من حدة كراهيتي لأبي .

على جسر اسماعيل رآها أبي اول مرة ا. وكان « الحنطور » ينطلق بأمي وجدتي في بعض الأصائل للتنزه والفرجة ، ففي مرة مرّ بها « حنطور » يتربع بصدره شاب مزهو بشبابه وثرائه أو على الأصح بما ينتظره من ثراء ، فوقع بصره على وجهها ، وسرعان ما وجه عربته في أعقابها حتى بيتنا في المنيل . وكانا كلما غادرا البيت صادفاه في الطريق وكأنه ينتظر . ولم أدع هذا الفصل من القصة يمر بي دون ملاحظة ، فسألتها عن الغزل في تلك الأيام وكيف كان ، وتلقت سؤالي بريبة وحذر ، ولكنني ما زلت بها حتى استنامت إليّ ، فاستسلمت لرقة من الذكريات . وقالت انه كان يبعث اليها بنظرات تومض بالابتسام ، أو يلتفت نحوها باهتمام وهو يفتل شاربه الغزير الأسود، بيد انه لم يتعد حدود الأدب قط . وتفكرت ملياً ، وتهت في بيداء الخيال الحالم ، فعانيت احاسيس الدهشة والحيرة والضيق ، ثم رفعت اليها عيني – ولم يكن لنا من سلوى في تلك الأيام الا مواصلة الحديث – وسألتها مبتسماً عن كيف كانت تلقى تلك المقدمات الغزلية. ولم يخف عنها ما في سؤالي من خبث فتضاحكت، وكانت إذا ضحكت اهتز جسمها من الرأس إلى القدم ، وقالت انها كانت تتجاهله بطبيعة الحال ، وتنظر فيما أمامها دون أن تلوي على شيء ، وتظل على حالها كأنها تمثال ذو برقع أبيض !. وداخلني شك ، وقلت اني اسألها عن الباطن لا الظاهر ، عن القلب لا الوجه ، ونازعتني النفس إلى مصارحتها بما يدور في خلدي ، ولكن خانتني الشجاعة ، وعقلني الحياء ، ولو رجعت إلى قلبي لعرفت الجواب ، فهذا القلب من ذاك ، يجري بهما دم واحد ، ويسجعان عن خفقان واحد ، فهل أنسى اني وقفت كثيراً كمثل التمثال والقلب شعلة نار ؟!.

وتقدم الشاب يطلب يدها ، لم يكن ذا عمل ولا علم ، بل ولا مال حتى ذلك الوقت ، ولكنه كان احد ابنين لرجل من كبار الموسرين . ولما علم جدي بموافقة الأب واستعداده لتكفل ابنه وأسرته ، سر بالخطبة سروراً لا من مزيد عليه . وفرح بجاه الأسرة العريق . قيل له انه جاهل جهل العوام ، فقال وما حاجته إلى العلم ؟ وقيل له انه بلا عمل ، فقال وما حاجته إلى العمل؟ بل قيل له صراحة انه شاب ذو اهواء جامحة وانه سكير عربيد ، فقال انه يعلم انه شاب وليس

براهب . ولم يكن جدي طماعـــاً جشعاً ، ولكنه كان يروم السعادة لابنته . ويحسب ان المال كفيل بتحقيق تلك السعادة ، هـذا إلى تأثر باسم الاسرة التي تود مصاهرته ، واطمئنان إلى سمعتها الكريمة ، وفضلاً عن ذلك كله فهو نفسه لم يكن حصل على الابتدائية ، ولم يكن يخلو من ميل للشراب والمقامرة . وبذلك صارت كريمته حرماً لرؤبة لاظ أو لرؤبة بك لاظ كما كان يدعى ، وظل جدي انه فرغ من الواجبات الملقاة على عاتقه بتزويجه اصغر كريمتيه . ولكن ما كاد ينقضي اسبوعان على ليلة الزفاف حتى عادت أمي إلى بيت جدتي دامعة العينين كسيرة الفؤاد وانزعج جدي انزعاجاً شديداً ، ولم يكن يصدق عينيه ، ثم علم ان الشاب قد عاود سيرته الماضية في الحانات ولم يمض الاسبوع الأول من زواجه ، وانه كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس ، وانه اوسعها ضربا في ذلك اليوم الذي غادرت فيه قصره . واستفظع جدي الأمر ، وكان على تربيته العسكرية الصارمة رقيق القلب ، ويحدب على أبنتيه حدبا عظيما ، فغضب غضباً شديداً ، ومضى لتوه الى قصر لاظ ، وصب جام غضبه على الشاب وابيه معاً ، ولبثت امي في بيت جدي حتى وضعت أختي الكبرى . وسعى نفر من اصدقاء الطرفين الى إصلاح ذات البين ، ووصل مـا انقطع من حيـاة الزوجية ، وكلل مسعاهم بالنجاح فرجعت امي وطفلتها الى قصر لاظ مرة اخرى . وامتد مكثها به شهرين ، ثم نفد صبرها فهجرته الى بيت جدي مهيضة الجناح . والحق انها لم تذق الراحة إلا اياماً معدودات ، ولكنها تصبرت وتجلدت عسى ان تصلح الأيام ما فسد من حاله ، فلم يكن يزداد إلا فساداً ، ولم تعد ترى فيه إلا سكيراً عربيداً لا يرعى لشيء حرمة ، فأيست منه ، ولاذت ببيت ابيها . وسعى الرجـل الى استردادها ، مقراً بادمانه الشراب ، محاولا إقناع جدي بأنـه من الممكن ان تستقيم الحياة الزوجية مـع ادمان الشراب ، ولكن جدي وقف منه موقفاً صلباً فطلقها ، ومرت اشهر فوضعت امي اخي الأوسط ، وعاشت في كنف ابيها متمتعة بعطفه وحنانه . ثم ترامت اليهم انباء غريبة عن رؤبة لاظ تقول ان الفتى الطائش قد حاول في ساعة نزق وجزع ان يدس السم لأبيه متعجلا حظه من الميراث ، ولكن الأب اكتشف الجريمة بوساطة الطباخ ، فطرد ابنه من قصره ، ووقف نصف ثروته لجهة خير ، ووقف النصف الآخر على الابن

الأكبر ، ولعله لم يشأ ان يوقفها كلها للأخ الأكبر حتى لا يوغر صدر ابنه الشرير عليه فيعرضه بذلك لأذاه . واستيقظ رؤبة لاظ بعد حلم طويل بالثروة الواسعة على فقر نسبي ، فلم يعد يملك من حطام الدنيا إلا ريع وقف ورثه في ذلك الوقت عن امه – وهي غير ام أخيه – يقارب الأربعين جنيها شهريا . وبيتا ذي طابقين في الحلمية انتقل اليه بعـــد طرده من قصر لاظ . وأثارت تلك الأنباء شجناً في بيت جدي صفقت له ضلوع الذين يشفقون على مستقبل الوليدين الصغيرين، فقد تضاءلت نفقتها ، وتجهم مستقبلها. وتشاور جدي وجدتي وأمي في الأمر ، وانتهى بهم تبادل الرأي إلى أن يقابل جدي لاظ الكبير ، وان يستعطف قلبه للوليدين البريئين حتى يغير وصيته لصالحهما ، ومضى جدي إلى قصر لاظ ، وحادث الرجل فيما جاء من أجله ، ولكنه وجد منه قلبـاً قاسياً وأذناً صماء ، ولعن بمحضره الابن وذريته ، فعاد جدي محزوناً ثائراً .

وكان من سخرية الاقدار أن مات لاظ بك في نفس العام الذي سعى ابنه فيه إلى القضاء عليه . وانقضى من الدهر سبعة أعوام فبلغت اختي راضية الثامنة وبلغ اخي مدحت السابعة أو نحو ذلك . وفي ذاك التاريخ حدث ما غير مجرى حياة أسرتنا الهادىء . وشاءت الأقدار أن يتم ذاك التغير بحادثة تافهة مما يعرض في الطرق ، إذ كان جدي يغادر نادياً للقمار بشارع عماد الدين قبيل الفجر بقليل فرأى نفراً من السوقة يلتفون بأفندي ويوسعونه ضرباً وهو يتخبط بينهم هائجاً مترنحاً ، فبادرهم هاتفاً ان يكفوا عنه ، ومضى صوبهم غاضباً ، ثم لحق به شرطي على الأثر . وما كاد النفر يتفرقون حتى رأى جدي رؤبة لاظ في حالة سكر بين هؤلاء وقد سال الدم من أنفه . ودهش جدي وتولاه الارتباك من وقع الدهشة ، ولكنه تقدم من الرجل دون تردد وسنده بذراعه وهو يوشك أن يقع. كان ما مضى قد سحب النسيان عليه ذيوله أو كاد ، وكان الرجل من الناحية الأخرى يوالي ارسال النفقة لوليديه على استهتاره وعربدته ، فلم يكن بين الرجلين عداء ، ودعاه جدي إلى « حنطوره » فأطاع ، وأمر جدي السائق بالذهاب إلى الحلمية ، وخيم عليهما في الطريق صمت عجيب ، فلم ينبس احدهما بكلمة ، ولما بلغت العربة البيت أوسع له جدي لينزل ولكنه أمسك بذراع الرجل ودعاه إلى بيته . واعتذر جدي بتأخر الوقت ولكن الآخر لم يقبل اعتذاره وأبى إلا ان ينزل معه وكان ما يزال ثملا مخموراً

فأذعن جدي على رغمه ، فمضيا معاً إلى حجرة الاستقبال وخيوط الفجر الزرقاء تنشب في الظلماء. وارتمى رؤبة لاظ على مقعد وجذب جدي فأجلسه على مقعد قريب ، وسرعان ما ولى عنه سكوته فغلبه الانفعال والتأثر وراح يقول بلسان ثقيـــل حلت الخمر والانفعال عقدته « أرايت الأوباش كيف انهالوا علي لكماً وصفعاً ؟!.. أرأيت إلى الاهانة البالغة تنزل بكرامتي ، وأنا رؤبـــة بن لاظ ، ربيب القصر العتيق ؟!.. هذه هي الدنيا يا عماه .. وما بالي أدعوك بعمي ؟ لقد جاوزت الأربعين ولم تعد أنت الحسين إلا بقليل ، فما احراني ان أدعوك بأخي ، ولكني ادعوك عمي احتراماً واجــــلالا ، فانك بمنزلة أبي .. استغفر الله ، انت أعظم من ذلك وأجل ، لا تؤاخذني بما انطق من لفظ ، واللفظ شيء تافه ، أما ركلي بأقدام الأوباش فشيء خطير ، اليس كذلك ؟!.. لقد مات أبي غاضباً علي ويقولون انه لا يظفر بالسعادة من حرم رضاء الوالدين ، أحقاً هذا يا عماه ؟!.. حتى ولو كان أحد الوالدين أبي ؟!.. رباه ، لقد سئمت هذه الحيـــاة ، انها حمى وهذيان وجنون متواصل ، لشد ما تتوق نفسي إلى الهدوء والطمأنينة ، اليس هذا هو الندم ؟!.. امدد إليّ يدك يا عماه ، ونقسم معـــاً بهذا الفجر الطالع ان نبدأ حياة جديدة لا أثم فيها ولا فجور ، رد إلي زوجي وطفلي واسكني وأسرتي .. هلم .. واشتد احمرار عينيه حتى ظنه جدي باكياً ، ولم يجد بدأ من ان يطيب خاطره . وعندما انطلق به الحنطور صوب المنيــــل وقد تحرك سطح الأرض رويداً بالافواج الأولى من الساعين إلى الرزق ، اغمض عينيه في ارتياح ،وتفكر في الأمر ملياً ، وكان يود دائماً ان يرى ابنته سيدة لبيت يخصها . وفي نفس الشهر ردت أمي إلى زوجها السابق واجتمع شمل الأسرة . ولكن لم تدم هذه الحياة الجديدة الا أسبوعين !. بل لعلها لم تدم إلا يوما واحداً ، وتحملت أمي بقيتها صابرة متصبرة حتى أقضها الاشفاق على طفليها من شر السكير العربيـــد ، فحملتهما وفرت الى جدي المسكين . وثار الرجل ثورة عنيفة ، ومضى لتوه الى التائب الزائف وانهال عليه تعنيفاً وتقريعاً وازدراء ، واستمع الآخر اليه صامتاً ثم قال له ان زوجه هي الملومـــة لأنها لا تود العيش معه وانه لا ذنب له الا انه يسكر !. وغادره جدي يائساً وبيده شهادة الطلاق . انقطعت حياة الزوجيــة إلى الأبد ، وكنت أنا ثمرة تلك التوبة الكاذبة !.

وقد سمعت جدي يمازحني يوماً فيقول لي : « لقد جئت إلى هذه الدنيا نتيجة لحماقتي انا دون سواي .. » . ولكن ما أكثر الذين جاءوا هذه الدنيا في أعقاب الحماقات . ونشأت في بيت جدي ، فلم اعرف بيتاً سواه ، بل لم أعرف من الأهل غير جدي وأمي ، لأني حين أخذت اعي ما حولي كان أبي قد استرد أخي واختي ، وكانت جدتي قد ماتت . ولم أعرف أن لي رباً إلا بلسان أمي ، وحديثها المفعم مرارة وحزناً ، فنمت كراهيتي له على الأيام . وقد أتم الرجل قسوته عليها فلم يكتف باسترداد ابنه وابنته ، ولكنه حال بينها وبين رؤية امها ، فمرت الأعوام تلو الاعوام وهي لا ترى لها أثراً . وترامت الأخبار الينا تقول ان الرجل يكاد يحبس نفسه دون العالم كله ، فاراً من الدنيا وما فيها بسكر متواصل لا يفيق منه نهاراً ولا ليلاً ..

* * *

كان بيت جدي بالمنيل مولدي وملعبي ودنياي . وكان يتكون من دورين كبيرين نقيم في الأعلى منهما ، وله فناء صغير . لست أريد التحدث عن البيت ، ولكني أتلهف على إستعادة الماضي ، وما مـن ماض إلا وله بيت تحوم حوله ذكرياته . إن حيـاتي لا تنفصل عن ذاك البيت أبدا ، ولن تنفصل عنه مـا حييت ، وما البيت ببناء وعمارة وهندسة ، ولكنه برج ثابت في الزمان يأوى اليه حمام الذكريات ، الساجع بالحنـين إلى ما انقضى من أعمارنا ، فلأنقب في غيابات الماضي عن أقصى ما يستطيع أن يستقبله رأسي من موجات الذكريات ، إني أغمض عيني متواريا عن عالم المحسوس ، كي اهيىء لروحي سكينة تنطلق فيها الى الماضي الخالد . ولأعترف أني شديد الحنين إلى الماضي ، وقـد بت في هذه الفـترة الأخيرة أشد ما أكون حنانا إليه ، ولعل ذلك مني ليس إلا توقا صريحاً إلى الطفولة ، وإني لأدرك ما في هذا الحنين والتوق من خطورة هي سر دائي الأسيف في الحياة ، ومـــع انني عشت حياتي متطلعا إلى ذلك الماضي – راضياً أو ساخطاً – شديد الشعور بما يشدني إليه من رباط وثيق ، إلا أنني أقف عاجزاً حيال سجفه الكثيفة ، ترتد ذاكرتي حسيرة عـن أرق عهوده وأخطرهـا . ها أنا أغمض عيني في تشوف وتساؤل ، فيعشو بصري إلى نور خافت ، أرى يدي الصغيرة وهي تمد إلى القمر من على كتف أمي . يا لها من

ذكرى !. ولكم تمتد أيدينا إلى أقمار ليست دون ذلك القمر منالا . وتعاودني ذكرى جهد مضن بذلته كي أزدرد حلمة الثدى فيصدني شيء مر مذاقه . وشارب جدي الهلالي وأناملي تشده في سرور لا مزيد عليه . وتحطيم أصيص الزهور ، وكيف هوت احداها مرة من حافة الشرفة على ذراع البواب النوبي فكادت تكسرها . وكان من عادتي إلا أستسلم للنوم حتى امتطى منكب أمي فتذهب بي وتجيء بطول البيت وعرضه ، وكلما توانت حثثتها بقدمي . وكنت أرفل دائماً في فساتين البنات ، وشعري مسدل حتى المنكبين . وقد بدا لأمي يوماً أن تهيء لي بذلة عسكرية محلاة بالنجوم والنياشين ، فارتديتها مسروراً ، وقطعت البيت في عجب وخيلاء ، ضابطاً عظيماً ذا ضفيرة تتهادى على ظهره !. ولم يكن جدي يرتاح إلى ذلك التدليل المفرط . ولكنه لم يجد من وقته متسعاً للاشراف على تربيتي ، إذ كان يغادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادي القمار إلا قبيل الفجر . وكان من ناحية أخرى يشفق من تكدير أمي لسوء طالعها ، ولأنه لم يبق له في شيخوخته سواها . عشنا ثلاثتنا وليس للاب الا ابنته وليس للام إلا ابنها . وكانت امي تهفو لذكريات اختي وأخي بعين دامعة وفؤاد كسير ، وتتلهف على رؤيتها ولو ساعة واحدة ، ولم تجد في حزنها من عزاء سواي ، فأودعتني حضنها ، لا تحب ان أبرحه ، وتود لو اجعل منه مرتعي ومراحي ودنياي جميعاً . وهفت نسائم الحياة رخاء ، فلم ادرك إلا بعد فوات الوقت انه كان حنانا شاذا قد جاوز حده ، ومن الحنان ما يهلك . كانت مصابة في صميم امومتها فوجدت فيّ اناً السلوى والعزاء والشفاء ، كرست حياتها جميعاً لي ، أنام في حضنها ، واقضي نهاري على كتفها او بين يديها ، وحتى في الاويقات التي كانت تتعهد فيها شئون البيت لم اكن افارقها ، او لم تكن تدعني افارقها ، وحتى في المطبخ كنت امتطي منكبها مفترشا راسها بخدي متسلياً بمشاهدة الطاهي وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويخرط البصل ، بل كنا نستحم معاً فتحطني في طشت عاريا وتجلس امامي متجردة فأرشها بالماء واقبض على رغوة الصابون النافشة على جسدها فأدلك به جسدي ، ولم نكن نغادر البيت إلا قليلاً ، فصلتنا بآل أبي مقطوعة ، وخالتي كانت تقيم في ذلك الوقت بالمنصورة مع زوجها ، فاذا خرجت في النادر لزيارة إحدى الجارات اصطحبتني معها . على

اننا كنا نواظب على زيارة السيدة زينب ، ولعلها الزيارة الوحيدة التي كنا ننتظرها بفارغ صبر. ولم يكن يسيئها شيء مثل ان تثني على امرأة من معارفها بما يثني به على الأطفال عادة ، فكانت تتطير من الثناء وترقيني من العين في إشفاق عميق ، ومن عجب اني لا اذكر التماويذ والرقي باستهانة او ازدراء ، واني لمؤمن بها ، بل اني لأومن بكل ما كانت تؤمن به امي . وقد نلت من الثقافه حظاً ، وحصلت على البكالوريا ، ولكن بقي لي إيماني القديم سالماً غير منقوص ، وهيهات ان يتزعزع ايماني بالله ورسله واوليائه والدعوات والتماويذ والأضرحة .

بيد انني لا استطيع ان اقول انني استكنت إلى تلك الحياة بلا تملل . ولعلي ضقت بهـــا في احايين كثيرة ، وتطلعت إلى الحرية والانطلاق . ولعل ضيقي ذاك مضي يزداد بتــدرجي في مدارج النمو ، وآي ذلك انهـــا اقبلت تخوفني اشياء لا حصر لهـــا لتردني عما اتطلع اليه من حرية وانطلاق . ولتحتظ بي في حضنها على الدوام . ملأت اذني بقصص العفاريت والأشباح والأرواح والجان والقتلة واللصوص ، حتى خلتني اسكن عالماً حافلاً بالشياطين والأرهاب ، كل ما به من كائنات خليق بالحذر والخوف. ذاك عهد بعيد ، ولكنه لا يزال حياً في صدري ودمي ، وهو الذي جعـــل من الخوف جوهراً اصيلاً في نفسي تدور حوله حياتي جميعاً ، فنغص علي صفوي ، ورماني بتعاسة لا تريم ، وما انا إلا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعراً ؛ واخاف الناس ، واخاف الحيوان والحشرات ، وافرق من الظلام ومـــا يرصدني من اوهامه ، واتحامي جهدي ان انفرد بقط ، وهيهات ان انام في حجرة بمفردي. على ان الخوف كان اعمق في حياتي من هذه الأشياء التي يتمثل لي فيها ، لقـــد استطال ظله الكثيف حتى اظل الماضي والحاضر والمستقبل ، واليقظـــة والنوم ، واسلوب الحياة وفلسفتها ، والصحة والمرض ، والحب والكراهية ، فلم يترك شيئاً خالصاً . وقد عشت جل حياتي الماضية غراً جاهلاً لا ادري لتعاستي سبباً ، ثم جلت لي المحن جوانب من حياتي ، هاتكة بقسوتها ما استتر من الخفايا الأسيفة ، بيد ان شعوري بالعجز لا يفارقني ، وهو يستند في الحق إلى قصور ثقافتي وضعف ثقتي في قواي العقلية . كانت امي مبعث هـــذه الآلام ولكنها كانت كذلك الملاذ الوحيد منها ، فآويت اليها في غير حيطة ...

ومن ذكريات ذلك العهد التي لا تنسى ، موقفنا — انا وامي — على قبر جدتي في المواسم نكلله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترحمين. وكنا نتحدث كثيراً عن القبور وأهل القبور ، وكيف يرقدون ، وكيف يستقبلون ، ومـــاذا يلقون من شدة وحساب ، وكيف تنزل عليهم الآيات نورا ، يذهب وحشتهم ويلطف جفونهم ، ولما كان القبر قبر أم أمي فقد احببته حباً جما . وكنت اذا وجدت منهـا غرة هرعت إلى جانب منه ، انشب في ثراه اظافري ، وأحفر في عجلة لعلي اطلع على ذاك المجهول المنطوي تحت الأرض . ولشد ما كان يحز في نفسي ان اسمعها تردد : « انا لله وانا اليه راجعون » أو « آخرتنا التراب » أو « الموت نهاية كل حي » فسألتها مرة في دهشة : سنموت جميعاً ؟!.

فساءها السؤال ، وحاولت ان تلهيني عنه ، ولكنني وقفت عنده لا اتزحزح فقالت : بعد عمر طويل ان شاء الله .

فرمقتها باشفاق وسألتها مرة أخرى :

— وانت يا أمياه !..

فقالت لي وهي تداري ابتسامة :

— طبعاً ، سأموت يوماً ما ..

فوقع من نفسي موقعاً أليماً وهتفت بها :

— كلا .. كلا .. لن تموتي أبداً ..

وربتت على رأسي بحنان وقالت برقة :

— ادع لي بطول العمر ، كما ادعو لك يستجب لك الرحمن الرحيم .

وبسطت كفي الصغيرتين ودعوت الله من أعماق قلبي ، وعيناي مغرورقتان بالدموع .

* * *

أأظل الدهر في حجرها كأنني عضو من أعضاء جسدها ؟!

جاوزت الرابعة من عمري ، وجاء سن الرفاق واللعب . ولم يكن لي من مهرب في البيت إلا الشرفة ، وهي تطل على فناء البيت ، وتشرف على الطريق. وكان اطفال الاسرة التي تسكن الدور الاول يلعبون في الفنـاء ، فجعلت انظر اليهم بعينين مشوقتين ، فيتطلعون أحياناً بأعين قرأت فيها دعوة صامتة اهتزت لها

جوانحي ، واستأذنت أمي يوماً في الانضمام اليهم ، فقالت لي بارتياع : ماذا حدث لعقلك ؟.. ألا ترى انهم لا يكفون عن العراك ؟!.. ما عسى أن أفعل لو ضربوك أو جرحوك ؟. أو خرجوا بك إلى طريق لا تنقطع به العربات ؟.. بل ماذا تفيد منهم إلا الشقاوة وسوء الأدب ؟.. أمـــا انا فأقص عليك القصص ، وإذا شئت خرجنا معاً لزيارة السيدة . إذا كنت تحبني حقاً فلا تفارقني .

ولاح في وجهي التذمر والامتعاض فاستطردت تقول :

– لقد حرمت رؤية اختـك وأخيك ، ولم يبق لي في الدنيا سواك ، وها أنت تود فراقي ، سامحك الله ..

فتوددت اليها قائلا :

– اني أحبك أكثر من أي شيء في الدنيا ، ولكني أريد ان ألعب..

ولكنها لم تكن لتذعن لرغبتي تلك ، وكنت إذا ضقت باصرارها بكيت أو ثار بي الغضب ثورة لا أعف فيها عن شد شعري وتمزيق ثيابي ، ولكن شيئاً لم يكن ليجعلها تذعن لرغبتي في الابتعاد عنها . وفيما عــدا ذلك لم تدخر وسعاً لمرضاتي . كانت تبتاع لي اللعب أشكالا والوانا . واذا لمست ضيقي ومللي دعت بطفل من أطفال الجـيران ليشاركني لهوي تحت سمعها وبصرها . بيد أن ذلك كله لم يرو غلتي ، فتحينت منها غفلة يوماً وانسللت هارباً من الشقة أكاد اخرج من جلدي فرحاً ، واستقبلني الأطفال في الفناء بدهشة وترحاب معاً . ومع انــه كان بيننا شبه تعارف إلا انه لم يسعني الاقتراب منهم ، فوقفت مكاني في ارتباك وحياء . وسرعان ما أطلت أمي من الشرفة ونادتني في حــدة الغضب ، ولكن أكبر الأطفال تقدم مني ، ودعــاني إلى اللعب ، وهو يقول لي : « لا تأبه ! » ولأول مرة لم أبال لصوتها ، فاندفعت إلى حلقة اللعب ، واخذت مكاني في سرور لا يوصف ، ولم تكد تمر دقــائق حتى حصل خلاف بيني وبين احدهم فلطمني على وجهي ، وذهلت ذهولاً شديداً فلعلها كانت أول لطمة تلقيتها في حياتي ، وارتميت على ساعده وغرست فيه اسناني ، ولم يتردد رفاقه فانهالوا علي ضرباً وركلا ، وتوعدتهم أمي في غضب شديد ، ولكنهم لم يقلعوا عني حتى هددتهم بقذفهـــم بالقلة ، فغادروني في حالة يرثى لها . ودعتني للصعود اليهـــا ، وكنت ألهث والدموع ملء عيني ، فقهرني الحياء وتسمرت قدماي فلم ألب نداءها ، ولم أرفع

بصري عن الأرض ، ولم أفارق موقفي حتى جاء البواب فحملني اليها . وغسلت لي وجهي وساقي وهي تقول في انفعال شديد :

– تستاهل .. تستاهل .. هذا جزاء من يخالف رأي أمه . ان الله يغفر كل شيء إلا من يعاند أمه ، فلن يغفر له . هـذا هو اللعب مع الأطفال ، فكيف وجدته ؟!.

آلمتني هزيمتي أمامها أضعاف ما آلمني الضرب ، ورحت أؤكد لها كذباً أن الحق كان عليّ ، واني كنت المعتدي . ومن عجب ان أمي نفسها لم تكن تكثر من الاختلاط بالناس ، فلم يألف بيتنا الضيوف إلا فيما ندر . وكان جدي يضيق بعزلتها ، ويحثها دائماً على المعاشرة لتسري عن نفسها . ثم شاء الله أن يؤنس وحشتنا ، فحلت خالتي ضيفة ببيتنا هي وأسرتها ! . كانت خالتي تقيم مع زوجها – مدرس لغة عربية – بالمنصورة ، فانتقلوا إلى القاهرة ليقضوا بيننا شهراً من العطلة الصيفية . وجدت نفسي بين ستة من الأولاد وبنت ، فأفلت الزمام من يد أمي على رغمها . وكان اكبر الأولاد في العاشرة ، وأصغرهم يحبو ، فانقلب البيت الهادىء سركاً تقفز به القرود والنسانيس ، فلعبت – ولهوت حتى كدت اجن من الفرح والسرور . لعبنا الجديد والحجلة ، والوابور ، والاستغماية .

ولما ضقنا بالبيت انطلقنا إلى الطريق وأنا لا اكاد اصدق . وارادت أمي أن تحول بيني وبين الانطلاق معهم ، ولكن خالتي تصدت لها قائلة :

– دعيه يلعب مع الأولاد يا اختي .. لو كان بنتاً ما جاز لك أن تحجبيه قبل الأوان !.

كانت الشقيقتان مختلفتين في المزاج على تقاربهما في الشبه ، كانت خالتي مفرطة في السمنة ، ميالة للمرح والمزاح ، لا تكرب نفسها بالقلق على ابنائها بغير داع . وكانت اذا غادر جدي البيت غنت بصوت لطيف محاكيه « منيرة المهدية » . أما أمي فتبدو على العكس من هذا كله ، فهي نحيفة ، منزوية ، كثيرة المخاوف والقلق ، مفرطة في الحنان لحد الشذوذ . وقد أرهقت ظروف حياتها أعصابها ، فكانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تلفهـا كآبة شاملة . ولعلها لم ترتح كل الارتياح لاقامة شقيقتها بيننا ذلك الشهر ، لا لفتور في عواطفها نحوها ، ولكن لأن أبناءها استأثروا بي من دونها ، وأفسدوني عليها . وشكت مرة إلى خالتي

ما تخافه علي من حوادث الطريق ، فضحكت المرأة باستهانة وقالت لها بلهجة لم تخل من لوم :

– « هل ابنك من لحم ودم وأبنائي من حديد ! .. قوي قلبك وتوكلي على الله ! » . أما أنا فقد نسيت في سعادتي الشاملة تعاليم أمي جميعاً ، واستسلمت للسرور شهراً صادف حياتي الرتيبة كالحلم البهيج ، والقيت بنفسي في احضان اللعب بشراهة ونهم ، لا استشعر تعباً ولا مللا . وفي الليل إذا آوينا إلى البيت كنت اضع عمامة زوج خالتي على رأسي واحكي لهجته في الحديث ، واتجشأ كما يتجشأ ، وأتمتم عقب ذلك قائلا : « استغفر الله العظيم » والكل من حولي يضحكون !.

كان شهراً كالحلم ، ولكن الأحلام لا تدوم . وقد انقضى . ورأيت بعين الحسرة الحقائب وهي تعد وتكوم استعداداً للرحيل ، وحم الفراق ، فكان عناق وسلام ، وحملتهم العربة جميعاً ومضت ، وأنا أودعهم من الشرفة بطرف دامع كسير . وقالت لي أمي :

– كفاك لعبا وجريا في الشارع ، ثب إلى رشدك ، وعد إلي كما كنت لا تفارقني ولا أفارقك .

وأصغيت إليها في صمت . كنت أحبها ملء فؤادي ولكني كنت أهفو كذلك للعب والمرح . وبدا لأمي أن تحضر لنا خادمة صغيرة ، وسمحت لها بأن تلاعبني تحت سمعها وبصرها . فكانت رفيقاً خيراً من عدمه على أي حال ، كانت صبية دميمة ، ولكنها كانت أفضل لي من الطاهي الهرم وأم زينب العجوز . وكانت أمي محافظة على صلاتها ، فجعلت أقلدها اذا صلت ، ولعلها وجدت الفرصة مناسبة فمضت تلقنني مبادىء الدين كما تعرفه . عرفت الدين مبتدئا بالجنة والنار ، فانضافت الى معجم مخاوفي كلمات جديدة ، بيد أنها كانت مصاحبة هذه المرة لعاطفة صدق وحب وايمان .

* * *

وأدت حال أمي تلك معي إلى تأجيل تاريخ التحاقي بالمدرسة ، فقاربت السابعة دون أن أتعلم حرفا . وتدخل جدي في الأمر ، فدعاني يوماً اليه وهو جالس بالشرفة على مقعده الطويل الهزاز ، وعرك أذني مداعباً وقال لي :

– طالما رغبت في الانضمام إلى أترابك من الغلمان ، فالآن قد فك الله أسرك ، وسنأذن لك بالاشتراك معهم في حياتهم عمراً طويلاً ، ستدخل المدرسة !.

أنصت اليه في دهشة باديء الأمر إذ لم أكن أدري شيئاً عن المدرسة ، ثم بدا لي أنه سيطلق سراحي فنظرت إلى أمي بين مصدق ومكذب ، ولشد ما دهشت حين رأيتها تبسم إلي في تشجيع واستسلام ، فانبعث الحبور في صدري فياضاً ، وهتفت بجدي متسائلاً :

– هل ألعب في المدرسة كالأطفال ؟.

فهز الشيخ رأسه الأبيض وقال :

– طبعا .. طبعا .. ستلعب كثيراً وتتعلم كثيراً ، ثم تصير فيما بعد ضابطاً مثلي .. فسألته في لهفة :

– متى أذهب ؟.

فابتسم الرجل قائلاً :

– قريباً جداً ، سأقيد اسمك غداً ..

وفي صباح الغد – وكنا في مطلع الخريف – ألبسوني بدلة وطربوشاً وحذاء جددا فعاودتني ذكريات العيد السعيد ، ومضى بي جدي إلى عطفة قاسم غير بعيد من بيتنا ، ودخلنا ثاني بناء صادفنا إلى اليسار ، مدرسة الروضة الأولية الأهلية ، وقد وقع عليها الاختيار لقربها من البيت ، كانت تتكون من فناء متوسط ودور واحد من ثلاث حجرات ، فصلين وحجرة الناظر . وقد استقبل الناظر – وهو صاحب المدرسة أيضاً – جدي بالاحترام والاجلال ، ولاطفني في محضره برقة ، وأطرى نظافتي وجدة ثيابي ، فآنست اليه واستبشرت به خيراً . وتم إثباتي بين تلاميذ المدرسة في دقائق ، ودفع جدي المصروفات ، وعدنا وهو يقول لي :

– أنت الآن تلميذ عظيم ، وستفتح المدرسة يوم السبت القادم ..

وأعلنت أمي عن ارتياحها ، ولكنها لم تستطع مداراة ما اعتراها من كآبة ، حتى برم بها جدي وقال لها بشيء من الحدة :

– ماذا تفعلين غداً اذا بلغ السابعة وأخذه أبوه !.

فرمقت جدي بنظرة فزع وألم وهتفت قائلة :

– لن يكون هذا وأنا على قيد الحياة .

وفي يوم السبت المنتظر أوصلني جدي إلى المدرسة وعاد من حيث أتى . وقد تعلقت بيده وهو يغادرني ، واستشعرت خوفاً مباغتاً انساني طول اشتياقي إلى تلك الساعة ، واقترحت عليه أن يعود بي !. ولكنه ضحك ضحكته الرنانة وقال وهو يومىء بأصبعه إلى التلاميذ :

– اليك أهلك الجدد ..

وقفت على كثب من الباب في ارتباك لم أعان مثله من قبل ، وتولاني الندم ، ونظرت الى التلاميذ المتفرقين في الفناء بخوف وحياء ، وتمنيت ألا تقع عين علي. ولكن اناقتي وجدة ثيابي لفتتا إلي الانظار فغضضت بصري في خجل شديد . وتساءلت حتام يطول ذاك العذاب ؟. بيد أن غلاماً اقترب مني وحياني ،ووقف معي كأننا أصدقاء . ثم سألني بغير مناسبة :

– هل ابوك الذي جاء بك ؟.

وكنت أعد جدي جدا وابا ، فحنيت رأسي دلالة الايجاب ، فعاد يسألني:

– ما مهنته ؟.. وما اسمه ؟.

ولئن كان الحديث ضايقني ، الا اني رحبت بذاك السؤال خاصة ، فقلت بفخار : الأميرالاي عبد الله بك حسن .

وقال لي الغلام ان اباه فلان بك كذلك وقد نسيته . ولعله ضاق بصمتي وجمودي فغادرني وانضم إلى غيري من الرفاق . اشتدت بي الوحشة وتساءلت ترى أأستطيع أن اندمج في اولئك الغلمان ؟ هل يمكنني حقاً ان الاعبهم أم تتكرر المأساة التي وقعت لي في فناء بيتنا ؟. وتقبض قلبي خوفاً ، ولو أتتني الشجاعة على الانسحاب من موقفي والعودة الى البيت لفعلت . ثم دق الجرس فانقذني من أفكاري ، وأوقفونا صفوفاً ،وادخلونا الفصل . لم أكن اتصور حتى ذلك الوقت الا انني التحقت بملعب كبير ، فما أن أجلست إلى قمطر ، وراح المدرس الشيخ يفتتح العام الدراسي بالارشادات التقليدية الخاصة بالنظام وعدم الحركة والكلام ، ايقنت اني أدخلت سجناً . وتولتني الدهشة والانزعاج ، ترى أأخطأ جدي أم خدعوه ؟ وطار خيالي إلى البيت فتمثلت لي أمي في جلستها وحيدة ، وتساءلت ترى هل نسيتني ؟ انها الآن تراقب ام زينب وهي تكنس

الحجرات وتنفض الأثاث ، ألم تفكر فيّ ؟.. هــــل تطيق فراقي طوال اليوم كله ؟!.. وانتهت الحصة الأولى دون أن التفت لحظة واحدة الى كلام الشيخ ،ولا عجب ،فقد قررت ان يكون ذلك اليوم الأول والأخير . وفي دقائق الاستراحة رأيت الناظر يمر بباب الفصل ، فتنفست الصعداء .ومضيت نحوه بلا تردد اذ لم أكن نسيت لطفه ورقته ،واقتربت منه في حياء ، فالتفت نحوي في دهشة ، ورمقني بعينين جامــدتين متسائلتين فظننته قد نساني ، وقلت بصوت لا يكاد يسمع : انا ابن الاميرالاي عبد الله بك حسن .

فسألني بدهشة : وماذا تريد ؟.

فلممت اطراف شجاعتي وقلت :

– أريد أن أعود إلى البيت .

فصرخ في وجهي بصوت غليظ كالرعد :

– عد إلى قمطرك .. عمى في عينك ..

وأذهلني صراخه ، فعدت الى مــكاني يكاد يغمى علي من الرعب والألم . ولبثت في مكاني مروعاً محزوناً.وفي أثناء النهار شعرت بحاجة الى التبول ولكني كتمتها في خوف شديد،ولم أفكر مطلقاًفي استئذان المدرس في الخروج .وغلبني الحياء في الفسحة فلم أستطع أن استرشد بأحد عن موقع المرحاض .وجعلت أتململ تململ الملدوغ ، وأشد على ركبتي في ألم وجزع . ومر الوقت في ثقل وعــذاب حتى دق جرس الخروج فأطلقت ساقي للريح ، فبلغت البيت في ثوان ، وارتقيت السلم وثباً ، وفي الشقة وجدت أمي في انتظاري ، فهتفت بي لما رأتني :

– أهلاً بنور العين ..

ووقع بصرها مصادفة على البنطلون فبدا في وجهها الانزعاج، وتمتمت بصوت منخفض : رباه !.. بلت على نفسك !.

وانفجرت باكياً ، وقلت لها منتحباً :

– لن أعود إلى المدرسة ، ان جدي لا يدري عنها شيئاً ، واني اكره الناظر والمدرسين والتلاميذ ، انقذيني منها ولن ابتعد عنك ما حييت ..

فجففت دموعي ، ونزعت ملابسي وهي تقول برقة :

– لا تقل مثل هذا الكلام ، ستألفها وتحبها ، كيف تبقى في البيت والغلمان

جميعاً في المدرسة ؟ وهل يمكن ان تصير ضابطاً مثل جدك إذا تركت المدرسة ؟!

وواصلت البكاء ، وألححت في الشكوى ، ولكنها جعلت تلطف من حزني وتحذرني من البوح لجدي بشكواي خوفاً من ان يغضب ويحتقرني . ولأول مرة أعارت دموعي أذناً صماء .

وبدا لها — كي تشجعني على مواصلة الحياة الجديدة — أن توصلني كل صباح إلى المدرسة ، فكنا نذهب معاً ، وأدخل انا المدرسة بينما تقف هي على الطوار المقابل لها ، واظل ملازماً للسور ، أبادلها النظرات والابتسام من خلال قضبانه والكآبة ترين على صدري والضيق يمسك بخناقي . كرهت المدرسة وحياتها جميعاً ولكني أجبرت على الذهاب اليها ، ولم ينفعني عصياني ولا بكائي ولم يغنيا عني شيئاً ، فأيقنت انه قضي عليّ بسجن طويل الأمد . ولأول مرة وجدتني احسد الكبار على حريتهم ، واغبط النساء على قبوعهن في البيوت . وإلى ذلك العهد يرجع سروري بيوم الخميس ، فكان اليوم المفضل عندي من الأيام ، اما بقية ايام الاسبوع فقد جفوتها واستثقلتها ، وكنت استشعر الكآبة ابتداء من اصيل يوم الجمعة ، ويمر السبت والأحد والاثنين والثلاثاء في ضيق وتبرم ، حتى يأتي صباح الاربعاء فأتنفس تنفس الارتياح ، ثم استيقظ عند فجر الخميس وانقلب تحت الغطاء في سرور وحبور والدنيا لا تسعني من الفرح . ولذلك تفوقت في دروس الخميس ، ولم تكن تعدو المحفوظات والديانة . على ان ذلك العهد لم يخل من ذكريات تثير الابتسام ، وان بدت لي وقتذاك في اطار من الجد والصرامة ، من ذلك اننا كنا نبتاع السميد في الفسحة ، وإذا اعوزنا الملح استعضنا عنـــه بالجير الطافح من جدران الفناء . وكان مدرسنا الشيخ يروق له أن يشرب كوباً من العرقسوس في اثناء الحصة الأولى ، فكان إذا تناول الكوب يأمرنا بالوقوف وبإدارة ظهورنا له حتى لا يصيبه مكروه من أعيننا النهمة . وجاءنا يوماً متجهماً وقال انه شعر ليلة أمس بمغص وانه لا يشك في ان احدنا استرق اليه النظر وهو يشرب العرقسوس ، وانذرنا إذا لم نرشد عن الجاني بالضرب على ايدينا جميعاً ، ولما كنا نجهل الجاني فقد ضربنا جميعاً . وكان زميله الآخر شيخاً هرماً رقيق النفس ، فلم يكن يضرب احداً إلا إذا أعيته الوسائل ، وكانت طريقته المفضلة في اسكات التلاميذ وضبط النظام أن يخوفنـــا بالعفريت الذي يسكن ارض

الحجرة من قديم الزمان ، قائلاً انه لا يحب الضوضاء ، وكان إذا افلت الزمام من يده يجلس القرفصاء وينقر على ارض الغرفة ثم يقول بخشوع ورهبة « عفوك يا سيدنا .. انهم لا يدركون شيئاً .. لا تركبهم وسامحهم هذه المرة ».

أما الدراسة فاني لم أتعلم شيئاً على الاطلاق . ولعل الفن الوحيد الذي اتقنته في مدرسة الروضة الأولية هو قياس الزمن بمراقبة تحول ضوء الشمس عن جدار الفصل ، وأنا أعد الثواني في انتظار جرس الخروج . وكان المعنى الوحيد الذي يتضمنه توجيه سؤال من المدرس انني سأضرب كذا مسطرة على ظاهر كفي . ولم أحفظ في بحر عام دراسي إلا بعض السور القرآنية الصغيرة التي كنت أسمع أمي ترددها في صلاتها . وجاء الامتحان في نهايــة العام فظفرت بجملة أصفار تكفي لجعلي مليونيراً لو ظفرت بها في غير الشهادة الفاضحة . ولما اطلع جدي على الشهادة غضب . وقال لأمي بحدة :

– هذا نتيجة تدليلك .. لقد أفسدته يا ستي .

ثم توعد الناظر شراً ، ومضى لمقابلته في المدرسة . ورجع إلينا بعد ساعة وهو يقول بارتياح :

– نجحت يا سيدي بالقوة ، واياك أن تسقط في السنة التالية !.

وكان يداعبني أمل بأن سقوطي ربما عدل بهم عن ارسالي الى المدرسة ، فلما بشرني بذاك النجاح المغتصب خاب أملي . وجاءت السنة الثانية فلم تكن بخير من الأولى . وزاد من شقائي هفوة لسانية عثرت بها فضاعفت مــن تنغيص حياتي بقية المدة التي قضيتها في الروضة الأولية ، رفعت اصبعي مرة لأستأذن المدرس في الخروج ، ولكن بدلاً من أن أدعوه قائلاً « يا افندي » اخطأت وأنا لا أدري فقلت له « يا نينة ! ».

وضج الغلمان بالضحك ، وضحك المدرس نفسه وقال لي بسخرية :

– ايه يا سيد امك ؟..

وقهقه الفصل بالضحك ، وتولاني الذهول ، ولبثت ذاهلاً حتى أغرورقت عيناي ، لم يكن لي فيهم رفيق أو صديق ، فقد بدا عجزي عن اتخاذ الاصدقاء منذ ذاك العهد البعيد ، فلم يرحمني أحد منهم ، ودعوني منــذ تلك الهفوة بنينة حتى غلبت على اسمي الحقيقي ، وكنت أتحاماهم مقهوراً مغلوبا على أمري ونار الغضب ترعى صدري .

وفي نهاية العام جاءتني شهادة الاصفار فاتهمت امي المدرسة ، وقرر جدي أن يلحقني بالمدرسة الابتدائية ، ولما كنت متخرجاً في مدرسة أهلية اشترط الناظر أن اؤدي امتحاناً ، ومضى جدي بي الى المـدرسة قبيل افتتاح العام الدراسي ، وانتظر نتيجة الامتحان . ولم تكن بحاجـة إلى الانتظار ، ورجا الناظر ان يقبلني بصرف النظر عن نتيجة الامتحان ، وأراد الرجل ان يجامل جدي لكبر سنه ومقامه فطلب إلى أن اكتب اسمي « كامل رؤبة » ولكنني أخطأت في كتابة رؤبة فاعتذر الناظر من عدم امكان قبولي . وعاد بي جدي وهو يسخر مني طوال الطريق ، وقال لأمي وهو ينفخ :

– لا فائـدة ترجى من اعادته الى المدرسة الأولية ، فسأحضر له مدرساً خصوصياً هذا العام .

وانصت اليه وأنا لا أصدق أذني ، ثم سألته وأنا اداري فرحي :

– هل أبقى هذا العام في البيت ؟

فحدجني بنظرة غاضبة من عينيه الخضراوين وقال بغيظ :

– يا فرحة امك بك !.

* * *

واستقبلت عاماً مثمراً لأول مرة في حياتي ، وجلست آمنا مطمئناً بين يدي مدرسي الشيخ ، اتلقن مبادىء العربي والحساب . بدأت أخطو الخطوات الأولى في طريق التعلم ، وان مضت ساعات الدراسة في ثقل وضيق كالعادة ، ولكي اضمن معاملة حسنة من المدرس أجلست امي غير بعيدة من باب حجرة المدرس للاستنجاد بها عند الحاجة ؟ ولا عجب فان ذكرى العامـين اللذين قضيتهما في مدرسة الروضة – ما بين ضرب المدرسين واعتداء التلاميذ – لم تمح من نفسي قط . ولم اكن اتصور حتى ذلك الوقت ان التعلم واجب ضروري سأؤديـه شطراً طويلاً من العمر ، ولكنني عددته عقاباً فرض علي لسبب لا أدريه ، ولم أيأس من أن يلين قلب جدي يوماً فيعفيني منه .

على أن امي لم تكن أسعد حالاً مني ، كانت تعاني عذاباً من نوع أشد . وقد ازدادت كآبة في تلك الأيام ، فلم تكن تخـلو إلى نفسها حتى تبكي مر البكاء . ولم تكن تجلس الى جـدي حتى تفاتحه بالأمر الذي يقض مضجعها ،

أجل لم يعد يفصل بيني وبين التاسعة إلا اشهر قلائل ، فاذا بلغتها حق لأبي أن يضمني اليه ، وهو لا بد فاعل كما فعل باختي وأختي من قبل . وقد تهددنا ذاك الخطر حين بلغت السابعة ، ولكن جدي كتب الى عمي – وهو من كبار المزارعين في الفيوم – راجياً ان يستشفع لي عند أبي ليتركني في كفالة جدي حتى أبلغ التاسعة ، وقبلت الشفاعة بمعجزة من السماء . وها قد اقتربت التاسعة ولسوف انتزع من احضان أمي ما لم يتنازل أبي عن حقه في استردادي. وبكت أمي يوماً في محضر جدي وقالت له :

– لقد فقدت راضية ومدحت فلم تقع عليهما عيناي منذ تسع سنوات ، ولم يبق لي إلا كامل ، فهو عزائي الوحيد في هذه الحياة ، ولا ادري ماذا أفعل إذا سلبني الرجل أياه .

وهز جدي رأسه الأشيب متبرماً ، وكان ذاك الحديث يكربه ، وقال لها :

– وماذا بيدي ان أفعل ؟!. هذا حكم الشرع وما لنا من حيلة فيه ، والرجل الذي تعنيه هو ابوه على أي حال ، وليس برجل غريب!.

فهتفت أمي في تألم واحتجاج :

– أبوه !!.. أتدعو هذا الوحش أباً ؟! ، يا أسفي على راضية ومدحت في البيت الذي جعل السكير منه حانة . ان الأبوة لم تختلج بصدره قط . وكامل قد ترعرع في رعايتي ونهل من حناني ، ولم يدر شيئاً عن شواذ المخلوقات ، فاذا اخذه الرجل هلك بين يديه ، وهلكت هنا وحدي ..

وخنقها البكاء فأمسكت عن الكلام مرغمة ، ولما استردت انفاسها استطردت تقول :

– هل تتصور يا أبي ان كامل يستطيع ان يعيش بعيداً عن أمه ؟ ان يدي هاتين تطعمانه وتلبسانه وتنيمانه ،انه يخاف خياله ، وانه لتفزعه زفرات الصراصير فكيف يأذن الشرع بأن ينتزع مثل هذا الطفل من أحضان أمه ؟!

وقطب جدي متبرماً ، وبدا وكأنه ضاق بشكواها ،بيد أن وجهه لم يكن مرآة صادقة لقلبه ، وكثيراً ما كان يبدو ساخطاً والقلب منه ندي بالرحمة ، ولم يزد وقتذاك على ان قال : كفاك شكوى وبكاء . ان قسم له أن يمكث بيننا مكث ، وان أراد الله ان يذهب الى ابيه فلا راد لقضائه ..

ذاك كان قوله ، اما صنيعه فكان شيئاً آخر . فقد حزم امره يوماً ومضى إلى ابي ليفاوضه في شأن استبقائي في كفالته . والحقَ ان جدي كان يحبني حباً بالغاً . احبني لأني كنت انيس شيخوخته ، والطفولة تحركِ في الشيخوخة اعماق الصدور ، واحبني لحبه أمي التي لبثت إلى جانبه بعد وفاة جدتي ترعاه بحنانها وعطفها وحبها . ذهب الشيخ إلى ابي وانتظرنا وايدينا على قلوبنا . ومر وقت الانتظار على أمي في عذاب لا يمكن ان انساه مهما امتد بي العمر . لم يكن ليقر لها قرار أو يسكن جانب ، وجعلت تخاطبني حيناً وتخاطب نفسها احياناً . ودعتني مرات إلى مشاركتها في الابتهال إلى الله ان يكلل مسمى جدي بالنجاح. ومضيت ارقبها بعينين محزونتين حتى انتقلت عدوى قلقها إلى صدري فاستعبرت باكياً . انتظرنا طويلاً – او هكذا خيل الينـــا – يشملنا حزن وقلق ، تسح اعيننا دمعاً ، وتلهج ألسنتنا بالدعاء ، حتى سمعنا جرس حنطور يرن فهرعنا إلى الشرفة ، فرأينا جدي وهو يقطع فناء البيت بخطاه الثقال . وعدنا إلى الباب ففتحناه ، ودخل جدي صامتاً وهو يحدجنا بنظرة لم ندرك لها معنى .

ومضى إلى حجرته فتبعناه وقد حانت أمي الشجاعه ان تسأله عما وراءه، وراحت تهمس بصوت متهدج « يا ربي .. يا ربي ! » وخلع طربوشه بأناة وهو يتحامى عيني أمي ، ثم جلس على مقعد كبير قريب من فراشه ، ثم القى علينا نظرة طويلة وقال بصوته الأجش وكأنما يخاطب نفسه :

– رجل مجرم !.. ماذا كنت تنتظرين من رجل مجرم ؟

وابيض وجه امي وارتعشت شفتاها ، ولاح في عينيها القنوط ، وجعلت اردد بصري بين جدي وأمي في قلق وخوف . وتركنا جدي لشقائنا هنيهة ، ثم رثى لنا فرفع عن وجهه نقاب التجهم ، وقهقه ضاحكاً ، وقال بصوت ينم عن الظفر :

– لا تقتلي نفسك كمداً يا أم راضية . لقد اذعن الشيطان بغير تعب طويل .

بهتنا بادىء الأمر ، ثم تهللت وجوهنا بشرا ، وتلألأ نور الفرح في عيني أمي، ثم جثت على ركبتيها امام جدي واشبعت يده تقبيلاً وهي تقول بلهفة :

– حقاً ؟.. حقاً ؟.. هل رحم الله قلبي الكسير ؟.

واخذ جدي يفتل شاربه في ارتياح بينما عادت أمي تسأله بنفس اللهفة :

– أرأيت راضية ومدحت ؟.

فهز رأسه آسفاً وقال : كانا في المدرسة !.

فدعت لهما دعاءاً حاراً وعيناها تغرورقان . ولم يكن جدي يزورهما لكراهيته لأبي ، ولأنه لم يكن ينتظر استقبالاً كريماً في بيته . ثم قص جدي كيف قابل ابي في الفراندا وبين يديه زجاجة خمر وكأس مترعة . وكيف تلقاه بدهشة واستغراب ، وكيف انه لم يعد له من عمل في الحياة إلا الشراب، ولعل اضمحلاله ذاك الذي جعله ينقاد لاقتراحه متنازلاً عن عناده القديم .

وقد بدا اول الأمر وكأنه يرتاب فيما يلقى على سمعه ، فلما ان تبينه ضحك في سخرية وازدراء من غير ما معاندة او غضب وقال ببساطة :

– لا دماغ لي للتربية ، ولأكون مرضعة من جديد . خله عندك إذا شئت ولكن لا تطالبني بمليم واحد ، هذا شرط صريح ، وإذا طولبت بمليم واحد فيما يستقبل من الأيام انتزعته منكم فلا تقع عليه اعينكم ما حييت .

وقبل جدي الشرط ، وكان يحدسه مقدماً من قبل أن يذهب اليه ، ولكنه عجب كيف ان الرجل لم يبد عن أية رغبة في رؤية ابنه ، ولا سأل عنه على الاطلاق . ثم قال جدي :

– لم يعد رؤية لاظ انساناً ، لقد انتهى الرجل : فغمغمت أمي في حزن وكآبة : واحزناه على راضية ومدحت !.

فقال جدي يطمئنها : ان راضية في السابعة عشرة ومدحت في السادسة عشرة ، ولم يعودا طفلين ..

وثبنا إلى طمأنينتنا المعهودة ، فنجونا من ذاك الخوف الذي اعترض سبيلنا مهدداً ، وواصلت الدراسة في البيت أعالجها بصعوبة وضيق . واستدار العام ، وحل الخريف ، وكثر الحديث عن الدراسة والمدرسة ، وأيقنت اني معاد قريباً إلى السجن . وقلت يوماً لأمي :

– إذا كنت تحبينني ولا توافقين على أن يأخذني ابي فلماذا ترضين بأن تفرق المدرسة بيننا ؟. فضحكت ضحكتها الرقيقة وقالت :

– يا للعار !.. كيف تقول هذا وانت الرجل الكامل ؟! ألا ترغب ان تكون يوماً ضابطاً كبيراً مثل جدك ؟ وماذا يبقى لك اذا هجرت المدرسة الا

أن تشتغل بائع فول أو كمساري ترام !

ومضى بي جدي إلى مدرسة المقادين بمصر القديمة ، ونجحت في الامتحان هذه المرة . وهل العام الدراسي ، وانتظمت في المدرسة كارهاً مرغماً . وكان الحنطور يوصلني صباحاً إلى المدرسة ، ويعود بي مساء إلى البيت ، وفي نظير ذلك منع جدي أمي من توصيلي بنفسها كما كانت تفعل على عهد المدرسة الأولية. عدت مرة أخرى إلى المدرسة ، وعانيت من جديد الدروس والنظام وقسوة المدرسين وسخرية التلاميذ . كانت حياتي المدرسية شقاء كلها . واكد ذلك الشقاء اني كنت ملكاً مستبداً في بيتي وعبداً ذليلاً في مدرستي . وطالما تحيرت بين الحب الذي يغمرني في البيت وبين عصا المعلم وسخرية التلاميذ .

وقد اكتسبت عداوة المدرسين ببلادتي وخمود ذهني حتى اطلق عليّ بعضهم « الغبي الممتاز » وكان مدرس الرياضة إذا انتهى من درس سألني عنه وما يزال بي حتى اجيب اجابة ترضيه فيتنفس الصعداء ويلتفت نحو التلاميذ قائلاً : « لا بد انكم فهمتم ما دام سي كامل قد فهم » ويضج الفصل بالضحك!.

أما التلاميذ فكان دأبهم السخرية مني ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . وكان عجزي عن انشاء علاقة صداقة حقيقية مرة لا شك فيها فلم اظفر في حياتي بصديق. والحق اني لست أسوأ من كثيرين ممن يتمتعون بصداقات سعيدة ، ولكني شديد النفور بطبعي ، شديد الخجل ، محب للوحدة والعزلة ، عديم الثقة في الغرباء ، وزاد طبعي تعاسة ما جبلت عليه من صمت وعي وحصر ، فلم أحسن الكلام قط ، فضلاً عن الدعابة والمزاح ، لذلك جميعه رموني بثقل الدم ، وقد آلمتني هذه الصفة ، حتى سألت أمي يوماً :

– هل أنا ثقيل الدم يا أماه ؟.

فرمقتني بنظرة ارتياع وقالت بحدة : من قال عنك ذلك ؟.

فقلت في حياء : التلاميذ كلهم ؟.

فصاحت بغضب : قطعاً لألسنتهم . انهم ينفسون عليك أدبك الكامل ، والحنطور الذي يحملك بينما يتسكعون على اقدامهم . أياك وان تتخذ منهم صديقاً . .

ومتى كنت في حاجة إلى مثل تلك النصيحة ؟! وهكذا كابدت الحياة في وحدة، يطالعني روح عداوة وبغضاء من الجو المحيط بي . ولعلها كانت لاتخلو من

غبطة لو انني أسهمت في مسراتها ، ولكن خجلي الشديد أجبرني على مقاطعة الألعاب بأنواعها كالكشافة والكرة والقسم المخصوص ، حتى الرحلات المدرسية لم توافق أمي على الاشتراك فيها ان يصيبني مكروه ، وكان التلاميذ يتحدثون عن الأهرام وأبي الهول ودار العاديات والفسطاط فأسترق السمع في حيرة وحزن وكأني استمع إلى سائحين يقصون عن بلاد نائية !. ولشد ما ينتابني من خجل إذ أقرر ان عيني لم تقعا من القاهرة – المدينة التي عشت بين اسوارها – إلا على شوارع معدودات هي كل حظي من مشاهدات في الدنيا الواسعة . ولم يكن لي من عزاء في تلك الأيام إلا ان انفرد بأمي في الشرفة أو في حجرتنا ، ثم نأخذ بأطراف الحديث ، كأن ليس لحديثنا من نهاية . وكانت عصا المدرس تذكرني بأن عليّ واجباً ينبغي أن اؤديه قبل النوم ، فأقبل على الكتاب مستكرهاً ، واذاكر بلا روح ولا حماس ، وسرعان ما يترنح رأسي ويرتق النوم يجفني .

ويوماً قرئت علينا – في حصة الديانة – هذه الآية الكريمة « فاذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه الخ .. » فلا اذكر اني انزعجت لشيء انزعاجي لها ، لم اطق ان اتصور ان افر من امي يوم مهما كانت فظاعته ، وان اغادرها في اهواله بقامتها النحيلة الرقيقة وعينيها الخضراوين الحنونين ، فقاطعت الشيخ على غير وعي مني هاتفاً : كلا .. كلا ..

واحدثت مقاطعتي دهشة في الفصل لأني لم أكن أنبس بكلمة ، ولم يدرك احد ماذا اردت ، ولم يلبثوا ان ضجوا ضاحكين ، وغضب الشيخ ، وحملني مسئولية الاخلال بالنظام ، فأقبل نحوي متغيظاً ولطمني على وجهي بعنف وحنق . ورحبت باللطمة كمذر ظاهر للبكاء اذ كنت اقاوم دموعي جاهداً ودون جدوى .

ولقد زلزلتني هذه الآية الكريمة ، وكانت أول نذير لي عن مأساة الحياة ..

* * *

حياة رتيبة ، كابدتها على استكراه ، بيد أنها لم تخل من هزات عنيفة . فذات مساء عاد جدي مبكراً على غير عادته . وقلقت امي لأنه لم يكن يرجع إلى البيت قبل الفجر واقتحم علينا الحجرة متجهماً ، فنهضت أمي مستطلعة ، ورفعت رأسي عن الكتاب ، وقبل ان تسأله عما به قال بحدة وهو يضرب طرف حذائه بعصاه : زينب ، كارثة نزلت بالأسرة .. فضيحة ستجعلنا مضغة الأفواه !

فنطقت عينا امي بالفزع ، وهتفت بصوت متهدج :
– رحماك يا ربي !.. ماذا حدث يا ابي ؟
فقست نظرت عينيه الخضراوين ، وقال بصوت اجش غليظ :
– ابنتك .. راضية .. هربت !.
وشحب وجه أمي ،وخلجت عيناها، وجعلت ترنو إلى جدي بنظرة مستنكرة لا تجد سبيلاً إلى تصديق ما صك اذنيها ، ثم غمغمت بصوت كالأنين :
– هربت !.. راضية !.. هذا محال !.
فضرب جدي الأرض بقدمه حتى ارتجت اركان الحجرة وصاح بغضب :
– محال ؟!.. بل هي الحقيقة الواقعة ، هي الفضيحة العارية ، هي الضربة القاصمة لكرامتنا ..
ولم تحر امي جواباً ، كأنما فقدت النطق . وتنفس جدي بشيء من الجهد ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :
– أي جنون سلبها الرشاد !.. ليس هذا الدم الفاسد بدمنا !.. هذا دم شيطاني يفضح سوء فعله الأصل القذر الذي استمد منه . لقد مات جدها وهو يصب لعناته على رأس ابيها فحلت اللعنة بذريته .
وازدردت أمي ريقها وتمتمت في ارتياع : افظع بها من كارثة !.. كيف ضلت الفتاة ؟!.. لقد افسد السكير العربيد عليها حياتها ، ما اتعسها !.
فقال جدي باستياء وحنق :
– لا تنتحلي لها الأعذار . لا شيء في الوجود يسوغ هذا الفعل الشائن ..
فغمغمت أمي بصوت باك :
– لست انتحل لها الأعذار ، ولكنها تعيسة ما في ذلك من شك ..
وساد صمت محزن ، ولبثا يتبادلان نظرات الغم والكدر والقنوط ، وقد اصغيت إلى ما دار بينهما بانتباه شديد ، فأدركت أهونه ، وغابت عني خطورته الحقة ، كأن يتعلق بأخت لم تقع عليها عيناي . لماذا هربت ؟ وأين اختفت ؟ وتساءلت : لماذا لم تحضر الينا ؟.
فصاح بي جدي حانقاً : اخرس !.
وارتمى على مقعد ، واستطرد يقول :

– جاءني عمها في النادي ، وأبلغني الخبر . قال انه لا يعلم شيئاً عن حقيقة الحال . وقد أبرق له مدحت للحضور فوراً ، فجاء بلا ابطاء ، ثم أخبره الشاب باختفاء شقيقته . أما المجرم السكير فلم يزد على أن قال « في داهية » . ثم ذهبنا معاً إلى بعض أصدقاء العم من رجال المحافظة وأفضينا اليهم بالخبر الشائن سائلين معونتهم . وتريث جدي دقيقة ثم استطرد :

– ويل للسكير المجرم !.. انه المسئول الأول عن هذه المأساة ، لأذهبن اليه واحطمن رأسه !. ولاح الانزعاج في عيني أمي فقالت بجزع :

– كلا .. كلا .. هذا يزيد من حالنا سوءاً .

فقال جدي باصرار : ينبغي أن يجزي عن شره شرا .

فقالت أمي بتوسل : لا شأن لنا به .. فلنركز اهتمامنا في العثور على الفتاة علنا نقيم ما اعوج من أمرها .. فحدجها بارتياب وتساءل :

– لماذا تلحفين في الحيلولة بيني وبين الذهاب اليه ؟. فــلاح في وجهها الارتباك وتمتمت : أخاف أن يزداد الأمر سوءا .

فقال جدي بحنق : بل تخافين أن يؤدي الشجار إلى أن يسترد كامــل . انك لا تقيمين وزنا لشيء ، ولا تكترثين لغير نفسك ، الا لعنة الله عليكم أجمعين..

ولبس البيت رداء الحزن فكــأنه في حـــداد ، واهتصرتنا أيام سود ، فنكد العيش ، وكدت اختنق في ذلك الجو القاتم. وقد غيّر جدي نظام حياته ، وتخلف عن سهراته المعتادة في النادي ، وكان يغيب خارج البيت طوال النهار دون أن ندري عن مكانه شيئاً ، على حين تقضي أمي النهار ساهمة أو باكية. وجاءنا جدي ذات مساء ، فما ان وقع بصره على أمي بادرها قائلاً :

– عثرنا على ضالتنا اخيراً .. فجرت أمي نحوه وهي تصيح :

– حقاً !.. اللهم ارحمنا .. فقال جدي بصوت تنم نبراته على الارتيـــاح والسرور : أرسلت الفتاة المجنونة الى مدحت كتاباً تنبئه بانها تعيش في بيت زوجها ببنها ، وتسأله المغفرة عن سلوكها الذي اضطرت اليه اضطراراً ..

وتنهدت أمي من الأعماق وقالت وعيناها تدمعان :

– ألم أقل لك !!.. ان راضية فتاة طاهرة ولكنها تعيسة الحظ ، رباه .. أين هي الآن ؟ خبرني بكل ما تعلم . فقال جدي بهدوء :

– سافرنا إلى بنها ، أنا وعمها ومدحت ، فوجدناها في اسرة طيبة محترمة ، وتعرفنا إلى زوجها وهو شاب موظف بالحقانية يدعى صابر أمين . فأخبرنا أنه استأجر شقة بشارع هدايت بشبرا وانه سينتقل اليها هـــذا الأسبوع . وقالت راضية : ان زوجها تقدم لخطبتها ولكن أباها رفضه بغلظة ، وانه رفض قبـله شاباً آخر تقدم لخطبتها كذلك . ولعلهـا الخمر التي لم تبق على ذرة من انسانيته فأنسى واجباته وبدد مرتباته ، واستبد بها اليـأس فهربت مع الشاب . وسافر إلى أسرته حيث كان المأذون في انتظارهما .

وأصغت أمي اليه وهي تبكي بكاء حاراً ، بعثه الحزن والارتياح معاً ، ثم قالت : سأسافر اليها غداً ..

فقال جدي بتأكيد : ستجدينها في بيتها غداً أو بعد غد ..

وعادت تتساءل : لماذا لم تأت إليّ أنا ؟.

فقال جدي كمن يعتذر عن الفتاة: لعلها خجلت ان تأتي بخطيبها الينا وهي هاربة من وجه أبيها ، وعلى أية حال لنحمد الله على هذه النهاية التي لم نكن نحلم بها ..

* * *

ركبنا الحنطور جميعاً لأول مرة ، فجلس جدي وأمي في الصدارة ، وجلست على المقعد الخلفي . كانت أمي من الفرح في نهاية ، وقد بدت – بعدما عانت في الأيام الأخيرة من هم وحزن – وكأنها استردت شبابها الأول . كانت عيناهـا تتألقان بنور السرور البهيج ، وكان لسانها يسبّح بالحمد والشكر . وانتقل سرورها إلى صدري ففرحت برحلتنا السعيدة . وجعلت أفكر في شقيقتي التي سأراها لأول مرة بعد دقائق بدهشة وسرور ، وقلق لم أدر له سبباً ، ترى ما شكلها ؟ وكيف تلقانا ؟ وهل تحبنا ؟. وقطعت أمي علي حبل أفكاري فسألت جدي بلهفة : هل أجد مدحت هناك ؟

فقال جدي وقد اعتمد مقبض عصاه بيديه :

– الراجح ان يكون هناك .. لقد تواعدنا على ذلك .

ولاحت في عينيها نظرة حنان ورجـاء . وسارت العربة ميممة شبراً ، ورحت أتسلى بمشاهدة المارة والعربات والترام ، حتى بلغ الحنطور مقصده ، وانعطف إلى شارع هدايت ، ثم وقف أمام بيت متوسط الحجم ، مكون من

ثلاثة ادوار . وغادرنا العربة وصعدنا إلى الدور الثاني وامي تقول بصوت كالهمس : « ما أشد خفقان قلبي » ، ودق جـدي الجرس ، وفتح الباب ، ودخلنا ، رأيت فتاة وشابين ، وقبل ان اعاينهما هرع اثنان منهما إلى امي ، فلم أر إلا عناقاً حاراً ، ولم اسمع إلا تنهدات الدموع . رمقت الثلاثة بحيرة وخجل وصمت . وطال العناق ، وطال البكاء ، حتى تدخـل جدي بينهم ضاحكا وهو يقول : اليك زوج ابنتك صابر افندي امين .

وتقدم الشاب من أمي فقبل يدها ، وقبلت جبينه ، ولم ألبث أن رأيت نفسي محط انظار الجميع . وقالت امي وهي تبتسم خلال دموعها :

– أخوكما كامل . وهرعت نحوي شقيقتي ، وضمتني إلى صدرها ، وقبلتني بحرارة ، وانا مستسلم بين يديها ، لا آتي حراكاً ، ولا انطق بكلمة ، وصاحت بفرح : رباه ، انه شاب يافع !.. انه نسخة منك يا اماه ! ثم ضمني شقيقي إلى صدره وقبلني وهو يقول بسرور : يا له من شاب خجول !.

ولم أكن حتى تلك اللحظة قد افضت النظر إلى وجه من وجوههم ، وظللت غاضاً بصري ، والخجل يحرق جبيني وخدي . ثم مضوا بنا إلى حجرة الجلوس. فجلست امي بين راضية ومدحت ، وجلس جدي لصق زوج اختي ، واقعدتني شقيقتي إلى جانبها ، وقالت امي وهي تجفف دمعها :

– يا رحمتاه !.. وجدتكما شابين بعد ان انتزعتما مني طفلين ، الحمـد والشكر لله ..

فقال زوج اختي بتأثر : يا لها من حياة هي بالمأساة أشبه ! واني لأشكر الله على ان جعلني الفرصة التي هيأت لكم هذا اللقاء !.

وسالت الأشواق القديمة حديثاً فياضاً لا ينضب معينه ، وانثالت عليهم الذكريات والخواطر . وشكا كل بثـه وهمه ، وامتزجت الدموع بالبسمات . وكانت تلوح في عيني امي بين الحين والحين نظرة دهشة كأنها لا تصدق ان الله قد جمع شمل الأسرة بعد تفرق ونوى . ولما شغلوا بأنفسهم عني أخذت افيق من الخجل ، واسترد انفامي ، وشعرت بأني – لدرجـة كبيرة – وحدي ، فداخلني ارتياح ، ولكن سرعان ما انتابني قلق وضيق . وجعلت استرق النظر إلى راضية ومدحت . بهرني جمال اختي ، رأيتها اقصر من امي قليلا

ولكنها ممتلئة بضة ، ميالة للبياض ، اما وجهها فصورة من وجه امي ، وصورة من وجهي ايضاً ، بعينيه الخضراوين الصافيتين وانفه الدقيق المستقيم . امــا مدحت فأنموذج من نوع آخر ، بدين في غير افراط ، مستدير الوجه والرأس ، ابيض الوجه مشرب بحمرة ، اسود العينين ، ينم مظهره عن الفحولة والقوة وان لم يجاوز الثامنة عشرة . وكان يقهقه ضاحكا لأتفه الأسباب ، ويبدو فرحاً صحيحاً معافى . استرقت اليهما النظر باستطلاع واهتمام ، وسرعان ما جذبني اليهما شعور بالحب والعطف ، واستنمت إلى روحهما المرحة الباسمة . بيد انني لم انعم بشعور الوحدة طويلا ، فربما اتجهت صوبي الأنظار وبذلت المحاولات لحملي عــلى الكلام ، واستدراجي لمشاركتهم سرورهم ، ولكنني لم أنبس بكلمة قانعاً برد الابتسام بالابتسام . ولئن كان كل شيء ممــا يكتنفني يدعو للغبطة إلا انني لم أخل من مشاعر قلق غامض ، رغبني أكثر من مرة في الرحيل ، وقالت لي راضية باسمة : كان مولدك عسيراً ، والله يعلم كم تألمت أمنا ، ولبثنا أنا ومدحت في الحجرة المجاورة نبكي ، ثم ادخلنا في النهاية ورأيناك في اللفة شيئاً كقبضة اليد فانهلنا عليك بالقبل .

وقهقه مدحت وقال: وأردت ان اطعمك قطعة من الشيكولاتة فحملوني إلى الخارج

وقالت راضية برقة: وكنا نتخيلك في وحدتنا بيبيب أبينا فنقول لعله يحبو الآن أو انه يمشي ويلعب ، أو هذا اوان المدرسة . وعلى فكرة أي سنة بلغت من دراستك؟

وشعرت بحرارة احمرار خدي ، وانعقد لساني ، فأجاب عني جدي قائلاً بلهجة لا تخلو من تهكم : انه يعيد السنة الأولى الابتدائية وهو في العاشرة من عمره

فقال مدحت ضاحكاً : الحال من بعضه ، فقد التحقت بالزراعة المتوسطة بعد سقوط عامين بالثانوي !.

وقالت أمي : ان جدك يريد ان يجعل منه ضابط ..

فهز مدحت رأسه وقال : عليه إذاً ان يحصل على البكالوريا .

وكان جدي من الذين ألحقوا بالمدرسة الحربية بالابتدائية فقال بازدراء :

— ان بكالوريا اليوم لا تعدل ابتدائية الأمس .

ثم دار الحديث عن الحياة في بيت ابي ، حتى قالت راضية : كنا في الحقيقة نعيش بمفردنا ، ولم نكن نرى ابانا إلا مرة في الصباح الباكر ، ثم نمضي وقتنا

معاً ، نذاكر أو نلعب أو نتحدث، وقد حمدنا الله على تلك الوحدة .

وتنبهت امي إلى الشطر الأخير من الكلام. وتنهدت في اشفاق ، فقال جدي:

– ان كان ابوكما اعفاكما من عشرته ومخالطته حقاً ، فقد فعل خيراً يستحق عليه الشكر والدعاء !

وانقضى النهار كله في جو عابق بالحب والأشواق ، وعدنا إلى المنيل مجبوري الخاطر . واتصلت الأسباب بعد ذلك بيتنا وبين شقيقي ، وكان مدحت يزورنا كلما سنحت له فرصة .. واستقبلت عاماً مثيراً توزعتني فيه الحيرة وحب الاستطلاع والتجربة القاسية . صدمني في مطلعه هروب اختي وما علمت بعد ذلك من زوجها ، فحبلها ثم انجابها طفلة . وساءلت نفسي كما ساءلت امي عن معنى هذا كله ، لماذا هربت من ابي إلى رجل غريب ؟. لماذا لم تأت الينا ؟ ولماذا تزوجته ؟. وكيف حبلت ؟. وكيف خرجت زينب الصغيرة إلى نور الدنيا ؟.. وارتبكت امي حيال الحاحي وتطفلي ، وجعلت تصطنع لي الأجوبة الكاذبة حيناً وتتأناني حتى اكبر حيناً آخر ، فاذا لججت تكلفت لي حزماً غير معهود ولا مألوف . فلم اظفر منها بشيء يقنع الغلة ، وفي الوقت نفسه شعرت بأن ثمة سر يراد اخفاؤه عني . ثم جاءني العون من حيث لا أدري ، فتطوعت الخادمة لاماطة اللثام عما حير خيالي والهبه . كانت تكبرني بأعوام ، وكانت دميمة قبيحة ، ولكنها كانت تكرس فراغها لخدمتي ورعايتي . وكانت تخلو بي في أويقات نادرة اذا شغلت امي بعمل أو حاجة . وبدا انها استرقت السمع يوما إلى ما يدور بيني وبين أمي عن الألغاز التي استثارتني من سباتي ، فصارحتني مرة بانها تعلم أموراً خليقة بأن تعرف ، وانجذبت اليها على قبحها في اهتمام وسرور ، وواجهت التجربة بلذة وسذاجة . على ان العهد بها لم يطل ، فما أسرع ان ضبطتنا امي متلبسين .ورأيت في عيني امي نظرة باردة قاسية فأدركت اني أخطأت خطأ فاحشاً . وقبضت على شعر الفتاة ومضت بها فلم تقع عليها عيناي بعد ذلك . وانتظرت على خوف وخجل . ثم عادت متجهمة قاسية ، ورمت صنيعي بالمذمة والعار ، وحدثتني عما يستوجبه من عقاب في الدنيا وعذاب في الآخرة .ووقع كلامها مني موقع السياط حتى اجهشت باكياً ، ولبثت أياماً اتحامى أن تلتقي عينانا خزياً وخجلاً .

حدثت معجزة – على حد تعبير جدي – فنجحت في الامتحان . ونقلت إلى السنة الثانية ، وان كنت قضيت عامين في السنة الأولى . ولما أطلع جدي على الشهادة قال لي مداعباً : لو كنت ما أزال في خدمة الجيش لجئتك بفرقة الطوبجية ، وأمرتهم باطلاق أربعة وعشرين مدفعاً احتفالاً بنجاحك ..

على أن جدي اذا كان لم يمكنه أن يطلق لنجاحي اربعة وعشرين مدفعاً ، فقد قذف حياتي بقنبلة – عن قصد حسن – كادت تودي بي . حدث ان زاره يوما ضابط متقاعد في الخمسين من عمره ممن عملوا تحت قيادته في السودان . وعقب انصرافه مباشرة جاءنا جدي في الشرفة وراح يتفرس في وجهينا في صمت وان نم وجهه عن ارتياح وسرور . ثم قال مخاطباً أمي بلهجة مليئة بالمرح :

– اتبعيني بمفردك يا زوزو هانم !. وانفجرت ضاحكاً لذاك التدليل اللطيف على حين تبعته إلى حجرة نومه ومنيت نفسي ببشرى جميلة . وغابت أمي مقدار ساعة ثم عادت إلي ، وما ان وقعت عليها عيناي حتى بادرتها قائلاً :

– أهلا وسهلا يا زوزو هانم .. وقهقهت ضاحكا ، ولكنها ابتسمت ابتسامة باهتة على غير ما انتظرت ، وجلست على كرسيها يلوح في عينيها السهوم والتفكير وساورني القلق ، فملت نحوها . وسألتها عما ألم بها ؟ فقالت لي باقتضاب :

– أمور تافهة لا تهمك .. ولكن تهربها ضاعف من رغبتي في معرفة ما وراءها ، فألححت عليها ان تفضي إليّ بمكنون صدرها ، فنفخت في تبرم ، ورجتني ان أمسك . وجلسنا صامتين طويلا ، ثم تجاذبنا أحاديثنا المعتادة في فتور . ودعينا إلى العشاء فأكلت لقيمات معدودات ، ولما تهيأنا للنوم وقفت أمام المرآة طويلا ، ثم استلقت الى جانبي . ووضعت راحتها على رأسي وقرأت سوراً قصاراً من القرآن كالعادة ، حتى رنق النوم بجفني . واستيقظت في الهزيع الأخير من الليل ، فخيل إلي اني اسمع حسا كالهمس ، فأرهفت اذني فأيقنت انها تغمغم وظننتها تحلم ، فناديتها حتى استيقظت . ولبثنا مستيقظين حتى أسفر الصبح .

وفي اليوم التالي زار جدي ذلك الضابط المتقاعد ، وحدث ما حدث بالأمس فدعا جدي أمي إلى حجرته ، ولبثا منفردين زهاء الساعة ، ثم جاءا معاً إلى الشرفة وهي تتعلق بذراعه وتهتف بانفعال وتأثر شديدين :

– كلا .. كلا .. هذا محال ، ولا أحب أن يعلم شيئاً .

ولكنه لم يأبه لها فيما بدا وقال لي بحزم : إني منتظرك في حجرتي .

وجعلت أمي تتوسل اليه وتتضرع، ولكنه رجع إلى حجرته وأنا في أعقابه على حين مضت أمي إلى حجرة نومنـا في حالة غضب واستياء . وجلس جدي على مقعده الكبير ، وأمرني أن اقترب منـه ، فاقتربت في رهبة وخوف حتى وضع يده النحيلة على منكبي ، ورمقني بنظرة دقيقة ثم قال :

– أريد يا كامل أن احدثك بأمر هام : لا زلت صغيراً بغير شك ، ولكن يوجد في مثل سنك من ينهض بأعمال الرجال ، وأحب ان تفهمني جيداً ، فهل تعدني بذلك ؟.

وأجبت بطريقة آلية : أعدك يا جدي .

فابتسم إليّ متلطفاً ثم قال :

– الأمر هو أن رجلا فاضلا غنياً من أصدقائي يرغب أن يتزوج من أمك ، واني اوافق على ذلك رغبة مني في سعادة أمك ، فلا بد للمرأة من رجل يرعاها، وأنا قد جاوزت الستين ، وأخاف أن أموت قبل أن تضطلع أنت بواجبك كرجل فلا تجد من تعتمد عليه في الحياة .

وواصل كلامه باستفاضة ، ولكن عقلي كلّ فلم يتابعه ، ولم أعد أفقه معنى لما يقول.

شلت عبارة « يتزوج من أمك » مسامعي، وانفجرت في دماغي ، واتسعت عيناي دهشة ورعباً وتقززاً وتساءلت : هل يعني جدي ما يقول حقاً ؟. أجل لقد روت أمي لي قصة زواجها، ولكن كان ذاك قصة وتاريخاً بعيداً ، ولم اتصوره حقيقة واقعة ابداً . وذكرت لتوي الخادمة المطرودة فغاص قلبي في صدري وقلت لجدي وأنا ألهث : أمي لا تتزوج . ألا تفهم ما هو الزواج ؟!.

ولم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك ، ثم قال مبتسماً :

– الزواج سنة من سنن الله ، والله يفضل المتزوجين على غير المتزوجين ، ولقد تزوجت أنا جدتك ، كما تزوجت أمك فيما مضى ، وكما ستتزوج حضرتك يوماً ما اصغ إليّ يا كامل ، أريدك على أن تذهب إلى أمك وتقول لهـا انك ترغب في تزويجها مثلي ، وان سعادتك تضاعف بسعادتها .. ينبغي أن توافق على مـــا يسعدها ، وحسبها ما قاست من اجلكم جميعاً .

وجعلت اطرافي تنتفض انفعالاً وتأثراً ، ونظرت إلى جدي كما تنظر الفريسة

إلى معذبها ، ثم سألته بصوت متهدج: أيريد أن يأخذها ذلك الرجل ؟.

فابتسم وقال لي : نعم ، ولكن ليرعاها ويسعدها .

فسألته بحدة وأنا لا ادري : وأنا ؟.

فقال برقة بالغة :

– ان شئت ذهبت معها ، أو بقيت عندي على الرحب والسعة ..

فعضضت على شفتي بقسوة لأحبس دمعي ، وتراجعت فجأة فأفلت من يده ، وركضت خارجاً متجاهلا نداءه ، وعدوت إلى حجرة نومنا ، فوجدت أمي جالسه محمرّة العينين من البكاء ، وفتحت لي ذراعيها فارتميت بينهما منتفض الأطراف من التأثر ، وبادرتني قائلة :

– لا تصدقه ، أعني لا تصدق أن شيئاً مما قال لك سيقع ، لا تبك ولا تحزن .. واعذاباه !. وحدجتها بنظرة استغراب واستنكار ، وصحت بها :

– ألم تقولي ان هذا عار وحرام ؟!. فشدت علي بحنان وهي تقاوم ابتسامة ، ثم قالت : لعل جدك قال لك انه يريد أن يزوجني ، ولكنه لم يقل بلا ريب انني وافقت على هذا الزواج ، والحق اني رفضته لأول وهلة ، وبلا أدنى تردد ، وودت لو لم تعلم عن الأمر شيئاً على الاطلاق ، ولما أعطاني مهلة للتفكير قلت..

وقاطعتها بحدة قائلا : ولكن يريد لك امراً معيباً محرماً ؟!

فصمتت قليلا وهي ترنو إلى بطرف حائر . ثم استطردت متجاهلة اعتراضي : قلت ان المهلة مضيعة للوقت ، وأبيت ان أجعل هذا الأمر موضوعا للتفكير ، وذلك من أجلك أنت ، من أجلك وحدك ، فلا تحزن ولا تغضب ، ولا تظن بأمك الظنون . ولئن اخرجني كلامها من ظلمات القنوط إلا أنني أصررت على ترديد اعتراضي حتى قالت لي بعد تردد :

– لم أقل أبداً ان الزواج من العيوب أو المحرمات ، بل هو علاقة شريفة يباركها الله ، اني ذممت عيوبا أخرى .. وانعقد لساني حياء وخجلا ، وربتت هي على خدي لتسري عني وقالت بصوت ينم عن العتاب :

– يا لك من طفل جحود ، ألا تستأهل تضحيتي في نظرك كلمة شكر ؟.. أتراك تذكرها فيما يقبل من العمر ؟. أبداً !.. لتتزوجن يوماً ولتغادرني وحيدة بلا رفيق ولا أنيس !. وقطبت ساخطا ، وقلت بحماس :

– لن افارقك مـا حييت . عبثت بشعري مبتسمة ، ولاحت في عينيها الجميلتين نظرة ساهمة ...

* * *

سارت حياتي المدرسية في بطء وتثاقل يدعوان لليأس ، فبلغت الرابعة عشرة وما جاوزت السنة الثالثة الابتدائية . وكان جدي يقول متأففاً :

– متى تقبل على الدراسة بهمة ونشاط ؟ متى تعرف واجبك ؟ ألا ترى أنه اذا اطردت دراستك على هـذا المنوال فستنتهي منها وقد استوفيت سن المعاش ؟!. ولشد ما كانت تأسي أمي لذاك التهكم المر ، وكانت تسأله دائماً ألا يلقيه في وجهي حتى لا تنكسر نفسي فأزداد بلادة ، أو تقول له :

– الذكاء من عند الله ، وحسبه ما حمله به من كريم الخلق ، لأنه كالعذراء حيـاء وأدبا !. وكان ان كابدت حياتي تطورا خطيرا لا أذكر متى بدأ ولا كيف بدأ ، وأخشى أن يكون الخيال قد زور منه أموراً على الذاكرة . دبت في النفس والجسم يقظة غريبة ، سرت في أطرافي قلقاً واضطراباً . طافت بي في وحدتي أحلام جديدة ، وغيّبني في المدرسة شرود ركز شعوري كله في نفسي . وكنت إذا انطلقت بي العربةمن المدرسة إلى البيت سرحت طرفي في آفاقالسماء وبنفسي لو أحلق إلى ذراها المتلفعة بتلك الزرقة الغامضة . ولشد ما انتابتني الكآبـة وغشيني الكدر فروحت عن قلبي بالدمع الغزير . ولا أنسى الأشواق الغامضة ، والمخاوف المجهولة ، والأنات المهموسة ، والشعيرات النابتة . رباه اني كائن يتمخض عن حياة مخوفة مجهولة ، تعبث بي شياطينها في النهار والليل ، في اليقظة والأحلام .

واكتشفت بنفسي – تحت ضغط تلك الحيـاة – هواية الصبا الشيطانية لم يغرني بهـا أحد إذ كنت معدوم الرفاق ، فاكتشفتها كما اكتشفت أول مرة في حياة البشر. واستقبلتها بالدهشة واللذة ، ورضيت بها عن كل شيء في الوجود ، ووجدت فيها انساً لوحدتي الغريبة ، وعكفت عليها في ادمـان ، وراح خيالي يقطف لي من صور المخلوقات ما ازين به مائدة العشق الوهمية .

ومن عجيب ان خيـالي في عشقه لم يعد دائرة الخوادم بالمنيل اللاتي يسعين حاملات الخضر والفول. ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثم ولت ، انها سر دفين

أو هي داء دفين . كأني موكل بعشق الدمامة والقذارة !!. إذا طالعت وجهاً ناضراً مشرقاً يقطر نوراً وبهـاء ملكني الاعجاب ، وبردت حيوانيتي ، وإذا صادفني وجه دميم ذو صحة وعافية أثارني وتملكني ، واتخذتـه زاداً لأحلام الوحدة وعبثها . وأفرطت افراط جاهل بالعواقب . وخيل إلي ، جهلي المفرط ان أحداً سواي لا يدري بها ، حتى سمعت يوماً – في فنـاء المدرسة – بعض التلاميذ يتقاذفون بهـا في غير حياء ، فانزعجت انزعاجاً فظيعاً ، وتولاني خجل أليم . ومنذ تلك الساعـة أمضني الألم ، وكدر صفوي تأنيب الضمير والشعور بالذنب . ولم يكن ذاك ليصدني عن ممارستها ، فقضيت وحدتي في لذة جنونية سريعة يعقبها نكد طويل . وكانت تسطع في أيامنا الرتيبـة ساعات باسمات فتزورنا أسر من الجيران والأقارب ، سيدات وبنات في سن الصبا . وربما قدمت سيدة بنتها قائلة على سبيل المداعبة : هذه عروس كامل .

فكانت أمي تلقى هذه المداعبة وأمثالها بفتور ملحوظ ، لا يخفى على مخاطبتها ولا علي . فازددت شعوراً بالحياء وبالنفور ، وبالخوف خاصة حيال المرأة . ثم لا تفتأ – عقب انصراف الزائرات – تنتقد مداعباتهن الفاضحة المفسدة للأخلاق! ومضيت في حياتي الوحيدة الموحشة أتململ تحت ضغطها المتواصل دون أن ابدي حراكاً ، انتهب لذاتها الخفية في جزع ويأس ، وأجني مر الشعور بالذنب وقد شق على الخلاص ، في عزلة غابت بي عن خضم الحياة . على انني كنت ادرك ادراكاً غامضاً انه توجد حياة واسعة فيما وراء أفقي الضيق . كنت استرق السمع إلى ما يتناثر من أحاديث التلاميذ عـن السياسة والسينما والألعاب الرياضية والبنـات ، وكأنني اصغي إلى سكان كوكب آخر . وددت لو كان لي بعض فصاحتهم ومرحهم وحبورهم ، ووددت لو يرفع ذاك الحاجز الأصم الذي يحبسني دونهم . ولكم رمقتهم بعينين محزونتين كأني سجين ينظر خـلال القضبان إلى الطلقاء . بيد اني لم أحاول قط ان انطلق من سجني ، لم يكن ليغيب عني مـا ينتظرني في دنيـا الحرية من قسوة ومهانة ، بل اني لم اسلم في سجني من أذى وسخرية وتهجم ، ذاك سجني فلأقنع به فيه لذتي وألمي ، وفيه أمان من الخوف. انه سجن مفتوح البـاب ولكن لا سبيل إلى تجاوز عتبته ، ولم أجد من متنفس غير الاحلام . كنت أمكث في الفصل غائباً عما حولي وخيالي يصنع المعجزات ،

يحـارب ويقتل ويقهر ، يمتطي متون الجياد ويعتلي الطائرات ويقتحم الحصون ويستأثر بالحسان وينكل بالتلاميذ تنكيلا مروعاً ، حتى لابست أحياناً حركات رأسي وتقلصات وجهي انعكاسات من تلك الأخيلة ، ترتفع لهـا الرأس كبرياء ويقطب الوجه قسوة وتشير اليد بالنذير والوعيد ! ولم تقف أحلامي عند حد الخلق فطارت إلى ملكوت الخالق. وكان ايماني قديماً راسخاً يعمر قلبي وروحي بحب الله وخوفه معاً. وقد اديت الفرائض في سن مبكرة أخذاً عن أمي ومحاكاة لها. ولما أجدت لي لذتي الخفية شعوراً بالذنب لم يكن به عهد قوى شعوري الديني، ولفحت ايماني لهفة حارة إلى الله ورحمته فما ختمت صلاتي مرة حتى بسطت يدي مستغفراً . بيد ان أشواقي لم تقف عند حد ، وانقلبت طلعة لمعرفة الله، وتمنيت من صميم فؤادي لو كان أتاح لعبيده رؤيته وشهود جلاله الذي يحيط بكل شيء ويوجد في كل مكان . وسألت أمي يوماً : أين يوجد الله ؟.

فأجابتني بدهشة : انه تعالى في كل مكان . .

فرنوت اليها بطرف حائر ، وتساءلت في خوف : وفي هذه الحجرة ؟.

فقالت بلهجة تنم عن الاستنكار : طبعاً . . استغفره على سؤالك هذا !.

واستغفرته من أعماق قلبي ، ونظرت فيما حولي بحيرة وخوف ، وذكرت بقلب موجع كيف اني ألم بالاثم تحت بصره القريب. لشد ما حزني الألم ، وغصني الندم ، ولكني ما فتئت اغلب على أمري .

وشق علي النزاع المتواصل فانتهى بي إلى التفكير الجـدي في الانتحار . بلغت وقتذاك السابعة عشرة، وكنت استعد لامتحان الابتدائية للمرة الثالثة بعد أن اخفقت مرتين في عامين متتاليين . تملكني الفزع والقنوط وازددت فزعـاً وقنوطاً للامتحان الشفوي ، فما كانت لي قدرة على الكلام ، ولا قلب اواجه به الممتحن. وقد سألني الممتحن الانجليزي في العام السابق عن معالم القاهرة الـتي زرتها ؟ وكان كلما سألني عن أثر من آثارها أو موقع من مواقعها اجبت بأنني لا أعرفه ، فظنني أتهرب من أسئلته وأسقطني . تملكني الخوف وأوردني مهالك القنوط ووجدتني لأول مرة القي على الحياة نظرة عامة شاملة متأثراً خط الحياة من البداية إلى النهاية ، حتى لم أعد أرى منها إلا البداية والنهاية متعامياً عما بين هذا وذاك. ميلاد وموت ، هذه هي الحياة !. وقد فات الميلاد فلم يبق إلا الموت.

سأموت وينتهي كل شيء كأن لم يكن، ففيم تحمل هذا العناء؟!. فيم أكابد الخوف والضيق والوحشة والجهد والامتحان ؟!. وازدحمت برأسي ذكرياتي المحزنة عن الحياة التي احياها .. امتحان لا حيلة لي فيه ثم سقوط فسخرية مريرة ، حرمان من أفراح الحياة التي يحظى بها التلاميذ . دعاؤهم لي بالأبكم ، رميهم أياي بثقل الدم حتى رآني تلميذ مرة قادماً وكان قريباً من باب مسجد المدرسة فكور كفه على اذنه كأنه يدعو للصلاة وصاح في وجهي منشداً « يا ثقيل الدم ! » وقهقه الآخرون ضاحكين. وأذكر ان مدرساً اراد يوماً أن يختبر معلوماتنا العامة ، فلما جاء دوري ووقفت مبهوتاً لا أجيب عن شيء ، سألني عن اسم رئيس الوزراء ؟ ولازمت الصمت ، فصاح بي : « هل أنت من بلاد الواق ؟! » وكانت مناسبات الاضراب كثيرة ، ولكني لم اشترك في مظاهرة على الاطلاق ، وقد اضربت المدرسة يوماً وخرجت في مظاهرة عن بكرة أبيها ، الا يّ ، فقد تخلفت في الفناء مرتبكاً خائفاً على كوني من أكبر التلاميذ سناً ، ورآني على تلك الحال مدرس عرف وقتذاك بوطنيته فقال معنفاً : « لماذا خرجت عن الاجماع؟ اليس هذا الوطن وطنك ايضاً ؟! » ووجدتني في حيرة شديدة بين تعنيف المدرس وبين وصايا أمي التي تحلفني كل صباح على اتباعها . يا لها من ذكريات خليقة بأن تفقد الحيـــاة كل قيمة . أليس في الموت غناء عن هذا كله ؟. بلى واني لأتمنى الموت . وملأت تلك الأفكار علي شعاب قلبي فأجمعت على أن أرمي بنفسي إلى النيل . وعندما أتى المساء صليت طويلا ، ثم نمت ويدي قابضة على يـد أمي ، وأنا أظنني في عداد الأموات . وجعلت في الصباح أسترق النظر إلى وجـه أمي في خوف وحزن ، وأثر في نفسي هدوؤها وجمالها ، فغالبني شعور بالبكاء ، وأكربني ألا أستطيع توديعها ، وساءلت نفسي في اشفاق كيف تتلقى الصدمة ؟.. وهل تطيق الصبر عليها ؟ سأكون المسئول عن تكدير هاتـين العينين الصافيتين ، وتجعيد صفحة هذا الوجه المنبسط ، وزوال هذه الطمأنينة إلى الأبد . ثم خفت لخور فجأة فأمدني اليأس بقوة جديدة ، وحفزني إلى الهرب . وأتيت عـلى قدح الشاي وعيناي لا تفارقان وجهها ، ثم حييتها وغادرت الحجرة منقبض الصدر مرير النفس وركبت الحنطور ، وألقيت على البيت نظرة وأنا أغمغم : «الوداع يا أماه ، الوداع يا بيتنا العزيز» . وأنطلقت العربة حتى طالعني جسر

الملك الصالح فدق قلبي بعنف حتى شق علي التنفس . ينبغي أن ينتهي الآن كل شيء . دقائق معدودات ثم الراحة الأبدية . ولم يكن لدي علم عن عـذاب المنتحر في الآخرة ، فـلم أشك في أني استهل حياة مطمئنة . واقترب الجسر رويداً ، وراح توقيع سنابك الخيل يصك قلبي ، ولاحت مني التفاتة إلى النيل فرأيت لآلىء الشمس تنتثر على صفحته الدكناء ، وخلتني أتخبط عـــلى أديمه والأمواج الهادئة الصامتة تتقاذفني بغير مبالاة ، مطمئنة إلى نتيجة الصراع . وتوثبت لمـــا عقدت العزم عليه بجنون فغاب عن خاطري كل شيء في الحياة فهتفت بالحوذي العجوز وهو ينعطف إلى الجسر : قف !.

فشد الرجل على الزمام وتوقفت العربة ، فغادرتها متعجلا وأنا أقول له :

– اسبق إلى نهاية الجسر وسألحق بك مشياً على الأقدام .

وانتظرت ريثما ابتعد عني عدة أذرع ثم ملت إلى سور الجسر ، وأشرفت على النهر بقامتي الطويلة . وحادثت نفسي قائلا : « يقولون انني لا أحسن شيئاً في الحياة .. ولكنني سأفعل الآن ما لا يسع أحدا الاقدام عليه ! ». وألقيت على الماء نظرة متحجرة ، وتمثل لي ما سأفعله بسرعة البرق ، ينبغي أن يتم كل شيء في ثوان والا أفسد علي تدخل المارة غرضي، أتسور السور ثم القي بنفسي، ولن يستدعي ذلك مع حزم الأمر إلا لحظات . وأنقبض قلبي وأنا أنظر إلى الماء الجاري وقد بدأ تحت النظرة العمودية سريعاً صاخباً فـــدار رأسي . واحد.. اثنان.. وسرت في بدني قشعريرة ، ترى ما احساس الانسان اذا هوى من شاهق ؟.. وكيف يكون اصطدامه بالماء ؟ وكيف اذا غاص تحت لجته ؟.. ومتى يخلص الانسان من عذاب الغرق ؟!.. وشدت قبضتي على حافة السور ، وتقلصت عضلات ساقي ، وقلت بلساني ان سينتهي كل شيء حـالا ، ولكني كنت في الواقع أتراجع وأتقهقر وتخور قواي . هزمتني الخواطر والتصورات التي اعترضت عزمتي . لا ينبغي للمنتحر أن يفكر أو يتخيل ، لقد تفكرت وتخيلت فانهزمت . واشتد خفقان قلبي . وتراخت قبضتاي عن السور . ثم تحولت عنه متنهداً كالذاهل . وحملتني ساقي المخلخلتان إلى نهاية الجسر حيث تنتظر العربة ، فركبت ، واستلقيت على المقعد في اعياء حتى غالبتني رغبة في النوم . وطالما ساءلت نفسي عما أنقذني من الموت ذلك الصباح ؟ فقال قلبي :

انه الخوف !، وقال لساني : انه الله الغفور الرحيم .

ولا شك اني بالغت فيما يتعلق بدوافعي نحو الانتحار ، لأني حصلت على الابتدائية في ختام العام !.

* * *

فقدت أسرتنا الصغيرة مظهراً من أجمل مظاهرها فاختفت من أفقها العربة والجودان والحوذي العجوز . باع جدي العربة والجوادين واستغنى عن الحوذي. وعلمت مما تسقطته من الحديث انه خسر ليلة في النادي خسارة جاوزت المعهود فاضطر إلى ما يساوي معاشه من النقود . ولما كان رجلاً مطبوعاً على النظام فقد آثر أن يبيع العربة والجوادين على أن يربك ميزانيته . لشد ما احزننا بيع العربة ، وضياع الجوادين ، ووداع عم كريم ، الحوذي العجوز الذي قضى عمره في خدمة جدي حتى فقد فيها أسنانه . ولقد بكيت الجميع بكاء مراً دون أن انبس بكلمة . وكان جدي يعيش في نادي القمار أكثر مما يعيش بيننا ، ولم تكن له من سلوى أو فرجة سواه وخاصة عقب تركه الخدمة . ولم يكن يحاول اخفاء سيرته بما جبل عليه من صراحة وميل للمرح ، فكثيراً ما كان يقص على أمي طرفاً مما يصادفه في سهراته ، فيقول هازاً رأسه الأشيب : « بالأمس لازمني سوء الحظ طوال الليل حتى قبيل الختام بقليل فعوضت خسارتي جميعاً بضربتين موفقتين » ، أو يقول : « يا للطمع الأشعبي !.. اضاع عليّ بمقامرة واحدة في أخريات الليل عشرين جنيها ربحتها بشق النفس ». ولكنه كان بوجه عام مقامراً عاقلاً ان جاز لي أن اقول ذلك ، تستأثر به لذة المقامرة الجنونية دون أن تنسيه طاقة ميزانيته وواجباته كربّ لأسرتنا . ولا أشك في أمر مستقبلي قد شغله كثيراً ، لا لذاتي فحسب – وان غمرني دائماً بحبه ورعايته – ولكن لارتباط مصير أمي بمصيري . ثم كان ما كان من تعثر حياتي المدرسية فأخذت الابتدائية في السابعة عشرة وقد اقترب هو من حدود السبعين ، وأخذ القلق يساوره كثيراً وهو أعلم بما جمع من ثروة لا تكاد تذكر . على انه كان يتغلب دائماً على قلقه بما طبع عليه من ميل للتفاؤل مردّه في الغالب إلى ما وهبه الله من صحة حسنة لم تزايله رغم طعونه في السن . الا ان خسارته الأخيرة ذكرته بقلقه ومخاوفه ودفعته إلى أن يعالجها بالحيطة والحرص ، فقال يوماً لأمي بعد تردد غير قليل وكانا يتحدثان

عن مستقبلي : أرى انه لا يجوز أن يجهل كامل أباه هذا الجهل المطلق .

فامتقع وجهها ورمقته باستنكار وتساءلت : ماذا تعني يا ابتاه ؟.

فقال جدي بغير مبالاة : اعني انه يجب أن يتعرف اليه. هذا أمر ضروري والا بدا في أعين الناس وكأن لا أب له .

فقالت أمي بصوت متهدج : هذا أب الجهل به أشرف .

فلاح في وجه جدي الضيق وقال بحزم :

– كأنك تخافين أن يسترده إذا رآه ، فياله من وهم لا يدور إلا في رأسك ، واني لعلى ثقة من انه سر سروراً كبيراً حين هيأت له الأقدار من يربي ابنه عنه. ولكني أرى الآن انه ينبغي أن يتعرف كامل إلى أبيه . وقد صممت على أن أذهب به اليه ، فمن يدري انه لا يحتاج اليه غداً ؟ هل ضمنت أن أبقى له إلى الأبد ؟. ولا تنسى أن كامل وشيك الالتحاق بالمدارس الثانوية وربما أقنعت أباه بمعاونتي في تعليمه !. ولا شك ان أمي كانت تتحفز للمعارضة ، فلما سمعت الشطر الأخير من كلامه فتر تحفزها وبدأ الحزن في عينيها ، ولم تنبس بكلمة ، ولما غادرنا جدي اغرورقت عيناها بالدموع ، فاقتربت منها متأثراً محزوناً وجففت عينيها ، وقلت لها : لا شيء يستدعي البكاء يا أماه .

فابتسمت الي ابتسامة باهتة وقالت بحزن : لا شيء حقاً. ولكني ابكي الأيام الماضية يا كامل . أبكي الطمأنينة المطلقة التي استنمت اليها طويلاً . كانت الحياة رغيدة طيبة لا يكدرها علينا مكدر ، اليوم يتحدث جدك عن الغد ، وهو إذ يتحدث عنه يملؤني خوفاً وقلقاً . لندع الله معاً ألا يشتت شملنا ، وأن يطيل لنا في عمر جدك ، ويغنينا عن الناس .

ثم تفكرت ملياً ، وقالت لي وهي تحدجني بنظرة غريبة :

– قابله إذا قابلته بأدب فهو أبوك على أي حال ، ولكن لا تنس فيما بينك وبين نفسك انه هو الذي عذبنا جميعاً .

وجرت على شفتي ابتسامة خفيفة لهذا التحذير الملفوف الذي لم أكن في حاجة اليه . ليس في وسعي أن احب شخصاً كرهه أبوه . ثم فكرت في تلك الزيارة المرتقبة بين ابن وأبيه لأول مرة ، وحاولت أن أتخيل صورة لأبي ، أو أن اتذكر صورته القديمة التي مزقتها بيدي فلم أفلح . وشعرت بنفور شديد من الزيارة

وتمنيت لو يعدل جدي عن رأيه . ولكنه قرر أن نقوم بزيارتنا في صباح اليوم التالي ، وقال لي وهو يستحثني :

– ينبغي أن نبكر في الذهاب اليه قبل أن يغيبه السكر ا.

وخرجنا معاً ، قطعنا الطريق إلى محطة الترام مشياً على الاقدام . ثم أخذنا الترام إلى العتبة ، ومنها إلى الحلمية ، ثم سرنا إلى شارع علي مبارك . وجعل يوصيني في الطريق بما ينبغي أن أتحلى به في حضرة أبي من الأدب والتودد. قال لي:

– أنت خجول جداً ، منطو على نفسك ، وأخاف أن يظن ما بك نفوراً منه فيبادلك نفوراً بنفور خصوصاً وانه لم يهتم يوماً بحب انسان ، فانفض عنك الجمود ولاقه بالتودد والرقة والالفة .

ووقفنا أمـام بيت كبير مكون من دورين ، لا يبدو من دوره الأول إلا أعلاه لارتفاع سور البيت ، وطرقنا باباً ضخماً ، ففتح عن صرير غليظ ، وبرز لنا بواب نوبي طاعن في السن ، فسلم على جدي باحترام وترحيب وتنحى جانباً وهو يقول : رؤية بك في السلاملك . .

وسك الاسم مسمعي ، فشعرت على رغمي بما يربطني بهذا البيت. وتملكتني رغبة مباغتة في الرجوع والتقهقر ، ولكنها كانت رغبة لا سبيل إلى تحقيقها ، ونظرت فيما أمامي فرأيت حديقة كبيرة ، وسرعان مـــا سطعت أنفي رائحة الليمون الزكية . هي حديقة كبيرة تأخذ الناظر بضخامة أشجارها ما بين نخيل وليمون وتوت ويزدحم جوهـــا بالفروع والأغصان ، وتغطي أرضها بالأوراق الجافة ، وبها وبالجو المحيط بها مسحة حزن وكآبة انسربت إلى نفسي في غير ابطاء . وفي نهايتها يقع البيت ، وقد بدا السلاملك مقاماً على سوره جدار خشبي يحجب ما بداخله عمن في الحديقة . سبقنا البواب إلى الداخل ليستأذن للقادم ، ثم عاد بعد قليل وهو يدعونا باحترام ، وسار بين يدينا في ممشى من الفسيفساء . تبعت جدي في قلق يزداد بتوغلنا في الحديقة ، وعندما أخذت في ارتقاء السلم جف حلقي من الاضطراب . وبدا أبي واقفاً ينتظر ، فألقيت عليه نظرة سريعة من وراء جدي . كان وقتذاك في الستين من عمره ، ربعة ، بدينا وان بدأ في جلبابه الأبيض الفضفاض ابدن من الواقع بكثير ، أبيض البشرة ، محمرّ الوجه والعنق ، منتفخ الأوداج ، محتقن الوجه بالدم ، أما قسمات وجهه فكبيرة واضحة

في غير تنافر . أصلع الرأس ، أسود العينين ، وقد جحظت مقلتاه وتشابكت بها خطوط حمر دقيقة كالشعيرات ، وقلقت بها نظرة زائغة شاردة خاملة.بددت ما كانت ضخامته خليقة بأن تبعثه في النفس من رهبة . خامرني شعور بالغرابة والانكار والنفور ، وحقدت على جدي المسئول عن الزيارة . اشتد بي الانكار عندما وضح لي انه لم يبد من آي الترحيب بنا الا تلك الوقفة الخاملة . تصافح الرجلان ، وسمعت صوتاً غليظاً ذكرني بصوت أخي مدحت يقول :

– أهلا وسهلا .. كيف حالك يا عبدالله بك ؟ فرد جدي قائلا :

– الحمد لله .. وكيف أنت ؟! وتنحى جدي قليلا ليكشف عني وأومأ إلي قائلا وهو يبتسم : كامل ابنك . وتقدمت منه في ارتباك ظاهر وعيناي متطلعتان اليه ، فحدجني بنظرة متفحصة في اهتمام شديد وقد لاح في عينيه نور خافت ، ثم مددت يدي ، وعند ذاك قال جدي ولعله أراد أن يتفادى من خطأ رآني حريا أن أقع فيه : أفهم هذا الخجل وقبل يد والدك !

وأدركت مراده فقبضت على اليد الممدودة إلي ولثمت ظاهرها ، ورفعت اليه عيني فوجدته مبتسماً ، وسمعته يقول : مرحباً بالابن الذي لم يعرف أباه !.. ما شاء الله (والتفت نحو جدي مستدركا) صار رجلا وفرع أباه طولا .

فضحك جدي ضحكته العظيمة وقال : أجل انه رجل .. ولكن لا تثريب عليه اذا كان لم يعرف أباه !. وتفرس أبي فيّ طولا وعرضاً ، ثم دعانا إلى الجلوس ، فجلسنا على مقعدين متقاربين وجلس على كنبة في الصدر وراء خوان من الخشب الأسود المطعم بالصدف وضعت عليه قارورة حمراء وكأسَ ووعاء صيني مليء ثلجاً . كانت القارورة مملوءة إلا قليلا ، وكانت الكأس فارغة إلا قليلا . ولم أكن رأيت الخمر أبداً ولكني أدركت تواً أني حيال الشراب الملعون الذي فعل بأسرتنا الأعاجيب ، وسرعان ما ملأني التقزز والنفور .

واستدرك جدي قائلا : أي نعم ما ذنبه المسكين ؟... انه لم يعرف لنفسه أبا ، ولا حيلة له في هذا ، ولا داعي لاثارة ذكريات ولّت . بيد أنني وجدته رجلا كما تقول ، وقد حصل هذا العام على الابتدائية ، وعما قليل يلتحق بالمدارس الثانوية ، فاستنكرت أن يظل على جهله أباه ، واقترحت عليه أن أقدمه لك ، فرحب باقتراحي مسروراً ، وها أنا قد فعلت والحمد لله..

وكانت عينا أبي لا تتحولان عني فلم أخفف من ارتباكي وحيائي ، ولما ختم جدي كلامه لاحت في عينيه الشاردتين نظرة ارتياب وسألني :

– أحقاً سرك أن تقدم إلي ؟. فأجبته بصوت لا يكاد يسمع : نعم ..

فسألني وهو ينظر إلي بمكر : أتحب أن تمكث معي ؟!. وانقبض قلبي ، ولاحت في عيني نظرة حائرة . ما عسى أن أقول ؟!.. ان وصايا جدي ، لا تزال تطن في أذني ولكن هبني أجبت بالايجاب فدعاني إلى البقاء معه فكيف يكون المصير ؟! كلا ، لا يسعني هذا . وعضضت طرفي مطبقاً شفتي ولم أنبس بكلمة .

وقهقه أبي بصوت ارتعد له جدي ، فقال جدي وهو يحدجني بنظرة استياء :

– ترفق به رؤبة بك . انه لم يفترق عن أمه قط وليس اشق على النفس من تغيير عادة ، ولكني اؤكد لك انه سر جداً بتعرّفه بك . لا تأخذ عليه صمته وارتباكه فانه كالعذراء حياء .. فهز ابي رأسه الاصلع المستدير وفوه لا يزال منفرجاً عقب القهقهة ، وسألني فيما يشبه التحدي:

– هلا مكثت معي فترة من عطلتك ؟!.. شهراً أو اسبوعين ؟!

فبادر جدي قائلا : أما هذا فمن طيب خاطر !..

وفطنت إلى مافي قول جدي من ايحاء موجه إلي، فوجدتني كالفأر في المصيدة وتولاني ضيق كاد ينشق له صدري، ولعنت ذلك التصميم المزعج الذي حدا بجدي إلى سوقي إلى هذا البيت الكئيب . وانعقد لساني في يأس وعناد ، حتى قال أبي متهكماً : هذا قولك انت يا عبدالله بك ، ولكني اتساءل عن رأي كامل بك!..

وآلمني تهكمه ، وانقلبت إلى حال من التعاسة فلم انطق ولم أرفع رأسي . وتذكرت امي بلهفة المستغيث شأني اذا اشتد بي كرب. وقهقه ابي ساخراً وقال:

– لعله يسر بمعرفتي ولكن من بعيد ..

وتغيرت لهجته الساخرة فقال بصوت ينم عن القوة : الا تعلم انني اذا أردت أن تبقى هنا لم يحل دون ذلك حائل ؟!.

وتريث لحظة ريثما يحدث تصريحه الأثر المطلوب ، ثم ضحك مستدركاً :

– لا تخف لا حاجة بي إلى هذا على الاطلاق ..

وساد صمت رهيب . ولعل جدي أدرك ان الرجل قد كشف بقوله ذاك عن شعور عدائي . وشعرت أنا بغريزتي ان كلينا يجد نحو صاحبه نفوراً لاخفاء فيه .

وهالني ما صدم جدي من خيبة مريرة ، وتوقعت ان يوسعني تعنيفاً وتقريعاً . ثم قال جدي بصوت منخفض: ابنك سيء الحظ يا رؤية بك ، فقد حرم من نعمة التعبير عما يدور بخلده. انه طفل خجول لا يدري عن الدنيا شيئاً فترفق به واعذره

فقال ابي بغلظة : ماهذا الذي تقوله يا عبدالله بك !.. خجول، عذراء، لا يدري شيئاً!. ماذا فعلتم به؟ لقد كانت له أخت عذراء ومع ذلك فقد هربت مع رجل ، فمن أية جبلة هو ؟!.. وشعرت بطمنة نجلاء تصيب قلبي . واندفع الدم إلى وجه جدي فقطب غاضباً وقال بكبرياء: لقد اختارت اخته ان تمضي إلى زوجها بعد ان يئست من عدالة أبيها !..

وروح عني قوله . أما ابي فاسترسل ضاحكا وقد احتقن الدم بوجهه وبدا فظاً قاسياً ممقوتاً ، ثم قال بسخرية : تقول بعد أن يئست من عدالة ابيهـا !.. أسمح لي اولاً ان املأ كأساً (وملأ الكأس وعلّ منها جرعة) هلا شربت معي؟.. كلا ؟.. كما تشاء فلكل انسان داء . ولنعد الآن إلى قولك . ماذا قلت ياعبد الله بك ؟! بعد ان يئست من عدالة أبيها ؟!. وانت؟! ألم تيأس من عدالة أبيها ؟!.

فنظر اليه جدي باستنكار وازدراء وسأله : ماذا تعني ؟.

– أريد ان اقول ان الفتاة اذا كانت قد يئست من عدالة أبيها فان جدها لم ييأس من عدالته ، وآيْ ذلك انك جئتني اليوم بهـذا الفتى لا لتقدمه إليّ كما قلت ، فقـد كان يمكن أن يحدث ذلك في أي وقت من الماضي ، ولكن لتخبرني انه عما قليل سيلتحق بالمدارس الثانوية ،.. وهنالك المصروفات.. هه!!

فخرج جدي عن طوره وصاح به مغضباً :

– لقد أعياني اصلاحك فيما مضى ، ومن الحمق أن أحاول ذلك الآن . ولكن هبني جئت لهذا الغرض فهل من لوم استحقه على ذلك ؟.. لقد ربيته حتى صار رجلاً دون أن يكلفك مليما واحداً.. فصفق أبي ساخراً وقال وقد اخذ صوته يعلو:

– آه من مكر الرجال ! بالأمس جئتني سائلاً أن أترك الغلام لكم ، واليوم تمن عليّ أن ربيته حتى صار رجلا . مرحى ..مرحى ، هلا تذكرت اتفاقنا السابق؟

فاشتد حنق جدي وقال بصوت وشت نبراته بانفعاله وتأثره :

– أي اتفاق يا هذا ؟.. نحن لا نتحدث عن صفقة تجارية ، ولكن عن ابنك فأين الأبوة والعطف ؟!. فقال أبي بتهكم وازدراء :

– الأبوة ؟.. العطف ؟.. يا لها من سجايا كريمة بيـــد أن المال يفسدها .
يا عبدالله بك لندع الهذر جانباً فانه لا يجمل برجل عسكري مثلك خاض حروب السودان !.. وانك لتعرفني حق المعرفـة فكيف زينت لك نفسك أن تقصدني بهذا الرجاء الخائب ؟! تفكر في الأمر ملياً فأمـــا تكفلت « به » كما اتفقنا أو اتركه لي إذا شئت .

ونظرت إلى جدي فوجدت وجهه ملتهباً بحمرة الغضب ، وتوقعت أن ينفجر في الآخر ، ولكنه ضبط نفسه بجهد كبير ، وقال بهدوء :

– لولا واجبي نحو ابنك لاستكرهت أن أقف منك موقفي هذا ، ولست استجديك شيئاً لنفسي ، ولكني أريد ان اطمئن على مستقبل الفتى خصوصاً واني رجل طاعن في السن وقد أموت غداً ..

فقال أبي ضجراً : إذا مت غداً تكفلت به !.

فقطب جدي مستاء ، وهالني تعبير أبي القاسي فكرهتـه في تلك اللحظة ضعف ما كرهته طوال حياتي. و كأنما نفد صبر جدي فنهض قائماً مكفهرّ الوجه ونهضت معه كأنني مشدود اليه. والقى إليّ أبي بنظرة متعالية في ترفع وغطرسة وقـال : لا استطيع أن اقول انك خيبت ظني لأني لم احسن بك الظن قط ، ولكنها أخطاء نرتكبها كارهين ونحن أدرى بعواقبها . استودعك الله ..

وأخذ بيدي ومضى بي فغادرنا السلاملك وأبي يقول متهكماً :

– مع السلامة يا عبد الله بك ..

هكذا كان أول لقـاء بيني وبين أبي . وقد خرجت منه وبنفسي من النفور ما لا قبل لي به . وما كدت اجتاز باب البيت إلى الطريق حتى تنهدت ارتياحاً ، ودعوت الله بقلبي الا يقضي عليّ يوماً بأن أطرق هذا الباب ابدا .. وسرنا نحو ميدان الحلمية ، وجعل جــدي يحث خطاه منكس الذقن محمرّ الوجه ، وهو يغمغم بكلام غير مميز ولا مفهوم ، وجعلت استرق اليه النظر محزوناً أسيفاً ، وخائفاً في الوقت نفسه لشعوري بثقل مسئوليتي فيما أدى إلى الخصام . ثم أخذ صوته يتضح رويداً رويداً فسمعته يقول و كأنه يحدث نفسه « حيوان أعجم ، لماذا يرزق الله أمثاله أطفالاً؟ لماذا لم يعاقبه بالعقم؟!. ». ويقول أيضاً : « يا لك من وغد!. أليس بقلبك ذرة من عاطفة الأبوة؟. انك لم تتركه لنا استجابة لرجائنا،

ولكنك بعته بنفقاته، وحين بلغنا المحطة لاذ بالصمت، ووقعت على عيناه فحدجني بنظرة قاسية وأصر على أسنانه وقال لي بحدة وسخط: وأنت يا مي قطران أتظل عمرك بغلا ! ألم يفتح الله عليك بكلمة طيبة ؟. ماذا كان عليك لو تظاهرت بالتودد اليه ؟ أحسبته يا أحمق سيرتمي عليك عشقاً وولهاً !. وافزعني غضبه كما يفزعني الغضب عادة، وارتعشت شفتاي كالطفل اذا شرع في البكاء، ورأى حالي فنفخ مغيظاً محنقاً، وصاح بي : مـــا أسرع أن تبكي !.. ما الذي يبكيك ؟.. هل ظلمتك ؟. هل تجنيت عليك ؟.. لقـد أخطأت خطأ غبي أحمق، وما زدت على أن قلت لك أخطأت، فهل كفرت ؟!. ولم أنبس بكلمة طوال الطريق، ولبثت محزونا منكسر الخاطر، حتى ذكرت أني عائد إلى أمي، وأني سأحدثها بكل شيء عما قليل، فسرى عني .

* * *

وزارنا يوماً مدحت أخي، في الأسبوع الذي تلا مقابلتنا لأبي . ولما تفرست في وجهه تلك المرأة أيقنت انه صورة طبق الأصل من أبي . وتساءلت في حيرة عن سيرته وأخلاقه، وهل يشابـه أباه فيهما كما شابهه في تكوينه الجسماني ؟. والحق أني رمقته بنظرة غريبة لم يفطن اليها أحد . على أني أحببته كثيراً كما أحبنا كثيراً . وقد عاتبته أمي على ندرة زياراته لنا فقال لها :

– أنت أدرى بأخـــلاق المجنون ! فضحكت بسرور لا مزيد عليه، ورنوت إلى شقيقي بامتنان، فالتفت نحوي وقال آسفاً :

– علمت بما حدث في المقابلة الأخيرة .. فسألته أمي باهتمام :

هل أخبرك عنها ؟. فقال متضاحكا : حدثني بها عم آدم البواب .

وداخلني استياء شديد فهتفت مستنكراً : البواب !..أكان يسترق السمع !.

فقال مدحت : كلا، ليس به من حاجة إلى استراق السمع، فما من كبيرة أو صغيرة إلا ويحيطه بها أبي، فهو سميره القديم الذي يفضي اليه بمكنون صدره وان لم ينج مـــن شر لسانه في غالب الأحايين . ولكم أحزنني الموقف الذي وقفه من جدي، فوددت لو لقيته اليوم هنا لأعتذر اليه وأقبل يده .

وتجاذبنا الحديث طويلا، وكان مدحت محدثا ماهراً، يدير الحديث بطلاقة وروح مرحة، ويقهقه قهقهة أبينا العالية فيضاهيـه في جلجلتها دون برودتها

وقسوتها ، فسرعان ما غبطته وأعجبت به وتمنيت لو كان لي بعض مرحه وطلاقته . وانساق الحديث إلى مستقبله ، وكان حصل على شهادة الزراعة المتوسطة صيف ذاك العام ، فقال : سافرت إلى عمي في الفيوم ليجد لي وظيفة بواسطة أحد معارفه الكثيرين ، لكنه لم يوافق على توظيفي بالحكومة ، وعرض علي أن أتمرن في عزبته بأجر عال على أن يؤجر لي أرضاً في القريب العاجل ، ورأيت في عرضه فرصة تفتح لي أبواب الرزق العريض عن طريق الزراعة فقبلت.

ولكن أمي لم ترتح لهذا العرض وقالت معترضة :

– أليس الأكرم أن تتوظف في الحكومة ؟.

فضحك أخي طويلاً ثم قال : ان دبلومي لا يؤهلني لوظيفة محترمة ، أما عمي فيهيىء لي فرص العمل المثمر والثروة .

– وتعيش في الفيوم حياتك ؟!

فقال باستهانة : الفيوم من ضواحي القاهرة !.

فقالت أمي بحزن :

– طالما منيت نفسي باليوم الذي تستقل فيه بحياتك لنعيش معاً ؟؟..

فقبّل يدها برقة وقال مبتسماً : سوف ترينني كثيراً حتى تملّني ..

ثم ودعنا وانصرف . وتنهدت أمي من الأعماق وقالت بحزن :

– غاب عني نصف حياته في بيت المجنون، وسيغيب النصف الآخر في الفيوم!

وتفكرت قليلا ثم قالت وكأنها تحدث نفسها : ان عمه لم يعرض عليه ما عرض حباً في سواد عينيه ، ولكنه ينوي بلا شك أن يزوجه احدى بناته .

وسألتها ببساطة: وماذا عليه لو فعل ؟!.

فحدجتني بنظرة غريبة ، وهمت بالكلام اكثر من مرة ثم تنثني عما همت به.

وقد صدق ظنها ، فجاءنا بعد ذلك بزمن غير طويل خطاب من مدحت يخبرنا بخطبته لابنة عمه، ويسمي لنا يوم الزفاف ويدعونا لحضوره . ولم تخف أمي استياءها ، وهالها أن يخطب بدون مشورتها أولاً ، وقالت لجدي بغضب :

– أرأيت شقيق المجنون كيف خطف ابني !!

ولم نحضر زفافه ، لأني مرضت قبيل موعده ولزمت الفراش اسبوعين فنسيت أمي الزفاف بأفراحه وآلامه . وهكذا تزوج مدحت دون أن يحضر زفافه

لا ابوه ولا أمه، حتى قال جدي متهكماً كعادته: هذه الأسرة خلقها الله اعجوبة للبشر، كل أسرة وحدة الاها فهي اشتات لا تجتمع . اللهم عفوك ورضاك !.

واستدار الصيف واقترب ميعاد افتتاح الدراسة فألحقني جدي بالسعيدية . وقد ذهبنا معاً، وقـال لي في الطريق : لو كنت رجلاً حقاً لما احوجتني إلى الذهاب معك، ولكنك لا تعرف الطريق إلى الجيزة وأنت ابن سبعة عشر، وعلى أية حال احفظ الطريق جيداً . لقد كنت ضابطاً في مثل سنك !

وكان يتظاهر بالتذمر والسخط، ولكني شعرت بقلبي انه مبتهج مسرور، وأحسست بعطفه يشملني، فأخجلني ما يتحمله في سبيلي من المشقة وهو الشيخ السبعيني . وحين عودتنا ضربني بعصاه برقة وقال : انك الآن طالب بالسعيدية فاجتهد كي ترفع رأسنا . اريد أن اراك ضابطاً قبل أن أرحل .

ودعوت له بطول العمر من أعماق قلبي . وسكت ملياً ثم قال بغير مناسبة ظاهرة:

– على أيامنا كانت الابتدائية شهادة عظيمة تعادل بحق أكبر الشهادات في هذه الأيام !. وهز رأسه ثم استدرك قائلا : كانت أياما، وكنا رجالا !!.

* * *

انتهت العطلة الصيفية فألم بي الحزن والكآبة . كانت المدرسة المنغص الأول لحياتي، فكرهتها كرها عميقاً صادقاً . حقاً كنت بصدد مدرسة جـديدة اقترنت في ذهني بالرجولة والفخار، ولكنها مدرسة على أية حال لا تخلو من مواعيد وفصول وتلاميـذ ومدرسين وعقوبات، ودروس تفوق صعوبتها بلا شك سابقاتها في المدرسة الابتدائية . وفي صباح السبت الأول مـن اكتوبر استيقظت مبكراً بعد انقطاع هـذه العادة الثقيلة أربعة أشهر، وأرتديت البدلة، وتأنقت كعادتي وانتقيت رباط رقبة فاخرا من صوان جدي ! وألقت أمي علي نظرة طويلة ثم قالت بسرور : كالقمر وحق كتاب الله !.. وجه أملك على بشرة بيضاء ليس لي مثلها . محروس بعناية الرحمن .

ومضت توصيني بالحيطة في المشي والركوب والـنزول وعبور الطريق، ودعت لي طويلا .. ولما غادرت البيت وقفت بالشرفة تراقب سيري حتى غيبني عنها منعطف الطريق . وواصلت السير مغتماً محزوناً حتى بلغت محطة الترام بشارع قصر العيني . ووقفت أنتظر الترام وحـدي لأول مرة في حياتي،

فداخلني احساس بالحرية لم يداخلني من قبل . وسرى عني قليلا فوجدت شيئاً من الارتياح ، ثم لاطفني أمل في بدء حياة جديدة ! ، حياة لا تكدرها التعاسة التي لازمتني في مدرسة العقادين . أني ماض إلى مدرسة جـديدة ، وسألقى أناساً جدداً ، فلماذا لا ابدأ صفحة جديدة ؟ اللهم اني اذا اجتهدت تحاميت قسوة المدرسين ؟ واذا أحسنت التودد إلى التلاميذ اكتسبت مودتهم ودفعت زرايتهم ، وهذا شيء يقدر عليه الكثيرون فلماذا أعجز عنه وحدي؟!. ورقص بين ضلوعي حماس بهيج ، وقلت لنفسي اذا نجحت فيما أخفقت فيه في ماضي حياتي هيأت لنفسي حياة طيبة وحببت إلى قلبي الحياة المدرسية المقضى علي بها أردت أم لم أرد . وذهبت إلى السعيدية متفيئاً ظل الأمل الجديد الذي انبثق في نفسي بغتة على محطة الترام !.. ولكني وجدت الحياة أشق مما هيأ لي الأمل ، فحال خجلي الشديد ونفوري من الناس دون اكتساب صديق ، وضيع شرود ذهني عـلي اجتهادي هباء !. لشد ما عانيت من شرود ذهني ! لقد سلبني عقلي وأفقدني كل قدرة عـلى الانتباه وتركيز الفكر ، وجعلني صيداً سهلا للمدرسين . وقد استيقظت مرة من شرودي – في الأسبوع الثاني مـن حياتي المدرسية الجديدة -- على مسطرة المدرس وهي تصدم جبيني ، وصوته وهو يسألني بلهجة الوعيد : قلت تحد شمالا بماذا ؟. فحملقت في وجهه بارتباك وفزع حتى نسيت ان أنهض قائماً فزعق بي :

– تفضل بالوقوف لترد على خادم ابيك !.

ونهضت فزعاً ، ولبثت متصلباً دون ان أحرى جواباً ، فلطمني على خدي وصاح بي : تحد شمالاً بماذا ؟.

ولما لم أخرج عن صمتي لطمني على خدي الآخر وسألني : لندع مؤقتاً ما يحدها شمالاً ، فما هي التي أسأل عما يحدها شمالاً ؟.

لازمت الصمت وخداي يلتهبان ، فانهال علي لطمة يميناً ولطمة شمالاً وانا لا اجرؤ على تغطية وجهي بيدي ، حتى انفثأ غضبه فأمرني بالجلوس . وضج جانب من الفصل بالضحك ، وجلست اغالب دموعي . انقلبت مرة أخرى إلى أذى المدرسين وسخريه التلاميذ . ومضيت إجتر آلامي في صمت واليأس يفتك بنفسي فتكاً ذريعاً . خبا الأمل وانتهت المحاولة الجديدة بالاخفاق السريع ، وعدت

إلى تعاسي المعهودة . وعلى رغم ذلك تعلقت بخيط واه فكرست جل وقتي للمذاكرة وعكفت على كتبي ساعات متواصلة ، ولكنه كان مجهوداً ضائعاً إلا أقله ، والحق اني كنت اثبت عيني على الصفحات على حين يتطاير خيالي في وديان الأحلام فلا أستطيع لمه . وهي أحلام تحركها الشهوة وتعبث بهــا الخادمات القذرات ، ثم تنتهي بالعادة الجهنمية التي أدمنت عليها مذ ناهزت الحلم ، فلاتفوت ليلة إلا وانصهر في أتونها في لذة مفتعلة وندم موجع طويل .. ولم اقف من رغبتي في صداقة الرفاق موقف الجمود المطلق ، ولكن اخفقت في مسعاي اخفاقاً كاملاً. كان يقابل تلك الرغبة في نفسي ميل أصيل للوحدة ، ونفور وخوف من الناس على النفس دفعني إلى الكتمان الشديد فلا أحب ان يقف انسان على سري ولا حتى مسكني أو عمري ، هذا إلى عجز عن الحديث ، وعدم فهم للنكتة فضلا عن تأليفها ، فلم يجد في أحد من التلاميذ ميزة تجذبه إلي ، وعادوا يرمونني بثقل الدم . أخفقت في اكتساب صديق ، وعشت العمر بلا صديق . بيد اني لم أكن ادرك حقيقة نفسي ، فاتهمت الرفاق دون نفسي بالعيوب التي حرمتني الصداقة ، واعتقدت زمناً انه لا صديق لي لأنه لا يوجد من هو أهل لصداقتي !. ماأعجب غرور الانسان ! ان السماء والأرض لا تسعانه . وعلى عجزي ونقائصي كان يخيل إلي احياناً اني الكمال المطلق ، فهذا الحياء القاتل أدب ، وهذا الأخفاق في الدراسة عبقرية بطيئة النمو ، وذاك الفقر المدقع في الصداقة والحب تسام ، وأمدني علم النفس – الذي درس لنا عاماً في السنة الخامسة – بألفاظ غامضة انتفعت بها في ارضاء غروري الكاذب. ومع ذلك كانت تثقل علي ساعات يأس فأكاد استشف الحقيقة ، وقد قلت لأمي يوماً ، وهي الحبيب والصديق والأنيس الذي لم أظفر بسواه : لا صديق لي ، التلاميذ يزدرونني !.

فتولاها الغضب ، وهتفت بي : ان نعلك بألف رأس من هؤلاء التلاميذ . انهم لا يحبون من لايجاريهم في شطارتهم وسوء خلقهم ويحسدونك لحيائك وأدبك. لاتحزن فلا فضيلة وراء البعد عن الناس !

فقلت محزوناً : أشعر احياناً بأني وحيد فتثقل الوحدة علي !

وهالها قولي ورمقتني بانكار ، وقالت : واين أمك ؟.. كيف تقول هـذا وامك على قيد الحياة ؟. ألست أكرس حياتي لخدمتك ورعايتك ؟!.

اجل ، انها تكرس حياتها لي ، وانهـــا كل شيء في حياتي ، ولكن من لي خارج بيتنا؟!. واطردت حياتي المدرسيه في تعثر وتثاقل على رغم كونها تتوكأ على عكاكاذ من المدرسين الخصوصيين . ولشد ما كان يحزن جدي كلمـا سقطت في امتحان ، ولم يعد يسخر مني في مزاح ، ولعل طعنه في العمر ، رده شديد الاشفاق على مستقبلنا فكان يقول لي :

– لماذا تخفق هكذا يا كامل ؟. أكل عام بعامين ؟.. ألا ترى اني أتلهف على رؤيتك موظفاً قبل أن أموت ؟

وكان كلامه يقع من نفسي موقعاً محزناً ، ثم اقول له صادقاً :

– ما الوت أن ذاكرت حتى منتصف الليل .

وتبادر أمي إلى تأييدي في قولي فيهز رأسه الأبيض ويتمتم : الأمر لله .

ولذلك كنت اتوقع موسم الامتحان بقلق وخوف تتخللها الأحلام المزعجة ، ولذلك أيضاً كان يغريني الحيـــاء والغرور بتصنع التعب والتوعك في الأشهر السابقة للامتحان لأعتل بها على اخفاقي المتوقع . وكانت أمي من ناحيتها تزور أم هاشم وتنذر النذور ، وتشد حول عنقي التماويذ . ولا أنسى مرة – وكنت قريباً من امتحان الكفاءة – جاءتني بامرأة ممن يقرأن الغيب مستعيذة بقدرتها على الحاجي ، فحرقت المرأة بين يدي البخور ، وركزت في المدفأة عصا قصيرة وأمرتني أن أقفز فوقها ثلاث مرات ، وفعلت ما أمرت به ، فقالت لي بيقين : « ستنجح باذن الرحمن » ، ولما سقطت في الامتحان قلت لأمي متعجباً : « كيف أسقط وقد قفزت المرات الثلاث » ؟!.

وعلى رغم هذا كله واصلت الدراسة ، وطويت عهد الثانوي وحصلت على البكالوريا وقد ناهزت الخامسة والعشرين !.

* * *

داخلني على اخفاقي المتواصل شعور بالزهو والرجولة. ان كثيرين من موظفي الحكومة لا يحملون إلا البكالوريا فأنا رجل ذو شأن !. ولست اطمع من ورائها انخراطاً في سلك الحكومة ولكني أرجو أن أخرج بهـا من البيت ، أعني أن أتحرر بها من رقبته التي تشدني شداً يكاد يمزق ضلوعي . أجل لقد ملكني شعور جامح هفا بفؤادي إلى التجدد والانطلاق . لم أعد غلاماً يقاد من أنفه ، وهاهي

الحياة تستفزني للتمرد والثورة. ولكن أي تمرد وأية ثورة؟. على ماذا أو لماذا ؟ لم أجـد جواباً واضحاً ، والحق اني لم اكن افكر ، ولم يكن هياجي فكرياً ، ولكن ثورة شعورية تنبعث من أعماق نفسي، تروم الانطلاق والتغيير ، وتتشوف إلى المجهول . لم استبن هدفاً على وجه التحديد وعانيت حنيناً مؤلماً غامضاً كلما تحرك بصدري شملني بكآبة ووحشة. وكنت كلما استبدت بي تلك الأحاسيس وقعت فريسة ليد الغضب الحمراء ، فثار بي الغضب لأتفه الأسباب .

وفي تلك الاثناء كان جدي يهدف إلى الثمانين ، وكانت أمي تقطع الخطوات الأولى بعد الخمسين . انقلب جدي شيخاً نحيلاً ، ولكنه حافظ على صحته ونجا من شر الأمراض ، وتمتع بما وهبه الله من نشاط يحسد عليه ، ولم تزاوله روحه اللطيفة ودعابته الهادئة . أجل اضطر إلى تبديل نظام معيشته لأنه لم يعد يحتمل السهر الطويل المتواصل ، فكان يذهب إلى مقهى لونابارك صباحاً ليجتمع بقلة من صحابه ، ويمضي في النادي مساء ساعتين ثم يعود إلى البيت في العاشرة ، وكان يمشي مشيته العسكرية في قوة ووقار دون أن ينحني له جذع . أما أمي فقـد سارع اليها الكبر بنسبة اكبر منه إذا عدت بالقياس إلى عمرها . جف عودهـا واشتعل مفرق شعرها وسوالفها شيباً ، إلا أنها تمتعت بصحة جيـدة ، كما حافظ وجهها على جماله وبهائه. وكانت ربما استسلمت في أحايين للاهمال فلا تعني عنايتها المعهودة بهندامها . ولشد ما كان يتولاني الحزن والاستياء لذلك ، حتى قلت لها مرة « لاقيني بالهيئة التي تلقين بها الضيوف » ، ولم تخيب لي رجائي ذاك فكانت تبدو لي وهي على أحسن حال ، وطابت نفسي ورضيت .

وظن جدي ان الفرصة تهيأت ليحقق الأمل الذي طالما حلم به ألا وهو أن اصير ضابطاً ، ولكني كنت جاوزت السن المقررة للالتحاق بالمدرسة الحربية ، وحسب ان للشفاعة تستطيع أن تذلل تلك الصعوبة التي بددت حلمي فسعى إلى كثيرين من كبار الضباط ، ولكنه أفهم أن القانون لا يتسامح في ذلك . وحزن جدي حزناً شديداً ، وقال لي آسفـاً : لو دخلت الحربية لضمنت لك مستقبلا حسناً ، ولاطمأن قلبي عليك وعلى أمك .

وهز رأسه في سخط ، ثم سألني : علام نويت ؟!

فنظرت اليه في حيرة ، ولم أحر جواباً، فعاد يسألني : ألا تفضل مهنة بعينها؟

واشتدت حيرتي لأن نفسي لم تنزع بي إلى مهنة غير الحربية وذلك بتأثير جدي نفسه وإيمانه ، فلم أدر بماذا اجيب ، وقلت :

– كنت أمني نفسي بدخول الحربية ، أما الآن فالمهن كلها بالنسبة إلي سواء.

وقال جدي : اني اختار لك الحقوق فهي خير ما بقي لنا ؟. ولا اوصيك بالاجتهاد لأنه من العار أن يخفق الانسان في الجامعة ، وربنا يعيننا على مصروفاتها !

أسفت على ضياع المدرسة الحربية من يدي ، ولكني لم أدرك فداحة خسارتي الا حين أيقنت انني سأواصل الدراسة اربعة أعوام أخرى على الأقل ، أو ثمانية أعوام إذا سرت بالمعدل الذي لازمني في المدرستين الابتدائية والثانوية. وكنت بطبعي اكره الدراسة والمدرسة فنظرت إلى المستقبل بامتعاض غير قليل. ولم اكن أدري عن الجامعة شيئاً ، ولكن رجحت ألا تكون بغيضة كالمدرسة ، وقلت لنفسي ان طلابها في سن الرجال فلا يمكن أن يمثلوا بي كاخوان لهم من قبل خلّفوا في نفسي آثاراً لا تزول ، كذلك استبعدت أن يكون العقاب مما يجوز أن يعامل به رجال أو من هم في حكم الرجال . ودأبت على تحبيب الدراسة المنتظرة إلى نفسي ، ولم آل عن تهوين خطبها ، حتى استطيع أن ازدردها في صبر وأناة . وفي صيف ذلك العام قيدت طالباً بكلية الحقوق .

* * *

وفي صباح السبت من منتصف اكتوبر غادرت البيت مزوداً بالدعاء قاصداً الجامعة المصرية . ووقفت على طوار المحطة انتظر الترام ، وهو نفس الترام الذي كان يحملني إلى المدرسة السعيدية ، ولم اخل ذلك الصباح – على امتعاضي – من شعور بالزهو . واني لفي انتظاري إذ طرق مسمعي صفقة مصراع نافذة فتحت بعنف فلطمت الجدار ، فارتفع بصري إلى الدور الثاني من عمارة برتقالية اللون تقع أمام المحطة مباشرة ، حيث كانت توجد لافتة عيادة طبيب حتى قبل شهر تقريباً ، فوقع بصري على فتاة في الشرفة واقفة تحتسي شاياً . ادركت لتوي أن أسرة سكنت الشقة بعد أن اخلاها الطبيب ، وثبتت عيناي على الفتاة وجعلت أتابعها وهي ترفع القدح إلى شفتيها فترشف رشفة ، ثم تنفخ السائل الساخن بفم مزموم. وتبدأ وتعيد لاهية بلذة الشراب . وبدا لي منها قامة طويلة وقدّ نحيف رشيق وبشرة قمحية ، في سترة زرقاء وتايير رمادي ، وكأنها وشيكة

الذهاب إلى المدرسة في احتشام الطالبات . وكانت توليني جانب وجهها فلما اعتدل رأسها رأيت وجهها مستديراً ، توحي هيئته بتنسيق جميل وان لم استطع تبين معالمه من موقفي ، تعلوه هالة من شعر كستنائي ، فبعثت في نفسي أثراً بهيجاً ولم تبق هدفاً لناظري إلا قليلاً ، ثم دارت على عقبيها ومشت إلى الداخل واحتفظت بصورتها في حب استطلاع ريثما جاء الترام ، ثم ركبت متخففاً بالأثر البهيج الذي بعثته في من كآبة اليوم الذي تبدأ فيه الدراسة . على اني وجدت في الكلية مزايا خليقة بأن تذهب مخاوفي وان لم تقلل من أسباب نفوري العام من الدراسة . من ذلك أن وقت الدراسة مقصور على اربع ساعات في اليوم تنتهي عادة في الساعة الواحدة ، ومنه تمتع الطلبة بحرية الحضور أو الغياب بلا رقيب ، ومنه وهو الأهم انعدام فكرة العقاب بل لمست في روح الطلبة ان مـــا يتهدد اساتذتهم أخطر مما يتهددهم . سررت بذلك كله ومنيت نفسي بأن تنتهي هذه الدراسة على مرها كما انتهت الدراسات السابقة ، ولم يكن جديداً علي أن اتجرع دراسة على كره ونفور حتى الثمالة وعندما عدت ذلك اليوم إلى المنزل شعرت بسرور مفاجيء هيأ لي اني رجل خطير . ونصف استاذ وربع وكيل نيابة !.

وفي صباح اليوم الثاني تذكرت الشرفة وأنا أشارف المحطة فرفعت عيني مدفوعاً بتطلع هادىء طبيعي ولكني وجدتها خالية ، وتسلل بصري إلى الداخل فرأيت مرآة في الجدار المواجه وإلى اليسار عمود سرير فضياً لامعاً ومصباحاً كهربائياً يتدلى من السقف ذا قبعة زرقاء كبيرة ، ثم بدا في وسط الحجرة رجل في الخمسين ذو نظارة ذهبية يزرر حمالة بنطلونه ، فخفضت بصري ورحت أقطع الطوار جيئة وذهابا . ولاحت مني التفاتة إلى المحطة المقابلة ، للترام الذاهب إلى العتبة ، فرأيت الفتاة واقفة – وقد عرفتهـا بقامتها وزيها – وبيدها كتاب . كانت تتسم بنظرة مستقيمة تنم عن الحياء والحشمة ، وتقف في وقار بدا حلواً بالقياس إلى عمرها الذي لا يجاوز العشرين ، ولم يكن بصرها يعلق بأحـد ممن يحتشد حولها أو يمر بها ، فأثر تحفظها في نفسي أثراً جميلاً ملأني احتراماً واعجاباً ثم شعرت نحوها بانجذاب وحنان ولم يكن تأثير المرأة بالأمر الجديد على نفسي ، فاني أرى الحسان في الطريق أو في الترام ، واتبعهن عادة بنظرة رجل عابر أمضه الحرمان والوحدة والرغبة ، وأرجع منهن بالنشوة البديعة والهزة الموجعة . أما

هذه الفتاة فلها شأن آخر ، فلن يكون موقفي منها موقف العابر ، ولكن موقف المقيم ومن هو في حكم الجار ، فاني أراها اليوم، وأراها غداً ، وإلى ما شاء الله فضاعف ذاك من اهتمامي بها وحرك في قلبي آمالاً وهمية ، ومناني بسرور متجدد، فكأنه نوع من التعارف ولون من الأمل الغامض ، وملهاة سرور سلبي لا يطمع في اكثر منه شخص خجول هياب مثلي . ثم ذهبت إلى الكلية طيب الشعور ، متسائلا : هل يمكن يا ترى أن تنتبه إلي ؟!. وقد ذكرتها في اعماق الليل ، في وحدتي النفسية ، وهذيان الأحلام الجنسية يعبث بخيالي ، فوجدت من نفسي اعتراضاً وتمرداً واباء شديداً ، فأبعدتها عن أتون عادتي الذميمة ، قانعاً هنــا بالحيوانات القذرة التي تلهب أحط الاحساسات من جسدي ..

وفي صباح اليوم الثالث انطلقت إلى المحطة وكأني من التطلع على موعد ، وأرسلت ناظري إلى المحطة المقابــلة ، فرأيتها بموقف الأمس بقامتها الفارعة ووجهها البدري ووقارها الجذاب . وسرى في جوانحي الارتياح . ثم حدثتني نفسي بأن أجد سبيلاً إلى الاقــتراب منها وهي لا تدري بي لأروي ظمأي إلى معرفــة وجهها عن كثب ، وحثني الاشفاق من مجيء الترام الذي تنتظره إلى تنفيذ ما تطمح اليه نفسي دون تردد ، فاتجهت صوب المحطة الأخرى بقدمين قلقتين وقلب يغوص في صدري فرقا ، ومررت بها مسترقا النظر ، فرأيت في عجلة المذعور عينين عسليتين صافيتين تقطران ملاحــة ، وأنفا صغيراً دقيقاً وشفتين رقيقتين ، ولعلها أحست حرارة بصري فرفعت عينيها عرضاً فالتقت عينانا ، وسرعان ما استرددت بصري لأنه أيسر علي أن أحملق في قرص الشمس أبان اعتدالها من ان أحتمل وقع نظرة عين ، ومضيت إلى طرف الطوار ولبثت حائراً لا أدري كيف اعود إلى المحطة الأخرى . وخيل إلي اني ارتكبت شططا جنونيا فأوقعت نفسي في ورطة عسيرة المخرج ، هكذا كانت تتراءى لي أتفه الأمور . ولبثت متسمرا حتى استقلت الفتاة الترام وخلا الطوار من المنتظرين فعدت إلى مكاني لاهثاً ، وجعلت أحدث نفسي : أجمل بها من ملاحة ورشاقة واحتشام وعشت مع خيالها يومي فلم أكد أنتبه إلى ما يلقى علي من محاضرات . وعلى قدر ما نازعتني النفس إلى تملي عواطفي عــلى قدر ما ازددت كرهاً للمحاضرة التي تعترض سيل أخيلتي ، ففاض بي شعور بالتمرد على تلك الحياة

الدراسية التي تعذب عقلي وتتجاهل قلبي وشعوري وكأني أنتبه إلى قلبي لأول مرة ، فأحس به عضواً حياً مثل بقية الأعضاء ، يجوع جوع المعدة ، ويرق رقة النفس ، ويتشوف تشوف الروح ، فتمنيت ان اكرس حياتي لسعادته ، وأن أستسلم لحنان المتعة التي تتفجر عنها ينابيعه .

وتنهدت من الأعماق وأنا جالس في نهاية قاعة المحاضرات بجسم حاضر وعقل غائب . وحدثتني نفسي بأن وراء هذه الحياة الجافة الضيقة المكبلة بالأغلال حياة ناعمة واسعة حرة ، فهفت نفسي اليها في جزع ولهفة . وعدت إلى الفتاة ، ولم يقنع خيالي هذه المرة بالرؤية ، فخلق ما شاء له هواه فرأيتني ألفت نظرها إلي ، واقترب منها كما فعلت في الصباح ، ولكني لم أرتبك كما ارتبكت فأومأت اليها في جسارة نادرة ، ويغلبها ابتسام المودة فتبسم إلي ، وأهمس لها بما احب وتهمس لي كذلك ، ونركب الترام معاً ، وفي مكان ما على شاطىء النيل أقول لها أحبك ، فتقول لي بوجه مضرج بالدم وأنا ، فأهوى إلى خدها الثمه في اعجاب واحترام وحب يسمو عن الشهوات ، أجل لا يحب خيالي أن يصورها لي إلا في ردائها الطويل تحوط بها هالة الوقار والاحتشام .

وبكرت في الذهاب إلى المحطة في صباح اليوم الرابع فوجدت الشرفة خالية ،ونقلت بصري إلى نافذة على يسار الشرفة فرأيت الفتاة من جانب وجهها، وكانت تقف وقفة العناية والاهتمام التي يقفها الشخص حيال صورته على وجه المرآة ، ومضت تسوي شعرها وتمنحه اللمسات الختامية التي تشبه لمسات التدليل والمداعبة فانشرح صدري وتنبهت يدها بجوارحي حتى خلتني أجد مس الشعر الناعم واشم عرفه الطيب . ثم رأيتها تتحول عن المرآة وتطل من وراء زجاج النافذة على الطريق فقدرت من اتجاه وجهها ان عينيها على طوار المحطة ، ونزعت بخجلي الفطري إلى خفض عيني ، بيد انني تشجعت ببعد المسافة بيني وبينها وثبت عيني بجهد قليل . ترى هل وقع بصرها عليّ ؟. وهل ذكرت فتى الأمس الذي التقت عيناه بعينيها لحظة بديعة ؟. كلا انها لا تحس لي وجوداً ، ولن تحس بهذا الوجود . لبثت قليلاً ، ثم تراجعت إلى الداخل وغابت عن ناظري. وقطعت طوار المحطة ذهاباً وجيئة ، ثم عدت إلى موقفي ، وجاء ترام اثر ترام ثان وأنا بمكاني كالمنتظر . وفي اثناء ذلك ظهرت في الشرفة فتاة في العاشرة في مريلة

زرقاء أدركت لتوي انها اختها . ثم رأيت فتاة تبرز من العمارة وتتجه صوب المحطة المقابلة . رأيتها تسير لأول مرة، فتحدث مشية هادئة متزنة توافق وقارها الجميل وتناسب قدمها الرشيق وقامتها الطويلة . وتحرك في أعماقي الاعجاب والاحترام . وأرسلت اليها بناظري حتى جاء الترام وصعدت اليه . استوفيت جزاء الانتظار سروراً وارتياحاً ، وركبت الترام مزوداً بأطيب أزاهر الأحلام، ولم يخف عني اهتمامي بها ، وسروري باحتشامها ووقارها ، فلم أشك في أن التطلع لذاك البيت سيكون من الآن فصاعداً هوايتي . وقلت لنفسي : « ما أحوجني إلى رفيقة لحياتي في مثل كمالها ؟ » ، وضاعف من حسرتي انني عشت حياتي بلا رفيق . على انني شعرت بقلق من جراء افصاحي عن هذه الرغبة ، كما شعرت بحياء شديد. ولم تكن تلك أول مرة أفصح بها عن الرغبة في الرفيق، ولكنه كان افصاحاً عابراً وتشوقاً عاماً ورغبة بلا هدف معين وشوقاً غامضاً ، أما هذه فافصاح خطير حرك حيائي وخوفي ، وتشوف خاص ، ورغبة يغرر بها أمل ، وشوق يستمد الوقود كل صباح . وأعجب ما في شعوري انه كان شعوراً بيتياً ان صح هذا التعبير ، فانصب من بادىء الأمر على الفتاة وبيتها ، وما ذكرتها قط إلا وتحضرني صورة البيت ، فامتزجت الصورتان في مخيلتي ، ونالتا من اهتمامي واحلامي نصيباً واحداً ! . وسرعان ما تمثلت فيها زوجتي !، ولا عجب فاني امرؤ اذا وقعت عيناه على فتاة في الترام نشطت احلامه الشاردة فتصور أنه خطبها وعقد عليها وزف اليها والترام لا يزال في منتصف المسافة ما بين جسر الملك الصالح وجسر عباس ! فكيف لا أتمثل فتاة الصباح زوجة ؟! وملكني الاعجاب والاحترام ، وقدسية الاحساس البيتي ، وحنان العاطفة الزوجية ، وانتظم هذه الأحاسيس خيط موصول من الميل الصادق ، لعله الحب الذي لم يعرفه قلبي .

وفي صباح اليوم الخامس أطلت وقفتي حيال المرآة قبل ان أغادر البيت ، وألقيت على صورتي نظرة متفحصة . ينبغي ان أعترف هنا باعجابي الشديد بذاتي !!. فلم تكن أنانيتي بقاصرة على سلوكي ، ولكنها امتدت إلى حب الصورة والاعجاب بها . ولشد ما أنعمت النظر إلى هاتين العينين الخضراوين الواسعتين ، وهذا الأنف الدقيق المستقيم ، وهذا الوجه الطويل المتناسق ذي

البشرة البيضاء . وكان تأنقي مضرب الأمثال في البيت والمدرسة على السواء حتى لأذكر قول أستاذ اللغة العربية لي مرة : « لو أتقنت العربية أتقانك لعقد رباط رقبتك لما كنت اسوأ تلميذ عندي ! » نظرت إلى صورتي طويلا ذاك الصباح ، وجعلت أمي ترمقني باعجاب وتمازحني بكلمات كالغزل فقلت لنفسي آه لو تدري لمن انا أتأنق !. وغادرت البيت في ارتياح مطمئناً إلى ما عسى ان يتركه منظري من أثر حسن في نفس الفتاة اذا شاء القدر ان يلفت عينيها إلي .
بيد ان ارتياحي لم يطل ، وذكرت امراً طالما نغص علي صفوي ، ففتر حماسي . ذكرت ما رميت به كثيراً من ثقل الدم ، ولم استبعد في تلك اللحظة ان يكون ذلك العلة في اخفاقي في اكتساب صديق واحد ، وسرعان ما تكدر صفوي وتجهمت لي الدنيا . وسرت بخطا ثقيلة حتى انتهيت إلى المحطة . ودار بصري ينقب في مكانها حتى استقر عليها في الشرفة تحتسي الشاي كما رأيتها أول مرة . هناك نسيت كدري وهمي ، وانشرح صدري ، وانبعث السرور في كل قطرة من دمي . هناك أدركت أنها سروري وفرحي وأنها روحي وحياتي ، وان الدنيا من غير طلعة محياها لا تساوي ذرة من رماد !.

وواظبت على ذاك الموعد الذي لا يدري به الطرف الآخر شهرين أو يزيد ، يوماً بعد يوم دون انقطاع أو تأخير . تطلعت بناظري حتى كلّ البصر ، ووهبتها الاعجاب والاحترام عن طيب خاطر حتى نؤت بها ، وتمليت السرور والاحلام حتى نسيت الحقيقة والواقع ، وسحت في دنيا الهيام حتى سلبت العقل والرشاد ، حفظتها عن ظهر قلب ، طولا وعرضاً ، ايماءة ولفتة ، ووقفة ومشية ، سكوناً وحركة ، وعرفت من وراء زجاج النوافذ أسرتها من أب وأم وأخت وأخ ، كل هذا وهي لا تدري بي ، ولا تحس لي وجوداً ، وكأنني بالنسبة اليها ليس من سكان هذا الكوكب . وامضني الجزع والضيق ، واحرقتني الرغبة في اثبات وجودي ، ولكن شدني عجزي إلى موقفي لا أتعداه . حلمت في شرودي كثيراً بأني أعترض سبيلها ، وأتبعها ، أو أني أبوح لها باعجابي واحترامي ، أما في الحقيقة فلم تكن تبرز من باب العمارة حتى ينقبض قلبي حياء وخوفا ، وحتى أتهيأ لغض بصري فيما اذا اتجه بصرها نحوي . ولعله كان أسهل علي أن أرمي بنفسي من جسر الملك الصالح من أن أصمد لنظرة من عينيها .

وكنت أتساءل في يأس وجزع متى تنتبه لوجودي ؟ متى تدري أن هنالك قلباً غريباً يكنّ لها من الوداد أضعاف ما يكنه لها الوالدان ؟!.. أليس غريباً أن يمر شخص مرّ الكرام بقلب يود لو يفرش شغافه تحت قدميه ؟!.

وتركزت أفكاري – تلك الفترة – في قلبي بآلامه وآماله ، مخاوفه وأفراحه ، وشعرت شعوراً قوياً بحاجتي إلى نصيح أو مشير ، وكانت أمي هي صديقي الوحيد في دنياي ، ولكني لم أتوجه اليها بطبيعة الحال في أزمتي تلك لشعوري بأنها ستقف من رغبات قلبي موقف العداوة !.. بيد اني وجدت في بعض المجلات التي يقرأها جدي صفحات مخصصة لأسئلة القراء فأملت أن أظفر منها بالمشير الذي أفتقد. وأرسلت إلى احداها هذا السؤال الذي أقض مضجعي: « رجل ثقيل الدم ، أليس ثمة أمل أن يحبه محبوبه ؟ » ، وكان جواب المجلة « الحب سر من الأسرار لا شأن له بالخفة ولا بالثقل ، وقد يتعامى عن القبح والدمامة فلا تخف على حبك من ثقل دمك !! ، واذا جاز لنا أن نتفلسف عن طبيعة المرأة فلعله يصح أن نقول انها مغرمة بالقوة والشجاعة ! » سررت بمطلع الاجابة ، فلما أن بلغت ختامها خامرني شعور بالخيبة ، وتساءلت عما يعنيه بالقوة ،.. آه . لست قوياً على أي حال ، والحق أن أدماني العادة المرذولة جعلني نحيفا أكثر مما ينبغي وأضفى على بشرتي شحوبا . وعندما ذكرت الشجاعة لم أتمالك نفسي من ضحكة مريرة ، وعددت ما يخيفني في هذه الدنيا من الأناسي والاجواء والفيران والصراصير ، فعصر اليأس قلبي !.

ولكنني لم أسلم لليأس لأن النار التي تستعر بنفسي كانت أقوى من ان تخمدها ضربة من قبضة اليأس الباردة ، فأرسلت إلى المجلة هذا السئوال : « كيف أجذب محبوبتي ؟ » ، وكان الجواب : « اذهب إلى أبيها أو ولي أمرها واطلب يدها اليه واني كفيل بأن تحبك ! » رباه ، ما أقسى المجلة !.. انها لا تدري اني طالب ، وأن أمامي أربعة أعوام – أو ثمانية – قبل أن اصير رجلاً مسؤولاً ، وانني فوق هذا كله . اقدر على اقتحام ابواب جهنم مني على طرق باب محبوبتي لأطلب يدها .. يا أسفاً ، ألا يعلم هؤلاء الناس ما الخجل ؟!. ما أراني الا مقضياً عليّ بالهيام الصامت المنفرد وحبيبتي على قيد خطوة مني !.

* * *

واعترض سبيلي حادث لعله في ذاته تافه – ولكنه غيّر مجرى حياتي. وكانت حياتي الدراسية نزاعاً متواصلاً بين عقلي الراكد ونفسي الشاردة يتمخض كما تمخض في الماضي – عن عناء شديد وثمرة قليلة. وقد بات الشرود لدي ملكة آسرة غلبت على نفسي جميع قواها العقلية، حتى أشفقت من ألا أنال الليسانس قبل الخامسة والثلاثين!. على اني عرفت من خطورة دراسة القانون أشياء وغاب عني شيء لا يكاد يقيم له الطلبة وزناً، بل يقبلون عليه في سرور ويعدونه رياضة ولهواً، ذلك هو درس الخطابة. وكان يلقى علينا مرة في الاسبوع في مدرج عام يحضره جميع طلبة القسم الاعدادي. وفي اثناء الشهرين الأولين استمعنا إلى دراسة نظرية في فن الخطابة ثم بدأ التدريب العملي. وطفق الاستاذ يدعو الطلبة إلى ارتجال الخطب في الأغراض المختلفة فكانوا يخطبون بطلاقة، وبأصوات جهورية، في ثبات وشجاعة. ورحت انصت اليهم في دهشة مقرونة بالاعجاب البالغ، مأخوذاً بطلاقتهم وشجاعتهم، مذهولاً لقدرتهم على التصدي لهذا الموقف الرهيب حيال هذا الجمع الحاشد، فكنت أتطوع بالخجل نيابة عنهم حتى يتفصد جبيني عرقاً!. وما أدري في أحد الأيام إلا والأستاذ ينادي: كامل رؤبة لاظ!

ونهضت قائماً بحركة عكسية، في الصف الأخير من المدرج – المكان المفضل عندي – حيث لا تقع علي عين. وأحدث اسمي اهتماماً ساخراً، فهمس احدهم قائلاً: هذا حفيد لاظوغلي!.

وتساءل آخر: اسم هذا أم فعل؟!

وقفت مبهوتاً خافق الفؤاد، فقال الاستاذ: تعال إلى المنصة..

وتسمرت في مكاني في ارتباك لا قبل لي به، ورغبت ان اعتذر ولكن بعدي عن الاستاذ كان يوجب علي أن أعلي صوتي فيسمعه الجميع، فسكت على رغمي. ونظر الاستاذ إلي دهشاً، ثم قال: مالك واقفا لا تتحرك؟.. تعال إلى المنصة!

واستدارت الرؤوس الي حتى شعرت بأني احترق تحت وقعها، واستحثني الاستاذ باشارة من يده، فقلت على كره: لماذا؟.

وضحك كثيرون من سؤالي، وقال الاستاذ بحدة: لماذا؟!.. لكي تخطب يا أخي كالآخرين!.

وقلت بصوت منخفض لم يجاوز صفين من المدرج: لا أدري كيف أخطب!

وطبيعي ان صوتي لم يبلغ الأستاذ فتطوع طالب قريب بابلاغ جلتي صائحاً بلهجة ساخرة : يقول انه لا يدري كيف يخطب !.

فقال الأستاذ بلهجة تنم عن التشجيع : هذا درس تدريب ، وأخلق ان ينتفع به من لا يجيد الخطابة . تعال ..

ولم أر مناصاً من الذهاب ، فتحركت قدمي في جهد وعذاب كأني أساق إلى المشنقة ، ثم ارتقيت المنصة في حالة ذهول ، ووقفت محدقا في الأستاذ باستسلام واستعطاف موليا المدرج جانبي الأيسر . وأدرك الأستاذ ارتباكي فقال بلطف :

– انظر إلى زملائك ، واملك جنانك ، وتكلم كأنك وحدك . لا بد من اعتياد هذه المواقف لأن حياة الحقوقي لا تخلو ساعة منها والا كانت هراء لا معنى له. كيف تقف غدا في ساحة القضاء سواء تحت ظل النيابة أم المحاماة ؟!.. ادع شجاعتك وأخطب هذا الجمع حاثا اياه على التبرع لاحدى الجمعيات الخيرية.

وتطلع إلي الجميع باهتمام شديد لم يحظ بمثله الخطباء المصاقع ، فحملقت في الوجوه المتطلعة دون ان أرى شيئاً ، ولفني ذهول وخجل مميت فكدت أقع مغشياً علي ، وتولاني ذلك الاحساس الحـــاد بالقنوط الذي يمسك بخناقنا في الكابوس . ولم يخطر لي لحظة واحدة أن افكر في الموضوع ، ولعلي أنسيته ، ولم يكن يدور بخلدي الا هذا السؤال : متى تنكشف هذه الغمة ! ومل الأستاذ الأنتظار فقال : تكلم . لا تخش الخطأ . أفصح عما يخطر ببالك جميعاً .

رباه متى ينقضي هذا العذاب ؟ هيهات أن يرثي أحد لي . وها هم الطلبة يتغامزون ويتضاحكون، وقد قال احدهم بلهجة من يحذر اخوانه من الاستهانة بي : هكذا بدأ سعد زغلول .

وقال آخر : وهكذا انتهى !.. وصاح ثالث : انصتوا إلى بلاغة الصمت .

وامتلأ المكان ضجة وضحكات فدار رأسي واخذت أتنفس بصعوبة ، ثم صممت عـــلى انهاء ذلك الموقف المحزن فغادرت المنصة ومضيت صوب باب الخروج دون التفات إلى نداء الأستاذ ، وضجة الشياطين تلاحقني وتصك أذني ، وما زلت أخبط على وجهي محموماً هاذيا حتى انتهيت إلى محطة الترام . ورحت أردد بتصميم وحنق « لن أعود .. لن أعود » . كان ذاك التصميم البلسم الشافي لجرح ذلك اليوم . أجل لن اعود ، ولن تقع أعينهم عـلي مرة أخرى ، ولن

أعرض نفسي لبسمات الهزء والسخرية ، واية فائدة ترجى من العودة إلى الكلية ما دامت حياة الحقوقي لا تخلو ساعة من هذه المواقف ؟! الأفضل ان أسدل الستار على عهد الدراسة كله ، وحسبي ما عانيت من عبودية العذاب . وتعزيت بهذا التصميم عن جميع ما لحقني من مهانة واحراج ، بل نسيت به ألمي وحنقي فترطب صدري المحترق بنسمة ارتياح ، وعدت إلى البيت وليس أمام عيني إلا ذاك التصميم . وبعد الغداء قصصت على جدي وأمي ما لقيت في يومي من شدة ومكروه ، واختنق صوتي بالبكاء وانا اقول :

– هذه حياة لا تطاق ، ولن اعود إلى الكلية ابداً . وهال جـدي الأمرَ فقال بانزعاج : أأنت رجـــل !!. ألا ليتك خلقت بنتاً . اذن لكنت أكمل الفتيات؟.. أتريد ان تقطع حياتك التعليمية في الطور الأخير منها لأنك عجزت عن قول كلمتين !.. والله لو كانت امك مكانك لخطبت الموجودين !.

وجعلت امي تقبض أصابع يمناها وتبسطها في تشنج وتقول :

– حسدوه .. حسدوه يا ربي !. وحاول جدي ان يثنيني عن عزمي تارة باللين وتارة بالعنف ، ولكن اليأس ثبت عنادي فلم انثن ، ولما فرغ صبره قال لي بحدة : اذن ضاعت السنة ، وليس ثمة فائدة من الحاقك بكلية أخرى بعد انقضاء شهرين ونيف على افتتاح العام الدراسي .

فركبني الخوف أن يلقي بي تارة أخرى إلى عذاب التعلم فقلت :

– ليس ثمة فائدة من مواصلة التعلم .

وقاطعتني أمي هاتفة بألم : لا تقل هذا يا كامل . بل لتواصلن التعلم سواء في هذا المعهد أم أي معهد آخر .

وضرب جدي كفاً بكف وهو يقول : لقد جن ، وهذه نهاية التدليل.

ولكني كنت كمن يدافع عن نفسه حيال الموت ، ولم يعد بي من صبر اواجه به الطلبة والدروس والامتحانات ، فقلت بقنوط :

– لا استطيع .. لا استطيع .. ارحموني !.

وثار جدل عنيف صمدت له بقوة لا قبل لي بها ، قوة مصدرها الخوف واليأس ، حتى سكت جدي مغيظاً محنقاً . وبعد فترة صمت مرهق سألني :

– أترغب أن تتوظف بالبكالوريا ؟.

فقلت خافض العينين : نعم !.

واختلست منه نظرة فوجدته صامتاً مقطباً ويـده تعبث بشاربه الفضي . وحولت عيني إلى أمي فرأيتها مغرورقة العينين . ومع ذلك فلست أشك في أن معارضة جدي كانت نصف جدية فقط . ولو أنه أراد حقاً أن يكسر عزمتي لما وسعني مخالفته . والحق إن أمر مستقبلنا كان يحتل من تفكيره مكانـاً واسعاً وخاصة في تلك الأيام الأخيرة التي استوفى فيها شيخوخته ، ولعله ارتاح لاقتراح توظيفي ليطمئن على مصير أمي .

وهكذا انقطعت حياتي الدراسية بعد أن قضيت نيفاً وشهرين بكلية الحقوق بيد انني لم أجد السرور الذي كنت أحلم به . أجل لم أفكر لحظة واحدة في الرجوع إلى تجربة الدراسة القاسية ، الا انني وجدت نفسي بحاجة شديدة إلى انتحال الأعذار الكاذبة عن انقطاعي عن العلم وفراري من معاهده ، وتصوير نفسي في صورة الضحية البريئة ، ومع أن محاولتي تلك نجحت لحد ما مع الآخرين أو على الأقل مع أمي الصديقة لي بالحق أو الباطل، الا انها لم تنفع معي إلا قليلاً . ملأني السخط والتبرم ، وثار بي نزوع نحو تأديب النفس ومعاقبتها ! واتخذ ذاك النزوع صورة حملة هجائية على نفسي ، فواجهت نقائصي في تسليم واعتراف لأول مرة.

رأيت حياتي كما هي أحلاماً شاردة سخيفة ، وخجلاً وخوفاً يميتان الهمم ، وأنانية مطلقة قضت عليّ بعزلة لا يؤنسها صديق أو رفيق ، وجهلاً بالدنيا وما فيها ، فلا زمان ولا مكان ، ولا سياسة ولا رياضة ، حتى المدينـة الكبيرة التي ولدت وعشت فيها لا أعرف منها إلا شارعين ، وكأنني أعيش في جحر بمفازة ! وغشيتني كآبة ثقيلة فاجترت احزاني في وحدة قلبية مهلكة . ولكن أمي لم تفارقني لحظة واحدة في تلك الأيام السود ، ولم تطق الوقوف مني موقف المعارضة طويلاً فسرعان مـا تحولت من جانب المعارضة إلى جانب التأييد ، وتظاهرت بالسرور والارتياح ، وقالت لي يوماً لتسري عني :

ــ الخير فيما اختار الله ، وهل نملك لأنفسنا شيئاً ؟!. وعما قليل تصبح رجلاً مسؤولا ، ويجيء دورك في تدليل أمك لتقضي ما عليك من دين !.

وقضينا الساعات الطوال معاً ، وأنا آنس بحديثها الطيب الشافي ، وبفضلها وحدها انكشفت عني الغمة وتفتح قلبي للحياة ونفض عن وجوهره غبار الوساوس .

واستشفع جدي بضابط عظيم من رجالات الجيش ممن « عمل ملازماً صغيراً تحت رئاسته في السودان » على حد قوله ، ليجد لي وظيفة بوزارة الحربية وكلل مسعاه بالتوفيق ولكن الضابط أخـــبره بأنني ربما عينت في السلوم . ولما قال جدي ذلك تجهم وجه أمي وقالت باستنكار :

– السلوم ؟! ألا ترى ان كامل لا يستطيع العيش بمفرده ؟! وكانت تظن السلوم بلداً قريباً كالزقازيق أو طنطا على الأكثر ، فلما عرفت حقيقتها ندت عنها ضحكة عصبية وعدت الأمر مزاحاً . وصاح جدي متبرماً :

– وظفيه بنفسك ، أو عينيه في حضنك واريحيني !.

ولكنه لم يأل جهداً فسعى لدى معارفه القدماء من مواليد القرن التاسع عشر ممن عملوا قديماً تحت قيادته ، ولعلهم تأثروا بشيخوخته الثمانينية ونشاطه الموفور وما أيقظ في صدورهم من ذكريات فوعدوه خيراً ، ووجدوا لي بالفعـل وظيفة بادارة المخازن بديوان الوزارة العام . ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا ألا ثلاث محطات وعشر دقائق مشياً على الأقدام فرضيت أمي وقرت عيناً ، وقدمت مسوغات التعيين وتقدمت للقومسيون الطبي العام كالمتبع ، وبالاختصار صرت موظفاً من موظفي الدولة . وكان الشعور الذي لابسني وأنا أغادر البيت ميمما الوزارة لأول مرة شعوراً معقداً ، فيه زهو وخيلاء ، وفيه فرح من عبوديـــة البيت والمدرسة على السواء ، ولا يخلو من قلق يساورني كلما أقبلت على جديد من الأمر . ومضيت بقلب خافق إلى محطة « محبوبتي » لأن طريقنا أصبح واحداً منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحطات معــــدودات ، ولئن لم يكن في الوظيفة إلا هذا لكان حسبي من الهناء والسرور ، واحتطت لقلبي الضعيف فوقفت في الطرف البعيد من « الطوار » حتى لا يصعقني وجودي على كثب منها . وجاءت بعــــد حين قليل تتهادى في مشيتها التي تجمع بين النشاط والوقار فاستقبلها قلبي بخفقان كزغردة اللسان ، ولبثت غاضاً بصري ولكن في نشوة جعلت الدنيا من حولي أطيافاً وترنيمات ، وجاء الترام فركبنا معاً ، وكانت أول مرة يجمعنا مكان واحد فسرى من ملمسه إلى جسدي مثل الكهرباء ، ووددت لو ينطلق بنا بغير توقف وإلى الأبد . وحين غادرت الترام عبرت الطريق متعجلاً الى الطوار وأرسلت بناظري إلى مقصورة السيدات فوقعتا على ظهرها وهي جالسة عاكفة على كتاب

بين يديها . ولما تحرك الترام التفتت فجـأة الى الوراء فوقع بصرها علي ثم ولتني ظهرها ثانية . انتفضت من الرأس الى القدم ، وتسمرت قدماي في الأرض وعلقت عيناي بالترام حتى لم أعد اتبين من معالمه شيئاً، ثم واصلت السير غائباً عما حولي سكران بالنظرة التي جادت بها السماء ،وتساءلت في ذهول ودهشة لماذا التفتت؟ أي داع دعاها إلى ذلك ؟ بل أي داع يمكن أن يكون هذا اذا لم يكن تلبيـة لنداء روحي الخفي ؟ ان الراديو يلتقط الصوت من تضاعيف الهواء على بعـــد الشقة ، فما وجه الاستحالة في ان تلبي الروح نداء روح أخرى مشحونة بالهيام والرغبة !! وازدهاني ذلك الخاطر وآمنت في سعادة لا توصف بأن لروحي تأثيراً على روحها . ولكن رحمتك اللهم ،فلشد ما ارتجفت تحت وقع النظرة الخاطفة . . ترى هل انكرت وجهي أم ذكرت به الفتى الذي تطلع اليها لحظة على المحطـة منذ ثلاثة اشهر ؟! وكنت قد اقتربت من الوزارة فعاودتني اليقظة رويـــداً ، وقلت لنفسي وكأني أودع ساعة النشوة المولية « اني أحبها ، وهذا هو الحب بلا زيادة أو نقصان ».

وخرجت من دنيا الهيام لأدخل دنيا الحكومة . وقدمت نفسي للمدير فقدمني بدوره إلى زملائي في الادارة وكانوا تسعة . هؤلاء قلة بالقياس إلى الطلبة وانهم لرجال حقاً فلا يمكن ان اتوقع منهم زراية أو سخرية ، ورجوت من صميم قلبي ان ابدأ حياة جديدة غنية ، ولما لم يعهد إلي أحد بعمل ذلك اليوم وجدت فسحة لمعاودة خواطري السعيدة عن الحرية التي أمني النفس بها ، والتي أرجو بها أن استنقذ نفسي من سجن البيت وعبودية المدرسة ، ثم عن النظرة السعيدة الـتي انتزعتها روحي من الأعماق قوة واقتدار .

وأقبلت على الحياة الجديدة بأمل جذاب . وظفرت بأول نوع من الصداقة عرفته في حياتي، وهو ما يسمونه بصداقة «المكاتب» هي صداقة جبرية تفرضها زمالة الموظفين في المكتب الواحد . وقد فرحت بها بادىء الأمر لأنه لم يسعني – انا الذي لم أعرف في حياتي صديقاً – إلا أن افرح بين تسعة من الرجـــال ينادونني بلا كلفة ، ويستقبلونني ويودعونني بأطيب تحية . ولكن واأسفاه قام خجلي حاجزاً منيعاً بيني وبينهم . ثم اثبتت لي التجربة ان تلك صداقة لا تستحق الأسف عليها ، فهي تبدأ مع الصباح بالتحية والمداعبة وقد تنقلب عند الظهيرة

إلى وقيمة دنيئة تختم بانذار أو عقاب. والأدهى من ذلك انني لم أعرف لي عملاً مستقلاً، ولكن ما من واحد منهم إلا ويكلفني بعمل آلي انفذه صاغراً. وربما قضوا أكثر النهار في ثرثرة وتدخين وشرب القهوة وأنا مكب على الأوراق في شبه سخرة. ولاشك أنهم فطنوا بمكرهم إلى اني « غر خجول » فاستغلوا ضعفي اسوأ استغلال. وضاق صدري، وخبا سروري بالحياة الجديدة في الشهر الأول منها، وايقنت اني المستجير من الرمضاء بالنار !. وزاد من سوء حالي أن الشرود لم ينقطع عني اثناء عملي فوقعت مراراً وتكراراً في اخطاء السهو، وتوالت علي الانتقادات الساخرة والانذارات ممن يدعونهم « برؤساء اليد » فكأنني رددت إلى المدرسة بتلاميذها ومدرّسيها، فعاودتني مرارة حياتي الماضية، وصح عندي اني لن اظفر براحة حقيقية ما دمت على صلة بأحد من الناس. واجترت آلامي في خفاء. ولم اكن اثور على شيء قط مما يشقيني، وكان ديدني دائماً ان اطيع بقلب دام كظيم، وسخط مكتوم. وزاد البلاء حدّة انني لم اجد لحياتي متحولاً، وأملاً في الخلاص ولو بعد حين. وقد كنت التجلد في المدرسة احياناً على أمل انها ستنتهي يوماً فأصير رجلاً حراً مسئولاً، أما الآن فلم أرَ أمامي إلا مستقبلاً متجهماً مريراً لا نجاة منه إلا الموت. أجل ادركت اني لن اظفر بالراحة مدى الحياة، وانه لن تزايلني الرغبة الخفية في الهرب. ولكن إلى أين هذه المرة؟. ولم يكن سر بلوتي في عجزي حيال العقبات فحسب، ولكن في تضخيمها وتكبيرها، فاني نصبت من عقلي حرب اعصاب هائلة ضد نفسي. لم أرض نفسي على الحيـــاة في الواقع، ولم اوطنها على احتماله، فلم أدرِ مـــا فلسفة الرضا او الاستهانة كما اني لم أقدر على فلسفة القوة أو الثورة، وكان اذا اصادفني أمر لا يحتمل - والدنيا كلها عندي لا تحتمل - راح خيالي السقيم يصنع من الحبة قبة، ولاقيت الهم بما يشبه الصبر في الظاهر على حين انطوي على نفسي في كمد قاتل وغم فتاك. لذلك لم يخل مكان أحل فيه من عدو حقيقي أو وهمي. كان التلاميذ والمدرسون أعدائي القدماء فغدا الموظفون أعدائي الجدد.

ولكن كنت أنت العزاء والسرور !. الحيـــاة صحراء قاحلة مهلكة وأنت بها وحدك الواحة الخضراء الرطيبة تلوذ بهـــا النفس. ووالله ما حمدت للوظيفة من شيء الا أن نقلني طريقها إلى محطتك، فعندها انتظر كل صباح مطلعك حتى

إذا رأيتك مقبلة في خفة الغزال ووقار الطاووس تراجعت إلى طرفها البعيد فيما يشبه الذعر ودعوت الله أن يخفف عني شدة الخفقـان ثم أسترق اليك اللحظ متحامياً أن تلتقي العين بالعين فالتقاؤهما جلل لا يصمد له الا الأكفاء . وإذا جاء الترام ركبنا معاً ولا تدرين سروري به إذ يحملنا معاً ، ثم أغادره فيسير بك إلى هدفه المجهول مزودة بدعائي أن يصونك المولى ويسعدك ، وتبقى لي بعد ذلك صورتك عالقة بخيالي تذر علي الأنس في وحشة سجني الجديد . ولكن ألام أظل على تلك الحال ؟. لقد صفق الجزع بقلبي ، وأمضني الانتظار .

وزاد من التياعي انني جعلت أراها في الأصائل كما أراها في الأبكار ، لأنني كنت أغادر البيت عصراً كما يحلو لكثير من الموظفين في غير معارضة من أمي التي لم يعد بوسعها أن تعارض في ذلك . وكنت أهرع إلى محطتي القديمة تلقـاء بيتها ، فأقف بين المنتظرين مستطلعاً مشرق روحي بطرف مشوق ، فأحياناً أرى الأم أو الأب أو الأخ أو الأخت ، وأحياناً أراها في فستان بسيط أنيق من فساتين البيت يزلزل نفسي زلزالاً شديداً .

لم أعد أرى لحياتي أملاً إلا في الرفيق الأنيس ،فهمت بها هياماً، واستأسرتني رغبة صادقة حارة في السعادة التي لم يكن لها من معنى في نفسي الا أن أفنى فيها وأن تفنى فيّ . بيد انني لم أتجـاهل العقبات ، وهل كان دأبي الا تكبير العقبات ؟! فلم أنس انني في أول الطريق وان مرتبي سبعة جنيهات ونصف ؟ ثم لاحظت بمزيد القلق أن ثمة رجلين يقفـان معنا في المحطة صباحاً لا يفتـآن ينعمان النظر في وجه الفتاة باهتمام . أما أحدهما فرأيته يخرج مرات من العمارة التي تقيم فيها ، وهو رجل في نحو الأربعين تلوح في وجهه آي الرزانة والوقار، ويتسم بطابع الموظفين المتازين . وأما الآخر فشاب في الثلاثين ميال للضخامة والبدانة مع أناقة ووجاهة ، الا أن ايماءاته ونظراته تنم عن العجب والزهو . وعجبت لتطلعهما المتواصل اليهـا وما من داع إلى العجب ، ولكني ظننتني – ويا له من ظن مضحك – أول من تهيأ له كشف ذلك الكنز . وثار بي الغضب والحنق ، وتلوت الغيرة في سويداء قلبي . انها لا تحيد عن نظرتها المستقيمة ولكن ترى هل تجهلهما حقاً كما تجهلني ؟ خصوصاً هذا الجار الذي يقطن تحتها أو فوقها؟ وتقبض قلبي فزعاً ويأساً ورمقتها بغيظ كأنها المسؤولة عن اهتمام الناس بها ؟.

واطردت حياتي بين عمل ممقوت وحب حائر غريب . وكان بيتنا في ذلك الحين يعد من البيوت السعيدة ، اطمأنت قلوب أهله ، فسكن خاطر الشيخ الهرم وقنعت أمي بما قسم لي ولها . بيد ان جدي قال لي يوماً بلهجة ساخرة :

– ألا اخجل يا رجل وابتع لك فراشاً ، أتظل الدهر تنام في حضن أمك؟!

وابتعت بالفعل فراشاً ولكني ركبته في نفس الحجرة فظلت تحوينا معاً ، وهي الحجرة التي رأيت فيها نور الدنيا .

* * *

ثم كان صباح تاريخي في حياتي إذ وقع بصرها عليّ ، والتقت عينانا . وهي قادمة نحو المحطة ، وارتعشت جوارحي وتساءلت وأنا أعاني الحياء : ألم تذكر في الفتى الذي رأته يوم لبت نداء روحي ؟! وأسكرتنى نشوة لم يخمدها مجيء الرجلين المتنافسين نفسه . وحملنـا الترام جميعاً حتى محطة الوزارة فغادرته ، وهرعت إلى الطوار ثم بعثت بناظري إلى مقصورة السيدات ، وكانت تجلس في الصف الآخر ووجهها إلى ناحيتي فالتقت عينانا مرة أخرى ، وغضضت بصري في حياء وصدري بالسعادة يبترد ، ثم غمغمت لنفسي وأنا أجد في السير « برح الخفاء وافتضحت ! » ، وقد تذكرت سعادتي عصرا وأنا جالس في حجرتي غير بعيد عـــن أمي فقلت لنفسي وأنا أختلس منها نظرة غريبة « آه لو تدري بأفكاري !». ألم تعلمني تجاربي الماضية ان مثل سعادتي هذه مما تعده هي –أمي– كفرا لا يغتفر ؟!. هذه حقيقة لم تغب عن خاطري قط ، ومع ذلك بدت لي وقتذاك غريبة مستنكرة كأنما اكتشفها لأول مرة ، وسددت نحو الوجه الوقور الجميل نظرة احتجاج واستياء ، وقلت لنفسي متغيظا : « ربما كان الضرر يقع بي أخف لديها من كشف حبي ! » . ولعلي بالغت كثيراً ، ولكن سيرتها الماضية جعلتني لا أرنو إلى الجانب البهيج من الحيــاة إلا في خوف وحياء شديدين من ناحيتها !. وكأنما ضقت بكتماني سعادتي في حضرتها فغادرت البيت مسروراً وهرعت كالمعتاد إلى المحطة القديمة ، وسبقني بصري فوقع على الشقيقتين وراء زجاج النافذة فتقدمت في سعادة غامرة ، أمشي على استحياء . واندسست في زحمة الواقفين وقلبي يتمنى الا أبرح المحطة حتى يسدل الليل سدوله . وكان الجو شديد البرودة فداخلني سرور بأني أتحمل قسوة الجو في سبيل نظرة من عينيها .

ولم أشك في أن طول قامتي ومعطفي الأسود خليقان بأن يذكراها بي . ورفعت عيني في خوف شديد فرأيتها تنظر صوبي وان لم أتمكن لبعد المسافة من تحديد تحديقة عينيها ، ومع ذلك سرت إلى أطرافي رعدة السرور . وجاء الترام على رغمي ، ودفعني الخجل دفعاً إلى ركوبه .

لم يعد لحياتي من غاية إلا المحطة وصاحبة المحطة . قصاراي أن استرق النظر بعينين خجولتين ، وأن اخفضهما سريعاً اذا رنت إلي العينان اللتان أحبهما أكثر من الحياة نفسها . ولم تعد فتاتي تجهلني كما جهلتني اشهرا أربعة ، فأحست بلا شك ان فتى يتطلع اليها حيثما تحل ، وانه يتعمد ذلك في صبر طويـل وان كان لا يبدي حراكاً . بل ابتسم الحظ فجعلت افوز بنظرة كل يوم تقريباً . وان بدا أن الاتفاق وحده هو باعثها ، نظرة عابرة تلقى على المكان كله فتصادفني في جانب منه !، وفيما عدا ذلك فقد حافظت على وقارها واحتشامها . أجل ما عادت تجهلني مهما تجاهلتني ، وانه لظفر رائع - بالقياس إلى عجزي - أن تحس وجودي بعد ذلك النضال الصامت الطويل . وثابرت على النظر والصبر وكأنني أنتظر ان تجيء الخطوة التالية من ناحيتها هي ، او من رب السماوات والارض .. تلك ايام حلوة سعيدة على خلوها من الأمل . انفقتها في احساس عميق بهيج واحلام لا يحيط بها الخيال ، رفت على قلبي في طهر وقداسة . وقد أوصدت دونها باب خلوتي الليلية ، ولذتي الشيطانية .

وتبين لي بعد حين أن سري المكنون يتسرب من اعماق صدري على تكتمي وحرصي . لا أدري كيف حدث ذلك ، ولعل الأمر لم يعد انني انسى نفسي في لحظات الهيام فتقع العين مني على ما احرص على كتمانه . وما ادري يوما إلا والرجـــلان « المنافسان » يرمقنني بريبة ، وكأنها فطنا إلى ظهور منافس جديد . ويوما مرت بي في موقفي من المحطة خادمة الفتاة فألقت علي نظرة ذات معنى ذاب لها قلبي ذوبانا ، وساءلت نفسي في خوف وسرور : ترى هل بلغ سري البيت نفسه؟! ثم غمغمت في حياء بالغ « افتضحت وما كان قد كان » . ومرة رأيت الأخت الصغيرة في النافذة وأنا مقبل نحو المحطة عصراً ، ولما لمحتني التفتت الى الوراء كأنها تخاطب شخصاً لا أراه ، ثم بدت الأم وراء زجاج النافذة والقت علي نظرة متفحصة . رباه ! لقد داخلني شعور الجاني اذا ضبط متلبساً

بحريمته . ولم يبق ثمة شك في أن البيت يعرفني ، وازددت يقينا فيما تلا ذلك من أيام ! فما كان يقع علي بصر أحـــدهم حتى يتفحصني باهتمام ، الا مولاتي طبعاً ! وازددت اضطراباً . ورحت أسائل نفسي الحيرى عما يقولون ، وعما يظنون ، لي منظر حسن خداع ، ولعلهم يظنونني موظفاً مغبوطاً ذا مستقبل باهر !. أواه ، ما كنت موظفاً كبيراً إلا في تقدير أمي ، ولعلي ندمت عند ذاك على قطع حياتي الجامعية ، وعزيت نفسي المحزونة بأني سأرث يوماً ثروة لا بأس بها !. مهما يكن من أمر فلا داعي للخوف من البيت . بـــل اني لأشعر بأنه سعادتي المرموقة ، واني لأحبه من مجامع قلبي ، أناسه وأثاثه وحجراته وحتى خادمته . اني أعيش فيه بروحي ، وأجاذب أهله – في الخيال – أشهى الأحاديث ، أمـا حبيبتي فهي ملء القلب والعقل والخيال . وكنت إذا رأيت الغسيل منشوراً على الشرفة تهفو به نسائم الاصائل أرنو اليه بعين محب حنون ، وبصري يتنقل بـين ألوانه وأشكاله مشغوفاً بأهداب رقاق يطرب لها قلبي طرباً قدسياً كأنما يشنف آذاني سجع ألحان آلهية !. ولكم خاطبت حجرة حبيبتي موصياً إياها بها في اليقظة والمنام ، وعندما تحلق بها الأحلام ، أو حين تتحدث بنبراتها التي لم أسعد بسماعها.

ويوماً دفعني الهوى إلى البقاء في الترام حتى أوصـل حبيبتي الى مدرستها . واضطربت خوفاً وقلقاً من جراء المخاطرة التي نشبت فيها . وبلغ الترام العتبـة الخضراء وعيناي لا تفارقـان مقصورة السيدات لأرى أين تنزل حبيبتي . ودار الترام بنا مخترقاً شوارع كنت أراها لأول مرة حتى عبر جسر أبي العلاء . وفي المحطة التالية له غادرت الفتاة الترام . وهبطت إلى الطوار وأنا اتبعها بعيني فرأيتها تتجه الى الطوار الايمن بخطوها الفارغ وقدهـا الرشيق ، ثم انعطفت إلى طريق جانبي يمتد بحذاء القصور المقامة على النيل ، وسنحت منها التفاتة وهي تنعطف الى الوراء فوقع بصرها علي وأنا واقف انظر صوبها . وارتجفت أوصـالي كأنما مسني تيار كهربائي ، وتصاعد دم الخجـل الى وجهي . وسرعان ما غابت عن ناظري فتقدمت خطوات حتى أمكنني رؤيـــة الطريق فرأيتها تبتعد بخطواتها الرشيقة ، ثم مرت من باب جانبي غـير بعيد . ولبثت متردداً ، وفكرت في العودة الى الوزارة التي تأخرت عن ميعادها بغير اعتذار ، ولكن ابت نفسي أن تنتهي المخاطرة بلا نتيجة . وتقدمت نحو المدرسة بقلب هياب ، ثم مررت بها

متعجلا ، ولكنني قرأت اللافتة « معهد التربيـة العالي للبنات » ، ورجعت الى المحطة وركبت الترام العائد وأنا اتساءل عن معنى ما قرأت . وعلمت ما فاتني علمه في ادارة المخازن فاخبرني موظف بأنه معهد لتخريج المعلمات لمدارس البنات الابتدائية . وانهن يدخلنـه بعد البكالوريا . وداخلني زهو لأن حبيبتي ستصير استاذة ، ولكن لم يغب عني الفارق الكبير بيننا في الثقافـة ، فلمنت نفسي الخائرة التي حملتني على الفرار من الجامعة ! وساورني خوف وكآبة . ثم لجأت إلى المجلة مشيري القديم فأرسلت اليها هذا السؤال : « هل يمكن أن تحب فتـاة مثقفة ثقافة عالية شاباً من حملة البكالوريا ؟ » . فذكرت المجلة في جوابها الاميرة التي أحبت الراعي !..

وحلمت تلك الليلة بحبيبتي ، فكانت أول زورة في المنام ..

* * *

تركزت أحلامي في أمرين ، انأتمتع بدخل حسن – وهو آت يوماً ما – وان اظفر بعروسي . لم أكن ممن يشقيهم الطموح ، واذا كان لي منه شيء فيما مضى من أيام الأحلام ، فقد قبر في إدارة المخازن بوزاة الحربية حيث تمد علاوة نصف جنيه من الآمال البعيدة . أجل لم تثب بي الهمة في الطموح ، ولكن هفت نفسي إلى السعادة والطمأنينة ، إلى المعيشة الطيبة والزوجة المحبة الصالحة . ولم يجد جديد في حياتي إلا مواظبتي على الصلاة بعد ان كنت أنقطع عنها في فترات متباعدة . ولعل هيمان صدري بالحب هو الذي هيأ لي ذلك الاتصال الطاهر بالله خمس مرات في اليوم ، على ان نفسي لم تتخفف من ألمها القديم ، وزادتها الصلاة ألما ، لما يفرط مني في ساعات اللذة الجنونية التي اختلسها بليل ، لم يعد يسعني الكف عنها ، بل زدت استسلاما لهـا ، دون أن يرحمني الندم يوما واحداً ، وليس أشقى من أن يقرعك الندم وأنت ذو ايمان . وما من شك في أن ذلك الصراع المتواصل هو الذي جذبني إلى انعام النظر في نفسي وحياتي ، فهالني أول الأمر ما تسير عليه حياتي من منوال رتيب فاليوم فيها بعام والعام بيوم ، ألم ينقض على عام منـذ توظيفي بالحربية دون أن يجد جديد ؟! عمر يمضي في ضيق بالعمل المقضي به علي ، وفي وحشة لا تتبدد إلا ساعتين . ساعة المحطة ، وساعة الأنس بأمي في بيتنا . وحتى تلك الأويقات السعيدة لم تخل من تنغيص

وألم ، فعند حبيبتي كان يطاردني طيف أمي ، وعنــد أمي كان يخيفني طيف حبيبتي . وتولد من ذلك قلق محير امتزج في نفسي بما يئن بها من ندم فشملني بكآبة لا تريم . واني اذا رجعت بالذاكرة إلى تلك الأيام انحيت باللائمـة على نفسي ، لا لأني لم اجـد سبباً وجيهاً لتعاستي ، ولكن لسوء صنيعي المعتاد في تضخيم الأحزان والآلام ، ولأني لم أواجه أمراً في حياتي بما يستوجبه من حزم وشجاعة . ولذلك لم تدر امي علة لسهومي الذي كان يقلقها ، ولطالما قالت لي بحزن وأسف : لماذا تبدو احياناً كالحزين ؟.. لعمري ماذا ينقصك ؟ أردت ان تكون موظفا فكنت ، ومتعك الله بعطف جدك الذي يهيء لنا عيشاً رغيداً ، وفي خدمتك أم لو استوهبتها حياتها لوهبتك اياها عن طيب خاطر ، وبـين يديك الشباب والصحة أدامها الله لك . فماذا ينقصك ؟.

وعجبت كيف تتساءل عما ينقصني ! . أجل انها عدت لي نعماً سابغة ، بيد أنني كنت اجهل فضل تلك النعم ، وكانت لي بمثابة الهواء الذي ننعم به في كل لحظة من لحظات حياتنا دون أن يخطر لنا ان نشكر عليه. ولكني لا انفك عن التفكير فيما ينقصني فيعميني ما أتطلع اليه عما انعم به . اني شخص لم يقدر له أن يعرف شيئاً عن حكمة الحياة ، فلم يخرج قط عن دائرة نفسه الضيقة ؛ وفي ذلك سر دائي ، هو الذي حال بيني وبين مسرات الحياة ، وما فيها من فضائل ومعان وصداقات، وطوى صدري على النفور من الناس والخوف منهم ، بل جعلني أعد الدنيا عدوا يتربص بي . ولعله لم يكن يرضيني إلا ان تخلي الدنيا نفسها من همومها لتكرس حياتها لسعادتي ، ولما لم يسعها ذلك قاطعتها في عجز وخوف وناصبتها العداء ، وانكمشت في اعماق ذاتي جاهلاً ما يمتلىء به صدرها من اناس وآمال وفضائل ، وحتى الحب وهو أول احساس سام ألهمه وقفت حياله جامداً خائفاً ، انتظر في يأس ان يبادر هو إلي . .

ثم جاء دور أمي ولو متأخراً ، فأخذت أتمرد عليها وان لبث تمردي ناراً مكنونة لا يتطاير لها شرر . ونشأ ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكرهـا بزواجي عاجلا أو آجلا . وقد لمست ذلك بنفسي حين حدثتها خالتي – في إحدى زياراتها الموسمية – عن رغبتها في زواجي من ابنتها التي صارت شابـة ناضجة ، فرأيت كيف تلقت الاقتراح بنرفزة ظاهرة لم تستطع معها أن تحافظ على ما ينبغي

المحافظة عليه فيا بين شقيقتين من مودة أو مجاملة ففادرتنا خالتي مغضبة .

ولمسته مرة أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة – كانت تزورنا في مواسم الكساء – أن تخطب لي عروساً لائقة ، فرأيت كيف انفجرت فيهـــا غاضبة ساخطة حتى انعقد لسان المرأة دهشة وارتباكاً .

لاحظت ذلك بوجوم وغيظ ، واستنكرته استنكاراً شديداً ، ولم أجد له تفسيراً ارتاح اليه . ولم تكن بي رغبة إلى ابنة خالتي ، ولا إلى عروس من عرائس الدلالة ، ولكني آنست منها كرهاً لزواجي ، فأشفقت على آمالي ، وثارت ثائرتي وبدا لي أن قلبها توجس خيفة فقالت لي يوماً :

– انهم لا يرمن سعادتك ولكنهن يردنك مطية لسعادة بناتهن! لم أفهم لقولها معنى ، وقرأت في عينيها انها ترجو أن افصح عن عدم اكتراثي للأمر ، ولكنني تشجعت ولازمت الصمت ، فقالت بلهجة تشي بالقلق :

– الزواج سنة ، ولا يجوز أن يتزوج الشخص قبل أن تكتمل رجولته .

فتساءلت في امتعـاض : إذا لم تكتمل رجولتي في السادسة والعشرين فمتى تكتمل إذن ؟. ووددت لو اصرح بأفكاري ولكن شجاعتي لم تسعفني فواصلت الصمت . وتفرست في وجهي ملياً ثم استطرت قائلة بجزع :

– اني اريد لك عروساً جديرة بك حقـاً . يبهر حسنها الأعين ، وتطري أخلاقها الألسن ، من أسرة كريمة ذات محتد ، فتهيىء لك قصراً شامخاً !.

فسألتها وأنا اداري غيظي : وأين توجد مثل هذه العروس ؟!.

فقالت وهي تعض شفتها : ستوجد حين يأذن الله !.

وقلت لنفسي هـذا تعجيز بلا ريب . واحتدم الغيظ بصدري وتراءى لي وجهها في حالة الغضب والثورة ، فقلت لنفسي ساخطاً :

– ان أمي إذا احتدت توارى جمالها ونضبت سماحة وجهها .

* * *

الزواج !. الزواج !. لم يعد لي من فكرة سواه ، ولم أجد لحياتي معنى إلا أن تتم به . إذا لم نتزوج فلماذا اذن نحيا ، بل لماذا وجدنا في الحياة ؟. اني احن اليه حنيناً موجعاً تندى له الضلوع فتسح أشواقاً : انـــه جنة المبتلي بنار الجحيم . ولست اكف لحظة عن تخيله في أحلام اليقظة الشاردة التي تغيب بي عن الوجود.

اني اراني اصف حبيبتي وعلى وجهها الأنيق نقاب الحرير المطرز بالفل ، والشمع يزهو من حولنا . وأراني أمضي بها إلى مسكن في آخر القاهرة ولا أدري لماذا أحب أن يكون في آخر القاهرة . ثم اراها تنتظرني بالشرفة فأهرع نحوها وقد انطلقت من قفص ادارة المخازن فتجود لي سعادة هفهافة يعجزني تصورها حتى في الأحلام بيد أني لم اتمل الأحلام صافية فطالما أعقبت نشوة الفرح الوهمي كآبة غامضة لا أدريها ، ولم يخل خاطري قط من وجـــه أمي المحبوب فكان ينتابني حيـاء شديد يتصبب له جبيني عرقاً ، ويخامرني شعور بالذنب تعافـه النفس . فيتلوى بوزي اشمئزازا . . .

وفضلاً عن هذا كله فانني لم أتخلص من بعض هوى للعزوبة نفسها ! انحب الوحدة داء ، انه أشبه بالمخدر تود منه فرارا ولا تستطيع عنه فكاكا ، وتبغضه لنفسك وأنت تعاني الحنين اليه . أتؤاتيني الجرأة حقاً على نبذ ماضيالطويل ؟ . . ان نفسي تهفو إلى البيت الزوجي السعيد حينا ، ثم يتملكها الاشفاق علىالوحدة الهادئة والطمأنينة المعفاة من المسئوليات حيناً آخر . وان الهرب من المسئوليات داء قديم حتى لأضيق بحلاقة الذقن أو عقد رباط الرقبة ، فكيف انبري لحـــل تبعات البيت والزوجة والذرية وما يجر ذلك من حياة اجتماعية متعبة بما تفرضه من واجبات وتقاليد ؟! اني اتخيل تلك الواجبات فتـبرد اطرافي ، ولكنني في الوقت نفسه لا أكف دقيقة عن الحنين الى الحياة الزوجية .

بت أشعر بأني فريسة همين قاتلين : ترددي وأمي . ومن يدري فلعل أمي هي الهم كله . وتجمعت نفسي الحيرى تروم سلاماً تلوذ به ، فأجمعت على أن أقابل الخطر وجهاً لوجه وليكن ما يكون . . واني لجالس إلى أمي ليلة اذ قلت لها بلا سابق انذار : الاحظ يا أماه انك لا ترغبين في زواجي .

فاتسعت عيناها الخضراوان الجميلتـان دهشة ، وقلقت فيهما نظرة حائرة ، ثم قالت بصوت متغـــير : اني أرغب في سعادتك دائماً ، وهذا شغلي الشاغل . واذا كنت لم أوافق على ما عرض لي من هذا الأمر في الماضي فلأني وجدته دون ما أرجوه لك ، ولا شك أنك تدرك هذا تمام الادراك . ولكن . .

وترددت لحظة ثم استطردت متسائلة :

— ولكن . . لماذا تلقي علي هذا السؤال ؟ . وحولت عنها بصري كأنني خفت أن

تقرأ ما في ضميري ،وقلت بعدم اكتراث : سؤال لا أكثر . أحب دائما اناعرف ما يجول بخاطرك . فتهدج صوتها وهي تقول :

– ليس بخاطري الا فوق مـــا تحب لنفسك من السعادة والهناء .. ولكن ليس الزواج لهواً ولعبا ، واليك مأساة أمك فهي أكبر دليل على ما أقول . وأذكر دائماً أن اختيار الزوجة مهمة شاقة ، وهي من شأن الأم قبل أي انسان آخر ، لأن هذا ميدان تجاربها ، وهي تعرف ابنهـــا أكثر مما يعرف نفسه ، وتستهدف سعادته قبل سعادتها هي ، كذلك السن أمر عظيم الخطورة ، وأنت بعد في حكم الأطفال . لماذا تلقيعلي هذا السؤال ؟(وهنا ازداد صوتها تهدجا) . اليك مأساة أمك فهي لا ينبغى تغيب عن وعيك . كم تعذبت ، وكم تألمت ، وكم كابدت الاهانة تلو الاهانة كم بكيت حنينا إلى اطفالي الذين عاشوا غرباء عني ونحن في مدينة واحـــدة . وحتى أنت كان شبح فراقك يطاردني ويقض مضجعي ، ولو أخذوك مني لقضيت غما وكمدا . وكم تمنيت الموت صادقة لأرتاح من وساوس حياتي المقلقة (خيل إلي أنها تعني حياتها الراهنة بقولها الأخير) ولذلك كرست حياتي لرعايتـــك ، وضحيت بسعادتي في سبيلك ، و ... (ترددت لحظـــة ولعلها همت بتذكيري بالرجل الذي رفضته من أجلي ثم عدلت) . ولا تحسب اني أمن عليك ، فالأمومة تستنكر المن . ليته كان للبنوة بعض ما للأمومة من عطف . لشد مـــا تنسى .. رباه لا تؤاخذني ، أنا لا أدري ماذا اقول ، ولكن لا تظن بأمك الظنون . اننا نعطي كل شيء عنطيب خاطر ، حتى إذا شب المولود عن الطوق لم يفكر إلا في أن يولينـــا ظهره ويجد لنفسه مهرباً. أقول مرة أخرى لا تؤاخذني. لست أحسن ضبط نفسي واأسفاه ولكن لقد عشنا معـــاً طوال هذا العمر ، وليس لي أمل في هذه الدنيا سواك ، فاذا نبذتني لم أجد لي مأوى . أنتم حياتنا في صغرنا وكبرنا على السواء ، أمـــا نحن فتحبوننا صغاراً وتكرهوننا كبـــاراً ، أو انكم تحبوننا حتى لا تجدون من تحبونه غيرنا ، ماذا قلت ؟.. استغفر الله .. سامحني يا كامل ، اني مضطربة ، لست أحسن الحديث على الاطلاق ..

وعجبت كيف انحدر بها الحديث ذاك المنحدر الصعب . بدأ الكلام مقبولاً ثم تشنج . وحاولت ان أحول دون استرسالها فلم تجد محاولتي ، فاضطررت أن

الجرعه على ما أثار من ألم وحزن ، وتبادلنا نظرة طويلا ، دلت على العتاب من ناحيتي ، وعلى الذهول من ناحيتها . لم تكن في كامل وعيها وا أسفاه . وقلت بأسي : اهذا جزاء من يسأل سؤالاً بريئاً ؟!.

فاغرورقت عيناها ، وقالت وهي خافضة العينين :

– أنا لا أحسن الحديث احياناً ويحسن بي أن امسك. لا تخش جانبي ، وإذا راقلك يوماً ان اغيب عن وجهك فما عليك الا ان تومىء إليّ ولن تجد لي اثراً ..

ووضعت يدي على فمها وصحت بها : سامحك الله . حسبنا كلاماً . لقد اخطأت بسؤالي البريء خطأ كبيراً !.

ثم تظاهرت بعدم الاكتراث ، بل ضحكت طويلاً ، وكأن ما كان لم يكن، وراح قلبي وحده يجتر آلامه. أثر فيّ كلامها حتى هزني هزاً عنيفاً فحزنت حزناً لم أشعر بمثله من قبل . وعجبت كيف يغلبها الانفعال على نفسها فتلقي في وجهي بتلك الاتهامات الجارحة . ولم أخل من سخط عليها لا لأنها اتهمتني بالباطل – فذاك نثار غضب وقتي لا قيمة له – ولكن لأنها قابلت رغباتي الكامنة بثورة تجاوزت حدود الحكمة !. وتماديت في سخطي فقلت انها ذكرت نفسها اكثر مما ينبغي ونسيتني اكثر مما ينبغي، واستسلمت كالعهد بي لداعي انانيتي فرميتها بالأنانية.

وعقب حديثنا الغريب بيومين اصابتها وعكة مرض ألزمتها الفراش فلم افارقها اثناء مرضها إلا في اوقات العمل . ومع ان الحالة كانت خفيفة الا أن وجهها بدا شديد الذبول والهزال لنحولها الطبيعي فتوجع قلبي توجعاً أليماً . ولم اطق أن اراها محرومة من جمالها وصحتها ، فأحزنني منظرها وساءني اهمالها نفسها . وكانت تعصب رأسها بمنديل فبرزت تحت طرفه خصلات من شعرها وخطها المشيب وشعثها الاهمال فضقت صدراً وتجهم لي وجه الدنيا . ويوماً – كنت جالساً إلى جانبها – جرت في تيار شعوري خواطر غريبة لعل باعثها الخوف والاشفاق ، فطرحت على نفسي هذا السؤال الخطير : كيف تكون الحياة لو خلت من هذه الأم الحنون ؟. واقشعر بدني، بيد ان خيالي لم يمسك عن هذيانه ، فتتابعت المناظر أمام عيني واستسلمت لمشاهدتها في حزن صامت ثقيل . رأيت بيتاً مقفراً ورأيتني تائهاً حائراً كمن ضل سبيله في مفازة، وهذا جدي متبرماً ساخطاً يصب جام غضبه على الخادم العجوز والطاهي . ولمست عجزي عن مواصلة هذه

الحياة الموحشة فاقترحت على جدي أن اتزوج لنجد من يكلأنا برعايته . ثم رأيت حبيبتي بقامتهـــا الرشيقة ووقارها المحبوب تتعهد البيت وآله بعطف سابغ وحب شامل . ثم رأيتنا جميعاً - انا وزوجي وجدي - واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا . وانتبهت إلى نفسي في فزع فأحسست بالدمع حائراً بين جفني . وعض الندم قلبي ، وامتلأت نفسي امتعاضاً وثورة ، وغمغمت لنفسي « اللهم غفرانك ، اللهم أكتب لها طول العمر » ، ثم هويت على وجهها فقبلته بحنان ، وقد طاردتني ذكرى تلك الخيالات كثيراً حتى تركت في آثاراً عميقة من الألم والحنق. ولازمني هم مقيم حتى بعد أن برأت وعاودها نشاطها وجمالها. وكدت أعود إلى ذلك التفكير السقيم في الحياة الذي يقف عنـــد طرفيها - الميلاد والموت - ويرى ما عدا ذلك هباء في هباء ، وهو ذلك التفكير الذي تأدى بي فيما مضى إلى محاولة الانتحار لولا أن الله سلم ..

جاء الصيف ، ومعناه - بمقياس القلب - أن حبيبتي ستنقطع عن الذهاب إلى المعهد فلا تتاح لي رؤيتها إلا في الشرفة أو النافـذة . انها تعرفني الآن حق المعرفـة كما يعرفني البيت جميعاً ، ذلك الفتى الذي يتطلع اليها دواماً ، ويرنو صوبها بعينين يتجلى فيهما الاعجاب والحب ، ويثابر على ذلك في صبر عجيب زهاء عام دون أن يبدي حراكاً ، والأعجب من هـذا كله أنني كنت أضبط عينيها في لفتات عارضة وهما ترنوان إلي فأجـن بها جنوناً . واني أكاد أسمعها تتساءل عما أريد ، بل أسمعهم جميعاً يتساءلون ، وهذا يسعدني ويشقيني معاً ، والحق اني احبك يا حبيبتي ، أحبك بكل قوة نفسي ، فاذا سألت بعد لماذا لا أبدي حراكاً ؟ اجبتك بأنني لم أدر كيف أبدي حراكاً في حياتي ، وورائي أم ، وحظ محدود ، فكيف يمكن تذليل هذه الصعاب ؟.. خبريني يا حبيبتي أطر اليك بغير جناحين !.

وكان يوم غريب في حياتي .. بدأت الصباح بوقفة الهيام وتطلع العشق . ثم ذهبت إلى الوزارة تتنازعني أحاسيس السعادة والشقاء شأني كل صباح ، وراح الموظفون يستقبلون اليوم كعادتهم بالثرثرة ، فقال أحدهم وكان يليني في مجلسه :

- سكرت أمس حتى تأرجحت بي الكرة الأرضية !.. وثار اهتمامي فجأة وحضرني أبي بصورته وذكرياته . ترك في قوله اثراً لم يدركه أحد ممن يجلسون

حولي ، ولا عجب فالخمر كتبت تاريخ أسرتنا وقررت مصائرها ، والتفت نحو الموظف وند عني هذا السؤال همساً بلا وعي تقريباً :

– لماذا تشرب حضرتك الخمر ؟. ثم أدركت في التو تسرعي وخطئي فعلاني الارتباك والحياء . ولم أكن خاطبت احداً في الادارة منذ التحاقي بالخدمة في غير شئون العمل حتى أطلقوا علي « غاندي » لما عرف عن الزعيم من أنه ينذر يوماً في الأسبوع للصمت . وفرح الرجل بتطفلي عليه وقال بصوت مرتفع وهو يوميء إلي : اخيراً تكلم !. وسأله أحدهم وهم يصوبون انظارهم نحوي : مـن

– غاندي . وماذا قال ؟.

فقال الرجل ضاحكاً : يسألني لماذا أشرب الخمر !.

فقال آخر : سكت دهراً ونطق كفراً !!.

وقهقهوا ضاحكين ، بينا ذبت في مقعدي صامتاً ، وراح أكـثرهم يحدثني عن الخمر والنشوة واللذة والنسيان . ندمت على ما بدر مني مما وضعني موضع سخرية ومزاح . وتفكرت في الأمر طويلاً ، ثم أفقت إلى نفسي فوجدتها – لدهشتي – تتلهف على تجربـة الخمر !!. ولشد ما عجبت فيما أعقب ذلك من أيام لتلك اللهفة الغريبة بعد ستة وعشرين عامـاً ، قطعتها فيما يشبه النسك اذا استثنيت اللذة السرية التي جرعتني مرارة الذنب والندم . هل نشبت تلك الرغبة في نفسي فجأة ؟. ان ظاهر الامر يدل على ان ذاك الحديث الذي دار بـين الموظفين كان الباعث على تلك اللهفة ، ولكن هل يعقل أن يهوي انسان مستقيم مثلي لعارض تافه كذاك العارض ؟! لقد ركبني جنون ، فتمنيت أن ينقضي النهار سريعا لأقرع باب اللذات الموصد ، ولأحطم الاغلال التي اذعنت لها طوال عمري وقلت لنفسي وكأن الذي يتحـدث شخص غريب : « سأجرب الليلة الخمر والنساء ! » وأراحني التصميم لأنه خير من القلق والتردد ، ولأني منيت نفسي بأن أجد وراءه متنفساً للضغط الشديد الذي يؤودني . ولم أعرف التردد – ذلك الرفيق البغيض – طوال يومي ، فعند الاصيـل كان الترام يحملني إلى العتبة ، ووقفت في الميدان حائرا لا أدري اين توجد الحانات ! ثم رأيت عربة فناديت الحوذي وركبت ثم قلت له بصوت منخفض في حياء شديد :

– حانة .. اية حانة من فضلك !.

فحدجني الرجل بنظرة غريبة ثم قال وهو يلهب ظهر الجوادين بسوطه :

– سأذهب إلى شارع الفي بك وهناك تختار الحانة التي تعجبك !

انطلقت العربة فذكرتني بالحانطور القديم وأيامه الخوالي . وكان بمحافظتي عشرون جنيها غير « الفكة » لأن مرتبي وان كان صغيرا في ذاته الا انه كان يترك كله فكفاني وزاد عن كفايتي . ولما شعرت بأن العربة تقترب من الهدف التي تلهفت عليه اليوم كله دق قلبي بعنف واعتراني اضطراب شغلني عن رؤية الشوارع التي تخترقها العربة . ووقفت العربة عند رأس طريق طويل يتوسطه صف طويل من السيارات والعربات . وقال الحوذي وهو يلوح بسوطه :

– اليك الحانات على الجانبين . .

وغادرت العربة بعد ان نقدته الاجرة فوجدت نفسي حيال حانة صغيرة لا تزيد في الحجم على حجرة كبيرة وقد وقف النادل ببابها لانه لم يكن أمّها أحد بعد ، وانتابني التردد لاول مرة ففكرت في أن اعود من حيث اتيت . ووقفت متحيرا ثم تولاني الشعور الذي ملكني يوم اندفعت الى سور جسر الملك الصالح لأرمي بنفسي الى النيل فانطلقت صوب الحانة ودخلت . وتبين لي انه يوجد في نهايتها مدخل الى حديقة صغيرة في حجم المكان الخارجي في وسطها نافورة ، وتظلها عريشة عنب ، وفي جنباتها الموائد ، فوجدتها آمن للمختلس ، وانتقلت اليها وجلست الى احدى الموائد بعيداً عن مدخلها . كنت متوتر الاعصاب ولكن لم أعد أفكر في الهرب ، وجاءني نوبي في سروال أسود وسترة بيضاء فابتسم في أدب ووقف منتظرا امري . فقلت مهموس والدم يتصاعد إلى وجهي:

– خمرا !. فلم يبد عليه انه فهم شيئاً ، وتساءل في نبرات كرنين النحاس :

– ويسكي ؟.. كونياك ؟ . جعة ؟.. نبيذ ؟.. وتولتني حيرة الجاهل ، فقلت بارتباك : أريد خمرا . .

فابتسم الرجل ابتسامة آلمتني وتساءل : أي نوع منها تريد ؟.. ويسكي.. كونياك .. جعة .. نبيذ ؟! فسألته في ارتباك أشد : أيها افضل ؟.

– هذا يتعلق برغبتك ، ولكن الجو حار فالجعة شراب مفضل . وخرجت من حيرتي وطلبت جعة ، وغاب دقائق ثم عاد بقدح يفور ووضعه أمامي ، وقبل ان يبتعد سألته : كم قدحاً من هذه يسكر ؟ فنظر صوبي كما نظر الحوذي

من قبل وقال : تختلف النسبة تبعاً للناس ، ولكن اذا كنت مبتدئاً يحسن الا تجاوز القدح الثالث :

فقبضت على القدح فوجدته بارداً لطيفاً ، وأدنيت منه أنفي فشممت رائحة حمضية لم ارتح لها ، ولكن فات وقت التردد ، وقربت وجهي وأدليت لساني ، ولعقت من رغوتها لعقة في خوف وحذر . واشتد توتر أعصابي فرفعت القدح إلى فمي وأفرغت ما فيه دفعة واحدة في تقزز كأنما اتجرع شربة . وأنعشتني برودته ، وشعرت به في بطني يتلوى نافثاً حرارة غريبة . وانتظرت ذاك الأثر السحري الذي سمعت عنه الكثير . وفي تلك اللحظة جاءت لمـــة من الأجانب يرطنون ويتضاحكون وتحلقوا مائــــدة كبيرة ، فداخلني شعور بالضيق ، بيد انهم لم يلتفتوا نحوي على الاطلاق، فسكن روعي، وعاد شعوري إلى الحرارة الطيبة التي تنتشر في بطني . وحمل الدم المتصاعد إلى الرأس نفحة من هذه الحرارة إلى المخ فتمطى كما يتمطى المستيقظ لدى تلقيه أول شعاع من الشمس، ونفض عنه القلق والحذر ، فأحسست ارتياحاً عاماً لذيذاً ، وانبسطت أسارير وجهي . وما لبثت أن طلبت قدحاً آخر بشجاعة لم أعهدها في نفسي من قبل ، وما كاد النوبي يضعه أمامي حتى رفعته إلى فمي وتجرعته على دفعتين. وانتظرت في ارتياح شامل واحساس مركز في باطني، وسرى في جسمي سرور عجيب أغمضت له جفني استسلاماً ، سرور دار مع دمي ، ورقص في مخي ، باعثاً لذة هي الجنون نفسه ، حتى وجدتني مخلوقاً أثيريا طليقاً من متاعب عقله وقلبه وحياته . وداخلني أحساس لا عهد لي به بالثقة والعظمة فرفعت رأسي عالياً في سلطنة وأنا أعجب للنشوة السحرية التي لم يدر بخلدي قط أنها توجد في هذه الدنيا . ثم فركت يدي في سرور ومددت ساقي لا أبالي أين تقعان . وبغتة تخايلت لعيني صورة حبيبتي بقامتها الهيفاء ونظرتها المستقيمة المحتشمة فأترع قلبي حنانا وشوقا وهزتني نشوة فوق نشوة الخمر . مـا ألطفك يا حبيبتي . اني أدرك الآن سر نشوة الخمر . انه الحب . الحب ونشوة الخمر من عصير واحـد يقطر من صميم الروح ، وهل الحب الموفق إلا سكرة طويلة ؟!. فان فاتني الحب بين يديك فلن يفوتني في الخمر !. لماذا أتردد ؟ لماذا أخاف دائماً ؟. إلا ان المخاوف جميعاً لأوهام ، وإلا فما لها اختفت من أفقي في غمضة عين ؟!. لقد تكشف لي

وجه الحكمة ولن أتردد بعد اليوم . سأومىء لحبيبتي اذا وقعت عليها عيناي أو ألوح لها بيدي . ستعقد الدهشة لسانها ويحمر منها الخدان ! ، ويجيء دورها في الخجل ، دقة بدقة والبادىء أظلم ، وسوف تتساءل في استغراب هل تحرك أخيراً ، أجل يا حبيبتي ، تحرك ، ولن يوقفه شيء ، ورأيت عند ذاك النادل يحوم حولي فطلبت القدح الثالث ، ثم ألحقته بصاحبيه . وعـــدت إلى خيال حبيبتي بجسم كله قلوب ، وما به من عقل . وقلت بصوت مهموس و كأني أعظ جليساً غـير منظور « اذا أحببت فبـــح بحبك إلى حبيبك وليكن ما يكون » ، ثم ذكرت أمي . ولكن دون خوف هذه المرة ، لم أشك في انها ستحب حبيبتي إذا رأتها ، وستذهب مخاوفي القديمة إلى غير رجعة ، أما جدي فما احراه إذا علم بالنبأ السعيد أن يقهقه ضاحكاً ، وهنا ضحكت بصوت مسموع لفت إليّ الحاضرين . والقيت نظرة على ما حولي فرأيت الحديقة اكتظت بالوافدين . وقد تضاحك الأقربون ولكني لم ارتبك ، بل ابتسمت اليهم وقلت بجسارة غريبة « اضحكوا ! » ، فضحكوا ، وتساءل أحدهم مبتسماً :

– هل من أمر آخر ؟.

وكنت من السكر في غاية فقلت بلسان ملعثم : هاتوا لي حبيبتي !

فسألني الشاب : أين هي ؟.. وأنا كفيل باحضارها ..

فقلت : البيت أمام المحطة !. فسألني مبتسماً : أية محطة ؟

فتفكرت قليلاً حتى عثرت على شاهد للمحطة فقلت :

– المحطة أمام المرحاض العمومي !

فضحكوا جميعاً ، وانهـالوا عليّ قفشاً وتنكيتاً ، وشاركتهم ضحكهم بغير مبالاة ، ثم آثرت أن اغادر المكان ، فدعوت النادل ونقدته الثمن وحييت رفقاء السكر ، وذهبت وقفشاتهم تواصل توديعي بلا رحمة ، كنت أترنح ، فقصدت عربة في الموقف ، وتوسطت مقعدها في خيلاء ، وقلت للحوذي بصوت مرتفع :

– إلى بؤر الفساد !

وتحركت العربة وسرعان ما ارتمت إلى سيرها الواني ، وجعلت أنظر إلى الطريق في لذة وبهجة ، حتى وددت أن يطول المسير إلى غير نهـاية ، وأدركت اني مقبل على تجربة جديدة لا تقل خطورة عن الأخرى ، فساورني بعض القلق ،

ثم غلبتني اللهفة . ووقفت العربة في شارع معربد ، ولوح الحوذي بسوطه وهو يقول ضاحكاً : هنا الفساد الأصلي ..

وسألته بعد تردد : ألديك فكرة عن الأسعار ؟!

فقال مقهقهاً : أغلى مرة بريال !

وآلمني التعبير على رغم سكري ، وغادرت العربة فوجدتني في دنيا تتوهج بالأنوار كالصواريخ . وتزدحم بالسكارى والعابثين ، وتختلط بها أصوات الضحك بالشتم والصراخ ، وتنبعث من جنباتها دقات الدفوف وأنغام مبتذلة من كمان مسلول أو بيان محشرج . وقد سطع أنفي شذا بخور طيب . ولم أجد من نفسي الجرأة على التخبط وسط الجموع المعربدة ، فعرجت إلى أقرب باب ودخلت ، وجدت نفسي عند مدخل فناء واسع مستدير تفتح عليه أبواب كثيرة ، وعلى محيط دائرته صفت الأرائك والكراسي يحتلها رجال ونساء ، وفرشت أرضه برمل أصفر فاقع ، راحت ترقص عليه امرأة نصف عارية ، وكأن الجسارة التي خلقتها الخمر قد طارت فتسمرت في مكاني لا اجاوزه ولم أدر ما أنا فاعل . ثم ثبتت عيناي على الراقصة في دهشة لأني كنت أشاهد الرقص أول مرة . ألقيت على الجسد المتلوي ، الشبه العاري نظرة اشمئزاز وخوف ، وأزعجتني حالة وجهها إذ أثقله الطلاء الفاضح ، وانفرجت شفتاها عن أسنان ذهبية فكانت بعرائس الحلوى أشبه . وفجأة لاح أمامي رجل ذو جلباب مقلم زاهي الألوان تنطق قسماته بالدمامة والدناءة ودعاني للجلوس ، فتراجعت مبتعداً عنه فاصطدمت بشخص ورائي . فدرت على أعقابي لأتفادى منه فرأيت امرأة من جنس الراقصة ولا شك حالت بذراعها بيني وبين الذهاب . كانت تبتسم ابتسامة كريهة ، وتمضغ لادنا مفرقعة بأسنانها ، فبردت اطرافي ، وانقبض قلبي جفولا ، وقرأت في وجهي الخوف والخجل فأطلقت ضحكة كالصفير ، ومدت يدها بسرعة فخطفت طربوشي ، ووضعته على رأسها ومضت صوب باب قريب في خطوات سريعة . وقال لي الرجل وهو ما يزال بموقفه :

— اتبعها بلا تردد ، هذه زوزو المنبهجة ، لا مثيل لها وفي المذبح !

ولم أطق الوقوف أكثر من ذلك فغادرت البيت لا ألوي على شيء ، غير مكترث لفقدان طربوشي ، وركبت أول عربة صادفتني وقلت للحوذي « إلى

المنيل ، عدت إلى البيت قبل منتصف الليل مهيض الجناح ، يمضني الشعور بالهزيمة والاخفاق والخيبة . لم أكن اتصور ان يتمخض الحلم المرموق عن هذه البشاعة الفظيعة . وكانت النشوة الساحرة قد طارت مخلفة وراءها خماراً ثقيلاً باخت له روحي ، ولم أدر كيف أيقظت أمي وأنا اخلع ملابسي ، فجلست في فراشها ونظرت في « المنبه » وهي تغمغم متثائبة : « تأخرت كثيراً » ولم أجبها بكلمة وواصلت نزع الملابس حتى خذلتني قدماي فارتميت على المقعد ، واستجمعت قواي ونهضت ، ولكني ترنحت في موقفي وكدت أهوي الى الأرض لولا أن امسكت بعمود السرير . وأنزلقت امي من فراشها واقبلت نحوي متسعة العينين دهشة وفزعاً ، وتفرست في وجهي قليلاً دون ان تنبس بكلمة ، ثم أجلستني على المقعد وراحت تنزع عني ملابسي ، ثم أنامتني على فراشي ، فما مس جانبي الحشية حتى سارع إلي النوم . وخيل إلي ، أو حلمت ، ان أمي تنتحب . .

* * *

استيقظت مبكرا على غير ما كان يتوقع . وتذكرت الأمس كله في ثوان . والتفت رأسي في خوف نحو الفراش الآخر فعثر بصري في طريقه بأمي وهي تصلي . والتهب وجهي حياء ، وغادرت الفراش في عجلة ومضيت إلى الحمام في حيرة بالغة . ورجعت إلى الحجرة فوجدتها منتظرة ، تحاول ان تبدو هادئة لولا ان خانتها عيناها الصافيتان اللتان لا تعرفان الكذب ، وتحاميت نظراتها ، وحييتها تحية الصباح بصوت لا يكاد يسمع ، فتنهدت بصوت مسموع ، واقتربت مني ، ووضعت يدها على كتفي وقالت بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء :

— دعوت لك بعد صلاتي طويلاً والله سميع مجيب . ليس لدينا متسع من الوقت فأصغ إلي يا كامل بقلبك قبل أذنيك . فات ما فات . ما كنت أتصور ذلك على الاطلاق، ولكن اوساط الموظفين أوساط غواية وفساد . انها زلة شيطان فتب إلى الله عنها . هل من حاجة إلى تذكيرك بمأساة ابيك وأنت من شهودها وامك من ضحاياها ؟! . ولكن قلبي مطمئن رغم ما حصل ، لأنك مؤمن تخاف الله ، ولأنك ابن امك لا ابن أبيك ، وخليق بمن يصلي بين يدي الله خمس مرات في اليوم مثلك أن يحرص على المثول بين يديه نقياً طاهرا . لا تنس أن هفوة الأمس شر كبير ، وانها ستظل سكيناً تقطع قلبي . لم يعد في وسعي وا أسفاه

أن استبقيك إلى جانبي ، فاذا خرجت إلى الدنيـــا فلاقها بقلب التقي المؤمن .
ستذهب اليوم إلى السيدة أم هاشم لتقدم توبتك على يديها .

لم تلتق عيناي بعينيها ذلك الصباح ومضيت إلى الوزارة محزوناً ، أستعيد قولها كلمة كلمة ، وانعم فيـــه الفكر . هالني افتضاح أمري ، وقدرت عنف الصدمة التي تلقتها أمي البائسة . وذكرت الخيبة التي منيت بهـا في فناء البيت الغريب ، فتلوت شفتاي تقززاً . على اني لم أنس نشوة الخمر . لم أنسها رغم ما اعقبها من خمار وتعب وفضيحة . ولم ينفذ مقتها إلى قلبي حتى بعد صلاة الصبح التي أديتها في صدق وإيمان . ولم يكن ضميري مستريحاً ، ومتى كان مستريحاً؟!. ولكن احلام النشوة الساحرة هجمت عليّ فاجتاحت في سبيلها ضميري وآلامي وأمي . هي النشوة التي تظل معاني السعادة والطرب مغلقة حتى تجري في الدم فتفتح أبوابها السحارية. أنها مطلبي رباه كيف أهجرها وأتوب عنها ؟. وماعسى ان يبقى لي بعدها غير اللهفة الكظيمة والحسرة القاتلة والقلق الذي يمزق حياتي ارباً ؟!. وحتى لو استسلمت لاغرائها الشيطاني ، فهيهات ان تخلص لي صافية ، بل ستضيف إلى ضميري نزاعاً جديداً ما كان اغناه عنه . كنت ومـا ازال في جذب ودفع متواصلين ، بين اقتحام الدنيا والجفول منها ، بين حبيبتي وأمي ، بين أدمان العادة الجهنمية ورغبة الاقلاع عنها ، فجاءني نزاع جديد بين الميل إلى الخمر والتوبة عنها زادني رهقاً ، حتى انقلبت أرجوحة تدفعها الشياطين وتجذبها الملائكة ، ولا تكف عن التأرجح لحظة واحدة . وبلغ بي القلق غايته فتأوهت متسائلا في حيرة بالغة : لماذا لم يخلق الله الحياة نشوة خالصة تدوم جيلاً فجيلاً ؟. لماذا لا نفوز بالسعادة بلا عناء ولا قنوط ؟. لماذا يختنق الحب في قلوبنا يأساً ، والحبيب يغدو ويروح على مرمى قبلة منا ؟!. ليكن ما يكون ، الخمر مفتاح الفرج ، هي العزاء ، هي كلمة السر التي تفتح لي باب حبيبتي الموصد . لا أريد الدنيا مادامت تأبى ان تغير ما بنفسها . ان مقتي للواقع ليس دون مقتي لتلك الراقصة المخيفة . الدنيا نفسها تتكشف لي عن صورة شبيهة بتلك الراقصة في تلويها وتعقدهـــا وطلائها الكاذب وشقائها الدفين فلماذا إذن اقاوم اغراء النشوة الساحرة ؟!.

ودعتني أمي عصر ذلك اليوم إلى زيارة «أم هاشم» فخرجنا معاً بعـد ان انقطعت عن الخروج في صحبتها اعواماً ، وركبنا عربة ، فجلسنا ملتصقين جلسة

اعادت لنفسيناذكريات «الحنطور» القديم، فخففت رقتها من قلق النفس المستحوذ عليّ . كانت أمي ترتدي معطفاً صيفياً رقيقاً تقمصه جسمها النحيل في رشاقة لطيفة . وبدا وجهها المليح هادئاً مستسلماً وعيناها الخضراوان صافيتين تلوح فيهما نظرة حالمة يشوبها شيء من الحزن . وقد تلفع رأسها بخمار اسود احاط وجهها بوقار لم يخل من أثر للأربعة والخمسين عاماً التي قطعتها فيما قسم لها من حياة . وحن قلبي لها فوددت لو استطيع تقبيلها، وتفكرت في تقدم عمرها نحو الشيخوخة بأسى عميق ، ثم ذكرت الخواطر الخائنة التي دارت برأسي على فراش فرضها ، فعضضت على شفتي بقسوة وحنق. يا لها من خواطر مقيتة ! انها من صميم الألم الذي التمس في الهرب منه أي سبيل ، وهون من وجدي ما كان يخيل إليّ من انها سترث عمر جدي الذي يهدف إلى التسعين.. كبر عليّ في تلك اللحظة عصيانها، بيد أنني شعرت في أعماق نفسي بأني ذاهب إلى توبة كاذبة لا يسعني الاذعان لها. وساءني ذلك واحزنني. كيف ألقى أم هاشم بهذا القلب الخائن وهي التي لا تخفى عليها خافية ؟. كيف انقلبت بين عشية وضحاها من ورع طيب إلى شيطان مولع بالمعصية؟! وانتهينا إلى الجامع. ودخلنا ونحن نقرأ الفاتحة، وقصدنا الضريح يتوزع قلبي الحب والأيمان والخوف . ونسمت على قلبي ذكريات الأيام الخوالي حين كنت أنفذ للجامع الطاهر بقلب سعيد لم يعان بعد الشعور بالذنب وعذاب الضمير . وتقدمتني أمي إلى المقام وهي تهمس بحرارة : « جئتك يا أم هاشم بكامل ، ليتوب عن هفوته بين يديك فباركيه وسددي خطاه !». ثم دفعتني نحو باب المقام فبسطت راحتي عليه ، وشعرت ببرودة تسري إلى فؤادي ، فوقفت صامتاً ملياً ، حيال جلال تخشع له القلوب ، وخلت الجدث الطاهر يرمقني بعينين متألقتين لم يغيرهما الموت فدعوت بقلبي « أم هاشم » ان تلهمني الصواب وان تنقذني من حيرتي وشقائي ، وأن تتوب علي . وترددت لحظة ثم سألتها أن ترعى حبي التعيس بعين الرحمة !. وغادرنا المثوى الطاهر وأمي تجفف عينيها ، ثم سألتني :

– هل تبت إلى الله ؟. فأجبتها دون ان احول اليها عيني : نعم .

فتمتمت برجاء : توبة صادقة ان شاء الله ..

لم يسعني مقاومة النزوة الجديدة. ولم يغن عني شيئاً لا ضميري ولا توبتي، ولا ما جبلت عليه من مخافة الله . كنت من حياتي في قنوط، فعملي جد بغيض،

وحي حسرة طويلة ، وان الأيام لتمر ثقيلة بلا عزاء وبلا أمل ، فتنظر عيناي ويخفق فؤادي ، ويعيى ارادتي العجز والخوف ، فلم أجد من سلوى إلا نشوة الخمر وتهالكت عليها !. على ان ذاك العزاء التعيس لم يخلص لي طويلاً ، ولم تمل الأقدار لي في الاستمتاع به ، ففي مطلع الخريف من ذاك العام ، وفي يوم من أيام الجمع – وكنت جالساً مع أمي نتحدث كعادتنا – دق جرس الشقة ، وفتح الخادم الباب ثم جاء يدعوني لمقابلة واحد « بك » . وذهبت من فوري فوجدت رجلاً مهيباً في الستين أو السبعين ، فحييته بأدب وألقيت عليه نظرة متسائلة ، فبادرني متسائلاً : حضرتك كامل أفندي ؟.

فقلت وأنا اتفرس في وجهه : كامل رؤبة . هذا بيت الأمير الاي عبدالله بك حسن . فأخذني من يدي إلى الخارج ثم مال نحوي قائلاً :

– لكم طول البقاء ، لقد توفي جدك يا بني .. فحملقت في وجهه بفزع ، وانعقد لساني ، فربت على كتفي وقال بصوت حزين :

– تشجع يا بني من أجل والدتك ، وكن رجلاً كما نرجو لك ، كان جدك يتوسط مجلسنا كعادته كل صباح بلونابارك ، فشعر بضيق في التنفس وطلب قدحاً من الماء ، ولم تكد تمضي لحظات حتى سقط على المائدة فحسبناه أصيب باغماء ، وفزعنا إلى صيدلية لأحضار روح النوشارد ، ثم تبين ان السر الألهي قد صعد إلى بارئه ... هتفت بصوت مبحوح : واين هو يا سيدي ؟. فتمتم الرجل :

– أحضرناه معنا في سيارة . وما كاد الرجل يتم قوله حتى رأيت في اسفل السلم رجالا أربعة يحملون جدي ويرتقون السلم على مهل وحذر ، فسارعت اليهم ذاهلا ، وشاركتهم في حمله واطرافي ترتعد جميعاً ، ثم دخلنا الشقة وهو بين أيدينا ، رأيت أمي في نهاية الصالة ، وقد ندت عنها صرخة فزعة ، واقبلت نحونا لا تبالي الأغراب ، وسألتنا بجزع : ماله ؟!. ماذا به ؟!.

ولكنها لم تسمع جواباً ، أو وجدت في الصمت جواباً ، فصرخت صرخة مدوية ، وولولت في توجع « أبي .. أبي » . وأنمناه على الفراش ، ثم اقبل الرجال عليه يقبلون جبينه واحداً في أثر آخر ، وعزوا أمي ، وخرجوا من الحجرة صامتين ، وسألني بعضهم عما إذا كنت في حاجة إلى شيء فشكرت لهم ، وتطوع البك الذي قابلته أولاً فدلني على الاجراءات المتبعة ، وأخبرني بأنه سيقوم بابلاغ

وزارة الحربية ، وانه يستحسن أن تشيع الجنازة في العاشرة من صباح الغد . ورجعت إلى حجرة جدي مهرولاً فوجدت أمي تبكي بكاء مراً فلم أتمالك أن اجهشت في البكاء ، ولكنها لم تسمح لي بالبقاء في الحجرة ، ولكي تشغلني عن الحزن أمرتني ان ابرق بالخبر إلى خالتي وأخي وأن أذهب إلى اختي لآذنها بموت جدها . وغادرت البيت لأداء هذه الواجبات ، وعدت اليه مرة أخرى ومعي أختي راضية وزوجها . ووجدت في الشاب خير عون في القيام بالاجراءات المتبعة ، أو بالأخرى فقد قام بها وحده واكتفيت بأن الأزمة دون وعي . وما كاد يخيم المساء حتى امتلأ البيت بالأهل ، فحضرت خالتي وزوجها وأخي مدحت وزوجه وعمي ، ولم يتخلف إلا أبي ، وقد قال لمدحت وهو ينعي اليه جدي « البقية في حياتك ، أرجو أن تعزي أمك واخاك وأختك ، لأني لا احضر لا جنازات ولا أعراساً ! » وكانت أمي اشد الأهل فجيعة وحزناً لأنها لم تفارقه طوال عمرها اللهم إلا ثلاثة اشهر قضتها على مضض في بيت أبي .. هكذا مات جدي وقد تمتع بحياة طويلة طيبة فلم يعجزه الكبر ، ولم يقعده المرض . وفارق الحياة في مجلسه الأثير بالمقهى بين صحبه الخاصين ، في يسر قل أن يحظى بـه المحتضرون. وكنت لا ازال كلما خطر على فكري حنيت الرأس اجلالاً لذكراه واستمطرت الرحمة والعفو روحه الكبير . كان جدي ، وكان أبي ، وكان جناح العطف الذي أظلني فنممت في ظله بالعيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيبة . ولا انسى انني اتهمته في الساعات السود التي كدرت صفو حياتي بأنه اساء تربيتي ، او انه تركني لأمي تفسد حياتي بتدليلها ، ولكنني إذ تدبرت الأمر لم يسعني الا اقامة العذر له ، لأني رأيت نور الدنيا وهو يتخطى السنين . وانه لمن اشق الأمور أن يعرف الانسان حقيقة جده ، لأنه غالباً ما يبدو في هالة من التبجيل والقداسة ، ولأن مؤرخيه من الأهل يكونون عادة ممن يبجلونه ويقدسونه . فاذا ركنت إلى ما لمسته بنفسي من حياته امكنني الثناء عليه في غير تحفظ . وطالما كانت صحته وحبه النظام ودقته العسكرية التي لم تبلغ قط الصرامة أو القسوة مثار اعجابي الشديد . وكان حدبه علينا لما تهون إلى جانبه مصائب الحياة ، وبحسبي انني لم أعرف مرارة الحياة الحقة حتى ودعنا إلى مثواه الأخير . ومهما يطل بي العمر فلن تمحى من مخيلتي صورته في أيامه الأخيرة وقد كللت الشيخوخة هامته

بتاج ناصع البياض واضفت عليه وقاراً وجمالاً ، واذكت في عينيه الخضراوين بريق دعابة وعطف . فلم ادهش لحزن رفاقه عليه ، وادركت – ان كان فاتني ذلك – انه كان من الذين يألفون ويؤلفون ، تلك الهبة الربانية التي حرمتها وذهبت نفسي حسرة عليها مدى عمري . وقد تقرر تشييع جنازته في العاشرة صباحاً ، ولما حم الوداع امتلأت الشرفة بالباكيات واطلقت المدافع تحية لجدثه ، وحمل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش . وألقيت على جثمانه نظرة الوداع – وهي يختفي في القبر – وأنا انتحب كالأطفال .

* * *

قالت لي أمي في حزن بالغ : ليس لنا الا الله .

فقلت وقلبي يستشعر خوفاً لا يدريه : هو نعم المولى والنصير .

ومضت تتكشف لي الحقائق ، فعلمت ان معاش جدي قد انقطع بوفاته . واحصيت تركته فوجدت انه ترك بالمصرف اربعمائة جنيه ، ولما كانت أمي وخالتي وريثتيه الوحيدتين فقد خص الواحدة منهما مائتا جنيه صارت كل ما لنا عدا ماهيتي الصغيرة ! . سرت اذن رب اسرة ، وقد لفت عمي نظري لهذه الحقيقة وهو يودعني ، فكرر لي العزاء ، ووصاني بأمي قائلاً : اكرم أمك ما وسعك ذلك ، فانت رب البيت ، وأنت خلف جدك ! .

وتلقيت قوله بخوف وتشاؤم ، ونظرت إلى المستقبل المجهول بوجوم وامتعاض وآلمني ان اجد نفسي مسئولاً عن غيري أنا الذي الفت ان توكل مسئوليتي بغيري ! ولما خلا البيت من المعزين ورحل كل إلى طيته ، وجلست وأمي منفردين نتبادل الرأي قالت بلهجة أسيفة : اللهم عونك .

– ورفعت اليها بصري الحائر في خوف وكآبة ، وسألتها باشفاق : ماذا ترين يا أماه ؟ . فقالت بأسى : لن تمضي الحياة في يسر كما عهدناها . هذا امر الله وعلينا ان نذعن ونصبر ونشكر ، وانه ليسوءني ان أكون حملاً ثقيلاً عليك ، ولكن ما باليد حيلة . فقلت بحرارة : لا تقولي هذا . انت كل ما بقي لي في الحياة ، ولولاك ما عرفت لنفسي مأوى آوي اليه .

فافتر ثغرها عن ابتسامة حزينة ، ودعت لي طويلاً . ثم قالت :

– سيكون ما ورثته من مال قليل رهن اشارتك تستعين به عند الحاجة ،

حتى يكبر مرتبك !. ولذت بالصمت متفكراً ، وعيناها الحزينتان لا تفارقان وجهي ، ثم استدركت بصوت متهدج : لم يعد هذا البيت بالمسكن المناسب لنا، فهو كما ترى كبير ، وأجرته تعادل مرتبك ، ولعلنا نجد شقة صغيرة بما لا يزيد على مائة وخمسين قرشاً في حيّنا هذا . . .

وساد الصمت مرة أخرى ، ورحت اتساءل عما اعماني عن هذا المصير الذي كان متوقعاً من قبل ، حتى عادت أمي تقول بصوت منخفض:

– وينبغي أن نستغني عن الخدم ، ولن نحتاج في المستقبل الا الخادم صغير .

– يا له من ضيق لا أدري كيف يتحمله صدري !. لست أعلم شيئاً على الاطلاق عن الكفاح الذي يشقى به الناس في سبيل الحياة ، فلذلك حدجت أمي بنظرة ناطقة بالاستغاثة وسألتها ؟ بماذا تقدرين تكاليف المعيشة بما فيها من سكن وطعام وخادم وغيرها ؟.

وتفكرت أمي طويلاً ،ثم قالت بصوت منخفض: بما لا يقل عن ستة جنيهات !

ثم استدركت كأنما لتخفف من وقع كلامها : سأرصد مالي لكسائنا وللحوائج الضرورية فيما يخرج عن المصروفات اليومية . .

ولكنني لم ألق بالا إلى قولها ، ومضيت افكر فيما يتبقى لي من مرتبي بعد تكاليف المعيشة ، في الجنيه والنصف، وما ينفق منه على المواصلات ، وما يبقى بعد ذلك للترفيه عن نفسي . فكرت بامتعاض واكتئاب ، فتقبض قلبي جفولاً من هذه الحياة السخيفة التي لا معنى لها . ألم اكن انفق مرتبي كله في الشراب والطعام والعربات ؟.. ألم اكن مع ذلك شاكياً متبرماً تعيساً ؟. رباه ، كان الماضي عهداً غير منكور النعيم ، ولكنني لم افطن إلى نعيمة إلا الآن ، الآن حيث لم يبق منه الا ذكريات ، اني أعمى ما في ذلك من شك ، تعميني الاحلام الطائشة مما بين يدي، ومن كان مثلي قضى عليه بألا يذوق للسعادة طعماً في هذه الحياة . تجهم لي وجه الدنيا ، وخارت عزيمتي ، وامتلأت نفسي تشاؤماً حتى توقعت شراً وراء كل خطوة اخطوها . أجل ألا يجوز ان تستغني عني الحكومة لسبب او لآخر فأحرم حتى هذا المرتب الضئيل ؟.. ألا يحتمل ان يصادفني حادث في الطريق يقضي عليّ بعاهة تقعدني عن السعي من أجل الحياة ؟!. لماذا وجدنا على الأرض ؟. ولعل هذه الأفكار السود التي جعلتني أسأل أمي قائلاً :

— ماذا يُنتظر ان ارث عن ابي بعد وفاته ؟.

ولم ترتح أمي لمجرد افكاري وقالت باستياء: لا تبن آمالك في الحياة على موت انسان. الأعمار بيد الله واني استحلفك بالله إلا ما طردت عن رأسك هذه الخواطر.

بيد انني استخففت بمخاوفها وألححت عليها أن تجيبني على ما سألت ، فقالت مذعنة لالحاحي :

— لأبيك أوقاف تدر عليه أربعين جنيهاً كل شهر ، غير البيت الذي يسكنه.

وقدرت بعملية حسابية ما يصيبني من هذا الميراث ، فوجدته ستة عشر جنيهاً غير نصيبي من البيت ، اذا أضيفت إلى مرتبي الصغير صار كبيراً بلا شك. واستسلمت الأحلام كالمعتاد ، ولكنها لم تغير من الواقع شيئاً . وسألتها مرة أخرى : ما عمر أبي ؟. وأجابتني على كره : لا يقل عن السبعين .

ترى هل يعمر كجدي مثلاً ؟.. ماذا يكون حالي لو عمر طويلا وحرمني ميراثي عشرة أعوام أو عشرين ؟!. وتذكرت ما قيل لي من أنه انتظر يوما على مضض موت أبيه ، وكيف ساقه الجزع إلى الشروع في الجريمة التي قضت عليه بالحرمان من ثروة واسعة ! اني أعاني نفس المشاعر التي عاناها قبل ثلاثين عاماً ، ولعله لو كان لي بعض قوته لسلكت الطريق الذي سلك !.

ثم استدعت أمي الطاهي العجوز وام زينب وأخبرتهما في استحياء وألم بأننا سننتقل إلى بيت شقيقي (آثرت الكذب على الاعتراف بالفقر) ، وانها مضطرة إلى الاستغناء عنهما ، وذكرت عهد خدمتهما الطويـل بالاسف ، وأثنت عليهما الثناء الجميل ، ودعت لهما بالتوفيق ، ثم نفحتهما بما يستعينان به حتى يجدا عملا جديداً . وقد انتحبت المرأة باكية ، ودمعت عينا الرجل العجوز ودعا لجدي بالرحمة والعفو ، وقال بصدق واخلاص :

— وددت يا سيدتي لو مت قبل أن يغلق هذا البيت الكريم أبوابه ..

ولم تتمالك أمي نفسها فبكت ، وانتقلت العدوى إلي فبكيت ، ومرت بي ساعة سوء كابدت فيها ألماً وخزيا لم أشعر بمثلها من قبل .

وانتقلنا قبل ختام الشهر إلى شقة صغيرة في الدور الأوسط من بيت قديم ذي ادوار ثلاثة بشارع القاسم المتفرع مـن شارع المنيل . وكان البيت يقع في وسط الطريق ما بين شارع المنيل والنيـل ، أما الشقة فتتكون من حجرات

ثلاث صغيرة فرشناها ببعض أثاثنا القديم وبعنا بقيته بثمن بخس . وساءلت نفسي في وجوم : هل تستطيع أمي النهوض بأعباء الخدمة المنزلية بعد ذاك العمر الطويل من الراحة والدعة ؟.. انها تهدف إلى منتصف الحلقة السادسة ولم يعد لها من معين إلا خادم صغير فكيف تتحمل هذه الحياة ؟.. وزادت حياتي تنغيصاً وداخلني سخط شامل على الوجود كله . على ان امي أقبلت على العمل بروح عالية فيها مرح كثير فنجحت في ايهامي بأنها مسرورة بالحياة الجديدة ، وكأنما كانت تكبت طوال عمرها رغبة حارة في الخدمة والعمل . وقالت لي بارتياح لمسته في نبرات صوتها وابتسامة عينيها :

– ان خدمة بيتك هي السعادة التي ليس لي وراءها مأرب .

وتجرعت هذه الحياة الجديدة قطرة فقطرة ، وقد أضافت إلى حسراتي القديمة حسرة جديدة ، هي حسرتي على العيش الرغيد والشراب خاصة ، وأجمعت على أن أقتر على نفسي كي تتهيأ لي ولو سكرة واحدة في الشهر ، ولا عجب فلم تكن الخمر بالنسبة إلي لهوا وعبثاً ، ولكن حياة وهمية أفر إلى احضانها من آلام الواقع البغيض ويوماً قالت لي أمي وقد آنست مني استنامة الى حديثها : لعلك لمست الحكمة التي أملت عليّ ان أرفض أي زواج لا يليق بك !. وأدركت ما تعني لتوي ، فكأنما تقول لي : « ماذا كنت تصنع بحياتك لو كنت رب أسرة ! » . ولم يداخلني شك في صدق ملاحظتها ، ولو كنت رب أسرة لشقيت بالعيش اضعاف الشقاء الراهن ، ومع ذلك لم أرتح لقولها ، ووقع من نفسي المهيضة موقع الشماتة المريرة ، فلفني الحنق والغضب ، وكابدت مشقة في كظم عواطفي .

* * *

وهلّ الخريف . ذلك الفصل الذي احببته لأنه البشير بافتتاح المدارس ، وستعود حبيبتي إلى الملتقى المعهود على طوار المحطة . حبيبتي هي الزهرة الوحيدة التي تتفتح في الخريف حين تعرى الأشجار وتذبل الأزهار . ولاحظت ان مواعيد خروجها لم تعد منتظمة كما كانت ، ترى هل بدأت حبيبتي حياتها كأستاذة ؟.. ولذني ذاك الخاطر فاهتز عطفي سروراً . بيد انني لا يمكن أن أنسى ان مجرى حياتي قد تغير ، وانني ارزح تحت وقر الفقر والقنوط ، فحبيبتي حبيبة ميئوس

منها ، ولكن مـا كان اليأس إلا ليزيدني هياماً وولعاً ، ويشب في قلبي أشواقاً وأحزاناً . ما أسرع أن ينقلب الحب اليائس ثورة على الحياة . أليس من الهزء بنا أن تخلق لحياة ثم يحال بيننا وبينها ؟. وزاد من لوعتي انـه كان يخيل إليّ في أحايين كثيرة أن عينيها ترنوان إليّ بنظرة فيها حياة. أية حياة ؟.. لست ادري ولكنها كافية لبعث الجنون في خيالي ، فيثمل بنشوة سحرية لا افيق منها حتى تصدمني حقيقة مرة من حقائق حياتي .. واشتد تطلع أهل البيت نحوي ،وبت وكأنني اسمعهم يتساءلون : ماذا تريد ؟.. لماذا تلتهمها بعينيك ؟.. أي رجل أنت ؟.. ألم يكفك عام ونصف عام ؟! صدقتم والله ، والحق معكم ، ولكن ما حيلتي أنا ؟. ضعوا انفسكم في مكاني وخبروني ماذا تفعلون ! هل لديكم علاج للعجز والفقر ؟.

ولم يتركني الرجلان المعجبان بفتاتي في راحة ، فلم يزالا يحومان حولهـا ، حتى بت أخافهما خوفي العجز والفقر ، وأكرههما كرهي للشقاء الذي يضيق علي الخناق ، مثل هذه الحياة الذمـــا فيها الهرب منها !. لذلك تلمست السبل إلى الحانة مهما كلفني الأمر من العناء . لم يعد شارع الألفي بك بالمرتاد المناسب الحالي فلجأت يوماً إلى حوذي – مشيري في الدنيا بعد أمي – وطلبت اليه ان يحملني الى حانة متواضعة ، وساقني الرجـل إلى سوق الخضر !. وكان هو نفسه – كما اخبرني – يرتادها من آن لآن ، وقال لي مدللا على حسن اختياره :

– الحانات الكبيرة مظاهر كاذبة لابتزاز الأموال ، والخمر هي الخمر ،وخيرها ما أسكر بأبخس الأثمان !.

وأنصت إلى محاضرته في خجـــل أليم تجاوب صداه أسى عميقاً في نفسي ، فتهيأ لي حيناً انه يرثي نهايتي ويعزيني عما سلف من زماني . وغادرته متعجلا ، وسرت صوب حانة صغيرة في مطلع ممر من الممرات المفضية الى السوق. وساورني شعور محزن بأني انحدر الى الهاوية التي ابتلعت أبي من قبل ،ولكن لم يكن هذا ولا غيره بمانعي من المقدور ، وكانت الحانة صغيرة مربعة الشكل بها موائـــد معدودات ، تبدو رثة باهتة ، نادلها يوناني عجوز أعمش ، وروادها من الشعب الأدنى أو بعض الموظفين البائسين . ولكن الخمر هي الخمر كما قال الحوذي . ولا أنكر اني فرحت بنظر القوارير على الرف الطويل، وسررت بها سروراً انسانياً

آلام الضمة التي شدني ضيق ذات اليد اليها . ورأيت أواني الخمر من نوع جديد هي الدوارق ، فدورق الكونياك بعشرة قروش ، وهو ثمن بخس أستطيع معه ان أعاود الحانة مرتين أو أكثر في الشهر . وشربت واستسلمت لشوارد الأحلام في لذة وشوق . وامدتني المصادفة بزاد جديد للأحلام فأقبـــل علي بائع نصيب ولوح لي بورقة وهو يهتف « ألف جنيه » فمددت يدي وتناولتها منه ونقدته ثمنها، ثم طويتها ودسستها في جيبي . زاد جديد للأحـلام يضاهي نشوة الخمر . رباه ! ماذا كانت تكون الدنيا بغير الأحلام ! اني أملك الف جنيه بلا شريك ! الأرض ثابتـــة تحت قدمي لا يزعزعها الخوف والفقر ، والدنيا تبتسم ، ولسوف تقهقه ضاحكة إذا انتهى أبي ! لا يجوز ان اتردد بعد اليوم ، سأقابل الرجل الوقور والد حبيبتي وأقول له بصراحــة : « اني ابتغي شرف مصاهرتك ! » وأقدم له بطاقتي ، ومنذا الذي لا يعرف أسرة لاظ ؟! أجل ان الوظيفة صغيرة ولكني أملك ثروة لا بأس بها وسأرث ثروة أخرى ، فلا يسع الرجـــل الا أن يتقبلني قبولاً حسناً . ورأيتني أزف وسط الشموع وعروسي تتهادى كالقمر . ولم أطق البقاء بعد أن افرغت الدورق في جوفي فغادرت الحانة ، وهمت في الطرق على وجهي متفرجاً حالما ، مسروراً بنفسي وبالدنيا . ولم أكن لأرجع إلى البيت حتى أفيق ، ولكني وجدت نفسي أمام بيت الحبيبة وبالرأس بقية من نشوة فلم انعطف إلى المنيل . كانت الساعة تقترب من الثانية صباحاً ، والطريق مقفراً ، والظلمة شديدة شاملة ، والصمت عميقاً يكاد لعمقــه أن يسمع دبيب الخواطر بالنفس . ووقفت على الطوار متطلعاً إلى البيت النائم ، واستقر بصري على نافذة مخدعها وتسللت روحي خلالها فخلتني أحس تردد أنفاسها العطرة . ان ايماني بالروح لا حد له . ألم تجذب رأسها نحوي فيما مضى ؟ فيمكنها الآن أن تندس في احلامها فتراني ، بل وان تسمعني إذا ناجيتها ! وبادرتها قائلاً :

– « اني أحبك يا حياتي ، أحبك حباً هو من أعاجيب الكون كدوران الأفلاك سواء بسواء ، ولشد ما اتمنى ان أقول لك « أحبك » في يقظتي ولكني لا أستطيع ، ان الخجل أبكم يا حياتي ، والفقر سجن شاهق الجدران ، ولا حق لامرىء لا يملك من مرتبه الا جنيهاً ونصفاً أن يبوح بحبــه لملاك كريم مثلك ، ولكني أحبك بالرغم من هـــذا كله ، ولا أطيق ان تعرضي عن حبي ، وأكاد

اجن حين أرى تطلع الرجلين الثقيلين اليك ، فشجعيني يا حياتي ، اشيري إلي ، ابتسمي في وجهي ، ما في ذلك من يأس ما دمت محباً صادقاً كما لا بد تعلمين ، وما دمت عاجزاً ميئوساً منه كما لا بد تدركين .. آه .. » . وقفت طويلا دون ان تتحول عيناي عن النافذة الموصدة ، فثقلت جفوني وداخلني احساس خفيف بالدوار والتعب من مشقة المشي وخمار الشراب. ثم قرع سمعي وقع اقدام ثقيلة فالتفت صوبها في توجس فرأيت شبح الشرطي مقبلا ، فتحولت عن موقفي وحثثت خطاي.

* * *

ماذا يحول بيني وبينك ؟.. الفقر !. هكذا كان الجواب ، ولم اجاوزه الى غيره من الأسباب ، لأنه كان العائق الوحيد الذي لا اعد عنه مسئولاً ، أو هذا ما اعتقدته . كيف احصل على المال إذن ؟. وتفكرت مفتما ، ثم مال بي الفكر إلى ابي ! ذلك الرجل الذي تمنيت موته طويلا ولكن لم يغن عني التمني شيئاً ، فلماذا لا أزوره ؟.. لماذا لا أستوهبه المال الذي اريد ؟. وبدا الخاطر غريباً لا يصدق ، وخاصة بالقياس إلي أنا الذي اخافه أكثر من الجميع ، ولم اؤمله قط ، بيد ان الجزع كان بلغ مني منتهاه في تلك الأيام ، وجرى الحب مني مجرى الدم ، وتنفسته مع الهواء ، فلم يدع لي ساعة استريح منـه . واشتد احساسي بفوات العمر لدرجـــة تستحق الرثاء ، فداخلني شعور بأنني اذا بلغت الثلاثـــين فقد انتهيت . أمضتني هذه المخاوف ، وكانت النظرات الحلوة التي تجود علي بها الحبيبة توسعني في اثناء ذلك سعادة وتأنيباً صامتاً . فلم أر بداً في النهاية من أن افكر جدياً في زيارة أبي .

وذهبت دون أن أعلن ما في ضميري لأمي ، واهتديت إلى الحلمية مسترشداً بكساري الترام ، ولما بلغت شارع علي مبارك ذكرت لنوي الطريق الذي قطعته مع جدي منذ تسعة أعوام ، وتراءى لعيني البيت الكبير ذو السور العالي تلوح وراءه رؤوس الأشجار الضخمة . ورأيت البواب العجوز جالساً أمـام الباب وقد طعن في السن حتى صار هيكلا أسود . وخانتني شجاعتي إذ غدوت منـه على بعد خطوتين ، فلم أتوقف عن السير ، وجاوزته ، وقد تملكني شعور اليأس فحدثتني نفسي بالعودة من حيث أتيت . وما جدوى بذل محاولة فاشلة حتما !. ولكنني لم أمعن في الهرب ولعل اليأس نفسه أمدني بقوة غير منتظرة ، فرجعت

إلى البواب مستشعراً عزماً جديداً ، مستنكراً الخور الذي يباعد بيني وبين بيت ليَ فيه حق غير منكور. حييت البواب فرد تحيتي جالساً ، فقلت له بلهجة لم تخل من كبرياء : كامل رؤبة لاظ ، خبّر البك من فضلك !.

ونهض البواب مبتسماً ، ودعاني إلى دخول الحديقة ، ومضى ليخبر البك . هي الحديقة نفسها ، لا تزال تسطع جنباتها بشذا الليمون ، وتملىء سماؤها برؤوس النخيل ، وتتسرب منها إلى النفس كآبة ووحشة . وأرسلت ببصري إلى الفراندا في نهاية الحديقة فرأيت البواب يدعوني ، فتقدمت وأنا اطرد عن قلبي شعوراً بعدم الارتياح . وارتقيت السلم ، فطالعني المنظر القديم ، الرجل والخوان المزركش والقارورة والكأس ، مد لي يده وعلى فمه شبه ابتسامة فسلمت عليه ، ثم دعاني للجلوس فجلست على مقعد إلى يمين الخوان . والقيت عليه نظرة سريعة فرأيت الجسم المكتنز وقد ترهل . واشتد احتقان الدم بالوجه الممتلىء ، وغابت العينان في نظرة ذاهلة ، وبأن للكبر في صفحة وجهه غضون في الجبين وحول العينين ، وذبول في الخدين . لم أرتح لمنظره ، ولكني حرصت على ألا يبدو في وجهي أثر مما يدور في نفسي . ولاحت مني نظرة إلى القارورة الممتلئة للنصف فرمقتها بنظرة غريبة ، وذكرت كيف تراءت لعيني في الزورة الأولى فقلت لنفسي : لشد ما يسارع الفساد للانسان !. وكان يتلفع بروب حريري وقاية من رطوبة الخريف في تلك الساعة من الأصيل . ولم يداخلني ريب في أنه مفعم خمرا حتى قمته ، فساورني القلق ، وتساءلت عما دهاني من جنون حتى قمت بهذه الزيارة التي لا رجاء منها . وجعل ينظر صوبي باهتمام ، أو لعله حب استطلاع ، فعجبت لذاك اللقاء الغريب بين أب وابنه بعد افتراق عمر كامل ، وتساءلت في نفسي في دهشة وعدم تصديق عما يقال عن الحب بين الآباء والأبناء . ولم أدر بطبيعة الحال كيف أبدأ الحديث ، ولكنه أخذ يتكلم فأنقذني من حيرتي ، وقال بصوت غليظ :

— كيف حالكم ؟. مات جدك ! كان رجلا لطيفاً ، وأحفظ له ذكريات لا بأس بها على رغم ما كان ، ولكني لم أشهد جنازته وهو ما لا يغفره كثيرون ، على أن الانسان في مثل سني ينبغي أن يعفى من الواجبات ، والشيخ والطفل سيان في ذلك ، ولا تنس من ناحية أخرى أن جنازتي لا ينتظر ان يشيعها أحد

اللهم ألا عم آدم البواب ، ولا يبعد أن يشغل عنها عم آدم نفسه بتفتيش جيوبي وسرقة ما يظنه بها من نقود . ترى هل تشيع أنت نعشي ؟!

دهمني سؤاله بعد قلق استحوذ علي بتأثير لهجته الثملة ، فأيقنت أن مهمتي ستكون شاقة مخيفة ، ولكني بادرته قائلا : أطال الله بقاءك !

فقهقه ضاحكا ، ورأيت انــــه فقد ضروسه ، فساءني منظره وضحكه واستدرك قائلا : يا لك من ولد بار !، فجميل جداً أن تحب أباك وتــدعو له بطول العمر ! والبر بالأب سجية فاضلة لم يكن لي منها نصيب وأسفاه ، ولو أوتيت قدراً من الرياء او حظا من الصبر لكنت الآن من اغنياء البلد المعروفين، مثل عمك قاتله الله ، ألم تر اليه كيف لم يقنع بما ورث من مال لا تفنيه النار حتى استأثر بأخيك مدحت – ذلك الثور – فزوجه ابنته ؟!.. ولقد ظننته يوماً سيعتنق مذهب الطلاق كأبيه ولكنه يبدو خانعا كالنساء ، وانقلب فلاحا مزارعاً يشارك القطعان معيشتها ، ولعله يحـلم بثروة عريضة بعد موت عمه ، ولكن خاب فأله ، فلزوجه أخوات ست كلهن مطمع الفحول من عشاق المال والنساء! لذلك أقول انه من التعاسة ان تنجب بنات ، وان ترضي لهن بمضاجعة الأغراب في بيتك باسم الزواج ، هــذا عار كبير مها قالوا ان الزواج نصف الدين !! إلا اذا كان النصف الآخر هو الطلاق !... (ثم غيّر لهجته) .. لماذا لا تطلب يد احدى بنات عمك ؟!. ألا تعلم بأن ميراث الواحدة منهن لا يقل عن مائة جنيه كل شهر ؟ ولكن دعنا من هذا كله واسمح لي أن انظر في وجهك قليلا فاني لا أكاد أعرفك . ما شاء الله ، أنت رجل لا ينقصك إلا الشارب ، لماذا لم ترسل شاربك ؟.. ثم انك رجل جميل ، ولكنك نحيل مهزول كأنك لا تأخذ كفايتك من الطعام ؟.. عار أن يكون شاب في مثل سنك نحيلا . ومع ذلك فيا لها من سعادة أن يرى الأب ابنه رجلا ، خصوصاً اذا كان يراه لأول أو لثاني مرة !. ألا ترى اني أب عجيب ؟ لقد انجبت ثلاثة ولكني وحيــد مهجور . ولست ساخطا على حظي ، لأنه من السعادة ان تبقى وحيداً ، وما من مرة خلوت بانسان قط إلا وافترقنا خصمين ، وهم يقولون عادة اني مخطيء، وأنا اقول انهم لخطئون ، فالله يفصل بيننا يوم القيامة . لا تدهش اذا سمعتني اقتبس من القرآن !، فانما الفضل في ذلك إلى الراديو ، ولقد باعدت بيني وبين

الدنيا ولكن الدنيا تأبى الا أن تقتحم علي داري في الراديو . اهلا اهلا . انت ولد بار يا كامل ، ولكن ينبغي ان تعتني بصحتك ، وتأخذ كفايتك من الطعام حتى تسمن . الم يترك جدك ثروة ؟!

كنت جزعاً يائساً لا ادري كيف اطرق الموضوع الذي جئت من اجله في ضوضاء تلك الثرثرة التي لا ضابط لها ، واشتد جزعي ويأسي حين رأيته – في اثناء ثرثرته – يملأ كأساً جديدة ، ولكنني انتهزت فرصة طرحه السؤال الأخير وقلت بلهجة لا يشوبها شك : لم يترك جدي شيئاً على الاطلاق ..

فهز رأسه الأصلع الأحمر كأنه يقول « هذا ما توقعته » ثم قال :

– مرتب عالٍ ، ذرية قليلة ، معاش ضخم ، ثم لا يترك شيئاً ، كان رحمه الله مقامراً ، والمقامر يفضل ان يخسر نقوده على المائدة على ان يكتنزها في المصرف وما هو إلا طفل قد تمكن من قلبه حب اللعب ، ولست الومه لأني بدوري شريب سكير ، والفرق بين المقامر والسكير ، ان الأول عملي يضارب ويخادع ويكسب ويخسر ، أما الآخر فنظري يحلم ويحلم ويحلم. إذا طمع المقامر في الثراء قامر بثروته في اللعب فيخسرها على الغالب ، ويمني نفسه بتعويض خسارته فما يزداد إلا خسارا حتى إذا مات لم يترك شيئاً ، او يترك ديناً ثقيلا ، والغريب في الأمر ان المقامرين جميعاً يخسرون ولا ادري من يربح إذن !. أما الشريب فاذا طمع في الثراء وجده محضراً بين يديه دون أن يكلفه ذلك اكثر من ثلاثين قرشاً ثمن قارورة كهذه. اتقول ان ذلك محض وهم ؟!.. ليكن وهل ثمة شيء في الدنيا الا وهو وهم وخيال ؟.. أين جدك ؟.. كان جدك حقيقة ملموسة فأين هو الآن ؟.. شمر للبحث عنه فلن تجـــد له اثراً . فتش عنه في البيت ، وفي المقهى ، وفي النادي ، بل انظر في القبر نفسه ، وهاك رقبتي ان وجدت له اثراً ، فكيف يكون حقيقة ؟!. رحمه الله !.. وماذا فعلتم بعده ؟.. أما زلت طالباً ؟!.

فقلت وانا اداري حنقي وجزعي بابتسامة باهتة : تعينت موظفاً بوزارة الحربية!

فرفع كأسه ضاحكاً وقال : نخب مستقبلك !.. ما شاء الله ! اسرتنا مجيدة ولكن ليس بها من موظف واحد ، فأنت الذي تشق طريقها إلى الحكومة !

ولم أتمالك ان قلت بضيق : لست إلا موظفاً صغيراً ، وليس لي مرتب يذكر!

فرمقني بنظرة توجس من تحت حاجبيه الأشيبين وقال بغير مبالاة :

– لا تجزع ، الصغير يكبر حتماً . قضت حكمة الدنيا بأن الصغير يكبر

والكبير يصغر. والظاهر ان الله خلق ثروة محدودة واحدة ، لا يتغير مقدارها، ويتغير حظ الناس منها ، والا فلماذا لا يثرى الناس جميعاً ؟. فاصبر يا بني ولا تشغل نفسك بالتفكير في المال . التفكير في المال مهلكة كادت توردني حتفي في يوم من الأيام ، اني اعجب لماذا يحب الناس المال هذا الحب الكبير !. لست في حاضري من محبي المال ، انا لا احب الا الخمر ، ولو احب الناس جميعاً الخمر كما احبها ، واستهانوا بالمال ، لأمكن حل مشكلة الدنيا بكلمة واحدة . تصور معي بلداً سعيداً ، يشطرونه شطرين فيشيدون المساكن على اليمين والحانات على اليسار والحكومة في الوسط ، ولا يكون للناس من واجب إلا ان يشربوا ، هذا بلد يربح ويستريح ، ألا تشرب يا بني ؟.. كلا !.. فماذا تعتنق من الشرور؟ ان قيمة المرء الحقيقية فيما يعمل من شر ، هبني مت غـــداً ولم اكن سكيراً ، فما عسى ان يقول عني الناس ؟ لا شيء !. أمـــا وانا شريب فسيقولون حتما : « كان شريباً سكيراً » . بل ولو كنت أتصدق بمالي هذا على الفقراء لما ذكرني أحد بكلمة . الناس ينسون الخـير بسرعة ولو كانوا من صنائعه ، فالشيء الوحيد الذي يخلد ذكرك هو الشر .. ما رأيك في كلامي هذا ؟!.

ولم أجد من الاجابة مفراً ، فقلت : يجب ان نخاف الله ونطيعه ..

فآمن على قولي بهزة من رأسه المستدير بدت هزلية واستدرك قائلا :

– صدقت !. هذا سر الوجود . اما والله لو كان حقاً ما يقولون عن الله فان مصيرنا لأسود !. بيد انني عظيم الثقة والاطمئنان ، وما أفقد ثقتي وطمأنينتي الا إذا ساء هضمي ، هنالك تبدو الدنيا عابسة كالحة !. وذلك لأني أومن بأن الله لا يعذب عباده . كيف أصدق ان الهاً عظيما سبحانه يحرق مخلوقاً مثلي لأنه أحب الخمر ؟! ألا يعجبك كلامي ؟. انت آنستنا . أرى الملل في وجهك . ترى ما الذي دعاك إلى تذكر أبيك بعد نسيان العمر كله ؟!

وخفق قلبي ، ولم أعد أطيق السكوت . ولعله لم يكن من الفطنة ان اطرق موضوعي أثر ذلك السؤال ، لكني قلت في عدم تبصر : أراني في ضيق شديد . وإذا كانت الظروف السيئة قد فرقت بيننا فانك أبي على رغم هذه الظروف السيئة.

وقهقه ضاحكاً فكرهت منظره للمرة الثانية . ثم قال بلهجته الهاذية التي تنزع من سامعه أية ثقة فيما يقول : معك حق . الويسكي هذا حكمة غالية ، انه

كالدنيا في مرارته، ولكن الحكيم ، الحكيم من يستطيبه ويألفه كما يستطيب الحكماء الدنيا ويألفونها . ويل لمن يجزعون لمرارته أو يقيئون ، لن يصبروا اذن مع الحياة . قلت يا بني ان معك حقاً . يعجبني والله حسن تمهيدك ولباقتك . تقاطعني مختاراً ثلاثين عاماً أو ما يقارب هذا ، لا تؤاخذني على الخطأ لأن الحساب لا وزن له عند الشريب فليس حتما ان يساوي واحد وواحد اثنين ، وعسى واحداً يساوي عشرة ، قلت انك تقاطعني عمراً ثم تجيئني معتذراً بجملة لطيفة . على اني أقبل العذر ، ولم لا ؟ الحق لا آسف على مقاطعة الناس لي . أما الضيق الذي تشكو فأمر يهمني جداً ، فما يضايق ابني يضايقني بالتالي ، فماذا تعني يا بني ؟.

حدثتني نفسي بالذهاب لأني لم أجد في ذاك الهذيان فائدة ترجى . بيد اني نبذت الفكرة في احتجاج وغضب . وعز علي أن انكص على عقبي بعد أن أقدمت على ما اقدمت عليه . واستجمعت قواي ، وبذلت فوق ما احتمل عادة في مقاومة الخجل والارتباك وقلت بصوت منخفض : أريد ان أتزوج !.

وعاد الرجل السكران إلى قهقهته الكريهة ، ثم قال بدهشة :

– ما بال أسرتنا لا تنجو أبداً من هذا الداء الوبيل ؟!. ان اختك لم تطق صبرا حتى اختار لها بعلا كما ينبغي فهربت مع رجل غريب وتزوجته . وهذا أخوك ما كاد يشب عن الطوق حتى كان راقداً في حضن عروسه . ولا أبرىء نفسي فقد حاولت ان أكون زوجاً مرة وأخرى وثالثة . اعجب بها من اسرة ! ولعلك تحتاج مالاً ليتم لك ما تريد من زواج ؟! ، لا استبعد هذا فالزواج وان كان داء كما قلت الا اننا ننفق عليه أموالاً طائلة ، وفي هذا وحده الدليل الناطق على جنون الانسان !. ولعلك جئتني وحملت نفسك ما لا تود من رؤيتي لتسألني مالاً تزف به إلى عروسك . لا استبعد هذا ، ولكن من اين لي بالمال الذي تريد ؟. هل « قالوا » لك اني غني ميسور ؟. لا انكر اني اتمتع بدخل شهري مقداره أربعون جنيهاً غير أجرة الطابق العلوي ، ولكن لا تغبن عنك نفقاتي ، اليك الطباخ مثلا فهو يسلبني عشرين جنيها كل شهر ، واذا خطر لي ان اراجعه مرة دوخ دماغي بحساب طويل لا افقه عنه شيئاً . واليك الخمر أيضاً فانه يلزمني منها زجاجتان في اليوم او ما يزيد على خمسة عشر جنيها في الشهر ، وما يبقى بعد ذلك لا يكاد يفي بالضرورات الأخرى كالكساء

والتدخين ورواتب الطباخ والبواب والخادم واجرة العربة التي تجوب بي بعض الشوارع القريبة كلما سئمت طول المكث في البيت. ليس لي من رصيد في المصرف، حتى اني اعالج سوء الهضم بالوصفات البلدية. لا تسألني مالا يا بني، واني اقول هذا آسفاً علم الله، ولكن لماذا لا تتزوج كما تزوج اخوك من غير ان يبذل مليماً واحداً ؟!. وان احترمت نصيحتي فلا تتزوج على الاطلاق !..

وحدجني ببصره الزائغ، فبدا لي فظيعاً كريهاً. ثم استخرج علبة سجائره، واخذ سيجارة واشعلها وراح يدخنها بتلذذ. وجعل يراقب دخان السيجارة بعينيه الخابيتين، فخيل إلي انه نسيني : ثم وقع في نفسي انه يعذبني!. وملأني الحنق، ولكني بقيت على جمودي، وازددت احساساً باليأس والخيبة. وساد الصمت ملياً، ثم التفت نحوي، والقى عليّ نظرة لا معنى لها، ثم ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة وسألني : ألا تدخن ؟.

وقلت باقتضاب وملل : كلا ..

وعدنا إلى الصمت، ألا يجدر بي ان أذهب ؟. وتوثبت للنهوض لولا أن لاح في وجهه ما جعلني انظر اليه بدهشة وانزعاج. بدأ متعباً وتفصد جبينه عرقاً ودارت عيناه في انحاء المكان وكأنهما لا تريان شيئاً. ورأيت خده الأيمن فيما يتصل بفيه يرتعش ارتعاشة عصبية. ثم دمعت عينه اليمنى .. آه .. توقعت شيئاً مخيفاً لا ادري كنهه، ولكن لم تطل به تلك الحال، انبسط وجهه وعادت إلى عينيه الحياة الطفيفة التي تبدو فيهما: ونظر صوبي مرة أخرى، زايلني الخوف الغامض، وعاودتني احاسيس اليأس والخيبة والكراهية. ثم تأملت بعين الاستغراب الحقيقة الماثلة أمامي، وهي ان هذا الرجل هو ابي الذي أوجدني في هذه الدنيا، ودعت هذه الحقيقة حقائق أخرى مما يتصل بها، بدت في صور محسوسة، فساءني منظرها وآلمني وأحزنني. ولبثت هنيهة من الألم في شبــه ذهول، ثم تنهدت على غير وعي مني بصوت مسموع، وتنبه إلي وسألني للمرة الثانية : ألا تدخن ؟

فهززت رأسي سلباً، فقال في تهكم :

– نعم الفتى أنت !. لا عيب فيك إلا انك ترغب في الزواج ! حدثني عن زواجك ! اهو رغبة عامة ؟ أم هو رغبة خاصة في بنت من بنات حواء ؟ (هنا خفق قلبي بعنف وكادت الدموع تسارع إلى عيني) ، هذا مــا يبدو لي ، ترى

كيف الحب هذه الأيام ؟! لا شك انه لا يزال محتفظاً بخطورته وقوته في خداع البشر ! ومع ذلك اكرر عليك النصيحة بألا تتزوج على الاطلاق . هذه نصيحة رجل مجرب . الزواج سخرة . تصور ان امرأة تملكك ودع ما يقال من انك أنت الذي تملكها فهو كذب سمج ، تنهك قواك وتسلبك مالك وتستبد بحريتك ثم تستدرجك لاستعباد روحك وما تملك لرعاية شخصها وابنائها !. فاذا مت سعت إلى رجل غيرك قبل أن تجف دموعها ، الزواج شيء سخيف لم احتمله اكثر من ليلة واحدة !.

ترنح قلبي تحت وقع الطعنة التي نفذت إلى صميمه ، وندت عني على رغمي آهة من الأعماق ، فنظر إلي في شبه بلاهة . ورمقته بنظرة نارية حتى حادثتني نفسي بأن اقذفه بالقارورة في وجهه ، ولكني لم أكن الرجل الذي ينفذ مثل ذلك الخاطر ، وشعرت بالقهر لعجزي ، وبرغبة في البكاء قاومتها ما وسعني الجهد . وسألني في دهشة : هل آلمتك يا بني ؟.

فنهضت قائماً في حنق وصحت به : السلام عليكم ...

ثم ندمت على افلات هذا السلام مني في اللحظة التالية ، وغادرت المكان لا الوي على شيء، ثم خلصت إلى الطريق محطم النفس والقلب والأمل . وقطعت الطريق إلى المحطة وانا أسب وألعن وأتميز غيظاً وحنقاً: « لم احتمله أكثر من ليلة واحدة ! ». رباه !.. لو ان الف صفعة ألهبت قفاي في ميدان عمومي لما آذتني كما آذتني تلك العبارة!. وبلغ مني التأثر مداه فازدحمت الدموع بعيني، واستسلمت للبكاء مستخفياً بالظلمة التي تغشى الكون . ليس ثمة فائدة ترجى منه . موته وحده بيده ان يغير وجه حياتي!. اجل لا أمل البتة إلا في موته. واستقلت الترام وشرودي المعهود ينفس عن كربي بأحلامه التائهـة ، فرأيت نفسي جالساً مع شقيقي مدحت وشقيقتي راضية نتقاسم ميراث أبي بعد وفاته !! واقترحت عليهما ان نبيع البيت الكبير فوافقاني في الحال واصبحت في غمضة عين مالكاً لألف جنيه ! ولم يكن في الحلم أثر لأمي ! فقابلت والد حبيبتي وفاتحته بشجاعة عن رغبتي في مصاهرته وتم كل شيء دون عراقيل !. وشعرت بارتيـــاح خفف من توتر اعصابي الذي أورثتنيه تلك الزيارة المخيفة الفاشلة ، بيد اني تذكرت بسرعة كيف ان الحلم لم يجعل لأمي وجوداً ، وسرت في بدني رعـــدة خوف

وتقزز ، وتقلص قلبي امتعاضاً وندماً ، كيف سمحت لهذا الخاطر الشيطاني بأن يلوث نفسي مرة ثانية؟! ولازمني الامتعاض والغضب طوال الطريق .وجعلت أردد في نفسي : « اللهم بارك لي في عمرها » ، ولم يغن عني ذلك شيئاً فعدت إلى البيت موزع النفس مشتت البال ، ولم يرتـــح لي جانب حتى طبعت على جبينها قبلة طويلة حارة ...

* * *

وفي عصر اليوم التالي ذهبت إلى محطة الترام لأفوز بدقائق السعادة التي لا يجود اليوم إلاّ بها . لم يعد لقاء الصباح بالمتاح إلا فيما ندر ، وذلك منـذ غدت حبيبتي أستاذه – كما قدّرت – وتغيرت مواعيــــد خروجها . وكانت حبيبتي جالسة في الشرفة تحادث شقيقتها ، فوقفت متطلعاً ، منتظراً زادي من نظرة عينيها الذي يمدني بماء الحياة ، وانعطف الرأس المحبوب نحوي ، ولكنه مـا كاد يراني حتى تحول عني فيما يشبه الحدة . ثم نهضت قائمة وغادرت الشرفة .خفضت بصري ذاهلاً وقد باخ حماسي وفتر . ما الذي اغضبها ؟. هل لم تحتمل جمودي؟ هل يقضي علي بالحرمان من نظراتها الحلوة ؟. هل قررت ان تقابـــل جمودي بالاعراض والتجاهل ؟. وتولاني الحزن والقنوط والخجل ، كان موقفي مخجلاً بلا ريب ، ثم خطر لي خاطر جديد بردت له اطرافي ، وتساءلت في خوف أيكون لأحد الرجلين اللذين ينافساني في الاعجاب بها شأن بهذا التحول الجديد ؟!.. لئن صح هذا ، فماذا يبقى لي في الحياة ؟!. خبريني يا حبيبتي بحق شبابك الريان أهي جفوة عطف خانه الصبر أم اعراض قلب ظفر بمبتغاه في ناحية أخرى؟. لن انسى بؤس ذلك اليوم، ولا الأيام التي تلته. اختفت حبيبتي من أفق حياتي، وتحامت الظهور بالشرفة حينا اكون في المحطة ، وفي مرات التلاقي النادرة في الصباح حرصت الايقع بصرها علي. رحت آكل الشرفة والنافذة بعينين جائعتين اضناهما التطلع. وكنت أرى الأم أحياناً وهي ترمقني بنظراتها المتفحصة ، والأخ وهو يلقي علي نظرة غريبـة والشقيقة الصغرى وهي ترميني بنظرة اهتمام ، أما حبيبتي فقد توارت ، تاركة وراءها شجرة الحياة عارية ، قشوراً صفراء وعروقاً ذابـــلة ، رباه ! ليس هذا بعدم اكتراث ، لو كان عدم اكتراث حقاً لما اوجب هذا الحذر كله ، ولوقع علي بصرها كما يقع اتفاقاً على المخلوقات والاشياء بالطريق . انها تتجنبني عامــدة

قاصدة ، انها غضبى برمة ،ولا شك ان قصة الفتى الذي يبدو محباً قد ملأت البيت ولا شك ان جموده الغريب كان موضع تعليق ونقد واستفهام ! كيف فاتني أن اقدر حرج حبيبتي وحيرتها ؟.. وتنهدت من الاعماق ، وتندى جبيني خجلاً وامتلأت سخطاً على حظي التعيس ، وامتدت السنة سخطي إلى امي المتوارية وراء كل شيء !، وانطويت على كدر كأنما سفت ريح الخمسين غبارها على نفسي، فلم أجد غير ذاتي هدفا لسخطي و كدري وغضبي ،وهي عادة قديمة لي اذا ضاقت بي الدنيا ان اوسع نفسي نقداً وهجاء و كشفاً عن عيوبها ومناقصها ، فعدت إلى التنديد بعجزي المطلق ، وخوفي الشامل من الدنيا والناس وكافة المخلوقات الأخرى ، وذلك الكبرياء الكاذب الذي يجعلني اصول واجول في البيت بلا داع حتى اذا اصطدم بأحقر موظف في الدولة انقلب ذلا وخنوعا ، استسلمت لذلك التفكير الحزين طويلا حتى بدت لي نفسي قطعة من البشاعة والهوان ، اني شخص لا يستحق ان يعيش ، ان اتفه الاعمال يملأني ذعراً وجفولا ، حتى تمنيت أن يكون لزيادة الماهية طريق غير الترقية كي لا أجد نفسي ابداً مسئولا عن عمل كبير ، ولن انسى انني بذلت قصارى جهدي حتى وكلوا بي في ادارة المخازن الآلة الكاتبة تفاديا لأعمال حقيرة لا تعدو الضرب والجمع والطرح ، لست الا مخلوقاً غريباً شذ عن قافلة الحياة الحقة ، ومن آي ذلك اني لا احفل بشيء في الدنيا الا نفسي وما يتصل بها من قريب ، ومن آي ذلك ايضاً اني لا اقرأ الجرائد على الاطلاق !. ولشد ما كانت دهشة زملائي من الموظفين عظيمة حين تبين لهم اتفاقاً اني اجهل اسم رئيس الوزارة وقتذاك بعد ان مضت اشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلي كثيراً وأنا صامت كظيم ، وكأني لست من هذا المجتمع فلا ادري شيئاً عن آماله وآلامه ، قادته وزعمائه ،احزابه وهيئاته ، ولكم طرقت أذني احاديث الموظفين عن الازمة الاقتصادية وهبوط اسعار القطن وتغيير الدستور فلم اكن افقه لها معنى أو اوجد لها في نفسي صدى ، لا وطن لي ولا مجتمع ، لا لأني اسبق الوطنية ولكن لاني لم ادركها بعد !.ولعلي اشعر احياناً باني احب الناس جميعاً ،الناس كشيء معنوي عام ،ولكن ما كان احد من هؤلاء الناس — إذا اتصلت اسبابه باسبابي — الا ليثير في نفسي الجفاء والنفور وحتى ايماني العميق لم يستطع ان ينقذني من هذه الوحشة المخيفة ، فضلاً عن انه أثقل

ضميري بالقلق والتأنيب، واوسعني احساسا حاداً بالخطيئة من جراء العادة المجنونة التي استبدت بي .. لذلك كان اذا جاء يوم الاحلام انطلقت إلى حانتي الجديدة بسوق الخضر لا الوي على شيء ، وطلبت الدورق الجهنمي الذي لم يعد لي عزاء سواه ...

* * *

كنت واقفاً في المحطة قبيل المغرب، لم آل ان اتطلع الى الشرفة والنافذة ولكن حبيبتي لم ترق لي منذ جفتني ، قاطعتني مقاطعة قاسية ، واضنت حياتي كمداً ، وكان الشتاء في آبانه ، وفي السماء سحاب جون انعكس ظله الثقيل على الأرض، وهبت ريح باردة ، وقفت ملتفاً في معطفي الأسود ، أرفع للبيت المحبوب من آن لآخر بصرا مشوقا يائسا ، وعلى حين فجأة سمعت صوتا رقيقا يقول :

– من فضلك يا استاذ... فالتفت ورائي بدهشة ، ولكن دهشتي تضاعفت ومازجها خوف كثير حين رأيت أمامي أحد الرجلين اللذين اتهمتهما بحب حبيبتي، ذلك الرجل الوقور الذي يقطن في عمارتها وغمغمت بارتباك : افندم ؟.

فقال بصوته الهادىء الرقيق ، وبلهجة تنم على الوقار :

– تسمح نمشي قليلا معاً ... فتساءلت بحيرة وان حدس قلبي الخبر : لماذا ؟

فقال مبتسماً : لدي امر أود أن احدثك عنه .. فلم أجد مناصا من أن اقول : بكل سرور . فقال وهو يرفع بصره إلى السماء :

– الجو بارد جداً ، فهلا وافقت على أن نستقل الترام إلى ميدان اسماعيل ، وهناك نجلس في مشرب الشاي فأحدثك دقيقتين ؟. ألديك مانع ؟. وركبنا ونزلنا ، وجلسنا . حدثتني نفسي سلفاً بموضوع الحديث ، وداخلني احساس بالخوف ، بيد أن شعوري بأن الحديث سيدور حول حبيبتي حملني على الذهاب معه بلا تردد ، بل وبرغبة لا تقاوم ، ولكني تساءلت طويلا عما هو قائل ؟ وعما يرمي اليه من وراء حديثه ، وألقيت عليه أول نظرة من قريب ونحن جالسان حول مائدة صغيرة، كان في الأربعين، معروق الوجه، دقيق القسمات، صغيرها، ذا شارب قصير ،وسمت هادىء رزين ، وبشرة شاحبة ، وكان يحلي اصبعه بخاتم ذي فص ماسي ، ويضع على عينيه نظارة سميكة أحدث من نظرة عينيه ، ويعبث بسلسلة ساعته الذهبية المدلاة من عروة صدارته. سألني بأدب عما افضله

من المشروبات ، ولما لم أحر جوابا طلب شاياً ، ثم قال :

– اعذرني عن تطفلي هذا ، ولكنك ستقدر موقفي بلا شك اذا علمت بما حداني إلى دعوتك . وأسمح لي قبل كل شيء أن أقدم لك نفسي .. محمد جودت مدير أعمال بوزارة الأشغال . ووقعت كلمة « مدير » من نفسي موقعاً مروعاً ، فقلت : تشرفت يا بك ... أنا كامل رؤبة لاظ موظف بوزارة الحربية .

وجاء النادل بأقداح الشاي ، ولكني كنت أفكر في الفارق الكبير الذي يفصل بيننا كموظفين . هو مدير أعمال ، وأنا كاتب على الآلة الكاتبة بادارة المخازن . ولمحت وراءه مرآة مثبتة في الجدار ، ورأيت صورتي معكوسة على صفحتها ، فنظرت إلى وجهي المستطيل وعيني الخضراوين ، وسرعان ما سرى عني شعور بالارتياح والاعجاب !. أما صاحبي فقال لي :

– يا استاذ كامل ، اني دعوتك لمشاورة أخوية ، وأرجو أن تقدر رغبة رجل مثلي – اعتبره أخاك الأكبر – في التفاهم الصريح. لست بالمتجني على أحد ، ولكني أرجو أن نكون صرحاء !. واصطنعت الدهشة وقلت :

– أرجو أن تفصح يا سيدي عما تريد وستجدني رهن اشارتك..

فضحك ضحكة قصيرة خافتة ، ثم قال بعد تردد قليل :

– أتصفح عني إذا سألتك سؤالاً ليس لي حق في توجيهه ؟.

رباه اني اتلهف على سماعه . أجل اني اوقن بأنه لن يحمل لي نبأ ساراً ومع ذلك بدا لي كأشهى المنى . قلت مبتسماً في ارتباك : بكل سرور يا بك ..

فارتفق المائدة شابكاً اصابع يديه ، وقال : لاحظت انك تبدي اهتماماً خاصاً بشخص ما، وأدركت من أعني (هنا خفق قلبي خفقة عنيفة) فلا تؤاخذني إذا سألتك عن حقيقة اهتمامك هذا ، هل هنالك رغبة أو نية أو صلة ؟!.

اوشكت ان اتظاهر بالدهشة ، وأعلن تجاهلي ، ولكني عدلت عن ذلك في اللحظة التالية . طالما التقت عينانا في المحطة ، وطالما رأيته يراقبني وأنا اتطلع إلى الشرفة ، كما رآني اراقبه وهو يسدد عينيه لنفس الهدف ، فهو يعرف كل شيء ، ويعرف انني اعرف ، فما جدوى التجاهل الا ان يكشف عن كذبي ؟. فقلت متكلفاً ابتسامة كاذبة :

– حضرتك اخطأت الفهم ، فقدرت اني ابدي اهتماماً بشخص ما على حين

اني انظر اليه كما انظر إلى سواه . انها محض عادة سيئة ؟.

وضحكت متظاهراً بالاستهانة ، فابتسم إلي ، وقرأت في عينيه عدم التصديق ثم بادرني قائلا : انك جنتلمان كما قدرت ، فأرجو أن تخبرني صراحة هل لك بالآنسة علاقة ما ؟. إذا اجبتني بالايجاب شددت على يدك مهنئاً وانصرفت إلى حال سبيلي . فقلت وقلبي يتقطع ألماً : ليس لي بها اية علاقة ..

فتردد لحظات ثم سأل في حرج غير قليل : ألم تفكر في طلب يدها ؟.

تناوبتني احاسيس متباينة . شعرت أول الأمر بعذاب لا يوصف ،ثم داخلني سرور خفي لأني أيقنت ان الرجل الذي يخاطبني رعديد مثلي والا لشق طريقه إلى بيت حبيبتي دون أن يعبأ بي ، بل ايقنت انه يخافني ، فأرضى ذلك غروري ارضاء خفف عني بعض ألمي . ثم وجدتني مدفوعاً إلى الادعاء والكذب بقوة لا تقاوم فقلت بيقين :

— لو فكرت فيما تقول لما منعني مانع من طلب يدها من زمن طويل !.

وساد صمت . ومضى يتفرس في وجهي وقد تألقت في عينيه نظرة ارتياح. اجل اي مانع يمنعني ؟ يا للسخرية ! ان كل شيء يبدو كحلم غريب ، هل حقاً نحن نتكلم عن حبيبتي ، وهل حقاً اني لم افكر في طلب يدها وليس لي من رغبة في ذلك . رباه ما اشد عذابي !. وتملكني شعور باليأس لم اشعر بمثله طول حياتي الحافلة باليأس . واخيراً خرج « البك » من صمته قائلا :

— اكرر المعذرة عن تطفلي . والحق ان نيتي قد صدقت اخيراً على طلب يد الآنسة بعد أن زالت من طريقي أسباب صدتني طويلا عن التفكير في الزواج، وبدا لي ان احدثك فيما حدثتك به حتى لا اضع رجلي في غير موضعها ، والآن لا يسعني إلا شكرك .

انه من فصيلة العجزة — هكذا حدثني قلبي — الا انه صادف من هو اعجز منه ، فهو سعيد الحظ بلا ريب . فلم يعد لبقائي من مسوغ ، فنهضت مستأذناً في الانصراف وأنا اقول : مبارك يا سيدي .

فنهض في أدب ، وبسط لي راحته ، وشد على يدي بامتنان فخلته يشد على عنقي ، وشعرت نحو السرور الضاحك في عينيه بحقد ناري ،ثم ودعته وغادرت المشرب . وساقتني قدماي على غير هدى فاستسلمت لهما ، لأنه لم يكن لي غاية

أقصدها ، وأخذت نفساً عميقاً وقلت لنفسي : « الحمد لله ! » ، وأعدت القول بصوت مسموع كأني أهنىء نفسي !. ولعلي كنت أهنىء نفسي حقاً على اليأس ، وأمنيها بالخلاص من القلق والعذاب واللهفة التي لازمتني منذ أشهر طوال ، أو منذ سكن الحب قلبي. وقلت لنفسي أيضاً : « اني سعيد ، وليس أحق مني بالسرور أحد ، انتهت آلامي إلى الأبد ! » ، وخيل إلي انني لو القيت بنفسي من جسر الملك الصالح — كما كان ينبغي أن أفعل في يوم مضى — لحلقت بدل ان أهوى من شدة السرور ! ذقت لذة اليأس في سرور هذياني غريب ، ومرت بي لحظات جنونية . والآن علمت لماذا توارت عن عيني ؟ !فأخذت أفيق من نشوتي الجنونية الكاذبة . ثم نشبت في قلبي أنياب الغيرة السامة ، أيمكن أن يتم هذا حقاً !. لم أستطع أن أصدق هذا .. لماذا ؟.. ربما كان مرجع هذا إلى ثقتي التي لا تتزعزع في الله الرحيم ورعايته ، ولكن من كان يصدق أن ينتهي بنا الحظ إلى الحال التي نعيش عليها !. وتنهدت من الاعماق في يأس مرير ، ثم سرت في جسمي رعدة من البرد القارص الذي تنبهت اليـــه لأول مرة بعد مغادرتي المشرب فأحكمت المعطف حول نفسي خوف البرد لكثرة ما يتهددني الزكام في الشتاء. وألمت بي رغبة غريبة ، هي أن أجد نفسي طريح الفراش !.. وتخيلت بارتياح رقادي تحوط به العناية والحنان !. وعلى حين فجأة انهارت أعصابي تحت الضغط الشديد الذي تحملته ، فوجدت ميلاً لا يقاوم إلى البكاء ، فاستسلمت له متشجعاً بالظلمة التي تلفني وبكيت ، ثم ازددت استسلاماً فاجهشت في البكاء حتى انتحبت وشهقت كالأطفال.

* * *

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنت في طريقي إلى الحلميـة ، إلى أبي ، كيف انتهيت إلى هذا ، خاصة وانه لم يكد يمضي شهر على الزيارة المخيفة !. انه اليأس .. قضيت ليلة مسهدة معذبـة لم يغمض لي فيها جفن ، وتفكرت في أمري طويلاً حتى تجسمت لي الأفكار شخوصاً تصرخ بي أن اذهب إلى أبيك ، مهما كلفك الأمر ، وليكن ما يكون . ولم يكن التردد يمكن في مثـل حالتي ، لقد فقدت رشادي ، وأذهلني الالم عن مشاعري الطبيعية بالتردد والخجــل والخوف فكان أبي — على رغم كل شيء — الأمل الوحيد الباقي لي .

واخترت أن أزوره في الصباح لأني أملت أن أجده قبل سكره في حال خير

من تلك التي وجدته عليها في الزيارة السابقة المشئومة ، وفضلاً عن هذا كله فلم يكن بي من صبر أستطيع أن انتظر به حتى الاصيل ،فتلفتت إلى ادارة المخازن معتذراً ومضيت لطيتي . وكان الصداع يدق غلاف رأسي بمطرقته ، بعد ليلة سهاد وهم ، بيد اني تماسكت ، واستمددت من يأسي قوة لم أعهدها في نفسي من قبل وبلغت البيت بعد العاشرة بقليل فوقف لي عم آدم احتراماً ، فحييته ودخلت بلا طلب استئذان ، أما لأني أبيت أن استأذن في دخول بيت أعده بيتي ، وأما لاني تناسيت ذلك في قلقي وغمي . ومضيت إلى الفراندا وارتقيت السلم متنحنحاً ، ولكني وجدتها خالية ، فوقفت مرتبكاً . وأدركني عم آدم فدفع باباً يفضي إلى الداخل وسبقني وهو يقول : كامل بك حضر .

وتنحى لي ، فاجتزت العتبة بقدمين ثابتتين وجدت نفسي في حجرة كبيرة مستطيلة تنتهي ببابين في الجدار المقابل علقت بينهما صورة بالحجم الطبيعي لأبي في عز شبابه . وقد غطيت أرضها ببساط نفيس منمنم ، وصفت على جانبيها الكنبات ، وأسدلت الستائر على نوافذها وأبوابها . ورأيت أبي متربعاً على كنبة تتوسط الجناح الأيسر للحجرة ، وأدوات الشراب أمامه على منضدة أنيقة كأنها – لعدم انفصالها عنه – عضو من أعضائه . ولم يكن بمفرده ، كان الحلاق على كثب منه يجمع أدواته في حقيبته ، ثم حياه بأدب وذهب ، وعلى أثر ذهابه تراجع عم آدم ورد الباب . واتجه بصري وأنا اقترب منه صوب القارورة فوجدتها لم تمس ، وداخلني لذلك ارتياح وأمل . ومددت له يدي فتناولها بكفه الغليظة ، وجرت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يقول : أهلاً بك ، أأنت في اجازة ؟ . لم أرتح إلى استقباله ، ولكني غضضت عن ذلك ، والحق أن آلام الليلة الماضية ، والصداع الناشب في رأسي . ويأسي المرير ، تغلبت على ما طبعت عليه من خجل وخوف وتخاذل ، فقلت :

– نعم في اجازة خاصة كي أقابلك في الحال .

فرمقني بنظرة لم يحاول اخفاء ما لاح فيها من قلق مما أثار حنقي وغيظي ، وتساءل باقتضاب : أمر هام ؟! تناسيت كل شيء إلا ألمي المبرح وأملي الباقي فقلت بانفعال نمت عنه نبرات صوتي : هام جداً ، أو بالأحرى هو حياتي ومستقبلي . . فردد قولي دون أن يخرج من جوده ، وذهوله الذي استحال طبيعة

أخرى له : حياتك ومستقبلك !. فقلت برجاء واشفاق :

– زواجي الذي حدثتك عنه !.. ان رجلاً يوشك أن يطلب يد الفتاة التي أريد أن أتزوجها ، فاذا لم أتقدم في التو والساعة أفلتت الفرصة من يدي ، وضاعت حياتي .. أتراه قاذفي باجابة ساخرة كمادته ؟. وأنقبض قلبي في فزع. ولكنه لم يكن هاذياً ولا معربداً ، ومع ذلك بدا جامدا سقيما ذاهلا، بل ميتا. كان كل شيء يسوغ لي اليأس ، بيد أني أبيت ان أيأس ، وثبت ذهني المكدود على فكرة واحدة عميت عما عداها في السباق الجنوني الذي أكابده . انتظرت على جزع حتى قال : اطمئن فان حياة الانسان لا تضيع لضياع امرأة .

فهتفت بحرارة : اني أعلم الناس بحياتي !.

فقال بعدم اكتراث : أنت وشأنك يا بني . لن أتدخل فيما لا يعنيني !.

فقلت بعناد : اني في حاجة قصوى إلى المال ، وسبق أن أخبرت حضرتك بذلك . فسألني بلهجة نمت عن الملل : وماذا قلت لك ؟.

فتملكني الحنق . وبدا لي في صحوه أفظع منه في سكره ، وقلت مدافعا عن نفسي باصرار وقنوط : لا بد أن احصل على المال الذي أريد . أرجو أن تقدر حرجي وشدتي ، فاذا ضاعت مني هذه الفرصة انعدم أملي في الحياة.

وألقى نظرة على القارورة ، ثم قطب قليلا وقال :

– أنت تطلب مالا وليس عندي مال !

– هذا غير معقول .. هو الحق الذي لا شك فيه !.

وأيقنت من لهجته واستهانته وتبرمه ان السماء أقرب الي من أثارة اهتمامه وعطفه وتألب علي القنوط والصداع والحنق فقلت بصوت مرتفع ملأ الحجرة الكبيرة :

– انك لم تنفق علي مليما واحداً ، فماذا يضيرك لو تنازلت لي عن بضع مئات من الجنيهات ؟!. ونفخ الرجل عابساً ، واشتد احمرار وجهه ، ثم قال بصوت غليظ : يبدو لي انك لا تفهم ما يقال ، ولا تعي ما تقول ، قلت لك ليس عندي مال .. ليس عندي مال.. ليس عندي مال !.وافلت مني زمام نفسي فكورت قبضتي وضربت فخذي وصحت به : أليس ثمة رحمة في قلبك ؟!.

فحدجني بنظرة كأنما تقول لي : « لقد أعياني اقناعك » ، وقال باقتضاب وعدم مبالاة : كلا ؟.

فرمقته بنظرة جامدة وشت بلا شك بأحاسيس الكراهية والحنق التي تفور بصدري حتى رأيته يعبس ويتجهم وجهه ، ثم صاح بصوت كالخوار : الا تريحوني كي أعيش البقية الباقية من حياتي في هدوء ؟!. فصحت به كمن فقد وعيه :

– متى أزعجنا حياتك ؟. انت الذي ازعجت حياتنا . اني في حاجة لبعض المال الذي تنفقه على الخمر بغير حساب ، ولا بد أن آخذ ما أحتاج اليه .

فقبض على الكأس الفارغة باصابع متشنجة وزعق قائلاً : هذا كلام مجانين.. أتسبني في وجهي ؟.. أتهددني ؟.. أغرب عن وجهي ولا تعد إلى هذا البيت ما دمت حياً ! فاشتد بي الغضب وصحت بانفعال شديد : هذا بيتي ، وما به من مال فهو مالي ، ولن تمنعني قوة عما أريد ، أفاهم أنت ؟.. أفاهم أنت ؟..

فنهض قائماً والشرر يتطاير من عينيه ، وصفق بقوة جنونية وصرخ في قائلا:

– أغرب يا ولد عن وجهي ، واياك أن تعود إلى هذا البيت ، آدم .. آدم..

وفتح الباب ودخل عم آدم كأنه في الانتظار ، واقترب منا وهو يقول :

– أفندم يا بك .. خير ان شاء الله . وبردت فجأة كأن « دشاً » انهال عليّ سكت عني الغضب ، وخمد الهياج ، وولى قلبي فراراً. وقبضت يد الخوف الباردة على عنقي فتسمرت في مكاني مرتبكاً ذاهــلا زائغ البصر . ذهب كامل الذي اصطنعه الغضب واليأس ، وبقي كامل الآخر كما خلقته الطبيعة .ولم يرحم الرجل الهائج ضعفي فصاح بالبواب قائلاً : أوصل هذا الى الباب ولا تسمح له بالدخول مرة أخرى . انه يتهددني بالقتل . وحملقت في وجهه بذهول وانزعاج لا أكاد أصدق اذني ، فلاح لي في هياجه الجنوني كشيطان رجيم . وصرخ في وجهي :

– أغرب عن وجهي . ولكني لم أبد حراكا ، أو بالأحرى لم أستطع أن أبدى حراكا ، تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني ، ومت خوفاً وكمدا وخجلا . وانتظر الرجل عابساً ، فلما رآني لا اتحرك ولاني ظهره وغادر الحجرة الى الداخل على حين تقهقر البواب إلى الفراندا . وجدت نفسي وحيداً فعضضت على شفتي ، واستمدت وعيي فاستطعت ان انهض قائماً في وجوم ، ثم غادرت الحجرة متحامياً النظر ناحية البواب. وحثثت خطاي في الحديقة والبواب يتبعني مغمغماً بالاعتذار والتأسف ، منتحلاً للبك الاعذار قائلاً : « انه دائماً هكذا » ..

وابتعدت عن البيت دون أن أنبس بكلمة ..

* * *

قطعت نصف النهار الأول متسكعاً في الطريق مختنق الأنفاس من اليأس والحنق والقهر والخزي والخجل . وعدت الى البيت في الموعد المعتاد حتى لا تتساءل أمي عما جاء بي قبله وغلبني النوم بعد الغداء فاستغرقت فيه حتى أول المساء ، ثم غادرت البيت مثقل النفس كأنما أحمل الأرض على رأسي ، وتساءلت أين أذهب فما وجدت الا جواباً واحداً نادتني الحانة نداء مغرياً ، واستصرخني قلبي أن البي وأطيع . بيد انني لم أغفل عن الحقيقة الراهنة وهي ان ميزانيتي – ذلك الشهر – ستختل حتما بعد السكرة المشتهاة فلا أجد ما أنفقه حتى قبض المرتب الجديد . على أن النداء ظل عنيفاً لا يقاوم ، وبدا لي في تلك اللحظة التعيسة أن نشوة ساعة خير من حياة لا خير فيها . وتحسست يدي ساعتي الذهبية فقفز إلى خاطري ان أبيعها إذا أعوزني المال . وداخلني ارتياح فابتسمت لأول مرة في يومي . على انني تساءلت في اللحظة التالية عما أقول لأمي إذا افتقدت ساعتي ، ولا بد أن تفتقدها يوماً ؟ . ولكني نفخت ضجراً وهتفت حانقاً : « أمي ، أمي دائماً أمي ! .. سأفعل ما أشاء » . واستقللت الترام بلا تردد . وفي الطريق هفت على نفسي ذكرى جدي لغير ما سبب واضح ، فذكرت أيام الرغد والهناء التي فقدتها بفقده ثم وجدتني اتمنى لو كان قبض يده الكريمة عني ونشأني على البخل والتقتير ، أما كنت أكون أقدر على تحمل حياتي الراهنة ! وقرأت الفاتحة على روحه المحبوبة . ثم غادرت الترام في العتبة وقصدت سوق الخضر حيث توجد حانتي المتواضعة . وما انتهيت من نزع معطفي والجلوس إلى مائدة خالية حتى جاء النادل اليوناني بالدورق . حانتي شعبية بلا ريب ، ولكنها محترمة لدرجة ما ، فالى جانب الحوذية والجلبيين تجد لمة من الموظفين الكهول الذين لا تسمح لهم ظروف المعيشة وأعباء الأسر بارتياد الحانات الغالية . ومن هؤلاء موظف عجوز مغرم بالغناء والطرب . ما كاد يسكر حتى يسترسل في ترديد الأدوار القديمة مثل: « في العشق يا ما كنت انوح » و« يا ما أنت وحشني » ، ولم يكن صوته يخلو من تطريب واداء يبش له الجلوس ويتطوع نفر منهم لترديد المذهب في انسجام لذيذ.
أخذت في الشراب ، وكالعادة تولاني الشعور بالارتياح والمرح ، ذلك الشعور الذي لا أجده إلا بين السكارى في الحانة ، المكان الأوحد الذي أتخفف فيه من وقار الخجل والعي والحصر والقلق والمخاوف ونعمت بطمأنينة وسرور كأنني أرد إلى

أهلي وعشيرتي بعد اغتراب ثقيل ، وتمنيت لو كان في الامكان الا أبرحهم مدى الحياة . وما لبثت أن غمرتني النشوة الساحرة ، وأفعم وجداني طرباً . ولم يكن الموظف الفنان قد بدأ الغناء بعد ، وكان يحدث رفاقه بصوت مرتفع يسمعه الجالسون جميعاً ولا بأس من ان يشتركوا فيه كما يشتركون في الغناء . قال :

– تصوروا ياهوه ان الطبيب ينصحني بالكف عن الخمر ا . لماذا كفى الله الشر؟

– وجد عندي ضغط دم وتصلباً في الشرايين . أشرب حلبة على الريق تضمن صحتك طول العمر . وقال لي اذا واصلت الشراب ستهلك لا محالة .

– العمر بيد الله ا . فقلت : واذا لم أواصل الشراب فسأهلك يوماً لا محالة .

– اجابة تستأهل عليها دورق كونياك على شرط أن تدفع ثمنه . هل تصدقون أني رأيت هذا الطبيب ذات مساء جالساً في سانت جيمس يشرب ويسكي !؟.

– وهكذا الأطباء جميعاً ! ينتش أحدهم جنيهك ويقول لك «اياك والخمر» ، ويمضي به إلى سانت جيمس ويشرب قارورتين ...

واعتدل الموظف العجوز في جلسته قليلا ، وراح ينقر على المائدة ويهز رأسه ، ثم غنى قائلا : « أنصف محبك يا جميل » ، واتجهت نحوه الأبصار ، وأخذت الجوقة أهبتها للترديد . وكنت أشرب ، وأجاذب من يجاذبني الحديث ، وأضحك ملء قلبي . ودار رأسي كالعادة بسرعة ، ورقصت النشوة في قلبي ، وطرت إلى سماء السرور واللامبالاة . ومكثت على ذلك زمناً طويلا أو قصيرا لا أدري لأن السكران يفقد حاسة الزمن ، ثم ودعت الصحاب وغادرت الحانة ورنين الطرب يلاحقني . وضربت على وجهي زمناً آخر ، ثم ناديت عربة وركبت دون مبالاة بالميزانية المنتحرة ، وأمرته أن يذهب إلى المنيل . وسويت المقعد الخلفي ومددت ساقي عليه في جلسة سلطنة وأبهة غير شاعر ببرودة الجو وداخلني ارتياح لحركة العربة الحالمة ، وسرعان ما خامرني ميل إلى العبث فقلت للحوذي في حذر كاذب : ان امرأة تنتظرني في الطريق وسآخذها معي...

فقال الرجل : رهن أمرك يا بك ..

فقلت لنفسي في سخرية أن كل شيء على ما يرام ، عربة مريحة وحوذي طيع وليل ستار فلا ينقصنا إلا المرأة . ثم قلت مستسلماً لداعي الكذب :

– هي سيدة من الطبقة الراقية فهلا وجدت لنا طريقاً آمناً ؟

فقال ضاحكا : أظن جاردن ستي آمن طريق قريب !. فهتفت به :

– خاب فألك ، أن قصرها بجاردن ستي ؟.

فقال باهتمام : أمامنا جزيرة الروضة وان كان الجو بارداً وأنا رجل عجوز لا أحتمل البرد !..

فقلت مشجعاً : سأعطيك جنيها كاملا !.

وشكر الرجل لي بحماسة وقد تهيأ له انه عثر على كنز ، وجعلت أضحك في سري وأتحسس بأصابعي الريال الذي لم يبق لي غيره حتى نهاية الشهر. ومر زمن ثم رأيت العمارة المحبوبة – عمارة حبيبتي – تقترب ، ودبت في قلبي يقظة غريبة وعلقت بها عيناي . لم أعد أملك حرية النظر اليها – وكان كل عزائي – بعد ما كان بيني وبين خطيبها المرتقب !. لم يعد بوسعي أن أتطلع إلى الشرفة أو النافذة. ترى هل خاطب سعادة مدير الأعمال أباها ؟. هل صارت حبيبتي مخطوبة حقاً ، ألم تذكر المحب القديم – الصامت العاجز – وهي تنتقل إلى دنياها الجديدة ؟ ألم تجد نحوه شيئاً من الأسف ؟ وشعرت برغبة في الانتقام من الدنيا جميعاً ، وتولاني أحساس بالذهول والانقباض فلبثت جامداً حتى بلغت العربة شارعنا ، فأمرت الحوذي بالوقوف ، وغادرت العربة ، ونقدته ثمانية قروش فتناولها في دهشة وتمتم متسائلا : والمشوار الآخر ؟.

وانطلقت مني ضحكة خافتة على رغمي ومضيت إلى حال سبيلي. وارتقيت السلم في تثاقل وتعب ، وفتحت الباب بمفتاح في جيبي ورددته بلا حذر ، ثم سرت إلى حجرة النوم وأنرت الكهرباء فوقع بصري على أمي وهي مستسلمة لنوم عميق ينم عمقه على الجهد الذي تبذله في يومها الشاق الطويل ، فوقفت لحظة أتفرس في وجهها ، ثم هتفت بها قائلا : نينة !. وفتحت عينيها وهي تغمغم :

– من ؟.. كامل !. فقلت بهدوء واستهانة : اني سكران ..

فحملقت في وجهي بانزعاج ، ثم جلست في الفراش باضطراب وقالت :

– انك ترعبني بدعابتك . فقلت بغير مبالاة :

– ليس في الأمر دعابة على الاطلاق ، لقد شربت دورقين كونياك أوتار .

وانزلقت من الفراش ، واقتربت مني بارتياع وعيناها لا تتحولان عن عيني حتى شعرت بأنفاسها تتردد على وجهي ، ثم امتقع لونها وقالت بصوت متهدج :

– لم فعلت هذا بنفسك ؟.. كيف تطيع الشيطان بعد أن تبت إلى الله ؟.
فلم أنبس بكلمة ، واشتد بي الذهول ، واستدركت هي تقول :
– اخلع ملابسك .. دعني أساعدك .. وراحت تنزع عني ملابسي وأنا صامت ذاهل . لماذا فضحت نفسي على ذاك النحو الغريب ؟.. لم أكن في حالة سكر يتعذر معها ضبط نفسي ، بل من المؤكد انني رجعت في ليالي سابقة في حالة أشد سكرا فما أحدثت منكراً ، وما تهاونت في حذري كي لا تستيقظ من نومها ، فما الذي دهاني تلك الليلة ؟ والأعجب من هذا وذاك أنني كنت خالي الذهن حتى بعد أن دخلت الشقة ، ولم يثب إلى خاطري ان اوقظها إلا عندما وقع بصري عليها ، فلما أن لبت ندائي قلت ما قلت بلا تردد وربما بلا ادراك ولكني كنت مدفوعاً بقوة لا تقاوم !. ولم استشعر ندماً وقتذاك ، وجعلت أتفرس في وجهها المتألم وهي تنزع ملابسي جامد الاحساس متحجر الشعور . ثم ابتعدت عنها صوب المشجب فتناولت البيجاما وارتديتها صامتاً ، وصعدت إلى فراشي واندسست تحت الغطاء . واقتربت مني ، ووضعت راحتها على جبيني ، وسألتني بصوت مرتجف النبرات :
– أتشكو شيئاً ؟.. هل أصنع لك قهوة تسند رأسك ؟.
فقلت لها : شكراً . لا أريد شيئاً على الاطلاق .

* * *

مضى على تلك الليلة وما خلفت من شجن اسبوع ، أو اكثر لا أذكر، وكنت قد انتهيت من عملي اليومي وجلست انتظر موعد الانصراف في ملل وتعب ، وقبيل الساعة الثانية بقليل استدعيت إلى التليفون فانتقلت اليه في دهشة لأنه لم يحدث قبل هذه المرة أن طلبني أحد بالتليفون ، ولأنني لم أكن أنتظر أية مكالمة تليفونية اطلاقاً. ووجدت المتحدث شقيقي مدحت وقد قال لي باقتضاب:
– والدنا توفى ، احضر إلى الحلمية... وعقدت الدهشة لساني فلم أزد على أن قلت : سأحضر في الحال . وأعدت السماعة إلى موضعها ولبثت واقفاً في مكاني .
واتجهت نحوي الأبصار وسألني الزملاء عما هنالك ؟ فقلت في ذهول :
– مات أبي ... وتلقيت التعازي كالمعتاد ، وما لبثت دهشتي أن استحالت خوفاً ، لأن الموت يخيفني دائماً ، وغادرت الوزارة وانطلقت صوب المحطة .

مات أبي أذن !.. هذه حقيقة لا شك فيها . وأخذت أفيق من وقع الدهشة ، وأستشعر نسائم ارتياح عميق تهفو على نفسي !. بيد أن صورته تمثلت لعيني في وضوح بصلعته المستديرة ونظرته الغائبة ، وخيل إلي لحظة أني استمع إلى صوته الأجش وضحكته الساخرة . ترى متى مات ؟ وكيف مات ؟ إلا ما أغرب الموت !. ان الموت لا يتخلى عما له من خواص المأساة حتى في حال رجل كأبي عاش جل عمره عيشة الأموات بعيداً عن الدنيا والناس ، فعيشة الأموات شيء والموت نفسه شيء آخر . وطرحت على نفسي هذا السؤال : من عسى أن يحزن لموت أبي ؟.. مدحت ؟. راضية ؟.. بدا لي أنه سيغادر الدنيا غير مودع بحزن أو أسى ، وبدا لي ذاك مأساة أفظع من مأساة الموت نفسها . أليس مستنكراً أن يحيا انسان في هذه الدنيا أكثر من سبعين عاماً ثم لا يترك وراءه راثياً ؟!. وجدت عند ذاك عطفاً وحزناً ! وانها لعاطفة غريبة لم تختلج له في صدري من قبل ، ولعلها كانت وليدة الارتياح لا الأسى ، لأنه في مثل حالتي قد تجود النفس بالحزن لتداري سرورها ، أو لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتو ، ولعلها عاطفة صادقة أفصحت عن نفسها بعد أن ذهبت – بموته – العوائق التي كانت تعتاقها. مضيت إلى الحلمية ، ولما أقبلت على البيت القديم رأيت نفراً من الأسرة يجلسون صفاً على الكراسي الخيزران ، يتوسطهم رجل وقعت عليه عيناي أول مرة وعلمت أنه عمي بعد ذلك ، وكان مدحت يجلس إلى يمينه ويليه زوج أختي. وسلمت واجماً ، ووقفت مرتبكا حتى نهض شقيقي ومضى بي إلى الحديقة وقال لي : كان يوماً شاقاً مريراً ، ولكن انتهى كل شيء ... فسألته :

– لماذا لم تستدعني قبل ذلك ؟ فتنهد مدحت وقال :

– كنا في شغل شاغل ، ولولا ان راضية ذهبت بنفسها إلى أمنا فجاءتا معاً لما علمت حتى الآن بالخبر . ألا تدري ماذا حصل ؟. لقد تلقيت برقية في الصباح الباكر من عم آدم يطلب إلي الحضور تواً لأن والدي لم يعد إلى البيت منذ ليلة أمس ، فحضرنا جميعاً ، واخبرنا عم آدم بأن والدنا غادر البيت قبيل غروب الأمس وانه لم يعد على خلاف عادته ، وانتظره الرجل قلقاً حتى قبيل الفجر ثم أرسل لنا البرقية في الصباح الباكر ، وأنا أعلم ان والدنا كان يحلو له الخروج من آن لآن عند الأصائل – وهو ثمل كما تعلم – فيسير قليلاً على قدميه ثم يستقل عربة

تنطلق به حيثما اتفق ثم يعود إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين ، ولكنه لم يحدث أبداً ان قضى الليل خارج بيته ، ولذلك أثار غيابه قلق الرجل وأوقعنا في حيرة شديدة . ولم نكن نعلم له من صديق أو وجهة ، ولكن وقع في ظننا أنه ربما يكون ذهب إلى راضية فمضينا اليها ولكنها لم تكن رأته منذ مفارقتها البيت ، ولم نشأ ان نضيع الوقت سدى فاتفقنا أن تذهب هي إلى امنا من باب التقصي ، وأن نستفسر – أنا وعمك – عنه في قسم الخليفة ، وهناك أخبرنا الباشجويش أن حوذياً جاء إلى القسم أمس يحمل رجلاً له أوصاف أبينا وقد فارق الحياة ، وقال الحوذي انه استقل عربته فيميدان باب الخلق وسار به كرغبته في اتجاه الامام، ولما أراد أن يستفسر منه عن وجهته بالتحديد في أثناء الطريق وجده كالنائم ، وناداه ليوقظه فلم يغن عنه النداء ، فأوقف العربة وانتقل اليه وهزه برفق ، ثم تبين له انه فارق الحياة ، فلم ير بدأ من أن يحمله إلى القسم ، وقد قبضوا على الحوذي على سبيل الاحتياط ، وحمل أبي إلى القصر العيني حيث اتضح موته ميته طبيعية بالسكتة القلبية ،وانتقلنا إلىقصر العيني فأدخلونا إلىبهو الجثث المشرحة ..

وسكت مدحت وقد لاحت في عينيه آي الألم والتفجع ، ثم استدرك فيشبه ثورة مكتومة : يا له من منظر !.. لا أدري كيف عرفنا أبي !.. كان شيئاً آخر واغرورقت عيناه بالدموع ، ولم أكن رأيته إلا ضاحكاً فاشتد بي التأثر وطفرت الدموع إلى عيني.ولزم الصمتحتى استعاد رباطة جأشه ، ثم أخبرني بما تم الاتفاق عليه من تشييع الجنازة في الساعة الرابعة ، ثم قال لي : انه راقد الآن في مخدعه فاذهب لتلقي عليه النظرة الأخيرة ..

وخفق قلبي خفقة عنيفة ، وتملكني خوف شديد ، ولكني لم أستطع رفع بصري اليه ، ولم أجد مناصاً من التظاهر بالترحيب بفكرته ، فاتجهت صوب الفراندا متعثراً فيخوفي وارتباكي ، وارتقيتالسلم مزدرداً ريقي فلمحت شقيقتي ولمحتني في وقت واحد ، والظاهر انها أخبرت أمي بحضوري فجاءت على عجل وقابلتني في الفراندا وسألتني في قلق عن وجهتي ؟ فقلت :

– أريد أن أرىأبي ..فقالت برجاء واشفاق: هلا عدلتعن هذا يا كامل؟. ان قلبك أضعف من أن يحتملمشهد المنتقلين إلى رحمة الله .. وتنهدت فيارتياح وارتفع عن عاتقي حمل ثقيل . لم يكن ما بي شيء غير الخوف . وهل يستطيع

ان يواجه الموت في أبشع حالاته وأفظعها قلب تتولاه الرجفة حيال فأر أو خنفساء؟ ورجعت إلى الخارج وجلست بين عمي وأخي صامتاً ، وقبل الموعد المحدد لسير الجنازة بنصف ساعة أخذ المشيعون يتوافدون علينا فجاء بعض الجيران وموظفي ادارة المخازن بالحربية ، ولما لم يكن لأبي معارف ، ولم يكن لعمي أصدقاء في القاهرة ، فلم يزد عدد المشيعين على عشرين . وقال عمي متأثراً أنه سيحيي ليلة المأتم في بيته بالفيوم . ثم أزفت اللحظة الأخيرة ، وارتفع صوات أختي راضية يمزق الصمت الثقيل فاهتز قلبي تأثراً ودمعت عيناي. ولم نلبث أن انتظمتنا الجنازة وغشيتني بادىء الأمر كآبة ثقيلة استثارها في نفسي منظر النعش ، وظل الموت ، وما عاودني من ذكريات جدي ووفاته . ثم جعلت الغشاوة تنقشع والسكينة تعاودني ، واسترقت النظر الى من يحيطون بي فرأيت وجوها هادئة ، وأخرى باسمة لسبب أو لآخر ، فسري عني وثابت إليّ نفسي . وتذكرت بغتة كيف كنت أسير في الصباح صوب الوزارة خالي الذهن مما يترصدني من أحداث اليوم ، وكيف أسير الآن وراء النعش فعجبت لحياتنا الغريبة ، وخيل إلي في تلك اللحظة أن الحياة تبرز لسانها في شطارة وتهكم مغرقة في الضحك !. ثم ساءلت نفسي عن أي الحالين أفضل : حال الصباح أم حال المساء؟!. ولم استطع مقاومة موجة رقيقة من الارتياح والسرور ، ثم هب شعوري الديني العميق احتج احتجاجاً صارخاً وبث في حناياي الخوف والندم ، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم . ورحت أتهرب من احساس السرور والارتياح الذي يلاحقني ، فقطبت متجهماً وأنا لا أدري ، ولكن دون جدوى ، فسرعان ما هزأ عقلي بهذه المحاولات الصبيانية وانطلق يفكر في الثروة المنتظرة . وذكرت ما سبق ان حلمت به من قبيل حين تساءلت : ترى متى يتحقق الحلم ؟. هل أصبح مالكاً لألف من الجنيهات حقيقة ؟ . ولكن هل تمكنني منافسي في اتخاذ الخطوة الحاسمة ام تقعد بي الحيرة كما كان ؟ أتكون الثروة المنتظرة سبيلي للسعادة المرموقة ، أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات التعيسة ؟. انه سيسخر من فقري وعجزي ، وانه لقادر على ان يسخر من ثرائي وعجزي ، فيجعلني في غنى المال مقضياً علي بالحسرة والتعاسة !. وفتر حماسي وخمد ، وعاودني وجوم ثقيل ، ثم فكرت في رجاء واشتاق ان يحمل فتاتي من

فستي ونصيبي ... وانتبهت من افكاري على توقف سير الجنازة أمام الجامع . وادخل النعش للصلاة عليه ، على حين انفض عنا المعزون مشكورين . ثم اودع النعش سيارة الموتى ، وانطلقت بنا وبه إلى الأمام ، وانتهى المطاف ...

واجتمعت الأسرة ليلاً في الحجرة الكبيرة التي قابلت فيها ابي لآخر مرة ، فجلست وعمي وشقيقي وزوج اختي في جانب منها وجلست أمي واختي وزوجتا عمي واخي في الجانب الآخر . وكان عمي رجلاً عملياً – وقد ذكرني مظهره بأبي – فتحدث عن الاجراءات الواجبة لاثبات الوراثة واقترح ان يقدمنا إلى صديق له في وزارة الأوقاف ليسّر لنا قبض مرتباتنا الشهرية . وتحدث اخي مدحت فقال انه يرى ان نبيع البيت ما دام احدنا لا يرغب في سكناه ، ووقع رأيه من نفسي موقعاً حسناً لم أحلم به ، فوافقت عليه بحماس نسيت ان اداريه ، ولم تمانع راضية ، وقال عمي :

– انه بيت قديم ضخم لا يغري إلا شارياً مثرياً ، يهده ويشيد مكانه عمارة كبيرة على طراز حديث ، على انه لا يمكن ان يباع بأقل من اربعة آلاف جنيه.

أربعة آلاف ! ، آه لو يكون منافسي تأخر !. وكبر علي ان اتصور ان يخيب الله رجائي بعد ان حقق احلامي على هذه الصورة الباهرة ، ان ثقتي بالله لا حد لها وهو الخبير المطلع . ولاحت مني التفاتة نحو امي فوجدتها صامتة غارقة في افكارها وقد ارتفع حاجباها الخفيفان وانفرجت شفتاها عن اسنانها الصغيرة اللامعة ، ترى فيم تحلم !. وما حقيقة مشاعرها حيال المتوفى ؟.. هل أعادها هذا البيت القديم إلى عهود حياتها المنطوية !. وشعرت نحوها بعطف وحب ، ثم ذكرت الأفكار التي تتملكني فداخلني احساس بالقلق والخوف...

ولما اقترب الليل من منتصفه اقترح اخي ان نبيت ليلتنا بالبيت ، ولكن امي آثرت ان نعود إلى بيتنا على ان نرجع مع الصباح ، وبذلك غادرنا البيت القديم وسرنا جنباً إلى جنب صوب المحطة ، وحدثتني في الطريق قائلة :

– أما كان الأفضل ان تبقوا على البيت . فقلت بدهشة :

– وماذا نصنع به .. اني في أشد الحاجة إلى نصيبي من ثمنه .. فقالت :

– حسبك راتبك الشهري ، أماهذا القدر الكبير فما ادري والله ما حاجتك اليه !

ترى هل استشعر قلبها خوفاً !. وساورني القلق والاستياء ، واختلست منها

نظرة ولكني لم أتبين في الظلمة ما يبدو على وجهها ، وواصلت حديثها قائلة في لهجة تنم عن الاشفاق: إياك وان تفرح لموت أحد !. لا تذكر أباك من الآن فصاعداً الا دعوت له بالرحمة ، فما أحب لك أن تسر لموت انسان مهما كان هذا الانسان!

عجبت لهذا الكلام يلقى علي من الفم الذي بث فيّ المقت لأبي ، ولكن لم يخطر لي على بال أن اذكرها بهذه الحقيقة العجيبة . ثم عدنا إلى بيتنا دون أن ينبس أحدنا بكلمة ..

* * *

لم أعد الفقير المعوز الذي كنت ، رفع عن كاهلي عبء الحاجة والحرمان ، وغدوت ذا دخل لا بأس به غير الثروة التي ستوافيني في خلال شهر أو شهرين ، ولكن مسني جنون لم يكن لي به عهد ، جنون محب لا يقعده الفقر !. كان لي من الفقر رادع يحد من طموحي ، ويحمل من حبي حسرة طويلة منطوية في ذات نفسي ، ولذلك سلمت بالهزيمة حيال منافسي محمد جودت دون مكابرة ، وانطلقت في الطريق انشج كالأطفال ، فلما أن قتل الفقر غـدا الحب مطمعاً غير محال . فتناسيت العوائق الأخرى ، وركبني جنون جديد ، جنون من تبدو له السعادة ممكنة ، ولا يحول بينه وبينها الا ان يتغلب على خجله فيقتحم سبيله ويجرب حظه ، لزمت المحطة طويلاً في عصر اليوم التالي للوفاة ، وجعلت أتطلع إلى النافذة المحبوبة برغبة جنونية ، ما عدت أرى حبيبتي ، وما أدري ان كان الذي اخشى قد وقع ، ولئن كان فلن أجني من ثروتي إلا السم الزعاف ، ولكن هبها لاحت وراء النافذة فما عسى أن أصنع ! هل تواتيني الشجاعة على أن اومىء لها بطرف خفي .. لشد ما ينقبض قلبي خوفاً وجفولا !.. لست من ذلك في شيء .. لو كان بي ذرة من شجاعة لاقتحمت باب العمارة دون تردد ولاستأذنت في مقابلة البك وعرضت عليه ما يجول بخاطري. هل يعد هذا من الخطورة بحيث يستدعي كل هذا الخوف ؟.. وهبه على اسوأ فرض قد اعتذر من عدم القبول ، فلماذا أعد هذا الرفض أشد من الموت وأنكل من القتل !.. لماذا لا يكاد يجول بخاطري حتى أتصبب عرقاً وينتزى قلبي في صدري ! يالله !.. أما يتزوج الناس كل يوم بالعشرات والمئات !.. كيف يلتمس الأزواج الوسائل ويقتحمون السبل ! ليس بيني وبين مبتغاي إلا أن أطرق هذا الباب. فأما سعادة الأمل أو راحة اليأس،

فلما أتردد وأحجم .. انه بيت وليس بحصن ، واني طالب زواج ولست بعدو ، فلماذا أخاف كل هذا الخوف !. ليست غايتي أن أغزو قارة ولا حق أن أخوض معركة ، وليس المطلوب ان أكون نابليون أو هانيبال ، لا يعدو الأمر أن اقدم نفسي ، وان أعرض سؤالي ، وأنا محوط بالرعاية التي يتلقاها ضيف من مضيف كريم ، ثم ليكن الجواب ما يكون فما يجاوز على أسوأ حال الاعتذار الرقيق.. قلت هذا لنفسي في يسر وتأنيب : ولكن ما أن تجسم لي الخيال حق التهب مني الجبين واشتدت ضربات قلبي وأحسست رعدة تسري في أطرافي ، وحضرتني بغتة ذكرى ساعة الخطابة المشئومة بكلية الحقوق التي طوحت بي بعيداً عن الجامعة ، فتنهدت من الأعماق في قنوط قاتل. ان الأقدام فوق طاقتي ، وربما كان بوسعي ان اقضي العمر على هذا الطوار ، باكياً ، أما عبور الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع ، وبلغ مني الهلع ان انقلب القلق الذي يساورني حمى تحرق القلب والرأس ، ثم انقضت أيام قلائل عشتها فيما يشبه الهذيان ، نسيت الثروة التي وقعت علي ، وجمد حماسي للحياة والأمل ، وتركز تفكيري في شيء واحد لا يتحول عنه ، جعلت أدور حوله دون ان اجرؤ على الدنو منه ، أو استطيع الابتعاد عنه ، ووجدت على أمي وجدا لم احاول اخفاءه ، فقلت لنفسي في حنق بالغ : لو لم اخشاها لبعثتها تخطب لي وتكفيني شر الحمى التي تستعر في كياني .. متى تنقشع هذه الغمة !. لم أكن لأرى لها نهاية لولا حادث عارض ! كنت عائداً من الحلمية ، فنزلت في العتبة حين الغروب ، وصعدت إلى ترام الجيزة الذاهب عن طريق الروضة كالعادة . وكانت القاطرة مكتظة بالجالسين والوقوف ، فرحت اتزحزح حتى اسندت ظهري إلى باب مقصورة الدرجة الأولى . ولما غادر الترام الميدان بقليل سمعت نقراً على الباب فأدركت أن احد الراكبين يستأذن لفتحه فابتعدت عنه قليلا دائراً على عقبي لأفسح للقادم طريقاً ، وفتح الباب عن وجه أعرفه ، رأيت أمامي حبيبتي دون غيرها ! .. وثب قلبي وثبة عنيفة زلزل لها صدري ، وغبت عن كل شيء في الوجود إلا هذا المنظر البهيج الذي ارتعدت له جوارحي فرحاً وخوفاً ، ورفعت إلى وجهي عينيها عرضاً فالتقت عينانا لحظة قصيرة ، وبدا لي أنها ترددت قليلا على عتبة المقصورة ، ولكن لم يكن وراءها موضع لقدم فغادرت المقصورة على رغمها والتمس بصرها فيما ورائي مكاناً تقف فيه ولكن كان تكتل الواقفين متماسكاً ،

فاضطرت ان تحتل الموضع الذي كنت شاغلة وأسندت ظهرها إلى الباب، ووقفت أمامها ممسكاً بقبض الباب ، على مرمى الأنفاس منها ، هي هي دون غيرها ، جادت بها السماء لتبل جوانحي . من الحقائق ما هو أعجب من الأحلام ، وهذه أعجب الحقائق . ماذا بي ؟.. ترى اهذا سرور أم خوف أم وقدة نار ؟. لولا دقة الموقف وشدة حيائي لطاب لي ان ابكي ! غبت عن كل شيء ، فلم اعد أحس للناس وجوداً على تكتلهم ، وحتى حبيبتي نفسها لا أذكر لون فستانها ولا ماذا كان بيدها ، ويبدو لي أن للقلب بصراً اذا اشتد تفرسه غطى على بصر الأعين فينقلب الانسان اعمى وهو بصير – ولا أدري كيف واتتني الشجاعة فاسترقت اليها النظر ، ورأيتها خافضة العينين متوردة الوجنتين يبدو عليها الارتباك فخفق قلبي بغير رحمة وهيأ لي ان وجودي هو الباعث على هذا التورد الفاتن وذاك الارتباك المليح ، وتنهدت على رغمي فتموجت خصلة من شعرها لوقع انفاسي ، ورفعت إلي عينيها ثم خفضتهما بسرعة فراراً من عيني . آه .. عثرت أخيراً على من يفر مني !.. وشاعت في رأسي نشوة ألذ من نشوه الخمر واحمى، وركبني جنون لا عهد لي به فثبت على وجهها عيني في جسارة خارقة ، بل هي بالنسبة إلى جنونية ، ثم وثبت إلى شعوري رغبة غريبة ان انطق وان أبوح بما يضغط انفاسي ، وازدردت ريقي في توتر عصبي عنيف ، وجعلت اتحفز واتوثب في قلق وهياج نفسي مروع، وأيدني الجنون الذي يضطرب في روحي ، ودفعني ما عانيت في الأيام الماضية من لهفة وقلق وقنوط ثم تملكني أحساس يشبه إحساس المنتحر اذا تجمع للوثبة الأخيرة ، وتحركت شفتاي بصوت خرج همساً قائلاً :

– أريد ان اقول لك كلمة ..

رباه !.. ترى هل بلغ سمعها ؟.. أجل ، ... رمقتني بعين دهشة وقد اشتد تورد وجهها ورمشت عيناها !. ومر وقت قاس غليظ جف حلقي وتوالت ضربات قلبي في سرعة وعنف ، أية هاوية أوردني جنوني ؟. لقد هوى المنتحر وجاء دور الاستغاثة . ومع ذلك داخلني ارتياح عميق لأني زحزحت أضخم سد اعترض حياتي . تكلمت ، نطق الحجر ولو بعد حين ، لن أموت على أية حال وسري دفين صدري . ولكن الترام لا يمهلني طويلاً ، وانه وشيك الوصول إلى محطة حبيبتي ،وها هي ترمي بنظرها خلل النافذة ،وها هي يدها تتلمس مقبض

الباب لتفتحه ، سينتهي كل شيء ! : وركبني الجنـون تارة أخرى فشددت على مقبض الباب أمنع فتحه !. من أين لي بهذه الجراءة ؟!، وبدا في الوجه الجميل الاستياء ، ورمقتني غاضبة ، فهمست برجاء حار كأنه البكاء : كلمة واحدة ..

وتوقعت لحظات قاسية أن تنقض الصاعقـــة على رأسي !.. ان تزجرني أو تنهرني فتستثير غضب الحاضرين : .. ثم على السلام ! ما بي من قوة لاحتمال مثل هذا الموقف ،ولئن وقع لأموتن حيث أنا !. ووقف الترام ويدي قابضة على الباب ثم تحرك ثانية وهي بمكانها مقطبة مستاءة ولكن دون أن تبدي اعتراضاً جدياً أو ثورة علنية !. وسرت في جسدي رعدة السرور والظفر والجنون وخيل إلي اني أتحول إلى عملاق جبار يخر له الموت نفسه صريعاً بضربة واحدة .وانتظرت حتى ابتعد الترام محطتين ثم فتحت الباب وأنا أهمس « تفضلي » ، فدارت على عقبيها بحركة عصبية وسارت تشق لها طريقاً وسط الزحام وأنا أتبعها ،واعترض نشوتي خاطر ، ألا يكون استسلامها حياء وارتباكاً وتفادياً من الفضيحة ؟! ألا يحتمل أن تكون قد كظمت غضبها حتى تصبه علي في الطريق بعيداً عن أعين النظارة؟ وأوشكت قواي أن تخذلني ، وغادرت الترام وراءها وأنا قلق مضطرب ،كانت الظلمـــة غاشية والطريق كالمقفر الا من سيارات تذهب وتجيء ، وابتعدت عني بسرعة وهمت بعبور الطريق إلى الطوار ، فحفزني الاشفاق من افلات الفرصة الى الدنو منها ،متشجعاً بالظلام ، ثم قلت بصوت متهدج : معذرة .. لا تؤاخذيني على تهجمي .. فالتفتت نحوي وقالت بحدة : ماذا تريد ؟.. وما هذا الذي فعلته أمام الناس ؟ واشتد بي الارتباك ، وكنت اسمع صوتها لأول مرة فهزتني به غنة لطيفة على حدته وعضبه ، وقلت : أسألك المغفرة . اني أود أن أقول لك كلمة من زمن طويل ولم تتهيأ لي الفرصة إلا اليوم ! وشعرت بصعوبة شديدة في التعبير والكلام ، وبأن احساساتي الحـارة يخونها الافصاح ، ووجدت قهراً وضيقاً . وزاد من ضيقي انها ولتني ظهرها بغير اكثراث وعبرت الطريق إلى الطوار في عجلة ، فتبعتها بسرعة مندفعاً ، وقلت : أرجوك .. لحظة واحدة ، أصغي إلي كلمة واحدة ثم يذهب كلانا إلى حـــال سبيله .. فقالت دون أن تنظر إلي أو تكف عن السير . بأي حق تكلمني يا هذا ؟ فهتفت بدون وعي مني :

– اني أعرفك منذ أكثر من عامين .. ! فقالت بلهجة تنم على الانزعاج :

– مـــا هذا الافتراء ؟! أيمكن ألا تكون عرفتني ؟!.. يا لي من غبي !.. ألم تذعن لارادتي حتى نزلنا في هذه المحطة ؟ ألا يدل هذا على أنها ترغب في سماع كلمتي !.. ان الفرصة سانحة ولكني أفسدها بالعي والحصر والارتباك. واستجمعت قواي وقلت بصوتي المتهدج المضطرب النبرات : اني أتلهف على قول كلمة منـذ أشهر وأشهر .. ماذا يضيرك لو أصغيت إليّ ؟!.

لماذا لم أتكلم بدل أن أسوق هذه المقدمـات ؟ اللهم اني استعينك على حل عقدة لساني ! وبدا لي أن حبيبتي فطنت لخجلي المميت . ولم أدرك البواعث التي حملتها على التوقف ، ولكني رأيتها تتحول نحوي وترمقني بعينيها الجميلتين اللتين أحبهما أكثر من نور البصر ، ثم تسألني بحدة : ماذا تريد ؟.

ماذا أريد ؟!.. ألم يتيسر لي القول بعد ؟! . هاهي تنتظر الكلمة التي اتعبتها في استئذان قولهـا ، ألم أكن أعددتها ؟. وجدت رأسي فارغاً وكأنني فقدت النطق . ماذا ينبغي أن يقال؟.. وازدردت ريقي الجاف في شبه قنوط ، ثم بدا منها ما يدل على نفاد الصبر ، والتحفز للسير ، فخرجت عن صمتي هاتفاً :

– صبراً ، أرجوك ،.. أنا أريـد ان اقول .. اني راغب في .. (ووقفت عبارة « طلب يدك » في زوري) .. انك تفهمين بلا شك ، أليس كذلك ؟!. فهل يمكن هذا ؟!. فتأففت وقالت :

– لا بد أن اعود إلى البيت فلا تتبعني من فضلك ..

وتولاني الهلع فقلت مندفعاً بلا تردد هذه المرة :

– اني افكر .. اعني اني ارغب في طلب يدك إذا سمحت لي ..!

وتنهدت بصوت مسموع، وغمرني ارتياح واستسلام ، تكلمت اخيراً ونفست عن صدري وليكن مــا يكون . ومضت ثانية من الصمت العميق مثل الهدوء الذي يعقب عاصفة هوجاء ، ثم أخذت تسير في خطوات قصيرة دون ان تنبس فعاودني الجزع وتبعتها وأنا أقول كمن يستجدي الجواب .

– هذه كلمتي .. فقالت بصوت منخفض خيل إلي انه بلغ أذني هادئاً لا أثر فيه لحدة أو غضب : لا يليق بك ان تتبعني هكذا .

فقلت بعجلة ولهوجة : اني استأذنتك فلا تتركيني بغير جواب ..

فقالت بضيق : لست أنا الذي أخاطب في هذا الشأن !.

فخفق قلبي بعنف وفاض به سرور لا يوصف وقلت : إني أدرك هذا ، بيد انني خفت أن يكون أحد قد سبقني ..

فقالت بصوت لا يكاد يسمع : هب هذا حصل ..

فهتفت في اشفاق وحسرة : أأفلتت الفرصة من يدي ؟!

فنفخت قائلة: لا تلبعني إلى اكثر من هذا لأني اقترب من البيت.. فسألتها وقلبي يفزع بكل قواه إلى التملص من قبضة اليأس : أليس ثمة رجاء ؟

فقالت وهي تحث خطاها : لست أنا الذي أخاطب في هذا الشأن ..

وتوقفت عن السير ، ولبثت هنيهة جامداً ذاهلا . ثم صحت وانا افرقع بأصابعي : يا لي من غبي !. لو انها ارادت الرفض لما اعوزها الجواب القاطع ! ألم تذعن لي في الترام ؟. ألم تصغ إلي منذ دقائق ؟ ألم تقل لي انها ليست هي التي تخاطب في هذا الشأن ؟ ففيم أطمع وراء ذلك ؟. انها دعوة متوارية لطيفة . وشاع في نفسي سرور كالخمر ، وخيل إلي انني اترنح كالثمل..

* * *

وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجع في قلبي اعذب الألحان . تملكني شعور بالقوة لا حد له ، وازدهاني الغرور والزهو ، وحييت في الدقيقة الواحدة دهراً طويلا من السعادة الصافية . وقلت وأنا ارتقي السلم : « سأفاتح أمي بالأمر كله » . قلتها بلا خوف ولا تردد ، وربما بلا رحمة أيضاً ، وطرقت الباب ، ففتحت لي بنفسها وهي تتمتم مبتسمة كعادتها : أهلا بنور العين ..

وجدتها على الأناقة التي أحب ان تلقاني بها ، وتفرست في وجهها الوديع الوقور المشرق بابتسامة الترحيب ، فبدت لي خطورة ما أنا مقدم عليه ، واعتراني وجوم وخوف ، وقلت لها في تودد غابت عنها اسبابه وبواعثه :

— لننتقل عما قريب إلى مسكن لائق ، ولأعيدن اليك خدمك وحشمك !

فابتسمت وقالت : هذه أسعد أيام حياتي لأني أقوم فيها على خدمتك .

وخلعت ملابسي ، وعدت إلى الصالة فجلسنا على كنبة متجاورين وانا اقول بقلبي : « اللهم عونك ورحمتك » . واستحوذ علي القلق والحياء ، انها مهمة شاقة ، محزنة ، ولكن ما منها بد . واسترقت اليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة ، غافلة عما اضمره لها ، فوخزني الندم ، وكادت تتخلى عني قوة التصميم . بيد

انني اشفقت من عواقب التردد والاستسلام لدواعي الخور ، فرميت بنفسي في الهاوية قائلا : أماه ، أريد ان احدثك بأمر هام ..

ورمقتني بنظرة غريبة ، خلتها مريبة متوجسة ، حتى حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كله بقوة إلهام خارقة . أنمت نبرات صوتي على ما يدور بنفسي ؟! أم فضحتني نظرة عيني ؟!. أم لم يكن هنالك شيء مما حسبت وشبه لي الوهم ما لا حقيقة له ؟!. أما هي فقالت بهدوء وتساؤل : خير ان شاء الله ..

وصممت ان اجوز منطقة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعراً خوفاً لا مراء فيه : سأتوكل على الله وأتزوج .. ورنت كلمة « أتزوج » في أذني رنيناً غريباً ، أنكرته ، واخجلني كأنما تفوهت بلفظة جارحة معينة ! ورفعت هي عينيها إليّ في دهشة ، واتسعت حدقتاها ، ولاح فيهما ذهول وغباء كأنها لم تفهم شيئاً، ثم تساءلت : تتزوج ؟! وكنت قد تخطيت اكبر عقبة فأمكنني ان اقول :

– أجل .. هذا ما انتويته .

وندت عنها ضحكة متقطعة بالاضطراب والارتباك اشبه ، وقالت بصوت متهدج : ما أسعدني بذلك ! هذه هي السعادة حقاً. ترى هل جاءتك هذه النية اليوم ؟.. الآن ؟ لماذا لم تخبرني قبل اليوم ؟!. مبارك ، مبارك يا بني .

وأزعجني تهدج صوتها ، واضطراب نبراتها ، وانفعالها الظاهر ، فقلت :

– اني استأذنك لأني أحب دائماً أن تكوني راضية عني . فهتفت في لهوجة :

– وهل تتصور أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاي ؟ يا لله ، أبعدَ هـذا الحب كلـه أجزي عنه بالتشكك في اخلاصي ؟.. ستجدني راضية عنك ولو قتلتني ، أتنسى أن حياتي كلها لك ؟.

فازدردت ريقي وقلت وأنا اختلس منها نظرة قلق : اني أعلم هذا وأكثر يا أماه . فلاح في وجهها وجوم شديد ، وبدا عليها أنها تحاول عبثاً أن تضبط عواطفها : هذا ما يعلمه القاصي والداني . واية أم لا تفرح لزواج ابنها ولو كانت وحيدة ليس لها سواه !. هذه حكمة الحياة ، أن أحتضنك العمر كله ثم اسلمك شاباً رائعاً لعروسك ، اني أبـكي من الفرح . اغرورقت عيناها وهي تتكلم ، ونظرت إلي خلال دموعها وكأنها أرتاعت لوجومي ، فقالت معتذرة :

– معذرة يا كامـل ، ليست هذه بدموع ... انها دموع الفرح ، بيد أنك

فجأتني مفاجأة ، ولم تتلطف في أخباري ، ولكن لا داعي للتلطف ، ألا ترى أني اعتذر بما هو أقبح من الذنب؟. ليغفر لي ذنبي حبي الكبير وحسن نيتي وقلبي الذي وهبتك أياه وان لم تعد بك حاجة اليه.. وانك لتعلم بأني اذا انفعلت أفلت زمام لساني من يدي . اني أهنئك بما اخترت لنفسك ، ولكن هل نبتت هذه الرغبة الآن فحسب ؟.. اني لا أطيق ان أتصور انك رغبت في الزواج من قبل ولم تسعفك الوسيلة . أكنت ترغب في الزواج من زمن طويل ؟.

فقلت وأنا اداري حزني بابتسامة ميتة : كلا يا أماه ، ما فكرت في ذلك إلا من زمن قصير حين بدا لي أني كبرت ... فندت عنها ضحكة هستيرية ، وصاحت : اسمعوا يا هوه ، كامل يبدو انه كبر !.. وانا ؟!.. لا بد اني عشت أكثر مما ينبغي !. فتأوهت قائلا : أماه ، انك تحزنينني .

– لا عاش من يحزنك . الأم التي تحزن وليدها لا تستأهل نعمة الحياة .. ولكنك تتقول على نفسك بالباطل وتزعم انك كبرت. يا لك من طفل مكابر !.. لكأني اراك تحبو ، وانت تركب منكبي ، ثم وانت تختـــال في بزة الضباط وضفيرتك تتهدل على كتفك ، فكيف تدعي الكبر ؟!.

فقلت مغتما : ألست على عتبة الثامنة والعشرين !.

– أصغر ابنائي على عتبة الثامنة والعشرين !.. يا لي من امرأة عجوز !.. لتكن مشيئتك . ومهما يكن من عمرك فستكون اصغر الأزواج ، وسأفرح بك فرحاً ليس وراءه مذهب لفرحان . ولكن ما بالك واجماً... اساءك كلامي؟.. يعلم الله اني لا احسن الكلام ، ولكن الموت احب إلي من الاساءة اليك ..

فقلت بقلب ثقيل : سامحك الله يا اماه .. فابتسمت ، اي والله ابتسمت ، وقالت مصطنعة المرح : لندع هذا جانباً ، ولنقدم الأهم على المهم . اصغ إلي يا كامل ، تزوج بالهناء والسرور ، وسأخطب لك اذا امرتني .

فترددت لحظة ثم تملكني الضيق فقلت: ليس ثمة اختيار، فقد وقع اختياري.

فرنت إلي بدهشة ، ولاذت بالصمت ملياً ، ثم تساءلت :

متى تم ذلك ؟. منذ زمن يسير .. فلاحت في عينيها نظرة لوم وعتاب كأنما عز عليها ان اكتمها هذا الأمر الخطير ، ثم خفضت عينيها في استسلام ، وسألت بصوت هادىء ، بل هادىء جداً : من ؟. لا ادري بالضبط ، والراجح انها

مدرسة ، وهي تقطن العمارة البرتقالي أمام القصر العيني .

فعاودتها الدهشة ، وتساءلت . ألم تحدث بأمرها احداً ؟. مطلقاً !.

فتفكرت ملياً ثم واصلت حديثها : أليس من المحتمل أن تكون مخطوبة ، (وهنا خفق قلبي بعنف) ... ثم ألا تدري عن أهلها شيئاً !.. من ابوها ؟.

— لا ادري . ألم اقل لك انك طفل.. الزواج اخطر مما تظن . لعل وجهها أعجبك ، وهذا شيء لا وزن له . المهم ان نعلم اية فتاة هي ، واي قوم اهلها ، وما مكانتهم . وما اخلاقهم . الشاب في الواقع يتزوج من اسرة لا من فرد ، وينبغي ان يطمئن قبل ان يخطو الخطوةالأخيرة إلى من ستغدو اما لأبنائه ومن يكونون اخوالاً لهم . وتولاني الارتباك ، واحسست بحنق لأول مرة فقلت بيقين : اسرتها كريمة ... لا يداخلني في هذا شك . ومن ادراك ؟.

فقلت بلهجة من لا يحتمل في ذلك جدلاً : اني واثق .

فبدا في وجهها الاستياء وقالت : مدرسة ،!.. ان بنات الأسر الطيبة لا يشتغلن مدرسات!. والمدرسة اما ان تكون عادة دميمة او مستهترة مسترجلة.

فوخزني ألم في صميم الفؤاد وهتفت بحدة : يا لها من آراء فاسدة !.. أنت لا تدرين شيئاً عن الدنيا التي نعيش فيها ، لقد تغير كل شيء ، ولا شك أنها فتاة كاملة ومن أسرة عالية !. وغلبها الانفعال على هدوئها المصطنع فقالت بنرفزة :

— لا داعي لأهانتي من أجل فتاة مدرسة لا تعرف عنها شيئاً!، وما قصدي إلا ارشادك لما فيه خيرك .. واشتد بي الحنق ، ولو أنني استسلمت له لتفوهت بما اندم عليه ، ولكنني ضبطت نفسي وقلت برجاء :

— معاذ الله ان أقصد اهانتك ، فأرجو أن تمسكي عن كلام يسوؤني ..

فدارت انفعالها بابتسامة ، واستعادت هدوءها مرة أخرى، وقالت بتسليم:

— ان ما يسوؤك يسوؤني ، وما يسعدك يسعدني ، ونصيحتي اليك إذا شئت أن تتقبلها أن تعرف لرجلك قبل الخطو موضعها ، وفقك الله لما فيه الخير والسعادة . فضغطت على يدها برقة ، وقلت بصوت ملؤه التودد : ان رضاك عني بالدنيا وما فيها .. فابتسمت قائلة : سيدعو لك قلبي آناء الليل واطراف النهار.... وساد الصمت ملياً حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد ، ولكنها بدت مهتمة متفكرة كأن خاطراً يلح عليها ان تفصح عنه ، وخالستني نظرة

قلقة أكثر من مرة، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت في حذر واشفاق:
- ألا يحسن بك ان تؤجل الشروع في الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك ؟.. ان اخوف ما اخافه ان يقال عنك انك خطبت ولما ينته الحداد على أبيك كأنك كنت ترصد موته على لهفة ؟!.

ولم أكد اصدق أذني !.. وبدا لي قولها نوعاً من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه، وعاودني الحنق والغيظ، وكدت انفجر غاضباً، ولكني استمسكت بالصمت حتى ولت العاصفة، ثم قلت: لن يتم الزواج على أية حال قبل مضي عام.

وانتهى الحديث عند ذاك كما تمنيت، وشعرت بأني تخطيت أكبر عقبة في سبيلي وكان ينبغي أن أكون سعيداً، وقد كنت سعيداً بلا شك، ولكن شاب سعادتي احساس بالقلق طالما عذبني في حياتي. انه لا يفتأ يطاردني حتى في أحفل ساعاتي بالسرور، وما من مرة أجمع الرأي فيها على قرار حتى أجد همسه يفت في عضدي وينغص علي صفوي.. بيد أن سعادتي هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر..

* * *

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المحطة وبي أمل جديد مسكر. وكأنها كانت تنتظرني، إذ رأيتها وراء زجاج النافذة معصوبة الرأس بمنديل أبيض. واستخفني الفرح فابتسم مني الفم والعينان والقلب، وتسامت اليها عيناي في شجاعة غير معهودة. وما كان أشد سروري وسعادتي حين رأيت الوجه الصبيح يجود بابتسامة. انتهى عهد التعاسة والحرمان، وانقشعت ظلمة النفس، ولاحت طلعة حبيبتي بعد اختفاء طويل معذب، وصرنا أصدقاء نتبادل الابتسام! يا لها من حقيقة لا تصدق!. حتى هذا الصباح كنت أخاف أن يكون لكلام الأمس معنى غير الذي فهمته. أما بعد هذا الانتظار المثير وهذه الابتسامة المشرقة فأستطيع أن أستسلم لنداء السعادة في صفاء لا يشوبه شك. وذهبت إلى الوزارة كالثمل. ما أغربك يا دنيا، ان من يتعسه الحظ برؤية تجهمك لا يتصور انك تجودين بمثل هذه الابتسامة. وتمليت الحقيقة التي لا تصدق، ابتسامة حبيبتي، فقلت لنفسي أن معنى هذا ان أبواب السماء مفتحة تسح على قلبي هناء، ولكن لا يجوز أن اجمد أو ان أصمت بعد اليوم، وفزت بابتسامة أخرى عند الأصيل وثالثة في صباح اليوم التالي، وشعرت بأنه ينبغي أن اقطع الجمود بالعمل الحاسم.

وجاء صباح الجمعة بعد ذلك بيوم ، فغادرت البيت في معطفي الأسود بادي الأناقة ، ممتلئاً تصميماً وعزماً . ووجدت حبيبتي في الشرفة تتشمس . فتبادلنا تحية الابتسام ثم القيت على ما حولي نظرة حذرة . وأومات اليها أن تنزل لمقابلتي يا لها من جرأة ! . من كان يصدق هذا ؟ ، وثبّت نظري عليها في اشفاق وخوف ورنت إلي بهدوء ، ثم جرت على شفتيها ابتسامة لطيفة وتراجعت الى الداخل ، هل تجيء لمقابلتي ؟ .. رباه لقد قضيت ليلة الأمس كلها في عمل « البروفات » لهذه المقابلة المأمولة . ولاحت الشقيقة الصغرى في الشرفة ، ثم تبعتها الأم بعد قليل ، وجعلتا تنظران نحوي ، هل تعلمان ؟ هذا ما اتمناه حتى آمن خطر محمد جودت. وبدت حبيبتي وراء النافذة وهي ترتدي معطفها ، فخفق فؤادي خفقة عنيفة ، وانتظرت كمن في حلم . ومن عجب أن احساسي بالسعادة تغير فجأة ، فتر ، كأنه صوت جميل اعترضته سعلة ، وساورني قلق لم أدر سببه ، وحيرة مؤلمة كأنني أحاول ان أتذكر أمراً هاماً يضن به النسيان ، ثم شعرت بخطورة الخطوة التي أرفع رجلي لأخطوها ، فاستحوذ علي التردد والخوف ، ونازعتني نفسي إلى الهروب ! . بيد انها كانت لحظة عابرة ، ولت عني بسرعة ، فاستعدت الثقة والسرور ، وتنهدت في ارتياح عميق ، ورحت أقطع الطوار محبوراً سعيداً في انتظار حبيبة القلب المشوق .. ثم رأيتها تبرز من باب العمارة في معطف سنجابي فارعة أنيقة مليحة ، وجاءت المحطة تخطر في خطواتها الوقور ، ووقفت بعيداً عني . وكانت الأم في الشرفة كأنها تبارك اللقاء وتضفي عليه شرفاً ، فشعرت — إلى سعادتي — بالمسؤولية . وجاء الترام الذي سيقلنا ، فنظرت اليه بامتنان ودعوت له بالسلامة ولسائقه بالسعادة وزيادة الأجور !.. وصعدنا اليه معاً ، ورأيتها تتجه على غير عادتها إلى مقصورة الدرجة الأولى فتبعتها على الأثر ، ولم يكن بالمقصورة إلا رجل وامرأة ، فجلست فتاتي موردة الوجه من الحياء ، ولعلها انتظرت أن اجلس إلى جانبها ، وان أسلم عليها ، ولكن خانتني الشجاعة فجلست على المقعد المقابل في ارتباك وحياء وسخط على نفسي . وسار الترام يطوي الطريق ، وأنا أخالسها النظر في صمت وصبر ، حتى عبر الترام جسر عباس. فنهضت قائمة وغادرت المقصورة وأنا في أثرها ، ونزلنا في المحطة التالية. وسارت صوب شارع يمتد وشاطىء النيل ، فتبعتها ، وتدانيت منها بقلب خافق ، متمثراً

في خجل قهار وقلت بصوت لا يكاد يسمع : صباح الخير ..

فابتسمت دون أن تلتفت إليّ وغمغمت في مثل حيائي : صباح الخير ..

وغمرني رد التحية بسرور، فسرنا جنباً إلى جنب وأنا اقول في نفسي بحرارة: « يا سيدة يا أم هاشم نظرة ! » . كنت خائفاً حقاً شديد الارتباك والخجل . وحاولت أو أتذكر « بروفات » أمس ، ولكن الاضطراب غلبني على أمري فوجدت رأسي خاوياً ولساني منعقداً ، وقطعنا مسافة غير يسيرة دون أن انبس بكلمة . كيف أبدأ الحديث ؟. ما عسى أن اقول ؟. وتولاني ضيق شديد لأني أدركت بطبيعة الحال انه ينبغي أن اتكلم ، وانه لا يليق بي أن اصمت هكذا ، ومع ذلك فلم يفتح الله عليّ بكلمة واحدة ، وبدأ كأن الكلام وظيفة لم امارسها قط . وكأنها أدركت سر ارتباكي ، فنظرت إليّ وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ، فابتسمت في حياء شديد ،ولم أجد ما اقوله إلا ان اعيد التحية قائلا : صباح الخير .

فازدادت ابتسامتها اتساعاً وقالت : صباح الخير .

رباه ألفلس معجمي ، وعدت إلى العذاب مرة أخرى ؟ اني أشعر كأن يدين حديديتين تشدان على عنقي . لن اتحمل هـذا الموقف المزري اكثر من هذا . وتملكني اليأس فغلب في نفسي الخجل واستغثت بها قائلا :

— اعذريني !.. لا أدري ماذا اقول !.. هذه أول مرة أخاطب فتاة ..

ولم تتمالك نفسها فندت عنها ضحكة قصيرة ، ولعلها تشجعت بحيائي نفسه، فتغلبت على حيائها ، وقالت في دعابة : بل هذه ثاني مرة ان صدقت ..

آه ! انها تشير إلى مطاردتي لها منذ ثلاثة أيام !. وذكرتها بدهشة ، كأنني لم أكن بطلها الجرىء . ومهما يكن من أمر فقد شجعتني دعابتها وخففت عني الارتباك والحياء ، وأمكنني أن اقول :

— لا تسيئي بي الظن . فوالله لو أسعفني لساني لما وسعتني الدنيا كلاماً ..

وضحكت وهي تصعد في نظرها وتصوب ثم قالت :

— ألا ترى اننا لم نتعارف بعد ؟.

استطيع ان اجيب عن هذا السؤال . ليت الحديث يكون اسئلة من ناحيتها واجوبة من ناحيتي ! وقلت بارتياح : كامل رؤبة لاظ بوزارة الحربية .

وتمنيت لو كان في الامكان ان اخبرهـا بايرادي الشهري وثروتي المنتظرة ،

أما هي فقالت : رباب جبر مدرسة بروضة الأطفال بالعباسية.

واعجبني الاسم ، فأحببته كما أحب صاحبته ، وغمغمت كأنما لأستعيد وقعه في أذني : رباب !..

ووجدت انساً وشجاعة فقلت ببساطة : تصوري !.. اني اداوم على اختلاس النظرات من وجهك من عامين وحتى اسمك لا أعرفه !.

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل وقالت : عامين !..

فسرتني دهشتها وقلت بحماسة : اجل من قرابة عامين ، ألم تفطني إلى هذا؟

فقالت ضاحكة وأنا اجمع انتباهي في أذني لأتملى الصوت الذي شاقني استماعه طويلاً : منذ أشهر فقط !.. ما اجمل صبرك !.

هذه وخزة بلا ريب !. كأنها تقول لي : وما الذي اسكتك حتى اوشكت الفرصة ان تفلت من بين يديك !. وانتهزت الفرصة لأصرح بما وددت لو كنت صرحت به ، فقلت وقد اصبح الكلام ممكناً عما قبل : منعتني ظروف قاسية لم يكن بوسعي ان اتقدم وأنا غير كفء لك ، ثم تغيرت الظروف وتحسنت الحالة فلم أتردد عن اعتراض سبيلك في الترام في جنون اخرجني عن وعيي ، فالحق اني لم انتظر وانا قادر الا أياماً معدودات وان كنت .. (كدت اقول : « وان كنت احببتك منذ عامين» ولكني عجزت)... وان كان ما تعلمين منذ عامين.

ونظرت فيما امامها مبتسمة ابتسامة حفيفة وقالت : ماذا اعلم يا ترى !.

فلذت بالصمت لحظات استجمع قواي ، وقلت : ما تعلمين من اني ..

ورسمت شفتاي « احبك » دون ان تنطق بها ، ولكنها رأت وفهمت بلا أدنى شك . وخفضت بصري حياء ، ودق قلبي بعنف ، وانتزعتني من الوجود غيبوبة عابرة غيبتني عما حولي. واسترقت اليها النظر فألفيتها صامتة رزينة موردة الوجه . هذه لحظة مقدسة . اجل ان الزمن لينوء بما يحمل من جلائل اللحظات التي مرت بالانسانية في تاريخها ، ولكن هذه اللحظة من اجل ما عرف الزمن رغم هذا كله . ولن ينتقص منها انها معادة وانها تحدث كل يوم آلاف المرات في بقاع الأرض الواسعة ، فهي الشيء الوحيد المعاد الذي لا يمل وهو يتضمن سر الوجود الأعظم، الا وهو الحب. لم يكن بوسعي ان اضمها إلى صدري – لا لمرور قافلة جمال تحمل برتقالاً – ولكن لأنه لم يكن بوسعي ان المسها على الاطلاق ،

وقطعنا شوطاً صامتين، وحال حيائي دون مواصلة الحديث في هذه النقطة بالذات وعاودت التفكير في المسألة من وجوهها الأخرى فقلت مبتسماً : وماذا تم من امر محمد جودت ؟. وحدّجتني بدهشة عظيمة ، وسألتني : من أدراك بها ؟.

فقصصت عليها نبأ المقابلة التي تمت بين محمد جودت وبيني وهي تصغي إلي باهتمام شديد ، ثم قالت : انه رجل فاضل محترم ، وموظف كبير ، وقد رحب به ابي ، اما امي فقابلت عرضه بفتور لأنه يكبرني كثيراً ، ولأنه سبق ان تزوج وله بنت في الخامسة عشرة . وقد حادثت امي عن لقائنا في الطريق منذ ثلاثة ايام .. فاشترطت ان يعرفوا عنك كل شيء قبل ان تعلن رأيها .

وخفق قلبي في مزيج من سرور وقلق ، وسألتها وان لم اكن في حاجة إلى سؤال : هل تعلم بمقابلتنا هذه ؟.

فابتسمت ولم تحر جواباً ، وذكرت « وظيفتي » بعدم ارتيـاح وخجل ، ولكن لم يخطر لي على بال ان اكذب او ابدل من الواقع فقلت : اني كما قلت لك موظف بالحربية ، ولكن لي دخلاً ستة عشر جنيهاً من اوقاف، واملك إلى ذلك قدراً من المال يجاوز الألف الجنيه ، وليس في سيرتي ما يشين ، وسترين اذا مـا تحروا عني اني التزمت الصدق حقاً ...

فابتسمت قائلة في اخلاص : لا اشك في هذا مطلقاً .

ورنوت اليها بامتنان عميق ، وذكرت في تلك اللحظة آلامي وما عانيت من شوق اليها وحسرة عليها فهزني سرور يجل عن الوصف . بيد انني تساءلت في خوف : ترى هل أروق في عيني الأم ؟.. الا تستصغر وظيفتي ، او لا تجدني اهلا لهذه الأستاذة المحبوبة؟..وانقبض قلبي ذعراً ، وحدثتني نفسي بأن افاتحها فيما يكدر صفوي ، ولكن عقلني الحياء . ثم خطر لي خاطر جديد فسألتها على الفور : هل تواصلين العمل في وظيفتك اذا تم الأمر كما ارجو ؟..

– ولم لا ؟. اني احب عملي حباً جما ، وكثيرات من زميلاتي .

وادركت ما كانت علي وشك قوله فخفق قلبي بغبطة ونظرت اليها نظرة حبية ملؤها الحب والأمل ، ثم قلت برضا : هذا حسن ..

ساد الصمت قليلاً فعلا وقع اقدامنا على ارض الطريق المفروشة بأشعة الشمس ولاحت مني التفاتة إلى النيل فرأيت صفحته السمراء تترقرق تحت لؤلؤ النور

المنثور ، واخذت اتصفح وجوه المارة القلائل الذين يمرون بنا في حياء وارتباك وقد لطفت الشمس من برودة الجو وبثت في حنايانا نشاطاً وحبوراً فشعرت بطيب الحياة كما لم اشعر به من قبل ، وامتلأت امتناناً حتى وددت لو ألثم الثرى شكراً بيد انني لم انس ما يشغلني من خطير الأمور ، او ما يبدو لي من خطيرها ، فلذلك سألتها : ارشديني الآن إلى ما ينبغي فعله .

فسألتني في دهشة قائلة : ماذاتعني ؟. فقلت بحيرة : ينبغي ان اتقدم لطلب يدك

فنظرت فيما امامها بحيرة ولم تنبس . وكنت في حيرة عن امري فسألتها :

– كيف .. كيف يخطب الناس عادة ؟! .

فندت عنها ضحكة رقيقة ، وقالت برقة : بواسطة السيدات او بالاتصال الشخصي ، ألم تدر شيئاً عن هذا ؟.

وذكرني قولها « وساطة السيدات » بأمي فانقبض قلبي فيما يشبه الذعر . ثم تساءلت ترى هل استطيع ان اقوم بما يتطلبه الاتصال الشخصي من لباقة وشجاعة ؟. وذكرت عند ذاك اني لا اعرف شيئاً عن ابيها فسألتها :

– هلا تكرمت وأخبرتني عن والدك !. فحدجتني بنظرة ملؤها الشك وغمغمت : الا تعرف عنه شيئاً ؟! .

فقلت ببساطة وصدق : كلا وا أسفاه ..

وأدركت انها كانت تظنني نشطت لمعرفة ما ينبغي معرفته عن الاسرة التي أطمح للاندماج فيها ؟ ، وعجبت كيف أنني لم أحرك ساكناً طوال عهد حبي قانعاً بالنظر واللهفة واليأس . وقالت رباب بلهجة لا تخلو من زهو :

– جبر بك السيد مفتش ري بالأشغال .. فقلت باجلال : تشرفت .

واستشعرت ثقل التبعة الملقاة على عاتقي ، ولكنني لم أجد بداً من أن أقول : سأقابله بنفسي ، متى يحسن أن أقابله ؟. في بحر الأسبوع القادم لأنه سيسافر بعد ذلك في رحلة تفتيشية كعادته ، وهو لا يكاد يغادر البيت عقب عودته من الوزارة .. وكنا قد توغلنا في الطريق طويلاً فاقترحت أن نعود ، ودرنا على عقبينا عائدين . ولم نتبادل في عودتنا إلا كلمات قلائل ، وكنت من السعادة في حلم ، ولكنني لم أغفل لحظة عما أنا مقبل عليه من جلائل الأمور ..

* * *

واستحوذ عـــلي الخوف والقلق ، وعاودني ذاك الاحساس الخانق الذي قهرني يوم دعاني استاذي بكلية الحقوق إلى منصة الخطابة . هل تستطيع قدماي أن تحملاني إلى بيت جبر بك ؟.. هل أستطيع مكاشفة الرجل بما في صدري ؟. اللهم أدركني برحمتك فأن الحب يركبني مركباً صعباً لا قبل لي به ، ولما ضقت بالواقع المخيف روحت عن نفسي بالأحلام ، فرأيتني فيجزيرة مهجورة ، وليس بها من حي الاي وحبيبتي ، حيث الحب لا يسيم المحب خطبة ولا كلامـــاً ولا اتصالا بأحد ، وهفت نفسي في محنتي إلى تلك الجزيرة المهجورة .

ومضى السبت والأحد في عذاب نفسي عنيف ، فصممت على ان أستجير من عذاب الفكر بلقاء الخطر وجهاً لوجه . وغادرت البيت عصراً بعد أن أخذت زينتي ،وقطعت الطريق واجف القلب وأنا أتلو آية الكرسي . ولما عبرت الجسر ولاح لي عن بعد جانب من العمارة ثقلت قدماي وكدت أرجع من حيث أتيت ولكن كان تصميمي رائعاً ، وكان اشفاقي من أن تستبطىء حبيبتي قدومي لا يدع لي فرصة للتردد . وجعلت أشجع نفسي قائلا أنه لو لم يكن ثمة أمل لمـــا رضيت حبيبتي بان تلقاني يوم الجمعة ، ولما مهدت السبيل لمقابلة أبيها ، ودفعت قدمي الثقيلتين فأخذت أقترب رويداً من العمارة . ولم يكن بالنافذة ولا الشرفة أحد فارتحت لذلك لأني اضطرب في سيري تحت وقع الاعين ، ثم وجدتني مقبلا نحو البواب ، فوقف الرجل متسائلا فقلت : جبر بك السيد .

فقال : الدور الثاني ..

وارتقيت السلم في رهبة وخوف ، متوقفاً عند كل بسطة لأتمالك أنفاسي ، حتى طالعني باب الشقة المغلق فخارت قواي ، ووسوست لي نفسي أن أعود ، أن افر بنفسي، أن اؤجل الزيارة الخطيرة ليوم آخر . ولكني نفيت عني فكرة التأجيل بغضب ، وبدا لي أن انزل وان أخفف عن توتر اعصابي بالمشي ومعاودة ترتيب افكاري . وهممت بالتراجع ، ولكنني تساءلت في اللحظة التاليـــة ألا يرتاب البواب في أمري إذا رآني نازلاً بعد دقيقة من مخاطبته ثم رآني بعد دقائق عائداً إلى العمارة ؟.. وعدلت عن فكرة النزول ، ووقفت مع ذلك ساكناً لا ابدي حراكاً . وجمد بصري على الباب خلت ثقبه عيناً تحدق في وجهي بسخرية . وانتقلت عيناي إلى زر الجرس وثبتتا عليه بخوف وهلع . ما عسى أن يحدث لي

لو فتح الباب فجأة عن وجه من الوجوه التي اعرفها وتعرفني !. وتمنيت في تلك اللحظة لو كانت حياتي واصلت مسيرها الوئيد دون أن تصطدم بهذا الحب الذي قلبها رأساً على عقب !. وجاءني بغتة صوت رفيع من الداخل يصيح : « افتحي الراديو يا صباح » فارتعدت أوصالي وارهفت السمع في خوف متزايد . ويلي منك يا أماه ، أما كان الأفضل أن تكوني في مكاني هذا ؟. ثم قرع أذني وقع قدمين صاعدتين فتضاعف اضطرابي ولم أجد من التقدم مناصاً ، وتدانيت من الباب ، ورفعت يدي إلى زر الجرس ، وتريثت لحظة في اضطراب ، ثم ضغطت عليه فرن رنيناً مزعجاً ، وتنحيت جانباً ، منتظراً في حالة يرثى لها. وفتح الباب وبرز وجه أسود كالفحم لجارية في الخمسين، فحدجتني بعينين براقتين وقالت: أفندم ؟

وقلت وأنا اتمنى أن يكون البك خارج البيت لسبب أو لآخر: جبر بك موجود؟

ولكنها أجابت قائلة : نعم يا سيدي .. مين حضرتك ؟

فاستخرجت من محفظتي بطاقة وقدمتها لها قائلاً :

— ارجو ان يأذن لي البك بمقابلة قصيرة ..

ومضت الجارية بالبطاقة وانتظرت خافق الفؤاد مضطرب النفس . وتخيلت البك وهو يقرأ البطاقة بصوت مرتفع فيتبادل الجميع النظرات والابتسامات ، ويهرعون إلى مكان آمن يرونني منه حين دخولي، فالتهب وجهي حياء وازددت اضطراباً ، وبرز رأس الجارية مرة أخرى وهي تقول : تفضل .

ودخلت خافض الرأس ، فأرشدتني إلى باب على يمين الداخل مباشرة ، فدخلت حجرة الاستقبال ، وهي حجرة أنيقة ذات أثاث كحلي ، فاتجهت إلى مقعد يفصل بين كنبتين وجلست ، بعيداً عن سمت الباب . لم اكد أصدق اني بلغت حقاً مجلسي هذا من البيت . وجعلت أرهف السمع في خوف وقلق وهلع. وتمنيت لو يتأخر البك ريثما استرد أنفاسي ، ثم دفعني العذاب إلى تمني حضوره سريعاً لوضع حد لآلامي . ولا ادري كم انتظرت حتى سمعت وقع اقدام تقترب دخل البك فنهضت قائماً ، ثم سلم عليّ في أدب وترحيب وأومأ إلى المقعد وهو يقول : تفضل بالجلوس ..

وجلس على الكنبة غير بعيد . كان طويلاً نحيلاً ، في الخمسين من عمره ، له قامة حبيبتي وعيناها ، فسرعان ما احببته ، وكان يتلفع بعباءة فضفاضة ضاربة

للحمرة ، ويسطع من راحتيه عطر زكي ، ونظر إليّ مبتسماً وقال مرحباً :
- شرفتنا يا استاذ كامل.. اهلاً وسهلاً ..
فقلت بامتنان : شكراً لك يا بك ..
ترى هل علم بالغرض من الزيارة ؟.. هل سمع قبل الآن بهذا الاسم الذي قرأه في البطاقة ؟. على أنه مهما يكن أمره فلا مناص من مفاتحته في الموضوع كما لو كان يجهله . وكنت قد كتبت صورة مما ينبغي قوله كما تصورته وقرأتها مراراً حتى حفظتها قبل مغادرة البيت ، فقلت بصوت منخفض :
- اني آسف على ازعاجي سعادتك بهذه الزيارة على غير سابق معرفة ..
فقال والابتسامة اللطيفة لا تفارق شفتيه الرقيقتين : اني تشرفت بمعرفتك يا استاذ كامل !... ترى احضرتك من حيّنا هذا ؟ فقلت وقد سررت بما هيأ لي من سبب للحديث : نعم يا بك ، اني من سكان منيل الروضة ! حي هادىء لطيف . فقلت وقد آنست اليه : واني من مواليده أيضاً ، وقد أقام به جدي الأميرالاي عبدالله بك حسن منذ أكثر من سبعين عاماً !
فقال متفكرا : عبدالله بك حسن !... أظنني سمعت بهذا الاسم !.. أهو جدك لوالدك؟ فقلت مضطربا: كلا، انه جدي لأمي، أما أبي فمن أسرة لاظ...
- وهل كان ضابطاً أيضاً ؟ فقلت وقد تزايد قلقي : كلا .. كان أبي رحمه الله من الأعيان .. فابتسم قائلاً : حسبته كذلك لأن أهل المهنة الواحدة كثيراً ما يرتبطون بالزواج فيما بينهم ..
وآمنت على قوله ، وسكت الرجل فلم أجد ما أقوله ، وعدت إلى تذكر محفوظاتي فحضرتني الجملة الخطيرة التي يتوقف عليها حظي في الحياة ، ولكن خانني لساني ، فلذت بالصمت ، وما لبث أن عاودني الاضطراب والهلع ، والتهب رأسي حياء وارتباكاً ، وفي تلك اللحظة جاءت الخادم الصغيرة - التي تعرفني حق المعرفة - تحمل صينية الشاي، فوضعتها على منضدة مكفت سطحها بمرآة مصقولة ، وتراجعت وهي تداري ابتسامة خفيفة !. ورحبت بدخولها وبالشاي الذي حملته لأنهما استنقذاني من حرج الصمت الذي ثقلت وطأته علي . وملأ البك قدحين ودعاني للشراب ، فتناولت قدحي شاكراً ورحت أرتشفه متمهلاً وعقلي لا يني عن التفكير . وفرغت منه على رغمي ، ووجدتني مرة

أخرى حيال جبر بك وابتسامته اللطيفة الغامضة ألتي تستحثني في صمت على الكلام ، لا بد مما ليس منه بد، وإلا انقلبت الجلسة إلى مهزلة تستثير السخرية. لأصطنعن شيئاً من الرجولة أمام الرجـــل الذي أروم مصاهرته أن أصغر في عينيه . ولمت أطراف شجاعتي وقلت وان تهدج صوتي وتخلخلت نبراته .

ـ سيدي ، أردت ... أعني ... الحق اني أرجو التشرف بمصاهرتك . .

ولم تكن الجملة التي كتبتها وحفظتها لتفترق عما قلت كثيراً ، وقد اعتراني الاضطراب بعد أن فتحت في بالكلام ولكن الله سلم وافصحت عن رأيي بعبارة لا بأس بها ونظرت إلى الرجـــل فوجدته ما يزال مبتسماً ، وتريث لحظات استغلظ وقعها في نفسي المروعة ، ثم قال بأدب جم :

ـ اشكر لك حسن ظنك بنا .. وصمت لحظات أخرى متفكراً ثم واصل حديثه قائلا: ولكن أرجو أن تمهلني اسبوعين لمشاورة أصحاب الشأن الآخرين.

فبادرته قائلا : طبعاً .. طبعاً .. ولا يسعني إلا شكرك على كرم أخلاقك وحسن ضيافتك ؟ ونهضت قائماً مستأذناً في الانصراف ، ولكنه دعاني للبقاء فترة أخرى ، فاعتذرت شاكراً له جميل أدبه ، وسلمت وذهبت . وتنهدت في الخارج من الأعماق وشعرت كأن حملا ثقيلا رفع عن عاتقي. وبدا لي الأمر هيناً لا يستدعي بعض ما عانيت من خوف وقلق وهلع ، فابتسمت في ارتياح ، ثم استرسلت ضاحكاً ..

* * *

تمليت نشوة الارتياح والظفر حتى المساء ، ثم عـــاودني القلق ذلك الرفيق القديم الذي لا يمل عشرتي. أيرضى جبر بك بموظف صغير مثلي زوجاً لابنته ؟.. ألا ترجح كفة محمد جودت رغم دخلي من الأوقاف ؟.. انه مهندس كجبر بك، وجار وصديق ، ولست من ذلك كله في شيء ، ولكن رباب لا توده ، ولو كان بها من رغبـــة فيه لما قابلتني وشجعتني على مقابلة أبيها ، ورطب هذا الخاطر قلبي المحترق وردني إلى نشوتي ، ولكنه لم يستطع أن يستأصل الشك والقلق من قرارة نفسي . وتتابعت أيام الانتظار وما أزداد إلا كآبة وتشاؤماً ، ولذلك أخفيت سري عن أمي حتى لا تعلم باخفاقي إذا كان مقدوراً ، وكابدت الانتظار ومرارة الشك في وحدة مخيفة ، ومن عجيب أننا لم نعد إلى موضوع الزواج منذ

ذاك المساء العنيف . وقد اعتور سلوكها شيء من التحفظ والتفـير لم يخفيا عن إحساسي الدقيق وبدت في أحايين كثيرة كالطفل الغاضب وانطوت على نفسها. وكنت اذا أقبلت عليها محدثاً تلقتني بريبة لا تزايلها حتى تطمئن الى نوع الحديث. وأحنقني تغيرها ولكني لزمت معها الأدب والتودد . وفي اثنـاء ذلك أسر إلي زميل من الموظفين بأن «بعضهم» يتحرى عني كما أخبره موظف بإدارة المستخدمين، وسرعان ما ذاع بين موظفي ادارة المخـازن أني شارع في الزواج ، وجعلوا يعرضون لي بما في نفسهم مداعبين فأزداد امتعاضاً وحنقاً ، ولما انقضت فـترة الانتظار مضيت الى مقابلة جبر بك السيد ، ولكني لم اذهب الى بيته – حـال دون ذلك خوفي من الخذلان – فقابلته في وزارة الاشغال ، ورحب بي الرجـل ترحيباً جميـلاً وأعلن لي موافقته ! هكذا انتهى عذابي وردت إلي الروح . وفي تلك المقابلة اتفقنا على يوم الخطبة . واذا كانت حياة الانسان خليطـاً من الشقاء والسعادة فقد بدا لي أن أيام شقائي قد ولت، وانني سأجزى عن صبري وتماسكي ومخاوفي سعادة صافية فـيما يبقى لي من عمر . ورجعت إلى البيت ودعوت أمي وأخبرتها بما تم ، وقد استمعت إلي في استسلام ودهشة وقالت لي متسائلة :

– ولماذا أخفيت عني الأمر كله ؟

فقلت متضاحكاً في ارتباك :

– لم أكن أقدر أن ينتهي مسعاي الى ما انتهى اليه . . .

فقالت بحدة : يا لله ! . أكنت تتصور أن يرفضوا يدك ؟! يا لك من طفل غرير ! . ألا تعلم أن الفتيات لا حصر لهن ، وخيراً من فتاتك ألف مرة ، يرضين بك عن طيب خاطر ! . فقلت بلهجة نمت عن عدم رغبتي الاسترسال في النقاش:

– اني انتظر تهنئتك يا اماه . . . فمالت نحوي حتى لثمت خدي وتمتمت :

– اني أحق منك بالتهاني . . . ودعت لي طويـلاً ، وكان وجهها كالصفحة المصقولة لا تخفي بها خافية ، ولم تكن تحسن مداراة ما يعتمل في نفسها، فلمست في نظرة عينيها خيبة عميقة نغصت علي صفوي ، بيد أنني تجاهلتها وتظاهرت بتصديق كلماتها ، وسرعان ما شغلت عنها بسعادتي ، وكتبت في نفس اليوم لأخي خطاباً أخبرته بمـا كان ودعوته لشهود الخطبة ، وزرت أختي راضية ودعوتها كذلك ، وذهبنا جميعاً في اليوم الموعود . ولست أدري كيف واتتني

شجاعتي ذلك اليوم . لقد شبكت ذراعي بذراع شقيقي مدحت ورجوته أن يكون مرشدي ، ولشد ما أتعبته بجمودي وارتباكي وخجلي .

لم أنبس بكلمة طوال السهرة ، ولم أرفع عيني عن الأرض ، ولبثت محاصراً بأعين المستطلعين رجالاً ونساء ، ولم تزايلني الرهبة حتى بعد انصراف الأقارب واقتصار الموجودين على الأهل . وقد ضحكت حرم جبر بك وقالت لي :

– أنت خجول يا سي كامل ... وقد أدركت الآن السر في انك كنت تحوم حول عروسك أشهراً طوالاً كالخائف ..! وخفق قلبي لقولها ، واختلست من أمي نظرة لأرى وقعه في نفسها فوجدتها مشتبكة مع جبر بك في حديث . وجلست طوال الوقت بجانب رباب دون أن أستطيع ارواء قلبي الظامىء لرؤيتها . وما ألقيت عليها إلا نظرة سريعة حيية حين دخولها الحجرة في هالة من نور وبهاء ثم غبت في حيائي وارتباكي ، ولما انفض الحفل العائلي وغادرنا البيت ضحك أخي مدحت في الطريق مقهقها وقال لي بدهشة :

– ينبغي أن نجد علاجاً لخجلك ، فوالله ما رأيت مثلك رجــلا ولم آبه لانتقاده وسخريته . كنت سعيداً ...

* * *

... ثم هان علي عناء الزيارات ، اعتدتها وآنست إليها أمكنني أن اضغط على زر الجرس دون أن ينخلع قلبي ، وان أمضي إلى حجرة الاستقبال دون أن أعثر بطرف سجادة أو قطعة اثاث ، وان القى آلي الجدد غير خافض الرأس ولا ملهوج الحديث، بل أمكنني ان أتحدث أيضاً وان اضحك اذا دعي الداعي للضحك ، في حدود طاقتي.واسرتي الجديدة أسرة لطيفة حقيقة باودة ، حبيبتي عنوانها ، وحسبها هذا شهادة وثناء ، وقد توثقت الأسباب بيني وبين جبر بك السيد فصرنا صديقين ، وقربت الألفة بيني وبين نازلي هانم فكأننا ابن وام . واسرني الصغيران محمد وروحية بظرفهما، حتى الخادم الصغيرة والجارية السوداء حظيتا بنصيب من ودي، فأحببتهم جيماً حباً دل على ما بقلبي من هيام بحبيبتي وشوق مكبوت للمعاشرة والتودد ...

وكان جبر بك السيد مـــن اولئك الرجال الذين لا يبرحون بيوتهم إلا للضرورة القصوى ، فان لم يكن في الوزارة أو في رحلة تفتيشية بالأقاليم فهو في

بيته وبين زوجه وابنائه ، بدا لي من أول يوم لتعارفنا مهذبا رقيق الحاشية ، ولم يخف عن عيني – على ضعف ملاحظتي – انه من الأزواج المطيعين ، وان زوجه هي الآمرة الناهية في البيت ، ولكن ذلك لم يضعف من منزلته ، ولعله حظي من حب ابنائه بما لم تحظ بـــه الأم نفسها ، ولم يخل من ميل للفخر والمباهاة على تجاوزه الخمسين ، وما اسهل ان تلاحظ ذلك اذا سمعته محدثا عن عمله ومركزه وصلاته بأقرانه ومرؤوسيه ، أو منوها برحـــلاته التفتيشية وملاحظاته ، وما اكثر ما ينتقد المهندسين الشبان ممن تلقوا علومهم في انجلترا والمانيا ، فيقول ان علم الهندسة في مصر هو علم الهندسة في اوروبا ، وان القدم لا ترسخ في العلم إلا بالتجربة والممارسة ، الأمر الذي يتجاهله الشبان، وكان في تلك الأيام قلقاً على مركزه بالوزارة ، ولا يفتأ شاكياً ما يلقي من اضطهاد سياسي مرده في رأيه إلى صلته بالوزير الوفدي السابق ، حتى انه صرح مرة بأنه يفكر في طلب تحويله إلى المعاش والاشتراك في النشاط السياسي ، ولكنه لم يستطع الاسترسال في شرح رأيـــه لتصدي زوجه له بالمعارضة الحاسمة التي لا تحتمل مناقشة . وكنت أجد حياله شعورين متضادين : شعوراً بالضآلة لتفاهة مركزي في الحكومة وقلة حظي من الثقافة ، وشعوراً بالزهو لانتسابي لرجل مثله عظيم في قدره ومركزه وعلمه ، أما تازلي هانم فعلى نقيضه ميــالة للقصر مفرطة في السمنة ، وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها تدل بلا ريب على ما كانت تتمتع به من جمال في صباها . وكانت على سمنتها المفرطة بالغة في نشاطها ويقظتها وسهرها على رعاية بيتها وابنائها وزوجها ، وقد شكا زوجها مرة إلى حرصها الزائد عن الحد على تنسيق البيت وتنظيفه ومراقبة الخـــادم والطاهية ، وافراطها في ذلك افراطاً هو أدنى إلى الوسوسة والارهاق، ولكنه لم يخل في شكواه مما يشي باعجابه ورضاه .

وبدت لي ظريفة في غير ما تكلف ، ولشد ما ضحكت من ذكريات تطلعي الصامت إلى الشرفـة والنافذة ، وقارنت بين حيائي وبين وقاحة الشبان ، وعلقت على ذلك قائلة : فمن حسن الحظ ان تكون لرباب ، ومن حسن الحظ ان تكون رباب لك ، فهي ليست كفتيات اليوم ايضاً .

هذا حق ، حبيبتي ليس كمثلها شيء ، هي الحيــاء والذكاء والجمال : وان

الأيام لتزيدني بها تعلقاً وهياماً واعجابا ، ما أرخم صوتها ، وما أرشق ايماءتها ، وما أجمل رزانتها ، وكانت إلى هذا كله انوثة ناضجة كاملة، وان عينيها لتطالعاني بالاخلاص والمودة والصدق من غير ما حاجة إلى خفة مصطنعة أو تكلف غير بريء . ولم أكن أفوز بها في خلوة أبدا ، ولم تتهيأ لي فرصة للانفراد بها منذ اعلان خطبتنا . وشاقني كثيراً أن أخلو اليها ، وان أتملى بادامة النظر إلى وجهها الصبيح في أمن من الرقباء ، على أنني لم أخل من خوف من مثل هذه الخلوة المأمولة وما أنا حري بأن أعانيه فيها من عي وحصر وحرج واضطراب، فقنعت بالمبذول لي في حظيرة الأسرة ، راضياً آمناً ، مكتفياً إلى حين بالنظرة الخاطفة والمحاورة المقتضبة ، سعيداً بالنشوة التي يبثها وجودها في قلبي وروحي، ووجدت حديثها لطيفاً طبيعياً . لا أثر فيها لشهادتها العالية — وهو ما كنت أحاذره واشفق منه — فلا تفلسف ولا ادعاء ولا حذلقة . وتم الاتفاق فيما بيننا على أن يكون الزواج في العطلة الصيفية ، ولم يألوا جهداً في اعداد الجهاز ، واقترحت تازلي هانم أن ينتقلوا إلى شقة كبيرة على أن أنضم اليهم ، ولكن الاقتراح ازعجني وذكرني بأمي ، فاعتذرت من عدم استطاعتي قبوله قائلاً اني لا يمكنني التخلي عن أمي ، وعند ذاك قالت تازلي هانم : والدتك سيدة محترمة ولطيفة ولكن يبدو لي انها لا تميل إلى المعاشرة ! وفهمت ما تعنيه ، والحق أن أمي لم تزر بيت خطيبتي منذ اعلان الخطبة إلا مرة واحدة تحت ضغط والحاح ، فقلت في ارتباك غير قليل : لقد اعتادت أمي الوحدة .. ولم تألف الزيارات قط .. وقصصت عليهم جانباً من حياتي متحامياً الفجوات التي لا تطيب ذكراها . ولا أنكر ان ملاحظة تازلي هانم أزعجتني ، وذكرتني بامور أخافها ، فدعوت الله مخلصاً ان يقيني مغبة الشقاق في حاضري ومستقبلي . وفي مرة ، وكنت جالساً إلى فتاتي وأمها فقط ، واتتني الشجاعة فذكرت عهد تطلعي الصامت إلى « رباب » ، وعجبت كيف انتهت إلى هذا الختام السعيد وهو ما لم أكن لأحلم به ! .. وضحكت حبيبتي وقالت : ومع ذلك فلم تكد تخطو خطوة واحدة حتى تم كل شيء في غمضة عين !

وقالت تازلي هانم : طالما تساءلنا ماذا يريد هذا الشاب ؟! ولشد ما حذرت « رباب » أن تكون من الشبان الذين يطاردون الفتيات في الطريق ! . وقدرنا في وقت ما أنك مشغول بالتحري عنا كما يفعل طلاب الزواج . فلما طال ترددك

بعد ذلك داخلني استياء وتساءلت عما لم يعجبك فينا ؟!. فقلت مرتبكاً متألماً:

– ما فعلت شيئاً من هذا ، وحتى الأسماء ظللت على جهلي بها حتى اللحظة الأخيرة .. وكان لدي من المال ما يعد بالقياس إلى ثروة ، فأغدقت على حبيبتي الهدايا ، وجعلت من شقيقتي راضية مشيرتي في هذه الأمور التي أخفيتها عن أمي فمحضتني المشورة وأرشدتني إلى « الواجب » وخاصة في المواسم كعيد الفطر وعيد الاضحى ، فأصبحت بفضل رأيها خطيباً مشرفاً ؟.

وظلت العلاقة بيني وبين أمي على ما يرام ، على الأقل في الظاهر . وحرصت على أن أشركها في مهمة الاعداد للحياة الجديدة لتبدو وكأنها تباركها، فكلفتها بأن تبحث لنا عن شقة جديدة ، ووقع اختيارها على عمارة في شارع قصر العيني على بعد محطات ثلاث من عمارة حبيبتي . ولم يبدر منها ما يعكر صفوي ، ولكنها بدت كشخص مغلوب على أمره ، تزحزح على رغمه إلى هامش الحياة ، فانطوت على نفسها انطواء لم أجد في معالجته حيلة ، وقطع قلبي . ولكن لم يكن في وسع شيء في الوجود أن يعتاق تيار السعادة المتدفق الذي يسكرني ليل نهار. والواقع ان تلك الفترة من حياتي هي أسعد ما لقيت في الدنيا من أيام ..

* * *

وقالت لي « نازلي هانم » يوماً ، وكانت الاسرة قد أعدت عدتها للزواج :

– ان رباب أول عهدنا بالافراح فينبغي أن تكون ليلتها بالغة المسرة .

وولى قلبي فراراً ، ولم يعد بد من مواجهة الأمر الخطير الذي طالما تحاميته اشفاقاً وجبنا . وتساءلت في قلق : أترين ضرورة في أحياء ليلة للزفاف ؟!

فرمقتني بنظرة استنكار كأن تساؤلي أدهشها وقالت : طبعاً !.

فغمغمت في ذهول : قيان وزفاف ورقص وغناء !.

فقالت بلهجة تنم عن التصميم : ينبغي أن تكون ليلة فريدة غناء ..

وتملكني الخوف ، ورفعت اليها عينين ملؤهما الرجاء والاستعطاف ، ثم قلت بيأس : لا يمكنني ان أزف بين المدعوين !. هذا فوق ما أستطيع .

فلاحت في وجهها الدهشة والانزعاج وقالت بغرابة :

– لست افهم شيئا !.. هل يعجزك الحياء لهذا الحد ؟

فقلت بضراعة ، وبحرارة من يدافع عن نفسه حيال الموت : لا أستطيع..

لا أستطيع.. صدقيني ياسيدتي ان الموت اهون على من الزفاف بين المدعوين والقيان
– هذا شيء عجيب ، أنك تكون أول رجل يهرب من الزفاف !
فقلت بأسى وقد شعرت بألسنة الخجل تلهب جبيني وخدي :
– ربما ، ولكن ما باليد حيلة ، اني استحلفك بالله أن ترحميني ..
فتساءلت في انكار : وما عسى ان نفعل؟
فقلت بلهفة وقد عاودني الرجاء : نكتب العقد في جمع من الأهل فحسب ، ثم امضى بالعروس إلى بيتنا ! – وكيف يكون هذا فرحاً !

لو كان الأمر غير ما يتصل بالخجل لسلمت دون عنـاء ، والحق اني سريع للطاوعة مهما كلفني الأمر من تضحية إلا اذا كنت بموقف الذائد عن حياتي ، هناك انقلب إلى الاستماتة والتشبث . وقد استمدت من يأسي وخوفي قـوة فتوسلت وضرعت والحفت حتى كفت السيدة عن المناقشة وهي تهز رأسها عجباً ، ولم يكن بي خوف ان يظنوا بي تهرباً من تكاليف الزفاف لما أبديت من سخاء كخطيب كان حديث الجميع ، على ان جبر بك السيد اخبرني بعد ذلك بأنه مصمم على دعوة نفر من خاصة اصدقائه ، وانـه سيولم للجميع وليمة عشاء فاخرة ، ثم اخبرني بعد حين بأن احد اصدقائه من هواة الغناء والموسيقى تطوع باحياء الليلة في حدودها الضيقة ، وقال مخففاً عني وقع الخبر : وهكذا يحيي ليلتك موظف كبير

فقلت محزوناً : يؤسفني والله الا احقق رغبتكم في احياء ليلة زفاف باهرة ولكني لا احتمل ان أزف !.

فهز كتفيه في عدم اكتراث وقال مبتسماً : لا احب ان اضايقك فلك ماتشاء

وحمل الجهاز إلى الشقة الجديدة ، وفرشت حجرة خاصة لأمي ، وانتقلنا من المنيل إلى الشقة الجديدة قبل الليلة الموعودة بأسبوع . وأشرفت شقيقتي على فرش شقة العروس بنفسها . وبهرت شقة العروس عيني فجعلت انتقل بين الحجرات في غبطة وفرح سماوي . ولما جاء دور المخدع اجتزت بابه بعد تردد ، وفي حيـاء شديد ورهبة . يا له من منظر خليق بأن يهز الفؤاد هزاً !. جعلت اقلب ناظري فيما حولي وأنا بين مستيقظ وحالم . فراش كالذهب . وأغطية حريريـة في لون الورد الزاهر ، ومرآة مصقولة رقراقة . دبت الحياة في قطع الأثاث فلم تعـد جامدة ولا صلبة ، وحاكت الوانها الجذابة تورد الخدود والتماع الأعين ، وندت

عن جواشيها المسدولة همسات خافته منغومة خفق لها الفؤاد خفقاناً متتابعاً .

وفي صباح اليوم الرهيب ساءلت نفسي متى أعود بعروسي وقد خلفت ورائي الناس والضوضاء ؟ ليت التقاليد كانت تقضي بأن ينتظر الرجل عروسه في بيته من غير هذا العناء كله ! . بدا لي يوماً عسيراً لم يخلق لأمثالي، فلم يفارق قلبي الشعور بالرهبة والخوف . وتقضي نصفه الأول في تهيئتي ، فمضى بي شقيقي مدحت إلى حلاق مشهور عدت من لدنه على أحسن حال ، حتى قالت لي اختي في دعابة :

– انت أجمل من عروسك ! .. أليس كذلك يا أماه؟ . وهمت أمي بالكلام، ولكنها أطبقت شفتيها دون أن تنبس ، وجعلت أتساءل عما ارادت قوله . وارتديت بدلة العرس السوداء على حرارة الجو، ثم ذهبنا إلى بيت العروس قبيل العصر بقليل ومعي أمي وأخي وأختي وزوجها وعمي وبعض بناته وخالتي وأسرتها . ولما اقتربنا من مدخل العمارة رأيت الأرض قد فرشت رملاً فاقع اللون ، وتدلت مصابيح كهربائية كبيرة من عمد ملونة ، فداخلني اضطراب وقلت لنفسي : « هذا خروج عن الاتفاق ! » ، وارتقينا السلم وقد أبيت ألا ان أسير في المؤخرة شابكا ذراعي بذراع مدحت . وما كاد أولنا يدخل الشقة حتى استقبلتنا عاصفة من الزغاريد المجلجلة ، فشددت على ذراع أخي وشعرت برغبة في التواري ، ولكن أين ؟ وخفضت عيني ، وسرت ، بل جرني أخي ، إلى حجرة الاستقبال ، دون أن أرى شيئاً مما يحيط بي وان أحسست بأذني وأنفي ان البيت مكتظ برواد السرور !. وأجلست وانا متشبث بذراع مدحت وقد همست في أذنه : أرجو الا تفارقني .. فرد علي هامساً : تشجع وإلا بدت عروسك دونك خجلاً ! ولم أكد أتنفس الصعداء لمرور لحظة الاستقبال المفزعة حتى جاءني جبر بك السيد ليقدمني لصفوة المدعوين ، فوقفت مرتبكا كالعادة ، وراحت يدي تسلم ، ولساني يردد كالآلة « تشرفنا .. تشرفنا » ثم جلست مرة أخرى دون أن أحفظ اسماً واحداً . ودار حديث طويل ، لم يفزع عقلي لفهمه فضلا عن الاشتراك فيه ، ولم يغب عني حرجي ، فتضاعف ارتباكي، وخيل إلي أن الجميع يتغامزون بي ، أو يهزؤون بي في سرائرهم . ومر الوقت قاسياً حتى دعيت إلى كتابة العقد ، وخفف عني أن تم ذلك في حجرة تكاد تكون خالية ، ولكن انفجرت الزغاريد في تسابق عنيف ، وعاودتني مرة أخرى رغبتي في

التواري ، وعدت إلى مجلسي الصامت ، ومر الوقت ، ولم يكن بالنسبة إلي ألا صمتاً وفكراً محترقاً ولهفة على الفرار . ثم دعينا إلى سماط أعد على سطح العمارة في الهواء الطلق . والعشاء عناء جديد لمثلي ، ولكنه محتمل بخلاف الحديث ، لأن المدعوين يشتغلون بالطعام عما عداه فيجد من كان مثلي فسحة للطمأنينة والسكينة . وعدنا إلى مجالسنا ، شابكاً ذراعي بذراع أخي ، ثم بدأ الغناء . وكان المغني الهاوي وفرقته – من الهواة كذلك – يتصدرون حجرة الاستقبال وقد غنى « يا ما انت وحشني » بصوت لا بأس به ، فاق في نظري صوت فنان حانة سوق الخضر . وجاء جبر بك للجوقة بقنينتين من الويسكي ، وقدمت كئوس مترعة لآخرين ،وقد همس مدحت في أذني:ألا تشرب كأساً او كأسين؟.

فنظرت اليه نظرة لم يفهم معناها وقلت بانكار : محال ... قلتها بلهجة تنم عن الاستفظاع ، ثم خلوت إلى ذكرياتي في صمت . لشد ما همت بنشوة الخمر! أفليس عجباً انني لم اذقها منذ الساعة التي اجترأت فيها على مخاطبة حبيبتي؟.. هجرتها في غير ما عنـــاء كأنها لم تكن ، ولم تنازعني النفس اليها ولا مرة واحـدة !. وتتابع الغناء والحديث وعلا الضحك . وكنت حرياً بأن آنس الجو ، وان يذهب عني الضيق وتوتر الأعصاب، لولا شعوري بخطورة الساعة التي تتربص بي!..متى اتلقى عروسي ؟ وأين ؟..وهل يحدث هذا في خفية عن الابصار ومر الوقت.ثم انتبهت بغتة على جبر بك السيد وهو يقف حيالي ويضع يده على كتفي قائلا بصوت منخفض : هلم ياسي كامل أزف الوقت . ورفعت اليه بصري في ارتياع وغمغمت : آن وقت الذهاب !.

فقال ضاحكاً : ليس في الحال ولكن بعد زفة بسيطة ؟ فسرت في جسدي رعدة وهتفت في هلع : كلا .. كلا .. اتفقنا على الا تكون زفة !.

– ليس الأمر كما تتصور ، فقد أقمنا في الصالة الكبـيرة منصة للعروسين ، فتجيء بعروسك وتجلسان عليها ، الجميع يريدون أن يروا العروسين فما ذنبي أنا؟

كان كلامه ينقلب في مخيلتي صوراً ، فرأيتني أمشي وسط الجميع إلى حجرة العروس وأعود بها والمدعوون يحيطون بنا مهللين ، ثم نجلس فريسة للأعين !.. رباه .. سأقع مغمى علي .. وقلت بحرارة : ولكن هذه الزفـــة !.. ليس في مقدوري !.. أرجو يا بك أن تعفيني .. لا أستطيع ..

– الأمر أسهل مما تتصور ،ولا بد مما ليس منه بد ، والا ماذا يقول المدعوون؟
فهتفت في فزع : دعهم يقولون ما يقولون . لا أستطيع .. سأنتظر العروس على بسطة السلم ثم نذهب إلى بيتنا .. ولم يتمالك الرجل نفسه فضحك وصاح بي حتى علا صوته على صوت المغني : بسطة السلم .. يا لك من عروس عجيب !..
وكان مدحت يصغي الينا صامتاً ، فضغط على زراعي وقال لي بحزم :
– ما هذه الأفكار الصبيانية؟!. ألا تريد ان تجيء بعروسك ؟! ألا تستطيع أن تشق طريقك بين نخبة من السيدات الفضليات ؟. أتريد البك على أن يعتذر من عدم ظهورك بأنك خجول لا تستطيع الظهور أمام المدعوات ؟ وا فضيحتاه!
وتشجع جبر بك بكلام شقيقي ، أما أنا فحدجت أخي بعينين غير مصدقتين لم أكن أتصور ان تجيئني الطعنة القاتلة من اليد التي أعتمد عليها ، وضحك أخي لفزعي وذهولي ، واراد أن يتكلم ، ولكني قاطعتـــه محزوناً يائساً : كيف تدفعني الى ما لا قبل لي به ؟.. أتريد أن تجعلني أضحوكة المدعوات ؟.
وتأثر جبر بك للهجتي الحزينة البائسة ، فقال برقـــة : المدعوات جميعاً من الأهل . وقد تعرفت اليهن يوم الخطبة ، وسترى صدق قولي ..
لم يزل الفزع يتملكني ، وتناهى بي الضيق فقلت بتوسل : ناشدتكما الله أن ترحماني !. وكأن أخي ادرك ان الكلام لا يجدي ،فوجه خطابه لجبر بك قائلا:
– يمكن ان نتفق على حل وسط فتجيء العروس إلى المنصة بين صويحباتها ، وأذهب مع أخي اليها ،فيجلسان معاً بين الأهل ردحاً من الزمن قبل الذهاب..
وأومأ إلي البك الا يمارض ، فذهب الرجل ، والتفت إلى أخي مغيظاً محنقاً وقلت له: يا لك من أخ خائن!. كيف تسمي هذا حلاً وسطاً وما هو إلا التنكيل بي..
فندت عنه ضحكة مجلجلة ذكرتني بأبينا وقـال لي : انك تعر بلداً ، فدع النضال ، وسنذهب معاً . ليتني أجد كل يوم زفة فأشق سبيلاً طرياً بين النساء !.
وصمت لحظة قصيرة ، ثم لكزني في كتفي وعاد يقول :
– إذا حدثتك نفسك بالنكوص فاهرب واستغن عن العروس !
واستسلمت إلى الواقع في يأس وضيق وهلع . وعزفت الفرقة نشيد الزفـة فخفق قلبي بارتياع وشعرت بدنو الخطر . وقرعت أذني الزغاريد الآتية مـــن الصالة فانهارت قواي ، والتفت إلي مدحت قائلاً : أما من حيلة ؟ أما من طريق؟.

فشد على ذراعي ونهض وهو يقول : طريق واحد يفضي إلى المنصة كأنك طفل يساق إلى الختان !. وسار ، فتحركت قدماي وقلبي يغوص في صدري . وقال لي همساً ونحن نجتاز الباب :

– ارفع رأسك ، حملق في وجوه الحسان حتى يغضين حياء !

ولكني تقدمت على مهل خافض الرأس . لم أشك في أن منظري استثار الضحك المكتوم . وبلـغ مسمعي صوت نسائي يتساءل : « أيهما العروس ؟ » فأجابت أخرى : « الطويل ! » . كان المكان مكتظاً ، وقد رأيت عديداً من السيقان والأحذية البيض على جانبي الطريق الذي أفسح لنا. ثم سمعت صوت أخي يهمس في أذني : بلغنا المنصة ، اصعد اليها ، وحيِّ عروسك واجلس .

ارتقيت درجتين ، ورفعت عيني في حذر واشفـاق فرأيت حبيبتي جالسة تحت ظل من الأزهار ، في ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها هالة من الفل والياسمين تنسدل منها على الظهر ذيول من الحرير . كانت بهاء ونوراً وفلاً وياسميناً ، وقـد غضت بصرها ولاحت على ثغرها ابتسامة خفيفة. وصرت منها على قيد خطوة، وتذكرت قول أخي : « حي عروسك واجلس » .. كيف احييهـا ؟. أأسلم باليد ؟.. أم أوجه اليها تحية المساء ؟ . وترددت مرتبكاً ، ورأيت في ابتسامتها الخفيفة الخجلة ما ينم عن انتظار تحيتي ، ثم شعرت بما غاب عني لحظات قصار ، أو عاودني الشعور بالأعين المحدقة بي تكاد تحرق ظهري ، ففقدت جناني ، وجلست على المقعد الخالي دون أن انبس بكلمة أو أحرك يدي .

أخطأت بلا شك ؟!. ماذا تقول النسوة ؟.. ماذا تظن حبيبتي ؟.. آه يا له من موقف ؟!.. لو عرفت هذا من قبل ما فكرت في الزواج ابداً !..الموسيقى تعزف ، والزغاريد تجلجل ، واريج الروائح الزكية يتطاير في الجـــو . الموت أهون من الزواج !.. هل أظل الدهر ضحية للمنصات ؟.. بالأمس قضت منصة الخطابة بكلية الحقوق على مستقبلي ، والليلة تكاد تقضي منصة العرس على حياتي ! ترى ماذا يقلن عن عيني اللتين لم تزايلا الأرض ؟!.. وذكرت بغتة أمي ، ترى أين تجلس ؟ انها تراني في هــذه اللحظة بلا ريب ، وتضاعف حيائي ، وتولاني شعور مـــن يضبط وهو يقترف عيباً . ووجدت احساساً لا قبل لي بمقاومته يدفعني إلى البحث عن موضعها ، وارتفعت عيناي في رفق وحذر ، ولكنهـــا

كانت أقرب ممـا أتصور ، كانت تجلس في الصف الأول الذي يحدق بالمنصة ، فالتقيت عينانا ، وتبادلنا ابتسامة رقيقة . وطار خيـالي إلى صورة من الماضي البعيد ، فرأيتني أقف وراء سور المدرسة الأولية وهي بمرقفها على الطوار المقابل للسور ، ترنو إليّ بعين التشجيع والتوديع ، فشعرت بغمز على قلبي .

وتنفست الصعداء حين اقبلت نازلي هانم نحونا وقالت مبتسمة :

– الآن إلى بيتكما مصحوبين بالسلامة .

ثم خاطبتني هامسة : ستذهب الجارية صباح مع سيدتها الصغيرة لأنها لا تحتمل مفارقتها !.. واني أوصيك بها خيراً ، وستجد فيها خير طاهية .

وتنحت المرأة جانباً مغرورقة العينين ، ونهضنا من مجلسنا ، وأخذت بيـد عروسي وغادرنا المكان في سير وئيد والزغاريد والأنغام تودعنا حتى باب العمارة. وكان أحد اصدقاء جبر بك قـد وضع سيارته تحت تصرفنا حتى نبلغ دارنا . واحتوتنا السيارة معاً ، ثم انطلقت بنا . والتفت نحوها متنهداً فكأني أراهـا لأول مرة . وقلت بارتياح : يا له من موقف قاس !.

فابتسمت عروسي وقالت : يا لك من خجول !.. ألهذا الحد ؟!.فندت عني ضحكة أداري بها ارتباكي ، وجعلت أتملى غبطة تملأ القلب والعين والروح .

* * *

أغلقت باب المخدع بيد مضطربة . كان هذا الجناح من الشقة خالياً صامتاً ، تفصله صالتان صغيرتان متداخلتان عن الجناح الآخر حيث توجـد حجرتا أمي والاستقبال . وكان مخدعنا مربعاً يتوسطه الفراش ، وعلى يمين الداخل مباشرة مقعد طويل ذو لون وردي ، وفي الجدار المقـابل التواليت والمشجب . مضت رباب إلى آخر الحجرة وجلست على مقعد التواليت بين صورها المعكوسة عـلى مراياه التي ترسم حولها نصف دائرة ، وراحت تنزع اكليل الفل والياسمين ، بينما وقفت في وسط الحجرة مرتفقاً حافة الفراش الخشبية ، مردداً بصري بين ظهرها الرشيق وصورها المتنافسة في الحسن . هذه الحجرة هي دنياي ، وحسبي بهـا من دنيا ، وهذه الفتاة هي نصيبي من الكون وحسبي بها من نصيب ، هي حبي وسعادتي وأملي ، ولـن أسأل الدنيا مطمعاً بعد اليوم .

انتهت حبيبتي من نزع اكليلها ، وأخذت تسوي ما بعثر من خصلات شعرها

الكستنائي في تمهل من يرغب في اكتساب أقصى مـا يسعه من وقت . ولكن ستنتهي حتماً فترة الانتظار فما العمل ؟!. رباه ان يقفز قلبي متوثب ، واني لأجد رعدة ترعش ركبتي ، واني لأتساءل في حيرة عن الخطوة التالية بنفس هيابة وحياء شديد يدور مع دمي . وأدركت رغم اضطرابي انـــه ينبغي أن نبدل ملابسنا ، ولكنني لم أدر كيف يتم هذا وكلانا في حجرة واحدة مغلقة ! وبدت لي وكأنها تنتظر مني شيئاً ، فقد انتهت من تسوية خصلاتها وان تظاهرت بالعكس ولاح في وجهها الارتباك والحرج . واني أعلم أموراً ولكن فاتتني التفاصيل ، وأعوزتني الحيلة والعزيمة . ليتني استخبرت أخي مدحت ، أو ليته كان لي اصدقاء ارجع اليهم في أمثال هذه الأسرار ، ولكن قاتل الله الحياء الذي يقيم بيني وبين أخي والناس سدا ، تباً له !.. لماذا لا يزايلني وقد صرنا وحدنا !!

وبلغ ضيقي بصمتي وجمودي منتهاه ، وثار بي الغضب على نفسي ، فصممت لأتكلمن – وهو أضعف الايمان – وقلت بصوت غريب انكرته أذناي : ما اجملك .

هذه أول كلمة غزل أتفوه بها في حياتي !.. وقد سددت بصرها نحو صورتي الماثلة في المرآة وابتسمت ، ثم غضت بصرها ، وشبكت ذراعيها على صدرها . لم يعد يجـــدي التظاهر بتسوية الشعر فشبكت ذراعيها في استسلام المنتظر . وازددت حرجـاً ، وعضضت على شفتي قهراً وغيظاً . وبدا لي تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة في الوجود ، فهل نبقى على هذه الحال الأليم حتى مطلع الصبح ؟ لماذا لا أمضي نحوها فأضمها إلى صدري حتى تحل المسألة نفسها بنفسها؟.. ولكن كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة ؟.. أني أستطيع ان اتخيل ، وان أحادث نفسي ، أما الاقدام على عمل فهو المحـــال . وامتلأ قلبي غيظاً وألماً ، وازددت احساساً بالعجز والخزي ، فصممت ان أخرج من صمتي على الأقل ، فقلت :

– هلا بدلت ملابسك يا عزيزتي ؟ فقالت بعد تردد : ليس أمامك !..

لعلها توقعت دعابة أو مغازلة رداً على قولها ، ولكني لم أفكر في شيء من هذا ، وتركز تفكيري في ايجاد مكان أتوارى فيه ريثما تخلع هي فستان العرس . وتراجعت قليلاً جاعلا الفراش بيني وبينها ، ثم جلست على أرض الغرفة مختفياً عن عينيها وأنا أقول : بدلي ملابسك يا عزيزتي .. وحسبتني قد ظفرت بالحـل السعيد . وانتهزت الفرصة فمضيت أخلع ملابسي في هدوء محاذراً أن يبدو مني

شيء ، ووضعت البدلة على الفراش ، وتناولت البيجاما وكانت ملقاة على المقعد الطويل ، وحشرت فيها نفسي وأنا لا ازال ملازمـــاً موضعي على الأرض . وانتظرت ملياً ثم سألتها برقة : هل انتهيت يا عزيزتي ؟.

فأجابتني بصوت مهموس : أجل ..

فنهضت قائماً ، وهنا وقع بصري على صورتي في المرأة فرأيت الطربوش مـا يزال على رأسي فنزعته مبتسما !. ونظرت صوبها في حيــاء فوجدتها بمجلسها السابق وقد التفت في روب من الحرير الأبيض ، وأدارت المقعد مستقبلة به الحجرة . وعدت إلى موقفي مرتفقاً حافة الفراش ، رانياً اليها في غبطة وهيام ، وكلما رفعت إلي عينيها غضضت بصري في حياء . انتهينا من تغيير ملابسنا ، ولكن ليس هذا كل شيء !.. بدت الليلة وكأن لا نهاية لمشاكلها .. بيد أن قلبي يرغب أن يضمها اليه ، فماذا يفلني ؟!. ان هي إلا خطوة أقطعها ، فهل تكلف خطوة واحدة كل هذا العناء ؟. كان قلبي متلهفاً متعطشاً ، وكان خجلي حارا محيراً ، أما جسمي فكان ميتاً لا حراك بـه !. أأظل هكذا أبداً ؟.. لماذا لا اداري موتي بالحديث ؟.. ولكن ما عسى أن أقول !.. لقد عقد الاضطراب لساني ، وكل دقيقة تمر تتركني أشد ضعفاً واضطراباً . وعلى حين بغتة انحرف ذهني إلى حجرة أمي دون داع ، وتساءلت ترى هل نامت ؟.. هل تتخيل ماذا أفعل الآن ؟. وتضاعف اضطرام الخجل بنفسي ، وشعرت بما يشبه الاختناق . سلمت من جانبي باليأس والعجز ، وتساءلت هل نبقى على هذا الوضع المضحك حتى الصباح ؟ ووجدت في أعماقي نزوعاً إلى الهرب ، ولهفاً عليه ، وكدت أتمـ لو لم يكن ما كان !. وافقت من أشجاني على صوت حبيبتي وهي تقول :

– الجو حار .. وتحولت صوب النافذة لتفتحها ، ووجدت فرصة مواتية فدفعت نفسي وراءها وأكملت عنها فتح المصراعين وهمت حبيبتي بالعودة فقلت كالمستغيث : هلا وقفنا في النافذة قليلاً ..

ولبت حبيبتي نداء الاستغاثة . فوقفنا جنباً لجنب لا يفصل بيننا الا قيراط. وكانت النافذة تطل على الناحية الخلفية للعمارة ، وتقع تحتها مباشرة حديقة كنيسة تقوم بجنباتهــا أشجاراً عالية تتصاعد همسات حفيفها في صمت الليل . وهفت على وجهينا نسمة رطيبة ، فانتعشت نفسي وعاودني الرجاء . ألم تلب

ندائي تلك التي كنت أتطلع اليهـــا كما يتطلع الطفل إلى القمر ؟. ها هي ذي لا يفصلنا إلا قيراط . وملت بجسمي في تؤدة وحـــذر ، فتماست ملابسنا ، ثم شعرت رويداً بلمس طري ، والتصق الجنبان . وندت عني تنـــهدة مسموعة أيقظت حيائي فتريثت قليلا . وخفت أن تصدني أو تبتعد عني حياء فأغلب على أمري ولا يعود ثمة أمل ، ولكنها لبثت بمكانها وارتفقت حافة النافذة .

ودفعت بيسراي إلى الوراء قليلا ، ووجهتها وزاءهـــا حتى رسمت خلف خاصرتها نصف دائرة ، وجعلت أضيقها على مهل وحذر وخوف حتى مست ثنيات الروب الحريري ، فسرت من مسها لقلبي رجفة وندت عني للمرة الثانية تنهدة مسموعة . ثم توثبت بجامع قلبي وأحطت خاصرتها بذراعي . ولم تبد حبيبتي لا معارضة ولا حراكا . ونفضت عني افكار التردد والهزيمة . وشددتها نحوي مستعيناً بذراعي اليمنى ، وتلقيتها في حضني واسندت جبينها إلى صدري ، فهويت بشفتي على مفرق شعرها ، وغمغمت وأنا لا أدري : أحبك .

ولبثنا في عناقنا ، والله أعلم بما لبثنا ، ثم تراجعنا متماسكين إلى الفراش ، وصعدنا اليه وذراعاي لا تتخليان عنها . وأسندنا منكبينا إلى نمرقتين عاليتين ، وحبيبتي وما عليها من روب على صدري وبين ذراعي ، ومن عجب أن بصري لم يتطفل عليها فاتجه إلى السماء خلال النافذة . وامتلأت نفسي حياة لا عهد لي بها. أما جسمي فظل جامداً بارداً لا ينبض ولا تدب به حياة ، كأن نفسي استأثرت بكل قطرة من حياتي . اسكرتني نشوة روحية باهرة غناء طروب سامية ، وظللت على حالي حتى مطلع الفجر ، ولم أدر كيف استرق النوم خطاه إلى جفني.

* * *

استيقظت ونور الشمس يملأ نصف الحجرة تحت النافذة المفتوحة ، فوقع بصري على المرآة ، وعاودتني ذكريات الليلة الماضية في لمح البصر . ودارت عيناي في الحجرة فوجدتها خالية ، وأدركت ان حبيبتي غادرتها وأنا اغط في نومي ، فتندى قلبي حناناً وبعثت لها بتحية ودعاء . وقلت لنفسي ان متاعب الخطبة والزواج والزفاف قد انتهت ، ولن يضمر لي المستقبل إلا صفاء لا يكدره مكدر وراجعت ذكريات الأمس فساحت نفسي في متاهة النشوة والسعادة . بيد انه لم يغب عني انني لم ابدأ بعد ، وانني لم اكتب حرفاً واحداً في كتاب الزواج

الضخم . وغادرت الفراش ونظرت في الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة ، فهالني تأخيري ، وذكرت في التو أمي ، وتساءلت عما تظن بهذا الاستيقاظ المتأخر ، وشعرت بحياء أليم ، زاد من ألمه انه لم يحدث ما يستدعي التأخير قط، وأحسست بضيق نغص علي سعادتي ، وكأنني أدرك لأول مرة ان الليلة الماضية لم تخل من فشل واخفاق . على انني قاومت هذا الاحساس الخائن ، ورغبت عن الانفراد به فغادرت الحجرة . وقابلتني في الصالة الجارية صباح — التي انضمت إلى أسرتنا — فهنأتني « بالصباحية » وأخبرتني بأن العروس تنتظرني في حجرة السفرة فمضيت اليها،ووجدتها جالسة كالوردة اليانعة فانشرح صدري بمنظرها وأقبلت نحوها متهللا وقبلت خدها . وتناولنا افطارنا معاً المكون من اللبن والشاي والبيض والجاتو . وتبادلنا على المائدة حديثاً عادياً ، فسألتها متى استيقظت ، وأجابتني بأنها استيقظت في الثامنـــة ، وبأنها تستيقظ في العادة مبكرة مهما تأخر بها وقت المنام . ثم جاءت أمي فهنأتنا معاً ، وجالستنا بعض الوقت . وانتقلنا إلى حجرتنا ، وقضينا النهار في حديث عذب لا يمل . وذهبت عني الوحشة فآنست بها وقصصت عليها قصة حبي من البداية إلى النهاية ، وكنا نفصل حديثنا بالقبل السعيدة المتبادلة. وسألتها متى أحست بوجودي في دنياها، فقالت انها فطنت لحوماني حولها وتطلعي إلى الشرفة منذ عام أو أكثر قليلا ، وان أمها لاحظت ذلك في نفس الوقت تقريباً ، ثم صرت بعد ذلك حـديث البيت فكانت الخادمـة الصغيرة اذا لمحتني من النافذة آتياً من طريق المنيل قالت لهم ضاحكة « عريس ست رباب » ، وكانوا يزجرونها بشدة ، ولما طال بي المطال دون ان أتقدم خطوة ظنوا بي الظنون،ونهتها أمها عن الظهور بالنافذة أو الشرفة في الأوقات التي أكون فيها بالمحطة . وسألتها بلهفة :

— ألم تشعري نحوي بعاطفة ما ؟. فأبتسمت ابتسامة رقيقة ، وفتحت فاها لتتكلم ، ولكنها أطبقت شفتيها دون أن تنبس . وكان بي نهم شديد لسماع ما يبل جوانحي فألححت عليها ان تتكلم ، فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

— لا أدري .. لا أدري متى أحببتك . وشعرت بتخدير عميق وددت لو أنام به دهراً . وجعلت وجهها بين راحتي متملياً شفتيها اللتين برزتا تحت ضغط يدي ، ثم وضعت عليهما شفتي ، وذبت في قبلة طويلة . وجدت حبيبتي فتنة ،

حديثها عذب ، وبديهتها حاضرة ، وذكاؤها باهر حتى بدا حديثي على ضوء حديثها فاتراً باهتاً . وبدت لي لطيفة خفيفة الروح فلم يكن وقارها إلا تأدباً واحتشاماً. ولا أدري لماذا كنت أتخيلها مثالاً لضبط النفس ، بل وللبرود أيضاً، ولكني لمست في قبلاتها حرارة تذيب القلب ، وفي نظرة عينيها عاطفة عميقة وإحساساً مرهفاً . وانطلقت على سجيتها بأسرع مما توقعت ، وربما شجعها على ذلك ما رأت من شدة حيائي .

ولما جاء الليل وأغلقت الباب وراءنا قلت لنفسي وبي رهبة زحفت علي مع الظلام « الليلة يتم الأمر باذن الله » . لم تكن لي تجارب على الاطلاق ، ولم أعرف من الحياة الجنسية إلا العادة الجهنمية التي لما اكد انجو منها ، ولكنني عرفت امورا بالسماع عفواً - في الوزارة - لا ادري ان كانت تغني عني شيئاً. ورأيت حبيبتي واقفـــة حيال المرآة تمشط شعرها فراقني منظر قامتها الرشيقة الفارعة ، وتدانيت منها ، ولففت ذراعي حولها ، فاستدارت حتى شعرت بمس صدرها على قلبي ، وضممتها إلى صدري في حنان وهيام . انه الحب ، ولكنني ادركت بغريزتي انه ينبغي ان استنزله من السماء كثيراً كي اقوم بواجبي !.. ولكن كيف ؟!. انها تسكن إلى صدري كأنها طيف من نسج السحاب الطاهر . واني ابدو كروح خالصة لا يحيط بها جسد فكيف أجد جسدي !؟. وسرعان مـــا انسربت إلى نفسي مشاعر قلق وخوف وتوتر اذكتها جميعاً تجربة الأمس الفاشلة . ولم تكن تراءت لي كتجربة فاشلة الا في هذا الصباح ، وكذبت رأيي أو كدت في اثناء النهار ، ولكنني عدت اليه في تلك اللحظة بتسليم ويقين ويأس . ثم استحوذ علي الحياء القاتل فأثلج دمي وأوهن عزمي . وركبني خوف شديد من الفراش الذي لا اجد لنفسي عذراً عليه بينما أجد شبه عذر بعيداً عنه .

مرت هذه الخواطر برأسي وحبيبتي ما تزال يدي . فانقلبت تمثالاً جامداً من شر الفكر ، وضاعت سعادة الساعة هباء . وتنهدت ، ولعلها ضاقت بالوقفة فوخزتني تنهدتها ولم اعد اطيق جمودي . ورفعتها بين يدي ، وسرت بحملي المحبوب إلى الفراش، وانمتها في رفق ثم اضطجعت إلى جانبها . ودفعني والخوف فكأني في متاهة حمى يذهب بي هذيانها ويجيء بين أخيلة شفتيها وخديها وعنقها بسرعة وغزارة ، فداخلتها رقة وأحاطت عنقي بذراعها البضة ، والتصقنا طويلا

وتناهى بها العطف والحنان، واصطرعت بقايي أحاسيس الحب واليأس واللذة والخوف فكأني في متاهة حمى يذهب بي هذيانها ويجيء بين أخيلة السرور وأشباح المخاوف اني في حلم سعيد ولكن الخوف لا يزايلني واليأس يثير في وجهي غباراً ، وكيف لي بالنجاة وجسمي ميت لا حياة فيه ؟! وأحرق جفاف الخوف حلقي ، ووقفت حيال عجزي ويأسي حائراً أتساءل ، ولكنني لم أفكر لحظة واحدة في التقهقر، وأين المفر ؟.. بل دفعني اليأس إلى أن أنزع الروب عنها ، فجرت يدي إلى عقدة زناره وحلتها ، وشعرت بصدرها يرتجف تحت صدري ، فأزحت جانبــه عن صدرها فبدا جسمها الرشيق في قميص من الحرير الأبيض لا يكاد يستر شيئاً ، وبادرت ترجع طرف الروب تستتر فأزحتــه مرة أخرى فانحسر عن القميص الشفاف ، ورنوت إلى هيئة الجسم الفاتنة بعينين لم يترك لهما الاضطراب إلا قليلاً من الابصار . كان حــالي مما يرثى له . ولم يكن عذاب محتضر يجاهد يائساً للاستمساك بحياة جسده بأسوأ من عذابي . ورغم هذا كله ثابرت على عنادي ، واستمددت من يأسي وعذابي قوة وان لم تكن تجدي ، ان الخجول لا يفر ابان المعركة لأن الفرار يخجل حيال الغريم .أجل انه يتحامى المعركة ، ويفر منها بعيداً عن الأعين، فاذا ولج ميدانها وغدا محطاً للانظار بات الفرار - كالعراك سواء بسواء - فوق احتماله. لذلك أجلست حبيبتي ونزعت الروب من ذراعيها وتركتها قميصاً شفافاً وجسداً بادياً. وأدارت عني رأسها ،وأخفته في الوسادة. ولم تكن تعلم بان نفسي تحترق يأساً ، وبأن هذا المشهد ما هو إلا مهزلة ، فتضاعف ألمي وخجلي . ومع ذلك مددت يدي مرة أخرى كأنني ما زلت أطمع في أمل لا أدريه. مددتها وهي ترتجف من اليأس والبرودة فند عن حبيبتي صوت يهمس : اني خائفة ..

واخجلتاه !.. مم تخاف ؟!.. لقد ألهبتني همستها كسوط حملت أطرافــه بالرصاص ، ومع ذلك لم أتوقف .. لم تثنني لا المقاومة ولا الصدود .. حتى بلغ النظر غايته !. ماذا دهاني ؟. ليس الموت فحسب ما بي . انه شيء جديد مفزع مزعج ، ماذا دهاني ؟ رباه ، حبيبتي جميلة لطيفة ولكنه الجهل والخيال الأعمى ! كنت غراً أعمى لم تر عيناي نور الحياة ، فتخيلت عنه خيالات صبيانية فلما أن رأيت النور الحقيقي انكرته !. انها مأساة . ولعله لولا موتي لما كانت مأساة على الاطلاق . وقد علمتني تلك التجربة القاسية ان الحب يخلق الجمال كما يخلق الجمال

الحب ومهما يكن من أمر فقد ركبني الفزع فوق مـا بي من يأس وخجل ولم يعد ثمة أمل . ولبثت جامداً وحبيبتي دافنة وجهها في الوسادة ، مستسلمة تحت رحمة جلادها . لبثت جامداً لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أتراجع ووجدت في لحظة رهيبة قوة عصبية متوترة تدفعني إلى الضحك لولا أن تماسكت وشعرت في اللحظة الثانية برغبة في البكاء ،ولولا أن البكاء مخجل لروحت بالدمع عن نفسي الملتاعة ثم استثقلت الجمود كاخفته فضممتها إلى صدري وقبلتها ومشاعر العطف والحزن ـ علينا معاً ـ تسيل من شفتي ، كان رثاء بالقبل ومر الوقت كأن دقائقه وثوانيه أسنان منشار يحز عنقي ، ومرت دقائق وربما ساعات . ثم أنقلب الحال مملا مضنياً ، وفي حركة لطيفة تخلصت من ذراعي . . . وتنفطت بثيابها وبدا لي النوم نهاية مضحكة ولكن ما حيلتي ؟ ارقدت حبيبتي دون أن تلتقي عينانا فلم أدر متى رنق الكرى بجفنيها. ولبثت مسهدا متعبا لا أدري بأي وجه ألقاها في الصباح . أي شيطان أغراني بالزواج ؟ .. ألم يكن عذاب الحسرة النقديم خيراً من هذا المذاب ؟. كيف خانني جسمي ؟. أليس هو الجسم الذي يلتهم ناراً في العادة الجهنمية !! والآم يدوم هذا اليأس ! ... ظل رأسي كقطعة محماة من الحديد يتطاير عنها شرر الأفكار ..

* * *

حبيبتي عطف ورحمة . وقد طالعتني في الصباح بالابتسامة المشرقة . ووثبت هنا وهناك ببشر وسرور ومرح ، فلم يداخلني شك في انها عروس سعيدة . ولو بدا لي أنها تتظاهر بالبهجة لتخفف عني الجرح لما وسعتني الدنيا شقاء ، ولكنها كانت تصدر في مرحها عـــن وحي فطرة بسيطة سليمة لا تعرف التصنع ولا التمثيل . وشعرت بصدق وحق بأن فتاتي تحبني ، وبأنها قلب كبير ملىء بالحنان والعطف والأنوثة ، فعاودني الأمل . وقلت لنفسي اننا ما زلنا في البداية وان مسرات لا حصر لها تنتظرنا اذا عبرنا الخطوة الأولى الشاقة ، وقضينا النهار معاً ، بعضه في الحـديث وبعضه الآخر في مشاهدة الرسوم والألعاب التي مهرت في ابداعها لأطفال الروضة . وحين المساء زارتنا أسرتها ، وجلسنا جميعاً في حجرة الاستقبال ومعنا أمي أيضاً . وتحـدثنا طويلاً ، والتهمنا بلذة الشيكولاطة والملبس وحاولوا أن يجروا أمي إلى الحديث ، ولكنها ـ مثلي ـ لم تكن محدثة ماهرة ، فبدت متحفظة ، وخيل إلي أن محضرها لم يترك أثراً حسناً في نفوسهم ،

وان رباب شاركتهم نفس الشعور ، وما لبثت أن سرت العدوى إلي ، وكنت أجد نحوها احساسين متناقضين : احساساً بالرغبة في وجودها معي وهو ما ألفته وطبعت عليه ، وآخر بالخجل الأليم لوجودها في بيت الزوجية . والحق أني ما كنت اذكرها حتى يتندى جبيني خجلاً . ولما أنفض السامر وأقبل الليل استقبلته بكآبة وخوف ، وما كاد باب حجرتنا يغلق وراءنا حتى نضب معين السرور والبشر من قلبي ، وغاض منه الأمل الذي ابتعثه مرح النهار ، وبدا لي أن فتاتي تعاني بعض ما أعاني ، وانما تداري قلقاً لم تنفع لباقتها في مداراته . تولت عني الثقة في أقل من ثانية ، وتخايلت لعيني ذكريات الليلة الماضية ، وتمنيت لو كان في الامكان أن تنام دون أن نجرب محاولة جديدة ، وأيقنت بالاخفاق قبل البدء . على أنني لم أجد بدا مما ليس منه بد . وأعدت التجربة بحذافيرها من قبل وعناق واخفاق !. أجل اخفاق واخفاق واخفاق . مسكينة حبيبتي ، لقد استسلمت بادىء الأمر فيما يشبه الخوف ، ثم انتهت بأن لمت نفسها في حياء وارتباك . انتهينا في ساعة متأخرة كما أنتهينا أمس ، فنامت هي ، وبقيت مسهداً متفكراً . ماذا بي !.. اني أحبها بكل قوة نفسي ، بل أني أعبدها عبادة ولئن يخلو بيتي منها بعد اليوم لأهلكن لا محالة ، أتكمن المأساة فيما دهاني به النظر من انزعاج لم أتوقعه !. ولكن هذا محض افتراء لأن موتي سابق للنظر فليس فيما رأيت دخل فيه ، بل أني آلف الحقيقة التي غابت عني سريعاً وتكاد تنهزم خيالات الوهم الصبيانية حيال الواقع الحقيقي ، ولم يتغير مني شيء . وقد أثر في حياؤها وأرتباكها – وهي ترتدي ثيابها – تأثيراً عميقاً فأقسمت لا أقربن ثيابها حتى يغير الله ما بي !

ومضت بنا الأيام في حب طاهر ، فامتزج روحانا ، حتى صارا روحاً واحداً في جسمين غير متصلين . ولولا حبها العميق ، ومرحها الطليق ، وبساطة قلبها الكبير . لمت غماً وكمداً... وأنها لأيام عجيبة ، وانه لشهر عسل غريب !وكانت حبيبتي مثالاً للشعور الحي والرقة البالغة والحب الصادق . وكثيراً ما كنت أسترق اليها نظرات متفحصة مستريبة فلم أجد منها إلا الصفاء والوداعة والرضا فكاد يقع في روعي أنه لا يعوزنا شيء. واستطيع ان اقول انني لم انعم بالراحة إلا في تلك اللحظات وفيما عدا ذلك كانت حياتي جحيماً مستعراً لا يدري به احد ، لم

تعد سعادتي الا اويقات طارئة كأنها إفاقات من يعاني سكرات الموت. وشعرت بشدت حاجتي إلى المشير ، ولكن حيائي وقف في طريقي سداً منيعاً كالجبل الراسخ فاستحالت علي المشورة حتى مجرد تخيلها كان يشب في ناراً ويبعث في نفسي احساساً قاهراً للفرار والاختفاء . وفضلاً عن هذا وذاك فلم يكن لي صديق ، وكانت أمي – وهي صديقي الوحيد في دنياي – أبعد من أن اذكرها في هذا الأمر خاصة ، فكابدت عذابي وحيداً صامتاً يائساً . وكان نهارنا محتملاً بل بهيجاً بفضل حبيبتي التي تذيب روحها راكد الهم ، حتى اذا جاء الليل غشيتنا كآبة لم تنفع حيلة في تبديدها . كان كلانا يشعر بالحرج والضيق والخوف . ولم تواتني الشجاعة على معاودة التجربة بعد اخفاق الليلتين المتعاقبتين ، فكنت أقنع بأن نضطجع جنباً إلى جنب ، وأضمها إلى صدري ، منتظراً الرحمة في خوف وقلق وهلع ، حتى ينتشلني النوم من عذابي . ولذلك لم يزل الحياء حجاباً بيني وبينها ، ولو اتيح لنا الامتزاج لرفع الحجاب رويداً رويداً ، فلم استطع ان اشكو اليها بثي وهمي ، وطالما نازعتني نفسي إلى الترويح عنها بالكلام ، فما أكاد أفتح شفتي حتى اطبقهما في ارتباك وخجل . وفي احدى هذه المرات قالت لي بصوت مهموس :

– هل ترغب ان تقول شيئاً ؟.

ووجدت وراء تساؤلها دعوة إلى الكلام ، فخفق قلبي بعنف وقلت في اضطراب أخفيته بجهد شديد : أرغب دائماً أن اقول أني أحبك !

هذا حق في ذاته ، ولكني كنت أرغب بلا ريب أن أقول شيئاً آخر ، وأحسست بأنها تقرأ صفحة افكاري الخفية ، فجثم الكذب على صدري كالكابوس ، وغمغمت بعد أن جاهدت حيائي جهاداً مريراً : ان ما مضى من حياتنا المشتركة لا يقاس إلى ما ينتظرنا من عمر طويل . وخيل إلي أن وجهها تضرج بالاحمرار وان كنت أراه على ضوء المصباح الساهر الخافت ، وداعبت شعري بأناملها ، ثم قبلتني قبلة عذبة على شفتي ، وسألتني في أذني :

– أيضايقك شيء ؟. فالتهب جسمي خجلاً وألماً . وقلت بإخلاص :

– معاذ الله .. وصمت على رغمي ملياً ، وقلبي يخفق بشدة وعنف ، ثم قلت وبودي لو أتوارى عن ناظريها : انها مسألة وقت .. هكذا تعاقبت الأيام ، ومرة أخرى أقول انه لولا حبها العميق ومرحها الطليق وبساطة قلبها الكبير

لمت غما وكمداً. وذات مساء – وكان مضى على زواجنا ثلاثة أسابيع – لاحظت أنها تخالسني نظرات تنم على الحيرة ، وأن لديها ما تقوله ، فقلت لها مدفوعاً برغبة قوية في استدراجها إلى الكلام : في عينيك كلام ...

فقالت مبتسمة في ارتباك : أجل ..

فمضيت اليها وكانت جالسة على المقعد الطويل وجلست اصقها ، وقلت مستسلماً للشعور الطارىء نفسه : هاتي ما عندك ..

فقالت باقتضاب : أمي ..

وانفجر الاسم في اذني كالقنبلة ، انه لفظ واحد ولكنه يتضمن كتاباً ، واني على رغم غبائي افهم ما يعنيه. ولعل الام تواجهها بهذا السؤال الطبيعي المعروف فتسمع رداً على سؤالها جواباً واحداً لا يتغير : « كلا بعد ... » ! ولما طال السكوت قالت حبيبتي برقة : انها لا تفتأ تسألني: ولا أدري ماذا انفد صبرها..

وقتلني الخجل ، وتميزت غيظاً ، ثم قلت بهدوء :

– هذه شؤوننا الخاصة . أليس كذلك ؟ فقالت كمن تعتذر :

– طبعاً . ان هي الا تريد ان تطمئن علينا . هذا كل ما هنالك ..

فسألتها محزوناً مغتماً : وماذا قلت لها ؟

فقالت باهتمام وعجلة: لم أقل شيئاً مطلقاً . فقط صارحتها بأن لا داعي للعجلة.

– وماذا قالت ؟! فتفكرت ملياً كأنما لتزن كلماتها ، ثم قالت :

– قالت لي ان للموقف رهبته ، وخاصة بالنسبة لشاب طاهر خجول، وانه إذا دعا الحال فلدينا صباح الجارية .

فاتسعت عيناي دهشة وقلت بذهول : صباح ! فأومات برأسها بالايجاب في ارتباك ، فتساءلت بدهشة : وماذا تستطيع صباح ؟

وترددت لحظة ، ثم انشأت تشرح لي ما غمض علي أول وهلة ، وأنصت اليها باهتمام حتى أدركت كل شيء . وأخذت أفيق من ذهولي رويداً رويداً . ولست أخفي اني شعرت بارتياح إلى اقتراح الأم ، فهو يزيل عقبة من سبيلي ، ويخليني من بعض المسئولية ، ويعفيني من مراقبة الأم ، ولا أظنها تسأل بعد ذلك عن شيء .. وسألت زوجي بحياء : وكيف نخبر صباح ؟

فقالت ببساطة : لقد حضرت صباح جانباً من حديث أمي ..

فهتفت بحياء وانزعاج : كيف ؟.. كيف بالله ! فقالت مبتسمة :
– لا عليك من هذا ، انها أمي أيضاً ولا نخفي عنها شيئاً . وتبادلنا نظراً طويلاً صامتاً . ثم سألت في اشفاق : وهل علم أحد من الآخرين ؟.

فقالت بلهجة لا تدع مجالاً للشك : مطلقاً ..

فداخلني ارتياح ، ولكن شعرت بحاجة إلى مزيد من الاطمئنان ، فقلت بلهجة ذات معنى : أرجو ألا تخرج « أسرارنا » من هذا الباب !

فحدجتني بنظرة عتاب وتساءلت : أيداخلك في هذا شك ؟!

* * *

ولكن ليس هذا كل شيء في الزواج . وكيف يكون كل شيء وهو واجب قامت به صباح ؟؟. وتساءلت في سذاجة مضحكة عما ينقص حياتي الزوجية ، وهل هو ضروري لهذه الحياة !. ومن عجب انني ترددت عن الجزم !! وتساءلت ألسنا سعداء !. نحن نعيش في هناء وغبطة ، ويحب كلانا صاحبه حباً لا حد له ، ولا يداخل أحداً شك في سعادتنا ، فلماذا تزعجني الأوهام ؟! ولكن الانسان موكل دائماً بالتفكير فيما ينقصه ، حتى لينسى ما بين يديه بما هو بعيد عن يديه ، فلم تزايلني الوساوس ، ولم استنم لحياتي . وفي ليلة من الليالي ، وكنت مضطجعاً على ظهري أراود النوم وقد رنق الكرى بجفني حبيبتي ، طاف بي الفكر مسارح بعيدة حتى نسيت ما حولي أو كدت ، فساورني شعور بالوحدة ، قوّاه في نفسي ما يحيط بي من ظلمة ، ورويداً رويداً وجدت حياة تدب في جسدي ، كتلك الحياة التي كان يستثيرها الظلام والوحدة .

وسرعان من استخفني الفرح فكدت أصيح من فرط سروري . ثم أقبلت على حبيبتي النائمة أوقظها بالقبل حتى فتحت عينيها في انزعاج استحال دهشة ، ومرت ثوان قبل أن تستفيق من دهشتها ، ثم مدت ذراعيها إلى عنقي فضممتها إلى صدري بلهفة وشوق ، ولكني ما كدت أفعل حتى عاد كل شيء إلى أصله ، وزحف الموت البارد على جسدي حتى شمله في أقل من ثانية ، وانقلبت إلى حيرة خرساء ، وخجل مخز !. وتبادلنا نظرة غريبة على ضوء المصباح الخافت ، وبدا في وجهها انها لا تفهم شيئاً فسألتني : أكنت تحلم ؟.

ما أصدقها من كلمة وان قيلت اعتباطاً ، ولشد ما زلزلتني تلك الحادثة

زلزلة عنيفة قضت قضاء مبرماً على مـــا كان يتراءى لي أحياناً من أمل واه ، وعرضت لي خلوات اخرى في ظلام الليل وحبيبتي غارقة في نومهـا ، وعاودني دبيب الحيـــاة الغريب ، ولكن لم توأتني الشجاعة مرة أخرى على ايقاظها ، ووجدتني أتردى من جديد في الهاوية التي انتشلني الزواج منها قرابـــة شهر ، وعدت وأنا لا أدري إلى أسر العادة الجهنمية التي لم يعرفها زوج قبلي . الا ما أشد حيرتي وقهري !. كيف يقع لي هذا وقلبي يعبدها عبادة !.. بل كيف ونظرة إلى وجهها انفس عندي من الدنيا وأنعمها !. انها حياتي وسعادتي ودنياي جميعاً.

ووجدتها يوماً وكأنها تعاني رغبة الافصاح عن شيء يعتلج بنفسها ، فخفق قلبي قلقاً وخوفاً ، ولكن لم يسعني أن اتجاهل مـا رأيت مفضلاً أن القى الخطر وجهاً لوجه على ان اضيف جديداً إلى ما اكتمه في نفسي من القلق والوسواس ، فسألتها : ماذا وراءك يا عزيزتي ؟

فلاح في وجههـــا التردد والضيق ولاذت بالصمت ، فتضاعف قلقي وقلت بفؤاد منقبض : هاتي ما عندك لا تخفي عني شيئاً ..

فنفخت قائلة : أمي .. ووقع قولها من نفسي موقع الفزع والهلع ، مـا بال هذه المرأة لا تريح ولا تستريح ؟! . ولشد ما أبغضتها في تلك اللحظة ، على انني تساءلت متظاهراً بقلة المبالاة :

– ما لها يا رباب ؟ فقالت بصوت منخفض وهي تنظر فيما بين قدميها :

– لا تفتأ تسألني هل جد جديد في الطريق ! ومن عجب اني فهمت المراد من هذا المجاز ! فهمته بغريزتي ، أو بالخوف الكامن في نفسي وبلا ادنى تردد ، ولكني تساءلت متجاهلاً : ماذا تعنين يا رباب ؟ فأومأت إلى بطنها وهمست قائلة : تعني هل جد جديد هنا؟! تولاني فزع شديد، فأطرقت مرتبكا محزونا، عم تسأل المرأة ؟.. لعلها تريـد ان تعرف شئونا أخرى ضمناً ، وحنقت عليها حنقاً فظيعاً . واختلست من رباب نظرة فوجدتها ساهمة الطرف . صامتة،.. أحقاً يضايقها تساؤل أمها أم هي تبلغني إياه وفي نفسها غرض !. أباتت بدورها تشارك أمها قلقها وجزعها ؟. ولماذا تتوارى خلف أمها ؟. ان المكر لا يجمل بمن كانت في مثـل جمالها وطهارتها ! وما كان أغناها عن اللف والدوران . هكذا حملني الفزع على عدم تقدير موقف فتاتي المظلومة . واشتد بي الحرج حتى

أرهقني وأعياني،ثم ركز اهتمامي في شيء واحد، وهو ان أسبر مدى ما تعرف نازلي هانم من اسرارنا ، فسألتها قائلا : وماذا قلت لها ؟. فقالت ببساطة :

قلت لها الحقيقة !. فتشنج قلبي تشنجة حادة وصحت بفزع : الحقيقة !.

فحدجتني بدهشة وتساءلت : مالك ؟! فهتفت في انزعاج :

– أحقاً قلت لها الحقيقة ؟!. فقالت بعجلة ولهوجة : أجل قلت لها انه لم يجد شيء بعد !. وتنفست الصعداء !. انها تعني حقيقة غير التي تشغل بالي . على انه بقي في النفس شيء . فقلت بحرارة : «رباب» أهذا كل ما قالت ؟. لا تخفي عني شيئاً وأنت قلبي وحياتي .

فقالت بارتباك وقد قرأت البراءة في عينيها : عم تتساءل يا كامل ؟، انني لم أقل لها كلمة واحدة زيادة عما قلت لك. لقد سألتني عن هذا الأمر فلم يسعني إلا أن أجيب بالحق والصدق ، وهو أمر كما تعلم لا ينفع فيه الكذب ، فهل تراني أخطأت ؟ أم كنت تريدني على ان أتظاهر بالحبل ؟.. فقلت في ارتياح نسبي :

– كلا يا عزيزتي ... لقد أحسنت بصراحتك .. لن أذوق طعم الأمان ما دامت هذه المرأة على مقربة منا . رباه ، اني احتضن همي وحدي لا صديق ولا مشير . ولقد ضقت ذرعاً بأمها وبأمي وبنفسي !. وعاودني السؤال القديم : هل ما ينقصنا ضروري للحياة الزوجية ؟. هل تجد حبيبتي مثل هـذا الاحساس الحيواني الذي دفعني إلى اعتناق العادة الآثمـة ؟!. أيمكن أن تعتري حبيبتي الطاهرة المحتشمة هذه الشهوة الوحشية ؟. ان هذا لأبغض مما أتصور !.

وانتهت اجازتي فعدت إلى ادارة المخازن بالوزارة ، واستقبلني الموظفون استقبالاً حافلا ، لم يكن لي بينهم صديق ، ولكن المناسبة – عودة عريس من شهر العسل – أنستهم تحفظهم فأقبلوا عـلي بين مهنيء ومداعب وتلقيتهم في صمت وارتباك وخجل، وتكلموا كثيراً، وتطوع أحدهم بتحذيري من الافراط، واستفاض الحديث حتى ألهام عني ، وخاضوا في طبيعة الرجل وطبيعة المرأة، واستشهدوا بالأمثال والحوادث والحكايات،انصت اليهم خفية وأنا اتظاهر بفحص الآلة الكاتبة ، بقلب مكتوم ونفس معذبة ، وكم تمنيت أن يستشهد أحدهم بحالة «كحالتي»،ولكن حالتي لم تقع لأحدهم في حسبان،وامتلأت نفسي بما سمعت حتى دارت بي الأرض،أن رباب امرأة فهل يصدق عليها ما يصدق على النساء ان صح

ما يقوله هؤلاء الموظفون أيمكن أن تضيق بحياتها أو تمل عشرتي؟ او لكنها سعيدة؟.. ما رأيت وجهها إلا متألقاً بنور السعادة، وما رنت عيناها إلي الا بالحب والاخلاص، ان وجهها لا يعرف الرياء، وانه لصفحة نقية ومرتاد طاهر لا يكتم كذباً ولا يداري اثماً. كذب هؤلاء الموظفون! انهم حيوانات فلا يرون الناس الا حيوانات مثلهم. بيد أنني غير مطمئن، ولن اذوق الطمأنينة مهما أقنعت نفسي بها، لقد نبت دمل الشك في نفسي ولن يزال يتورم وينضح قيحاً، وياله من يوم أسود يوم عدت إلى الوزارة. ولما خلوت إلى حبيبتي ذلك اليوم جعلت أنظر اليهـا طويلاً متفكراً دون أن انبس، حتى ضحكت وقالت لي: هل عاودك الحنين إلى النظر الصامت القديم؟. وهفت على فؤادي نسمة لطيفة من قديم الذكريات حين فؤادي مضطرم وأملي مشرق وهذه البلوى لا تدور لي في خلد. وتمليت الذكرى ملياً، ثم سألتها في اشفاق: رباب .. أأنت سعيدة؟.

فنظرت إلي باستغراب وقالت بصوت ينم عن الصدق: سعيدة جداً ..

فتساءلت وعيناي تطرفان من فرط الحياء: أتحبينني؟ وكانت على بعد شبر مني فتزحزحت حتى التصقت بي ورفعت إلي وجهها مورداً وغمغمت: أجل أحبك..

فأحطت خاصرتها بذراعي وقبلت شفتيها وخدها، وتناولت يدها الصغيرة الجميلة وجعلت أقبل أناملها أنملة أنملة في حنان وهيام، وكنت في الواقع أمهد بما قلت لما أرغب في الافصاح عنه مما ضقت بكتمانه، ولما هممت بالكلام خانتني شجاعتي وانعقد لساني. أردت أن ابثها همي، وان اعترف لها بأن ما يعتريني حيالها طارىء غريب لا أدري كنهه، وانني لم أكن كذلك بـــل انني لست كذلك إذا خلوت إلى نفسي، وأن أسألها المشورة والمعونة، هذا ما كنت أريد البوح به، ولكن خانتني العزيمة فنكصت مغلوباً على أمري. ثم سلمت بالهزيمة كعادتي، وجعلت أسوغها لنفسي قائلاً: ان البوح بهذه الاسرار حري بأن يسيء اليها ويغضبها، وربما قضى على سعادتها قضاء مبرماً .. وعندما آوينا الى الفراش حدثتني نفسي بأن أعاود التجربة، ولكنني ترددت وترددت طويلاً حتى تملكني الخوف فولى قلبي فراراً، لقد بت أخاف جسمها بقدر ما أحبها، وتأملت حياتي في صمت الليل وظلمته، فبدت لي غريبة متنافرة، وضاق صدري فلم أجـــد من متنفس له غير البكاء فبكيت طويلا ..

* * *

وخطر لي أن أستشير طبيباً ، وجـــاء الخاطر فجأة ، بل لعله كان محض مصادفة ، ولم أكن فكرت في استشارة طبيب لخجلي الشديد من ناحية ، ولاعتقادي بأن حالتي لا شأن لها بالطبيب من ناحية أخرى ، ولكن بصري قد وقع يوماً وأنا في طريقي الى الوزارة على لافتة كبيرة مثبتة على شرفة بشارع قصر العيني قد كتب عليها بالخط الكبير : « الدكتور امين رضا ، أخصائي في الأمراض التناسلية من جامعة دبلن » ولم أكن رأيتها من قبـــل ، فحدثتني نفسي فجأة باللجوء الى الطبيب. ومع ذلك لم أستسلم للفكرة بغير تردد ، ثار خجلي وخوفي ، وكادا يثنياني عما خطر لي ، ولكن تلهفي على النجاة كان أقوى من خجلي هذه المرة ، فصممت على الذهاب ذات مساء ، وذهبت..

كان الطبيب مشغولاً بفحص مريض. فجلست في حجرة الانتظار ، وكانت الحجرة خالية فداخلني ارتياح عميق ، وان شعرت بالاستهانة بالطبيب . ولم يطل بي الانتظار ، فدعيت بعد دقائق الى حجرة الكشف ووجدتها آية في فخامتها وأناقتها ، كاملة العدد ، وبهامن أدوات الرهبة ما رد إلي الهارب من ثقتي. وإلى يمين الداخل مباشرة جلس الطبيب الى مكتب كبير مزدحم بالكتب والكراسات. كان شاباً في الثلاثين على أكثر تقدير ، نحيف القوام ، طويل القامة ، مجعـــد الشعر ، ذا بشرة سمراء وقسمات دقيقة واضحة ، وعينين حادتين تلتمعان وراء نظارة أنيقة . وكان مما يلفت النظر اليه شارب كثيف فاحم غطى فمه وأكسبه وقاراً ليس من سنه ، حييته فرد تحيتي باقتضاب ، وحدجني بنظرة مستفهمة قرأت فيها الترفع والكبرياء ، وثقة بالنفس تبلغ حد الغرور ، فـــلم أرتح اليه . وكان منظره عامة مخيباً لأملي ، لأني توقعت أن أرى شيخاً مهيباً بساماً كطبيب ذهبت بي أمي اليه مرة منــــذ أعوام طوال ، فاستأت وودت لو لم أكن قدت نفسي الى هذا الشرك . وقال لي بهدوء : تفضل بالجلوس ...

فأذعنت وأنا أرمقه بقلق. وجعل ينظر إلي منتظراً أن أبدأ بالكلام. ولكن فكري تشتت وجف حلقي ولبثت ملازماً الصمت حتى قال متسائلاً: أفندم ؟!

فاستجمعت قواي ، ولكني لم أزد على أن قلت : جئت للكشف ...

فسألني بدهشة : ماذا تشكو على وجه التحديد ؟.

وعانيت عذاباً شديداً قبل أن أقول : إني رجل متزوج .. ثم سكت ، أو

بالأحرى انعقد لساني ، ولكني استثقلت السكوت ، على حين استحثني عينا الطبيب الحادتان فاعترفت بكل شيء !.. تكلمت بادىء الأمر باضطراب وتعثر، ثم تشجعت بما لاح في وجهه من إمارات الجـــد والرزانة فتدفقت بلا توقف ، وشعرت كأنما القيت عن عاتقي حملاً ثقيلا ، وكأنما بات هو المسؤول من الان فصاعداً عن الشفاء الذي نغص عليّ صفوي . وسألني الطبيب : متى تزوجت ؟.

فقلت : منذ قرابة شهر ونصف .

– متى وجدت هذه الحال ؟. فقلت بامتعاض : من أول ليلة .

– هل انتابتك قبل الزواج ؟ – لم يكن لي تجارب مطلقاً..

وسألني عـن الأخرى فترددت لحظة ثم أجبت بالصدق . وسألني عن بعض التفصيلات فأجبته صراحة ، ولم أخف عنه افراطي المخيف . وعاد يسألني :

– ألم تمارس عادتك بعد الزواج ؟. واعجبت به لسؤاله الذي بدا لي فراسة ثاقبة فقلت : بلى .. فقال متفكراً : كأن طبيعتك لا تتغير الا حيال زوجك .

فقلت بحيرة واسى : أجل .. فسكت ملياً ثم قال : سأطرح عليك أسئلة صريحة وأرجو أن تجيبني بالصدق . هل تحب زوجك ؟ – جداً ..

– أبها شذوذ من أي نوع كان ، أو برودة في الطبـع ؟ أبداً ..

– هل نشأتما نشأة واحدة منذ الصغر ؟ – انها ليست من ذوات قرباي..

والقى عليّ بعد ذلك أسئلة استفظعتها، ولكن لم يكن بي شي منها ، فأجبته بصدق وصراحة . ونهض قائماً ، ثم اجرى علي فحصه في أناة وعناية ، فاحتملته بقلب واجف ونفس يصطرع بهـا الأمل واليأس . وعدنا إلى جلستنا السابقة ، فراح يقيد في كراسة ما يعن له ثم اعتدل في جلسته وقال لي :

– جسمك سليم . أجل انك اسأت إلى نفسك بعادتك المرذولة فتركت بك أثراً يحتاج لغسيل خاص ، ولكن لا علاقة لحالتك الأخرى بهـــذا فيما اعتقد ، فليس عجزك بناشيء عن سبب فيزيقي ، ولعلك تعاني أزمة نفسية ، أليس في بلادكم عيادات نفسية ؟.

فلم أفقه معنى للشطر الأخير من كلامه ، وعجبت لقوله «بلادكم» كأنه أجنبي عن هذه البلاد . وقلت له بدهشة : انت أعلم مني بما تسأل عنه يا دكتور !.

فقال مبتسماً: الحق اني حديث عهد بالوطن، ولم أفتح عيادتي هذه إلا منذ أيام.

فأدركت لماذا وجدت عيادته مقفرة ، ولماذا لم أر لافتته من قبل . بيد أنني بت أدرك كذلك أن هذه المرحلة التي ابتليت بها قد انتهت إلى لا شيء، فعاودني القنوط والكمد . واستطرد هو قائلا :

– ليس بك من نقص مطلقاً ، وإنك تستطيع أن تقوم بالواجبات الزوجية وستقوم بها يوماً ما فلا تدع لليأس سبيلا الى نفسك. كثيراً ما يحدث هذا لبعض الشبان ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية بعد فترات متفاوتة، فانتظر يومك بثقة لا شك فيها. وأنصحك أن تمر علي للغسيل حتى تزول حالة الاحتقان الخفيفة .

أصغيت اليه باهتمام وبكل جوارحي، وتنازعني اليأس والأمل بعنف وقسوة. متى يأتي هذا اليوم ! وهل يأتي حقاً ! انتهى الطبيب من عمله وقوله ، ولكنني لم أبد حراكاً وظللت متشبثاً بمكاني ، وثبتت عيناي عليه في استغاثة وضراعة . ثم سألت : ماذا عنيت بالعيادات النفسية ؟.

– أوه .. انها عيادات من نوع حديث ولا أحسبها توجد في بلادنا . ولكن لا تلق بالا لما قلت ، ولا أظنك في حاجة اليها .. فقلت باهتمام وتشبث :

– قلت انني ربما كنت أعاني أزمة نفسية . فما معنى هذا ؟! قلت لك لا تلق بالا لما قلت . قد غاليت في تقديري ، ولست على أي حال طبيباً نفسانياً فلا أخوض بك أموراً عسى أن تضر أكثر مما تنفع . ان علاجك بيدك فلا تيأس ولا تفقد ثقتك بنفسك وأقهر الخوف والقلق ، وانتظر الشفاء بثقة لا شك فيها ..

وسألته سؤالاً اخيراً : أرأيك هذا حاسم لا شك فيه ؟

فأجابني بثقة : أجل .. وغادرت العيادة خيراً مما دخلتها . عدت وبي أمل ورجاء . وقلت لنفسي : ان الطبيب لا يكذب ولا يخطيء فأستخفني السرور وقطعت الطريق إلى البيت مشياً على الاقدام . ومررت في طريقي بالعمارة التي تقطنها أسرة زوجي ، عمارة الذكريات ، فحلق بي الخيال بعيداً ، وعلى حين فجأة فتر حماسي واستحوذ علي القلق ، لم ألبث أن انقلبت إلى التهجم. بيد ان انني رحت أردد على مسمعي ما أكده لي الطبيب متلمساً الثقة بأي سبيل .

* * *

وبالرغم من قلقي الدائم كنت أعلل النفس بالشفاء . وواصلنا حياتنا البريئة يحدوني هذا الأمل . وكنت أسترق اليها النظر إذا اشتد بي القلق وأسائل نفسي ترى أهي سعيدة حقاً كما تبدو لي ؟.. أما تزال تحبني ؟ أمـــا هي فكانت تبدو سعيدة راضية ، محبة مخلصة ، ولم تعد الى ذكر أمها ، فلم أدر ان كانت المرأة انقطعت عن تساؤلها أم كانت حبيبتي تخفي عني ما يدور بينهما من حديث. لشد ما أحبها يا ربي. إن امتزاجنا في حياة واحدة لم يذهب عني سحرها، بل أسكنها أعمق مكان في قلبي . وإني لأهيم بهـا وهي لصقي على المقعد أو الفراش كما كنت أهيم بها وهي تلوح في الشرفة أو وراء زجاج النافذة . وانه لمن التعاسة حقاً أن ينغص علي سوء الحظ تلك الأيام الحافلة بأشهى فرص السعادة والهناء .

وكأن سوء الحظ لم يقنع بما رماني به في نفسي ، فرماني بأمي أيضاً ...

وأمي على تأدبها لم تكن لتفلح أبداً في مداراة عواطفها ، فإن لم يخنها لسانها خانتها عيناها ، وإن لم تخنها عيناها نمت عليها ما التزمت من حال غريبة سلبية . انطوت على نفسها ، وجعلت من حجرتها سجناً لا تكاد تغادره ، وكأنما فرغت للعبادة والصلاة ، ولم تخف على رباب هذه الجفوة الطويلة ، وكانت على دماثتها ورقتها تنقلب حيال أمي كأية امرأة من النساء انفعالاً وغضباً ، فكانت لا تفتأ تقول لي : « لشد ما تكرهني أمك » . ولم تقبل أمي أن تغير من سلوكها، معتلة بأنها لم تعد صالحة للمجاملة والاختلاط . وكنت اذا ذهبت للجلوس معها تلقتني برقة وابتسام ، وحدثتني بخضوع واستسلام ، فسرعان ما أشعر بغرابة الجو ، وبأن حجاباً ثقيلاً يقوم بين نفسينا ، وبأني حيال شخص آخر غـــير الأم التي عرفتها طوال تلك الأعوام . وما أكاد أفاتحها بأن زوجي تضيق بتحفظها حتى تقول لي بحدة : « ان زوجك تكرهني ، هذا كل ما هنالك » . وكنت أتجلد وأتصبر والألم يمض نفسي والكآبة تغشى روحي ..

وذهبت مرة الى أختي راضية لقضاء يومين ، وكأن المكان أعجبهـا فمكثت اليوم الثالث وأوشكت أن يلحق بها اليوم الرابع . كانت أول أيام نفترقهـا في حياتنا المشتركة ، فثقل على قلبي فراقها ، ووجد وحشة لا تطاق في خلو البيت منها ، وذهبت إلى شقيقتي لأعود بها فلم تخيب رجائي وعدنا معاً .

وقلت لها في الطريق متودداً : لم أحتمل البيت بغير وجودك ..

فافتر ثغرها عن ابتسامة صافية ، وكانت تتأثر بالكلمة الطيبة تأثر الأطفال ولكنها قالت لي : يخيل إلي أن وجودي في بيتك لا معنى له ، وأنه يضايقكم .

فأحنقني قولها ، وقلت باستياء : سامحك الله على ما ترميننا من تهمة باطلة . لقدَ تغيرت يا نينة بلا موجب فتغيرت الحقائق في نظرك ، ولا يسعني إلا أن أقول مرة أخرى سامحك الله .

فنظرت نحوي بغرابة وقالت بهدوء ويقين:

– ان زوجك تكرهني ، وبالتالي فهي لا تود بقائي في البيت ، وقد ظننت أن ما توده زوجك ينبغي أن توده أنت .

وشعرت بأنها لا تترفق بي متعمدة فكاد ينفجر غضبي لولا رغبتي الصادقة في المسالمة والمصالحة ، فكظمت نفسي وقلت واجماً :

– إن زوجي لا تكرهك ، وهي على العكس من هـذا تظن أنها موضع كرهك لما تبدين نحوها من تحفظ وجفاء ومقاطعة . حرام عليك أن تقولي قولاً ينغص عليّ حياتي ..

فبدا على وجهها الارتباك ولم تنبس بكلمة. رباه .. لشد مـا تغيرت !.. ألا يمكن أن تمنحني ابتسامتها المشرقة بدلاً من هـذه الابتسامة الباهتة ؟.. ألا تعود إلى فتح صدرها لي في ثقة وطمأنينة ؟.. ترى هل ينبغي أن أكاشفها بآلامي لتعلم بأنني لم أتزوج في الواقع وانني أشقى انسان في الوجود فتصفح عني وتعود الى سابق عهدها ؟..

ورجعت من الوزارة يوماً فوجدت زوجي باكية ، فهالني الأمر ، وأقبلت نحوها في جزع وألم وانزعاج . وكانت صباح حاضرة فأخبرتني انها – صباح – كانت تباشر عملها في المطبخ حين دخلت عليها أمي وجرحتها بانتقـاد مر ، فتدخلت زوجي لتصلح الأمر فما كان من أمي إلا أن رمتها بكلام قارص غادرت المكان على اثره باكية .. وذهبت من فوري الى حجرة أمي ثائر الاعصاب ، فما روعني إلا أن أجدها محمرة العينين من البكاء . ولمحت عبوس وجهي فهتفت في توجع : هل أرسلتك لتؤدبني !..

فرفعت رأسي الى السماء وقلت من الأعماق : « يا رب السماء خذني وأرحني من الدنيا ومن عليها » . ولكنها صاحت بي :

– بل يأخذني أنا، إني عجوز لا خير فيها. أما كان يجمل بزوجك أن تؤجل شكواها حتى تخلع ثيابك وتأكل لقمتك ؟.. ولكن هيهات أن تذعن لغير عنادها وتجبرها. فقلت في استياء وغيظ : إنها تبكي بكاء مراً ..

فصاحت بي وكأنها فقدت أعصابها : لقد سبتني وشتمتني حتى شبعت ، وها هي تستقبلك بدموعها الكاذبة لتوغر صدرك وقد أفلحت ..

ما أضيع الحق بين النساء ! لقد أعياني ! الكلام والنضال ولم أنته الى شيء. وأعجزني أن أصلح بينهما فنكد عيشنا طويلاً وساد البيت جو خصام.. وكففت يدي يائساً تاركاً للأيام أن توفق بأناتها فيما أخفقت فيه .

وبدأت أشعر في حياتي الزوجية بفراغ ! ولم يداخلني شك في أن زوجتي تشاركني هذا الشعور . ولم يعد الليل وحده الذي يثقل على أعصابنا ، فما كان انفرادنا الطويل نهاراً مما يكن ان نطيقه على وتيرة واحدة إلى الأبد . لذلك اقترحت عليها ان نقتل الوقت بأسباب التسلية حتى يحين موعد افتتاح الدراسة وتجد ما يشغلها . وتقبلت اقتراحي بسرور ودعتني لزيارة آلهـا الكثيرين ، فتنقلنا من بيت لبيت ، وزارونا بدورهم ، ثم اقترحت على ان نذهب إلى السينما يومين في الأسبوع فقبلت ، ولا أدري ان كنت أروم التسلية حقاً أم أهرب من حياتي الضائعة !. ووجدت في السينما راحة وان كنت بطبعي أوثر الوحدة والعزلة ، ولكنني ضقت علي عجل بالزيارات التي افقد فيها نفسي وأقع فريسة للحياء والارتباك والعيّ والحصر ، وما لبثت ان تخلفت عنهـا تاركاً زوجي وحدها تقوم بها .

وكان بوسعي ان احملها على العدول عنها اسوة بي ، ولكنني لم ارد اناحرمها سبباً من أسباب التسلية وتزجية الفراغ ، ولعلني بت أخاف في اعماقي انتضيق بالوقت كما أضيق به . كنت أود بكل قلبي ان أهيىء لها جميع أسباب الراحة والسرور ، وما كنت أتردد لحظة عن بذل جميع ما أملك في سبيل مرضاتها ، لقد صارت رباب كل شيء ، ولم اعد شيئاً مذكوراً .

ولكن بدا لي ان امي لا ترتاح لحياتنا هذه . وقد قالت لي يوماً :

– لا يجمل بك ان تسمح لزوجك بقضاء كل هذا الوقت خارج البيت ..

وضاق صدري بملاحظاتها فقلت باقتضاب : أنسيت أن زوجي موظفة ؟

فقالت بلهجتها الانتقادية : وإن كانت ...

وأشفقت من ان يتأدى بنا الجدل الى ما لا تحمد عقباه فقلت برجاء :

– إنسيها يا أماه تستريحي وتريحي !. فغلبها الانفعال وقالت :

– لو كنت لسان دفاع لي كما انت لها لما احتقرتني وسبتني..

ولذت بالصمت لعلها تمسك ، ولكنها استطردت تقول :

– انها تتيه بلا موجب ، فكيف لو كانت أماً ! !

فقاطعتها صائحاً كالوحش وقد هوى كلامها على رأسي كالمطرقة :

– اسكتي .. لا تنبسي بكلمة اخرى .

وحدجتني بارتياع دون ان تنبس ، ثم أطرقت . ولكني لم أرث لها ولم أرحمها إذ افقدني الغضب والألم وعيي . وحـــدث عقب ذلك بأيام أن شعرت بتعب ألزمها الفراش ، وقال لنا الطبيب الذي استدعيناه انه القلب ، ونصحها باتباع إرشاداته دوماً لتتفادى من النوبات في المستقبل .

وطال رقادها بالرغم من ان الطبيب اكد لنا عدم خطورة الحـال ، ولكن بدا لي انها تعين المرض على نفسها، وان روحها توشك ان تنهار. ووقع في نفسي اني المسئول عن مرضها فعانيت مرارة التأنيب والندم في حزن وصمت ، وكأنما أردت ان اكفر عن ذنبي فسهرت بنفسي على رعايتها وتعاهدتها بالخدمة والدواء ولم تأل رباب في القيام بواجبها . لقد آلمتني حقاً ولكن عن حسن نيـة ، اما أنا فقـد آلمتها عامداً تحت تأثير غضب مخيف . ومرت بي أيام قاسية مظلمة ، كنت أرنو الى وجهها الذابل الشاحب بفؤاد كسير ، وراحتها بين يدي، ولساني يلهج بالدعاء . وكانت متعبة خابية ، ولكن قرأت في عينيهـــا نظرة راضية سعيدة ، كأنما نسيت بعطفي وحبي جميع آلامها .

* * *

وحل الخريف بجوه اللطيف وسحابه الرقيق ، واستقبلت المدارس عامـــاً جديداً ، وكنت وزوجي نخرج معاً في الصباح ، ونستقل تراماً واحداً .وكانت الذكريات تنثال على قلبي في وجد وحزن ، حتى قلت لها مرة :

– في مثل هي الأيام كنت اهرع إلى المحطة اكاد اموت شوقاً إلى اجتلاء محياك.

فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت : وكنت انتظرك بمثل هذا الشوق ..

لله محبوبتي !.. ما وجدت مثلها محبة راضية مسرورة. كانت حبيبتي سعيدة مخلصة في غير ما تكلف أو رياء . أكانت تجد آلاماً ثم تتغلب عليها بما طبعت عليه من مودة وطهر ؟.. ومن ادراني بما كان يعتلج في اعماق صدرها ؟ وما كان يدور في خاطرها عني وعن حياتها ؟. ولكنها كانت سعيدة صادقة محبة وهل من داع يدعوها إلى ذاك التظاهر المتواصل بالسعادة إذا كانت تعيسة أو كارهة بيد انه لم يداخلني شك كذلك في نضج انوثتها وعمق عواطفها . كانت أبعد ما تكون عن النزق والطيش ، ولكنها كانت عامرة القلب بالحيوية والحرارة والعطف . لعلها كانت تحيا حياة يحدوها الأمل نفسه الذي أتطلّع اليه صابراً متصبراً. على ان الحق الذي لا مرية فيه انني كنت مشغولاً بهمومي على حال لم تدع لي إلا قليلاً للانشغال بهموم غيري. وبما رجع ذلك قبل كل شيء إلى انانيتي الفطرية ، وكان لجهلي كذلك نصيبه . ولعلي كنت أحسب انني الضحيـــة الأولى -- ان لم تكن الوحيدة -- في تلك المأساة .

وفي اوائل ذلك الخريف دعانا جبر بك ونازلي هانم إلى وليمة غداء اقاماها للأهل والأقارب لمناسبة شفاء محمد -- شقيق زوجي -- من مرض ألم به .

وذهبت وزوجي على حين تخلفت أمي معتذرة بالنظام الجديد الذي تتبعه في غذائها منذ اشار عليها الطبيب بذلك . مضيت مرتبكاً كالعادة ، لأن وليمة غداء أشد على نفسي من المرض ، ولأنها -- هي وأمثالها من المجتمعات -- تعيد إلى ذهني ذكرى منصة الخطابة بكلية الحقوق . وقد تعمدت ان نذهب مبكرين لنسبق المدعوين جميعاً فلا أتعرض لنظرات اعينهم حين دخولي حجرة الاستقبال. ونجحت خطتي فوجدنا البيت قاصراً على أهله . هم أهلي أيضاً . واني لأحبهم جميعاً وان بت اخاف نازلي هانم خوفاً شديداً يثير في نفسي اشد الألم . واخذ المدعوون يتوافدون . فجاء أعمـــام رباب الثلاثة واخوالها الأربعة مصحوبين بزوجاتهم وابنائهم وحضرت كذلك خالتاها ، واحـــدة مصطحبة زوجها ، والأخرى -- وهي ارملة -- برفقة كبرى بناتها . ومضت نازلي هانم لتستقبل قادماً جديداً فسمعتها تقول له : « لماذا تأخرت يا سي أمين ؟ » فرد القادم عليهـــا معتذراً بصوت خيل إلي اني سمعته قبل ذلك ، فتطلعت إلى الباب باهتمام. ودخل المدعو الجديد فعرفته من أول نظرة . رأيت امامي ذلك الدكتور الذي زرته منـــذ

شهرين وبحت له بسر شقائي كله ، ثبتت عيناي عليه في ارتياع بادىء الأمر ، ثم تمالكت نفسي بسرعة وقوة ، واني على اخفاء ما يعتلج بصدري لقادر ، ولكني لم أجد حيلة مع قلبي الذي راح يدق بعنف تباعاً . تملكني الهلع وخجل قاتل ، وثقل على صدري ضيق غليظ كأنما هويت إلى اعماق بئر سحيقة . وإذا بنازلي هانم تقدمني له ، ثم تقدمه لي قائلة :

– هذا قريب لم تسعدنا الظروف بتقديه اليك ، لأنه عاد من اوروبا حديثاً ولأنه يندر أن يتفضل علينا بزيارة الدكتور امين رضا ابن بنت عمتي .

وتصافحنا كالمألوف . التقت عينانا لحظة قصيرة ، فلم اقرأ في عينيه الا نظرة ترحيب باسمة ، لم تش عيناه بأنه تذكرني ، وظل ملازماً سمته المترفع المتحصن ضد الانفعالات . ولما انتهى من مصافحة الجالسين ، جلس إلى جوار جبر بك وراحا يتحدثان ، وتهت انا في افكاري الفزعة الشاردة ، ترى هل تذكرني !.. لعله نسيني شأن الأطباء الذين يلقون وجوها بعدد الدقائق !. ولكنه طبيب جديد قليل الرواد !. ومع ذلك فلم يبد في عينيه انه عرفني على الاطلاق .. أم يكون عرفني وتجاهلني رأفة بي !. ليتني أجد وسيلة للتحقق من هذه النقطة !. وهبه عرفني فهل يمكن أن يبوح بسري لقريبته نازلي هانم .. ما ابعد هذا عن التصور ، ولكن ما أبعدني عن الطمأنينة كذلك !. وجدتني غريقاً في بحر لجي من الوساوس والمخاوف فهل كنت في حاجة إلى مزيد !..

ودعينا إلى الطعام فخرجت من أفكاري وان علقت بي آثارها ، كالخارج من نار . وجلسنا حول المائدة ، وعند ذلك التفتت نازلي هانم وقالت مبتسمة :

– أنت خجول يا سي كامل ولكن حذار فالولائم لا ترحم الخجولين .

وعلق بعضهم على قولها فسخطت عليها واشتد بي الضيق ، على انهم لم يلبثوا أن شغلوا عني بما بين أيديهم من لذيذ المآكل . ولم أكد أشعر بالارتباك الذي يركبني في أمثال هذه المجتمعات لشرود ذهني فيما هو أجل وأخطر ، فلا يفل الارتباك إلا الارتباك !. ثم عدنا إلى حجرة الاستقبال ودارت علينا القهوة . وتناولت الفنجان، وقربته إلى فمي، وعلى حين بغتة طار خيالي إلى الحانة القديمة بشارع الألفي وتراءى لعيني قدح الخمر !.. كيف جاءتني هذه الذكرى ، ما الباعث عليها ؟.. لقد وجدت دهشة صادقة ، ولكني شعرت كذلك بارتياح

عجيب ، كسرور الحبيب بالحبيب . الخمر .. النشوة ... السرور .. ألا ما أشد حاجتي إلى مهرب. كان خاطراً مفاجئاً غريباً ولكنه كان قوياً لا يقاوم.. وعدت بانتباهي إلى ما حولي في حذر وخوف . واتجهت عيناي إلى الطبيب فوجدته منهمكاً في الحديث ، يلقي أقواله بثقة وفصاحة وترفع ، وكثير من الحاضرين يتوثبون للنقاش في اهتمام وسرور. وجر الحديث إلى الحياة في بلاد الانجليز فقال الدكتور : ان دراسته شغلت جل وقته فلم يتمتع بحياته هناك كسائح إلا فيما ندر ، على أنه استطاع رغم ذلك أن يخبر عن كثب متانة الأسس التي ينهض عليها بنيان الحياة السياسية ، وما يتمتع به الشعب من مستوى عال للمعيشة ، وحرية شاملة تتناول كل شيء ، قال له جبر بك : كأنك واظبت في انجلترا على الاهتمام بما كنت تهتم به في مصر قبل بعثتك . وقال أحد المدعوين ضاحكاً :

– أجل يا جبر بك ، ذكره بعهد كلية الطب والثورة الوطنية . وقال آخر:

– من كان يظن انه سينتهي بك المطاف إلى بلاد العـدو وانك ستعود منها حاملاً له هـــذا الاعجاب كله ؟. فقال الدكتور مبتسماً : العداوة لا تناقض الاعجاب .. فعاد جبر بك يسأله : ألم تزل كما كنت ، وفـديا متطرفا ؟.. لقد سجنت يوماً بسبب الوفد !.

فقال الشاب وقد مط بوزه برما: أرى الآن المصريين جميعاً يعيشون في سجن كبير ، والحق يا سيدي أن الأخبار الوحيدة التي كانت تسوؤنا ونحن في انجلترا هي أخبار مصر.. وقالت نازلي هانم مبتسمة: انك مغرم بتحميل نفسك الهموم على اختلافها كأنك المسئول عن الدنيا ومن عليها . ركز اهتمامك في عيادتك وحياتك ومسألة زواجك على وجه الخصوص ، ألا ترى انك في الثلاثين وهي سن فاصلة؟!. وهنا قالت احدى خالتي رباب: اطمئني يا أختي فلعلك أن تسمعي أخباراً سارة قبل استدارة هذا العام . ودار الحديث حول كريمة أحد كبار الأطباء .. وقالت لي رباب همساً – وكانت تجلس إلى جانبي – ان هذه الفتاة التي يتحدثون عنها حسناء مفرطة في الحسن والوريثة المنتظرة لثروة طائلة، وانها زاملتها عهداً في الدراسة . والظاهر أن أحـــد أخوال رباب كان ممن تجذبهم أحاديث السياسة ، فما كاد حديث الزواج ينتهي حتى قال مخاطباً الدكتور :

– لا داعي للتشاؤم فكل شيء مصيره إلى الصلاح وان طال الزمن . وما

نحن على أبواب انتخابات جديدة ، ولعل الرياح أن تهب هونا ورخاء .

فاشتدت عينا الدكتور بريقا وقال بحدة : من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة ، ذلك أن الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئاً ذا بال في حدود الأوضاع القائمة ، فالخير أن تستبد الحكومة الفاسدة حتى تعجل بالنهاية.. النهاية المحتومة !. فضحك جبر بك وقال : ما زلت ساخطاً متبرما. ألا تجد في مصر ما يستحق اعجابك وتقديرك؟. فأدار الدكتور عينيه البراقتين في الحاضرين وقال مبتسماً : بلى .. أم كلثوم ..

وضجوا جميعاً بالضحك . وجعلت أصغي إليه باهتمام واستغراب ، ولكنني لم أكد أفقه معنى لما يقول . وعجبت لمن يشغلون أنفسهم بهذه الأمور وامثالها ، أليس في حياتهم هموم تشغلهم عنها ؟ وتمثـل لي في حديثه رجل علم ورأي وثورة ، بادي الغرور والعجرفة . وكم كانت دهشتي كبيرة حين ذكر أم كلثوم كالشيء الوحيد الذي يستحق اعجابه في البلد ، وتساءلت في حيرة : أيعشق الغناء حقاً من كان ذا جد وصرامة وحدة كهذا الدكتور المجنون ؟!. ولما كنت أحب الغناء فقد ارتحت لهذه المشاركة الوجدانية ، بعد ان أعياني أن اجد صلة شبه بيني وبينه اوكان الدكتور اول المنصرفين،فقام الحاضرون جميعاً لمصافحته، وصافحته بدوري وانا اتفحص عينيه بخوف واهتمام فلم اجد فيما وراء نظرتها المترفعة ما يريبني.ثم غادرنا نحن البيت في نحو الخامسة . عدنا مشياً على الاقدام ولم تكف حبيبتي على التعليق على المأدبة والمدعوين طوال الطريق ولكنني لم استطع ان القي اليها انتباهي ، واستسلمت لتيار افكاري الزاخر المضطرب ، كيف القي الحظ العاثر في طريقي بهذا الدكتور المجنون ؟ وكيف قادني القدر إلى الاعتراف له بسري الذي اخاف عليه آذان الحيطان !.

* * *

أوصلت رباب إلى باب العمارة ثم عدت ادراجي إلى المحطة معتذراً ببعض اعمال خيالية !. استقللت الترام إلى العتبة ، ثم مضيت إلى شارع الألفي بك . كان قلبي يخفق في خوف ورهبة كما خفق أول مرة حملتني قدماي إلى هـذا الشارع ، وتراءى لعيني خيال الكأس مفترة الثغر عـن اغراء عنيف . كنت نسيتها فلم تخطر لي على بال منذ بلغ قلبي مناه حتى رأيتها اليوم في فنجان

القهوة فحرك اعماق الفؤاد . امي + زوجي + الدكتور امين رضا = الخمر، هذه هي المعادلة التي استقرت في نفسي . على انني ترددت حين اصبحت من حانتي القديمة على قيد خطوة ، وتساءلت في حزن وقلق إلا يعد اقدامي هذا خيانة لزوجي ؟. ولكني انكرت على نفسي هذا المنطق الغريب وشققت طريقي إلى الداخل . وتراءى لي فجأة خيال أبي ، وانثالت على ذهني صور من ذكرياته ، فاستعرضتها في هدوء ، وفي غير ما شماتة او كراهية ، ثم جلست إلى المائدة وانا اغمغم : « رحمه الله وغفر له» . وجاء النادل مسرعاً فحياني وهو يقول لي :

– اين كنت من زمان ؟ فأجبته مبتسماً وقد سررت لتحيته : الدنيا ..

ثم اريته خاتم الزواج فقال : مبارك .. مبارك .. وهل أنجبت طفلاً ؟

وشعرت بامتعاض وألم ، وهززت رأسي سلباً ، ثم طلبت كأساً من الكونياك وشربت في اعتدال ، حتى شعرت بدبيب النشوة في القلب والرأس ، وارتسمت على فمي ابتسامة سخرت من جميع آلامي فقلت لنفسي: « أهلاً وسهلاً ومرحبا » وحرصت على ألا اجاوز الحد ، ثم غادرت الحانة زهاء السابعة ، ولم اكد انتهي إلى شارع عماد الدين حتى تذكرت حانة سوق الخضر !. وكان رأسي بحالة تستهين بالعقبات فتساءلت في شبه تأنيب: أأنسى في رغدي الحانة التي آوتني في فقري؟ واوقفت تاكسي وركبته وانطلق بي إلى حـــانة الموظفين المفلسين والحوذية . ووجدتها في حالة غناء وعربدة كما توقعت . وكان الموظف العجوز يغني « يا ما بكره نعرف » فيردد الجميع« وبعده نشوف » ،ولما لمحني قادماً توقف عن الغناء وصاح : هس يا اولاد الحلال . وعرفني الرفاق القدماء فتصافحنا في حرارة ، ومـــا كدت اطمئن إلى مقعدي حتى سألني العجوز متغنياً : كنت فين يا حلو غايب ؟ فقهقهت ضاحكاً وقلت : الدنيا .. فقال أحد الصحاب : فلنلعن الدنيا التي ترغم الحبيب على نسيان احبابه .. فلعنتها معهم عن طيب خاطر . وحدث أن رأى احدهم خاتم الزواج في اصبعي فهتف: دخلت دنيا يا بطل.. وكان لاعلان الخبر أثر شامل فسألني الموظف الفنان : كيف وجدت هذه الدنيا؟. وأفزعني تحول الحديث إلى هذا الموضوع الخطير ، ولكني لم أجد بدأ من ان اقول :

– حلوة !.. ألست متزوجاً يا سيدي ؟. فضحك الرجل حتى بانت أسنانه المترمة وقال: المرأة إذا جاوزت الشباب لم تعد امرأة .. فقال آخر مؤمنا على قوله:

- صدقت . المرأة أقصر المخلوقات عمراً وان هرمت .. هرمت ...

وقال غيره : ان زوجي تدبر لي شجاراً نظير كل سهرة في الحانة ، وقد قلت لها : اني على أهبة الاستعداد لأن أهجر الحانة تحت شرط واحد وهو أن تهجر هي الدنيا ! بدوا جميعاً ساخطين على حياتهم فداخلني عزاء لم أجده من قبل ، وعجبت لهذه الأسباب الغريبة التي تؤاخي بين السكيرين . ثم لاحظت تغيب «فران» شريب اشتهر بيننا بادمانه وصمته. فسألت عنه ؟ فأجابني العجوز الفنان:

- لم تعد الخمر لتؤثر فيه ، فهو يمضي مساء كل يوم إلى البدال ويشرب كحولا صرفاً .. وواصلوا ما انقطع من الغناء ، ورحت أشرب كالأيام الماضية . ما أعجب قدرتي على الشرب ! . اني ضعيف رعديد حيال كل أمر ، ولا ثقة لي في عقلي ولا في قلبي . اما معدتي فقادرة على ابتلاع حانة ! . وغادرت الحانة في العاشرة مودعاً بأطيب التحيات ، وتنقلت من طريق لطريق لا تسعني الأرض من فرط النشوة والسلطنة ، ثم هفا على قلبي طيف حبيبتي فتخيلتها بعين السكران: وقد طال بها انتظاري فاستسلمت للرقاد ، فانتشت نشوتي : وخفق فؤادي خفقان الوله ، وهتفت بنفسي الأشواق ، وبحثت عيناي الزائغتان عن تاكسي ثم مضيت اليه لا ألوي على شيء وطلبت إلى السائق ان يسرع بأقصى ما لديه من سرعة ، فطار بي يطوي الأرض طياً ، وغادرته عند العمارة ، وارتقيت السلم في عجلة ، ثم دخلت الشقة وسرت إلى حجرتي بلا تردد ، وادرت مفتاح الكهرباء فوقع بصري على حبيبتي وقد استغرقت في نوم هادىء . وقد تحرك رأسها لدى سطوع وغمغمت « من ؟ » ثم واصلت نومها دون ان تستيقظ . وخلعت ملابسي في عجلة واضطراب ويداي ترتعشان ، وأنفاسي تتردد في دهشة وسرور وجزع ، وهرعت الى الفراش ، واندسست تحت الغطاء ، ثم ضممتها الى صدري ووضعت شفتي على شفتيها حتى فتحت عينيها ، وأمطرتها قبلاً بنهم ورغبة وسرور حتى أفاقت وبادلتني القبل ، وبدا ما بيننا كأنه حلم سعيد يضن به المنام ، حلم لا يصدق بيد انه كان حلماً قصيراً لم يستغرق ثانيتين من الدقيقة. وأفقت من سحره في طمأنينة وسلام ، وبي من السعادة نشوة أضعاف ما بي من الخمر ، واضطجعت في حبور ، وأغمضت جفني مستسلماً لأمتع الخواطر والأحلام . على ان أحلامي لم تنسج

وشيها هذه المرة من مادة الخيال ، ولكنها استمدته من الواقع ،من صميم حياتي وألذ العيش ما كان حلمه السعيد صدى للواقع الراهن ! لقد تلقيت السعادة بامتنان العابد ، وأيقنت ان همومي قد انجلت إلى الأبد ، وفي صباح اليوم التالي جعلت أرنو الى حبيبتي بثقة وسرور ، وشعرت حقاً بأني زوج ، وبأني رجل . ولم تزايلني أحاسيس السعادة والفخار طوال اليوم ، وعندما أتى المساء ذهبت إلى شارع الالفي بك ، ثم عدت إلى حبيبتي طائراً على جناحي نشوتي ، وعللت من الكأس المترعة ، بالسرور نفسه والسرعة نفسها ، ثم اضطجعت ضجعة المطمئن ، ما كان لمثلي أن ينسى ما تجرع منغصص العذاب ، ولكن السعادة الحقة تستثير عطفنا حتى على ذكريات العذاب .

* * *

وتقضت اسابيع – لعلها لم تجاوز الشهرين – في سعادة وطمأنينة . واني إذ اعود إلى ذكرى تلك الأيام يمضني شعور بالألم والأسى ، لا حسرة على سعادة ذهبت ، ولكن أسفا على اكبر خدعة ابتليت بها في حياتي . لم يكن هنالك ما يستوجب سعادة على الاطلاق . وإذا كنت قد تمتعت بالسعادة زمناً رغداً ، فما ذلك إلا لأني كنت غراً جاهلاً أعمى . ومـا من بأس أن يتمتع الأعمى بسعادة وهمية على شرط ان يواصل عماه ، أمـا إذا رد اليه البصر ورأى سعادته سراباً فهل يجني من ذكريات سعادته إلا حسرة مضاعفة وهما مقيما ؟! وهذه هي حالي بلا زيادة ولا نقصان ، وما فطنت اليها إلا في بطء شديد يوافق جهلي وبلادتي .

لاحظت ان « رباب » تمضي النهار كله وشطراً من الليل خارج البيت ، بين مدرستها وبيوت أهلها واقاربها ، وقد رافقتها بادىء الأمر رغم طبعي النفور ، ثم شق علي الأمر فنكصت على عقبي ، ولم أعد اصحبها إلا فيا ندر منالزيارات. وعادت أمي تعلن عن ملاحظاتها فيمرارة وأسى وأنا ادافع عن زوجي بلا فتور وأن تجاوب لانتقادها في نفسي صدق عميق ، وكنت فيا مضى اشجع زوجي على هذه الزيارات لتتسلى بها عما اشعر به من نقص حياتنا المشتركة ، أما الآن فلم يعد من موجب في نظري للافراط فيها. ولمت اطراف شجاعتي يوم وقلتلها:

– كأنك تقاطعين بيتنا يا عزيزتي ، فهلا أقللت من هذه الزيارات المتواصلة؟

وحدجتني بنظرة مريبة وسألتني بحدة لم أعهدها من قبل : أما زالتتشغل

نفسها بانتقادي ؟. وفهمت انها تعني أمها ، وساءني ان تضمر لها هـذا النفور ، فأجبتها متلطفاً : ان أمي لا تتدخل فيا لا يعنيها . وهذا رجائي أنا دون غيري والحق اني لااطيق بيتنا إذا كنت خارجه.. فقالت وقد استردت هدوءها : هلم نخرج معاً . لماذا تضيق بالناس ؟.. فقلت برقة : هكذا أنا .. ولا أدري مـاذا غيرها أو كلمتي تلك فقالت بحدة : ان الحياة لا تحتمل على غير هذا الوجه .

آه يا حبيبتي ، لم تكن رقتك لتسمح بمثل هذا الكلام قط ، ولم يكن صدرك بمثل هذا الضيق ، فما الذي حدث ؟. وليس هذا كل ما في الأمر ، فان قلبي احياناً يرى ما لا تراه عيناي . ينبغي أن اشق ستار العمى وان القى الحقيقة على مرارتها وجهاً لوجه . يخيل إليّ ان « رباب » لم تسعد بشفائي كما سعدت به ! اعجب بها من حقيقة تحيرني، ولكن الآم أكذب نفسي !. انها تبدو كأنها تخاف الليل وتتحاماه ، ولا نكاد نخلو إلى نفسينا حتى يعتورها قلق تفضحه عيناهـا الصافيتان ، ثم لا تفتأ – في هذه الأيام الأخيرة خاصة – تعتذر بشتى الأعذار، فمن تعب إلى توعك إلى رغبة ملحة في النوم. وإذا اذعنت لي فانما تذعن في تسليم لا سرور فيه ، ثم تنتتر جسمها من جسمي في شبه استياء وغضب !. وأقر إلي هذا كله بأنها لم تعـد فتاتي الضاحكة المستبشرة الصافية . شاب ضحكها التكلف ، ودب في سعادتها الفتور ، وانقلب ودهـا تودداً . حاشاي ان اقول انهـا أعلنت سخطاً أو اساءت ادباً ، حبيبتي فوق هذا كله ، ولكنني احس قلقها بقلبي ، وادرك حيرتها بغريزتي . رباه إن الدنيا جميعاً لا تساوي خردلة إذا تألمت حبيبتي فماذا بها ؟.. اني أفتقد حبيبتي فلا أجدها ، ولا بد ان أجدهـا ، أو أموت كمداً . وبلغ شقائي غايته اذ ترك نفورها في نفسي أثراً عميقاً ، تغلغل في حناياها ، فحرك الداء القديم ، وولى الشفاء الساحر ، ولم تنفع فيه الخمر . وتناهى بي الحزن حتى أشفيت على الجنون . أيعاودني العجز ؟. وهل أرد إلى ذلك اليأس المميت ؟. وقلت لها مرة في قنوط : رباب .. مـاذا بك ؟.. لست الحبيبة التي عهدتها . فلاذت بالصمت ، وغضت بصرها حـيرة وارتباكاً ، فقلت بتضرع متسائلاً : ان قلبي لا يكذبني فخبريني ماذا غيرك ؟

فهمست قائلة وقد لاحت في عينيها نظرة ساهمة : لا شيء ..

فهتفت من الأعماق :بل شيء وأشياء ، اني زوجك يا رباب وحياتي كلها لك

فلا تخفي عني شيئاً. آه يا رباب اني أبكي أيامنا الماضية . فتنهدت ولاح في وجهها الارتباك والألم، ثم غمغمت في حذر واشفاق: واني أبكي أيامنا أيضاً. فتولاني الذهول والانزعاج وسألتها في حيرة شديدة : كيف يا رباب ؟.. اني لا أفهم شيئاً . أما كان ينبغي لحياتنا أن تكون أوفر سعادة ! . نمّ وجهها على انها تعاني من ضروب الحيرة مثلما أعاني ، فازددت ذهولاً وانزعاجاً وانتظرت ان تميط اللثام عما يحيرها فتجلوا لي ما يحيرني بالتالي . وانتظرت في قلق وانبات قلبي يحدس أموراً يفرق لها رعباً ويأساً وخزياً. ولما طال بي الانتظار قلت: لماذا لا تكاشفيني بذات نفسك؟

انها ترغب في البوح بما ينوء به صدرها الرقيـــق ولكنها لا تجد سبيلاً إلى الافصاح أو لا تواتيها الشجاعة عليه . واني أزداد خوفاً وقنوطاً حتى تناهى بي الجزع فقلت : رباب .. انك لا ترتاحين لمـا جد في حياتنا ! فحدجتني بنظرة غريبة ، ثم خفضت بصرها وراحت تقضم ظفرها في حيرة وارتباك . برح الخفاء بيد ان صمتها أخذ يضايقني فتساءلت فيما يشبه الضجر : اليس الأمر كذلك ؟.

ورنت إلي بنظرة توسل واستعطاف وقالت بصوت لا يكاد يسمع : لنعد كما كنا ؟.. كانت حياة طيبة ! . كأن لطمة هوت على وجهي فغضضت عيني حياء وقنوطاً . ومع أن رغبتها هذه حقيقة بأن تهيىء لي عذراً اداري به ما عاودني من عجز الا انني تلقيتها بخزي مميت . ولعلها قرأت ما لاح في وجهي من أمارات الألم فقالت برقه : لست أعني شيئاً يمكن أن يكدرك ، ولكني أهفو لحياتنـــا الماضية . كانت حياة طاهرة سعيدة ! . فقلت كأنني أكمل حديثها :

– ولم يكن بها ما ينغص صفوك؟.. فطرفت عيناها ، وتجلت فيما نظرة عطف وقالت برقة : كنا سعداء اليس كذلك ؟.. ولم يكن ينقصنا شيء على الاطلاق..

لا أدري لماذا آلمتني رقتها . ثم تذكرت بعض ما سمعت في ادارة المخازن فقلت : ولكن لا يمكن أن تتم سعادة المرأة الا بهـذا . فتورد وجهها وقالت بسرعة ويقين : كلا .. كلا .. أنت جد مخطىء في هذا. ورنوت إليها في حيرة ! ترى حقاً تصدقني القول ؟ ولكن ما عسى أن يحملها على الكذب ؟! لم أكن الا غرا جاهلاً ، ولن تجد كالغر الجاهل صيدا سهلاً للهجة التأكيد ، فأثر في قولها تأثيراً عميقاً .. هل أكذب حبيبتي وأصدق سخفاء الموظفين ؟!. ألم يعبر قولها هذا عن رأي قديم اعتنقته قبل أن يحولني عنه مجون الزملاء بادارة المخازن ؟..

وفضلاً عن هذا وذاك فليس بوسعي وصالها بعد أن باحت بما باحت ، وبعد أن عاودني من العجز ما عاودني ، لذلك كلـــه تظاهرت بالارتياح ، واصطنعت ابتسامة ، ثم قلت بتسليم : ليس لي وراء سعادتك مطلب يا رباب !.

وسرى عنها ، ولاح في عينيها نظرة ارتياح ، وتدانت مني حتى التصقت بي وقبلتني !. عدنا كما كنا . عدت زوجا عذريا ذا عادة ذميمة ، ورحت أقول لنفسي : انه لا ذنب لي فيما انتهينا اليه . اني رجل كامـل ولولا طبعها هي ما انتابتني هذه النكسة ! بل اني أتحمل هذه الحياة الغريبة اكراماً لها !. يا له من عزاء كنت في مسيس الحاجة اليه ! ولكن هل حقاً صدقت نفسي ؟!. ومهما يكن من أمر فان ذكرى عهد السعادة لم تغب عن ذهني لحظة واحدة ، كيف انقضى ذاك العهد بتلك السرعة التي لم أتوقعها ؟.. وكيف آذى حبيبتي حتى خرجت عن صمتها بهذه الشكوى السافرة ؟.. أليس معنى هــذا اني شقي ولا حيلة لي في شقائي ؟ آه.. لشد ما نازعتني النفس إلى الحرية والفرار ! وعاودتني ذكريات تشردي في الطرق بحنان ولهفة .. هل عاد كل شيء إلى أصله ؟.

ما زال الحب يجمعنا في عناق وعطف، وعادت حبيبتي إلى مرحها وحبورها وهي تقضي يومها ما بين مدرستها وبيوت الأهل والأقارب ، وبحسبي أن أراها سعيدة مسرورة . ولعل طبعها اعتراه تغير طفيف يبدو في سهومها الحين بعد الحين كما يبدو في سرعة غضبها لأقل همسة تصدر من أمي . هل كنت سعيداً ؟.

كانت حبيبتي سعيدة فيما يبـدو لي ، فكان طبيعياً أن أعد نفسي سعيداً . حقاً لم تنقطع بي الوساوس ولكني متى عرفت الحياة بلا وساوس ؟.. وأطرد تيار الحياة تتقاذفني أمواجه ، يسعدني سرور حبيبتي ، ويشقيني حزن أمي ، أقضي وقتاً ثقيلاً في الوزارة،وأنفق ساعات حالمة في الحانة على فترات متباعدة. وحتى ضميري الذي عانيت طويلاً من شعوره بالخطيئة لم آل أن أغضي على أناته وتأوهاته بضحكات السرور والعربدة، وكنت كلما ألح علي وخزه أقول لنفسي بصوت مرتفع اني سعيد ، وكل شيء حسن !. ومضى الشتاء فالربيع ثم الصيف. وعدنا نستقبل الخريف والعام الدراسي الجديد بما يبتدرنا من عزيز الذكريات.

* * *

وعرض لي أمر بدأ تافها ولكنه كاد يقلب حيـاتي رأساً على عقب ، ومن عجب انـــه تكشف لي عقب مصادفة ، فحق لي أن أتساءل : أكانت حياتي تستهدف وجهة أخرى لو لم تعرض لي تلك المصادفة ؟ ولكن ما هي المصادفة ؟ ألا تبدو الحياة أحياناً سلسلة متصلة من المصادفات؟ ماذا ألقى برباب في طريقي غير المصادفة ؟ وهل كان يتاح لي الزواج منها لو تأخر موت أبي شهراً واحداً ؟ بل ماذا كان يحدث لي لو أصر ابي على استردادي كما فعل براضية ومدحت ؟ على هذا المنوال اتساءل : ألم يكن من الممكن ان تطرد حياتي على وتيرة واحـدة حتى الموت لو لم يطل اللقاء بيني وبين أمي دقائق معدودات ذلك اليوم الذي لا ينسى ؟!. كنا في اواخر الخريف ، وكان الوقت عصراً ، وقد ودعت رباب وغـــادرت الحجرة لقضاء سهرتي المسائية . والتقيت بأمي في الصالة وكانت متوعكة فمضيت معها إلى حجرتها ولبثت معها نتحدث فطال بنا الحديث ، ثم نهضت مستأذناً وغادرت الحجرة . ولاحت مني التفاتة إلى حجرتنا – وكان بابها مفتوحاً كما تركته – فرأيت رباب جالسة على حافة الفراش تقرأ خطابا . وأدركت لتوي أن ساعي البريد جاء به حين كنت منفرداً بأمي وإلا لعلمت به وقت وصوله ، وظننته مرسلا إلي من أخي لأن رباب لم تكن تتلقى خطابات ، فعدت إلى حجرتي مستطلعاً ، وشارفت بابها ورباب مغرقة في القراءة فلم تنتبه لي حتى قلت لها : أهذا الخطاب لي ؟ ورفعت رأسها نحوي في دهشة ، وطوت يدها الخطاب بحركة آلية سريعة ، وسألتني في اضطراب ظاهر : هل نسيت شيئاً؟ فقلت وقد تولاني قلق لا ادريه : كنت في حجرة أمي ، ورأيتك عند مغادرتي لها تقرئين هذا الخطاب فظننته لي . فنهضت من مجلسها وتراجعت صوب التواليت ، وكانت بلا ريب تحاول أن تضبط عواطفها ، ولكن عينيها وشتا بما تركه حضوري المفاجيء في نفسها من وقع عميق لم تتوقعه ، وقالت وقـد ندت عنها ضحكة مقتضبة جافة لم تجد في مداراة اضطرابها: ليس خطاباً كما تظن ان هي الا وريقة سجلت بها بعض ملاحظات تتعلق بعملي المدرسي ..

وداخلني خوف تمشى في مفاصلي. لعلها لم تجاوز الصدق ولكن عدوى اضطرابها انتقلت إلى نفسي فشعرت بذاك الخوف الغريب ، كأنه نذير شر مجهول يتجمع افقي المكفهر . ما الذي يدعوها إلى الكذب ؟. ولكنني رأيت في يدها خطاباً

بلا ريب !. وقد خفت أن اتمادى في اظهار الشك أن يكون الحق معها فأقع في حرج ما اغناني عنه. على انني لم اتمالك أن قلت : ولكني رأيت خطاباً بيدك..

ووقع قولي من أذني موقعاً سيئاً ، فخيل إلي انني لم احسن اختياره ، وانه يفصح عن شك واضح ، ورمقتها في اشفاق ، وانتظرت ان تبسط لي الوريقة في حركة عصبية وان ترميني بطرف ساخر مؤنب ، ولكنها كانت تعاني احاسيس أخرى . وكأنما قهرتهاعاطفة مجهولة فقالت وهي توليني ظهرها : قلت لك انها وريقة خاصة بملاحظات مدرسية . ثم رأيتها تمزقها بحركة مباغتة ، وتحولت صوب النافذة ورمت بها ! كانت حركة مباغتة أبعد من أن اتوقعها فتسمرت في مكاني كأنما حل بى من شلل. واستقبلتني بوجهها متظاهرة بعدم المبالاة فتملكني حنق وغضب ويأس ، وشعرت بأن جداراً هائلا قد انقض على حياتي فدفنها تحت ركامه ، ان عيني تتفتحان – بعد أوهام العمى – على حقائق بشعة. وهل غير الحقائق البشعة مايستثير هذا الاضطراب وذاك الخداع الماكر؟ وصحت بلا وعي:

– كاذبة.. لم تكن وريقة ملاحظات كما قلت كذباً وخداعاً. ولكنه خطاب كما رأيت، وقد مزقته لتواري عني سواه.. وغاض الدم في وجهها فترك صفحته شاحبة كوجوه الموتى ، ولكن بدا انها لا تريد ان تسلم بغير دفاع المستميت فتمتمت : أنت مخطىء .. وظالم .. لم يكن خطاباً !. فهتفت بها مغيظاً محنقاً والألم واليأس يطرقان رأسي بعنف : لماذا مزقته ؟.. لماذا تولاك الذعر ؟.. تكلمي .. لا بد أن اعرف الحقيقة .. سأنزل إلى الطريق والتقط القصاصات .

واتجهت نحو النافذة في عجلة واضطراب وطللت على الطريق فرأيت المطفة الضيقة التي تفصل مؤخرة العمارة عن حديقة الكنيسة ، فداخلني يأس وأيقنت ان الهواء قد حمل القصاصات إلى حديقة الكنيسة . واسودت الدنيا في عيني ، وخيل إليّ انها تتمخض عن عالم من الشياطين الراقصة في تيار من لهيب. كيف انتزع الحقيقة من بين شفتيها ؟ ودرت على عقبي فوجدتها بموقفها ، يحاكي وجهها وجوه الموتى ، وتلوح في عينيها نظرة ذعر وارتباك ، فاشتدت قسوة قلبي ، ورميتها بنظرة طويلة رهيبة ، وقلت باصرار وحنق : انه خطاب ، ولن ارجع حتى تعترفي لي بكل شيء . تراجعت متأوهة حتى استندت إلى مرآة الصوان وقالت بصوت تمزقه الشكوى : بالله لا تسيء بي الظن . لا شيء البتة يستوجب

غضبك او ارتيابك ، أواه لا تنظر إلى هذا .. ولكني لبثت أرمقها بنظرة صارمة قاسية ونفسي تتلهف على الحقيقة ، فأما النجاة وأما الهلاك . رباه اني لفي كابوس طاغ. وهل كان يقع في ظني ان اقف منها هذا الموقف الا في كابوس؟! واستدركت تقول بصوت متقطع الأنفاس : لا تنظر إلى هذا !. لقد اخطأت حقاً ولكنك أنت المسئول عن خطئي !. لقد فاجأتني فركبني الاضطراب ، فتورطت في كذب لا داعي له .. رباه ما احوجني إلى النجاة ، ما اشد تلهفي على قطرة غيث تبل جوانحي.. وقلت في حيرة: كان خطاباً .. فبادرتني قائلة:

– أجل !. وكان يبدو لي امره تافهاً حتى وقع في نفسك الارتياب . وتجهم وجهك فتخيلت الأمر التافه جللاً خطيراً فالتمست مخرجاً في الكذب ، وكان ما كان . فسألتها وما أزداد إلا حيرة : إذا كان خطاباً ، فمن ارسله .

فقالت وبها مثلما بي من الحيرة: لا ادري.. فنفخت قائلاً: ما هذه المعميات؟ وتولى عنها الذعر رويداً ، وتشجعت بانفثاء غضبي فقالت بصوت ملؤه الأمل :

– دعني اقص عليك قصة هـــذا الخطاب المشئوم بالحرف الواحد : لقد تلقيته صباح اليوم بالمدرسة ، ففضضته بدهشة لأني لم اعتد تلقي الخطابات ، ووجدته غفلاً من الامضاء ، ولم يكن به سوى سخف وقح ، خطه قلم شخص سمج !. وملكني الحنق بادىء الأمر . ثم لم أعـد أباله . وصممت على الاحتفاظ به لأطلعك عليه وفي ظني أني اعد لك مفاجأة تضحك منهـــا طويلاً . ولكني غيرت رأيي عقب عودتك وخفت أن يثير بنفسك مــا لا داعي له من الاستياء . واخفيت عنك أمره حتى ظننتك غادرت البيت فاستخرجته مــن حقيبتي وأعدت تلاوته وفي نيتي أن امزقه ولكنك فاجأتني وقت تلاوته ، ولم يغب عني حرج مركزي، ولم يعد بوسعي الاعتراف بالحقيقة ، فتورطت كما قلت لك في الكذب ، وجنيت من كذبي ما جنيت مما لا استحق ..

أصغيت اليها وكلي آذان . ولما انتهت من قصتها لبثت بموقفي جامــداً متحيراً . خفت وطــأة الجنون الذي ركبني ولكني وقفت بباب التصديق والطمأنينة متردداً . وجدت نفسي في حيرة قاتلة دعوت الله أن يكشفها عني ، وان يهبني بصيرة نيرة انفذ بها إلى أعماق هذا الصدر الجميل الذي كأنما خلق لتعذيبي . وأرهقني التفكر والتردد فقلت وكأنني اسائل نفسي :

– من مرسله ؟!. وكأن السؤال آلمها ، فغضت بصرها مقطبة وقالت :
– قلت كان غفلا من الأمضاء . فأنفلت لساني يقول : هذا غير معقول .
فضربت الأرض بقدمها وقالت وقد لاح في وجهها الألم والتعاسة :
– أتكذبني يا كامل بعد أن صارحتك الحقيقة ؟. اني لا أحتمل هذا ..
فاستطردت قائلا وقد نال مني تألمها : أعني ماذا يفيده الخطاب اذا لم يترك به اشارة تدل عليه ؟. ألم يرسل لك خطاباً قبله ؟.
– .. هذا أول خطاب أتلقاه .. ومـاذا كان به ؟. فغضت بصرها وهي تقول بضيق : كلام سخيف عن الاعجاب والجمال ...
ووثب إلى خيالي منظر يديها وهما تمزقان الخطاب فلسعني الشك وانتفض جسمي في هلع فصحت بها كأنني فقدت وعيي : لماذا مزقته .. لماذا مزقته ؟.
فنفخت فيما يشبه اليأس ، ولزمت الصمت ملياً ، ثم قالت بهدوء واستسلام:
– لقد تسلمت هذا الخطاب المشئوم في المدرسة ، ولا أظنك تشك في هذا لأنه من الجنون أن يرسله إلى البيت . والآن اطرح على نفسك هذا السؤال : ما الذي يدعوني إلى الاحتفاظ بالخطاب وحمله إلى البيت اذا كان به ما يريب؟. لماذا لم أمزقه في المدرسة بعد قراءته !. وعقد الصمت لساني حيال وجاهة الحجة ولعلي أسفت على ما بدر مني من صياح كاسر . أما « رباب » فعادت تقول :
– لو كنت مذنبة لما وجدتني بهـذا الموقف السيء ، ولما علمت بشيء ، وهيهات أن اغفر لك سوء ظنك بي.. فآلمني قولها، وداخلني شعور أليم بالخجل فخفضت بصري ان ترى به آي الهزيمة . على ان ألمي لم ينسني ما أحب ان اجلوه من غامض الأمور فقلت بصوت منخفض : ان قولك مصدق .. ولكن لعل صاحب الخطاب لم يوقع بامضائه لظنه أنه من السهل الاستدلال عليه ، كأن يكون ممن يعترضون سبيلك مثلا ..
ولم يخفف لين نبراتي من ألمها، بل لعله جعلها تتمادى فيه ، وقالت بامتعاض:
– من عادتي ان اسير فلا ألوي على شيء ولا ألقي بالاً لإنسـان .
لم أكن في حاجة إلى قولها وقـد خبرته بنفسي ، ولكن لاح لعيني شبحا الرجلين اللذين قاسماني الاعجاب بها فيما مضى . فقلت متسائلا :
– ألا يحتمل ان يكون جارك الذي شرع في طلب يدك..أعني محمدجودت؟

فقالت بلا تردد : هذا رجل وقور لا ينزل لهذه الأساليب الوقحة ، وفضلا عن ذلك فهو وشيك الزواج كما علمت منذ قرابة شهر في بيت أبي..

فتفكرت قليلا ثم قلت متحيراً : كان يوجد رجل سمين يواظب على التهامك بعينيه في ذلك العهد الذي كنت احوم فيه حوله ، أفلا يجوز أن يكون هو ؟ .

فزوت ما بين حاجبيها مستذكرة ، ثم قالت وهي تهز رأسها :

– لا أعلم عنه شيئاً .

وحاولت ان اذكرها به ولكنها بدت وكأنها لم تحس له وجوداً ، فقلت بيأس وغيظ : أريد أن اعرفه كي أؤدبه .

فقالت بصوت دلت نبراته على التعب :

– ليكن من يكون ! لو لم يدفعني الارتباك الى تمزيقه لكنا نقرأه الآن ضاحكين ، فهلا نسيته وحسبنا ما نالنا من كدر !.

فعضضت على شفتي ، وجنحت الى الصمت مغيظاً مقهوراً ، فاستطردت قائلة :

– انه امر تافه ، بل أتفه من ان يستحق كل هذا الاهتمام ..

فتنهدت قائلا وانا لا ادري : ليتك لم تمزقيه !.

والتمعت في عينيها نظرة غاضبة وتساءلت بحدة : ألا زال يساورك الشك ؟

فقلت بعجلة : كلا .. ولكني لن أهدأ حتى أؤدبه !.

فقالت بضجر : ولكننا لا نعرفه .. فما العمل ؟.

وأحنقني قولها ، ولكني تحاميت الافصاح عن حنقي ان استثير غضبها . وكأن الوقوف ارهقها فمضت الى كرسي التواليت وجلست عليه ، وشعرت عند ذاك بألم في ظهري ، فدلفت من الفراش واقتعدت حافته . إنها صادقة بريئة ، والأمر جد تافه ، فليتني استطيع ان أمحو من مخيلتي صورة يديها وهما تمزقان الخطاب !.. لعل المجرم احد اولئك الفضوليين الذين يراقبونها في ذهابها وإيابها! وهل استطيع ان امنع الأعين !. فليتني لم اخلق فريسة سهلة لأنياب الغيرة . إني اعرف نفسي جيداً ، وإني لأغار من الوهم ومن لا شيء !. فأين مني جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل!. وطار الخيال بغتة الى حجرة امي فسرت في جسدي قشعريرة وخلتها تقول لي «ألم اقل لك ؟» فنفخت كمن يزيح عن صدره كابوساً، ولاحت مني التفاتة نحو « رباب » فوجدتها تحملق في وجهي بدهشة ، فخطر لي

خاطر جديد لم أتوان عن الافصاح عنه فقلت برقة :
– رباب ، لماذا تواصلين خدمتك في الحكومة ! لماذا تتجشمين هـذه المشقة بلا ضرورة ؟. لماذا لا تقنعين ببيتك كغيرك من الأزواج ؟
فتفرست في وجهي بإمعان وأناة ، ثم قالت بهدوء : ألا تثق بي ؟.
فابتدرتها قائلا : معاذ الله ولكني ..
وقاطعتني قائلة : اذا كنت لا تثق فيّ فالأولى لي أن اغادر بيتك ! .
– رباب !. فلم تبال جزعي وقالت :
– اذا كنت ما تزال تثق بي فسأبقى في وظيفتي.
فقلت بتسليم : لك ما تشائين !.
فقالت باللهجة نفسها : لا احب ان اسمع كلمة اخرى عن هذا الموضوع.
وقد كان . وغادرت البيت، واخذت اضرب في الأرض على غير هدى حتى تناهى بي الإعياء ، فرجعت الى البيت ، وتلاقينـــا وكأن لم يكن بيننا شيء وتناولنا العشاء معاً ، ثم آوينا الى حجرتنا والتقت أعيننا في نظرة ذات معنى . ولم نتمالك ان انفجرنا ضاحكين ، ومضينا الى الفراش فاضطجعنا وقبلتهـا قبلة النوم . ولا ادري لماذا نازعتني نفسي الى معاودة ما تعاهدنا على اجتنابه . والأعجب من هذا انه لم تكن بي ذرة من ثقة ، ومع ذلك كدت أهم .. لولا ان ردني الخوف الى وعيي !. ثم خطر لي ان اسألها عما يحملها تقضي على نفسها بالحرمان ؟. وانفجرت شفتاي ولفظ صدري القول ، ولكنه جمد عـلى طرف لساني !. انه الخوف ايضاً .

* * *

وعندما فتحت عيني في الصباح الباكر عاودتني ذكريات الأمس . فتأملتها في دهشة ، وقد خيل إلي انه لم يكن هنالك ما يستحق كل ذلك العناء والألم. وقلت لنفسي : لو انها مزقت الخطاب في الروضة لما علمت به ابداً ، وفي هـذا آية صدقها . ثم تمثلت ليعني وهي تمزق الخطاب وترمي به من النافذة ، فكأنما هي تمزق قلبي وتنثر شظاياه في الهواء، وسرت في جسدي رعدة عنيفة . وهززت رأسي غاضباً كأني انفض عنه الأوهام وغادرت الفراش . ولما فرغنا من فطورنا وجلسنا على المقعد الطويل نحتسي الشاي ! استرقت اليها نظرة فرأيت وجهها

المحبوب هادئاً باسماً ينم عن جمال وسلام، فعضني الندم على ما فرط مني في حقها وقلت لنفسي : « حقاً ان الشيطان غوي رجيم » . وفي اللحظة التالية لاح لي خاطر كالبرق ، أليس من الجائز ان تكون قد تسلمت الخطاب في البيت وانه لم يكن بوسعها ان تمزقه في مكان آخر ؟. ولكني سرعان ما نبذته ، إذ انه غير معقول كما قالت بحق – ان تبلغ الحماقة من شخص ان يرسل خطاباً غرامياً الى بيت الزوج ! ألا سحقاً للأوهام ، ان حبيبتي أهل لكل ثقة ، والثقة هي كل شيء ، ولولاها ما حال دون الشر حائل.

وخرجنا معاً . وركبنا الترام . لعل كثيرين يرمقوننا بعين الحسد ، فهل يتصورون كيف نحيا معاً ؟! الا ما أعجب العوالم التي تنطوي عليها النفوس . وأعجب من هذا أمر رباب ، فكيف ترغب عن المعاشرة الزوجية بهذا الاصرار الغريب ؟ لشد ما يشوقني ان أغوص في أعماقها . عند ذاك شعرت بحاجتي إلى مرشد أقص عليه وأصغي اليه . لم أشعر من قبل بمثل ما شعرت به وقتها من الوحدة والعزلة وقلة الحيلة . وكان طبيعياً ان أذكر مرشدي الوحيد في الحياة ، أمي ، ولكن سرعان ما تملكني إحساس قوي بالخجل والغيظ ، حتى لكأن نشر همومي على الملأ أهون علي من أن أسر أمي بها.

هل أستطيع ان أجلو السر بنفسي ؟ أيكون الله قد خلقها خلقاً طاهراً لا تطيب له الحياة إلا بالعفة ؟! هذا فرض محتمل يؤيده الواقع . ولست آسى عليه ، فلولاه لكنت في مأزق حرج . والحق ان اتصالي بها – حتى في أسعد اوقاته – لم يخل من قلق وخوف غامضين . وقد عاودني العجز في ابان جنوحها إلى النفور ، ولكني كنت آبى ألا ان أصور نفسي في صورة الضحية لشذوذ حبيبتي ، والفداء لسعادتها . ولما بلغت هذا الحد من التفكير – وكنت أشارف الوزارة ، اضطرب ذهني وشعرت بقلق طاغ لم أدركه . بدا لي الأمر وكأنه يستدعي الطمأنينة التامة ، ومع ذلك لفتني حيرة معذبة فدخلت الوزارة ذاهلا ..

من عسى أن يكون الوغد الذي كتب الخطاب ؟. معقول جداً ألا يكون الرجل الوقور محمد جودت ، فمن يكون؟.. لماذا لا يكون الفتى الآخر ذا الجسم البدين والنظرة المتغطرسة ؟ وليس هذا ببعيد . أنه في متناول يدي ، وأني

لأعرف موقفه الذي ينتظر به كل صباح. ترى هل حقاً جهلته أم كانت تتجاهله؟ على أنني تمنيت بقلبي الا يكونه ، اذ لم يخف عني لحظة أنه قادر على أن يبطش بي بضربة واحدة ؟! وقلت لنفسي ساخطاً : لو أنها ابقت على الخطاب لأمكنني كل شيء . أي شيء اعني ؟ لا أدري على وجه التحقيق ، ولكني وجدت عليها مرة أخرى بعد أن عد الأمر منتهياً . والله مـا مزقته إلا خوفاً من اطلاعي عليه . رباه هل أتردى ثانية في الجحيم ؟ حذار أن تتادى !. ان من يسمح لنفسه بالشك في رباب لا يستحق ان يكون انساناً. ألا يحسن بي ان اسألها في التليفون عما اذا كانت تلقت خطاباً جديداً ؟. نازعتني الى ذلك رغبة جامحة ولكن حال دون تنفيذها الخوف. ودعاني صوت من الأعماق الى الهرب! ولكن ممن أهرب؟ وإلى أين ؟. اما ان اكون مجنوناً او سخيفاً . إننا زوجان سعيدان في الواقع ، ولكن عقـلي شقي ، فآه لو أستطيع حذف الأمس من الأيام . آه لو تمحى ذكرى تمزيق الخطاب من خيالي . واليك خاطراً جديـداً ، اذا كانت قرأت الخطاب في المدرسة فلماذا أعادت قراءته في حجرتنا ؟.. ألذها أن تعيد تلاوته أم كانت تستوثق من الميعاد ؟. لقد أوشك جبيني أن ينفجر من حمى الفكر...

ولما غادرت الوزارة أسعفني هواء الطريق اللطيف بروح من عنده فتنفست تنفساً عميقاً ، وأحسست انتعاشاً ردني الى السكينة . وجعلت أردد : مـا أحمقني !. وفي البيت لاقتني رباب بابتسامـة وضاءة فانبسطت أساريري ، وسألتها ضاحكاً : هل من جديد؟

– أتعني خطاباً جديداً ؟

فقلت وما أزال ضاحكاً : نعم .

فقالت مبتسمة : كلا انقطع البريد ...

وغادرت البيت عصراً وليس لي غاية ، وما كدت استقر بمكاني في الترام حتى نشأت في صدري رغبة جميلة ، هي ان أزور « السيدة » طالما كانت ملجئي وملاذي ، ولم أتردد عن تنفيذ هذه الرغبة التي ملكت نفسي . وعندما عبرت عتبة المسجد مرت الى صدري نسمة ارتياح سعيدة ، وطافت برأسي ذكريات حبيبة الى قلبي . رأيتني بعيني الخيال أسير ممسكاً بيد أمي الى الضريح الطاهر . وذكرت يوم جاءت بي لأتوب عن الذنب الذي أكاد آلفه واعتاده . يا لها من

ذكرى أعقبت ندما وخجلا حتى شعرت برغبة في التواري والفرار ، ولكنني واصلت السير ، فطفت بالضريح قارئاً الفاتحة ، وتشجعت اذلالا بمنزلتي منذ الصغر عند صاحبته الطاهرة ، فوضعت راحتي على الباب وغمغمت في ضراعة : « يا أم هاشم ، أنت أعلم بقلبي وطيبته ، وبأني لم أضمر في حياتي اذى لانسان فاجعلي جزائي من جنس عملي . هذا دعائي يا ست » . وانتبذت ركناً وتربعت على الارض . سطعت انفي رائحة ذكية لعلها كانت رذاذاً يرشه أحد المجذوبين، وتجاوبت في الأركان أصوات الدعاء يرددها الطائفون ، على حين مضى شيخ غير بعيد يرتل بصوت مهموس آيات من الذكر الحكيم ، وذكرت كيف انقطعت عن فرائض الدين حتى لم أعد أواظب الا على الصوم في حينه ، ألست مؤمناً حقيقاً إذا عدت إلى هدى الصلاة ان يطمئن قلبي ويخف عن ظهري وقر القلق والمخاوف . وكان قلبي على ألمه يتفيأ ظل النبوة الظليل ، ويعب من غير صاف مثلوج، ويغمره سكون عميق . وكلما هممت بالنهوض عدلت عنه استجابة لداع من الأعمـــاق يدعوني إلى الاستزادة من صفاء الساعة الهنيء . وفي نشوة من نشوات السلام تراءت لي آلامي كخيط رقيق من نسيج القضاء المهيمن على كل شيء فنزعت إلى الرضى والتسليم . ودوم بنفسي صفاء روحي سما بي إلى ذروة من البهجة فوق المنى فكأن القلب يعلو غصناً من أغصان الجنة تهدل عليه حمامة السلام . ولبثت في نشوتي زمناً لا أدري كم لبثت حتى اندس إلى خيـــالي على حين غرة صورة رباب وهي تمزق الخطاب وقد تملكها الهلـــع فأفقت بقسوة وعنف كمن يفيق من نوم على زلزال عنيف ، وتنهدت من قلب مكلوم ثم نهضت قائمـاً ، وتلوت الفاتحة مرة أخرى وغادرت الجامع ، وقد وقع بصري لدى خروجي من الباب على رجلا ممن يستطلعون الغيب ، اني أومن بهؤلاء الناس إيمان أمي بهم . وقـــد انتظرت حتى انفض من حوله جماعة من السائلين واقتربت منه على حياء ، وسألته أن يقرأ لي الطالع . وراح الرجل ينكت بابهامه في نقرات الرمل وينقل فيما بينها قواقعه . كان نحيلاً كالمومياء . شاحب اللون ، متلفعاً بكساء أبيض ، فقال من فم لم تبق فيه الا ثنيتاه العليان : كثير الهم والفكر .

فقلت لنفسي : لقد صدق ، وأرهفت السمع بانتباه ، فاستطرد قائلاً :

ــ ولك عدو ماكر . فخفق قلبي !. أليس هو صاحب الخطاب ؟! وواصل

الرجل حديثه قائلا : انه يمكر مكره وسيرد الله كيده إلى نحره ..

ألا يعني هذا ان « رباب » بريئة ؟. — وستجيئك ورقة تسر بها طويلا..

— أتعني خطاباً ؟. — ربما ، اني ارى أمامي ورقة ..

ما معنى هذا ؟! كأن الأمر يزداد غموضاً، وسألته : هل تأتي من قبل العدو ؟

— كلا .. كلا !.. من ناحية أخرى فتنجلي بها همومك.. — أية ناحية؟.

— يأتيك الخير من حيث لا تدري . فتولتني الحيرة وتمنيت لو يزيد بياناً ، ولكنه عاد يقول : إذا وجدت صعاب فسيذللها هذا الحجاب باذن الله ..

وأعطاني لفافة صغيرة جداً من الورق مربوطة بخيط رقيق ثم قال :

— ضعه على القلب ، وتوكل على الله ..

ذكرت في طريق العودة ما عانيت من ألم منذ عصر الأمس فأيقنت ان سعادة عام لا تزن شقاء يوم واحد ، لم أهتد إلى مرمى ومـا ازداد الا حيرة وتبلبلا . ان ما يظلني أحياناً من طمأنينة ما هو الا سحابة صيف ، ولن يهدأ لي جانب حتى ألقى الحقيقة وجهاً لوجه ، مـا كنت أحب أن تلوث نفسي بالشك في الوجه الصبيح الطاهر ، ولكن بذرة الشك قد ألقيت في أعماقها ولن تزال تنمو وتثمر شوكها الجهنمي . لقد شددت بقوة اليأس على أهداب الطمأنينة فتهتكت وتخرقت ، وما أطيق أن أحتمل الحياة متردداً بين ساعة سلام خادعة وساعات عذاب طويل ، فما من محيد عن أن أرى وراء الحجب ، قـد يكون في ذلك هلاكي ولكن الحياة تقضي علينا في أحايين كثيرة بأن نجري وراء هلاكنا كأنه ألذ المنى . اني أحبك يا حبيبتي ولعل القدر قد رماني بهذا الحب ليقضي به علي ، ولكن هل أملك رد قضائه ؟ لعلي أدرك الآن لماذا لم يكن يزايلني القلق حتى في أصفى ساعات سعادتي ، أكان قلبي يشهد لمحات من المقدور وراء ستار الغيب؟. على أنني لا أحب أن أتمادى في التشاؤم ، فقد يكون المخبوء على غير ما توقع قلبي ، وقد أجد به ما أتلهف عليه من طمأنينة وسلام .

فما العمل اذن ؟. الصواب أن ألتمس اجازة من الوزارة ، ثم أفرغ للمراقبة في خفاء لا يدري به أحد . أيهون علي أن أتجسس على «رباب» ؟!. الا ما أشق هذا على نفسي ، ولكن كل شيء يهون الا عذاب الشك ..

* * *

توثبت للعمل وبي من الألم ما لا يعلمه إلا الله، فخرجنا معاً كعادتنا كل صباح وركبنا الترام معاً ، ثم نزلت في محطة الوزارة ، وناديت « تاكسي » وأمرت السائق بالذهاب إلى العباسية. سبقتها إلى مكان عملها لأهيء لنفسي موضعاً يصلح للمراقبة. وكانت الروضة تقع بشارع كال - المتفرع من الطريق العام إلى اليسار - على يمين الداخل بعد فوت بيتين من مدخله ، وقفت في المحطة أتفحص ما حولي فرأيت شارعاً فرعياً يقابل شارع كال على الناحية اليمنى من الطريق تقوم على ناصيته قهوة صغيرة ، بدا لي ان أجلس في هذه القهوة حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد ، ومراقبة زوجي حين دخولها وحين خروجها . واتجهت اليها - وكان بابها يفتح على الشارع الجانبي - واخترت مجلساً على عتبة المدخل يمكنني أن أرى منه ما اريد رؤيته ، وان اتوارى اذا دعا الحال بزحزحة الكرسي قليلاً إلى الوراء . وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة ، فكانت موائدها قديمة وكراسيها باهتة رثة ، وروادها من النوبيين ، ولكن لم أبال بهذا ، بل وجدت به مدعاة للطمأنينة . جلست وعيناي لا تتحولان عن شارع كال ، وكلما جاء ترام من المدينة اشتد انتباهي ويقظتي . ولم يطل بي الانتظار فما لبثت أن رأيت زوجي وهي تعبر الطريق متلفتة يمنة ويسرة لتتفادى من المركبات حتى بلغت «الطوار» الأيمن لشارع كال ، ثم سارت بمعطفها الرصاصي المنمنم ، بطولها الفارغ الرشيق ومشيتها اللطيفة المهذبة ، في احتشامها المعهود ووقارها المحبوب ثم انعطفت إلى مدخل المدرسة وقد وقف لها البواب احتراماً ، غلبني الخجل والألم لموقفي ذاك ، وترطب قلبي المحترق بالعطف والحب وانا أذكر كيف بهرني هذا الجمال الوقور أول مرة ، اللهم اذا كانت حبيبتي ملاكاً فلتحرقني بنقمتك ، وإذا كانت شيطاناً فلتحرقنا جميعاً ، ولتحرق الدنيا معنا فما يكون بها شيء يستحق الرحمة ، وارتفعت عيناي الى السماء وغمغمت : « ربي ! إذا شاءت حكمتك ان تذر سموم الغدر في حنايا هذا الجمال فلتغفر لي الجنون والثورة ! » .

وتفحصت الطريق امامي متسائلاً في رهبة : تري هل أرى بعد ساعات من يقف منتظراً بموضع من هذا الطريق ؟.. هل أراهما وهما يتبادلان إيماءة او ابتسامة او يلحق احدهما بالآخر ؟ . ما عسى ان اصنع لو انقضت هذه الصاعقة على رأسي !! وانتفض جسمي غضباً ورعباً ! ، وتخيلت الكارثة كما لو

كانت قد وقعت،تخيلتها حتى تجسمت لناظري،ثم تساءلت مرة أخرى عما عسى ان أفعل !. ليس أسهل من البطولة والنصر والبطش في أحلام اليقظة ، ومع ذلك فلم يسعفني الخيال بنفحة منها ، ولعله تحرج لأن الخطر الذي تهددني لم يكن بعيداً بحيث يسمح له بالاستمتاع بأحلامه ، كان على العكس قريباً محتملاً ، فشكم الاحلام ، وتمثل لي الموقف البشع في حدود الواقع ، فتصورته بقلب هياب ونفس مخلخلة القوائم ، تمثل لي العدو شخصاً حقيقياً في طريق مزحوم بالمارة فما اسعفني الخيال على التصدي له جهاراً ونشر فضيحتي على الملأ ، أو خوض معركة لا أشك اني سأكون فيها من الخاسرين !. تصور زوجاً مخدوعاً صريعاً بلكمة من خادعه !. تباً لي ! لكم حنقت في تلك اللحظة على ضعفي !. غضبت غضب من يروم دك الجبال ، وتنهدت تنهد من يعجز عن رفع حصاة ، ولكن ما من الاقدام بد !. أأرى « رباب » مع صاحب الخطـــاب ثم اقف مكتوف اليدين ؟!. محال .. لاهجم اذن على غريمي وليكن مـا يكون ، أو أقنع بمشاهدة الجريمة الساعية في الارض ، ثم انتظرها في البيت حتى تعود واقول لها بهدوء ، واستهانة ، « لقد رأيت كل شيء بعيني، عودي الى بيتك بسلام!». لماذا اقدمت على هذه الخطوة الجنونية ؟. لماذا تزوجت ؟. ما كان ينبغي لمثلي أن يتزوج . وارتفعت في القهوة ضجة ضحك فانتشلتني من الاحلام ، فعدت الى وعيي متعباً كالمريض ، والقيت نظرة على الوجوه السود الدائبة على ثرثرة لا تنقطع بأصوات غريبة مكهربة ، ونظرت بين يدي فاذا بفنجان القهوة لم يمس، فرفعته إلى فمي ورشفت منه رشفات باردة ، وعدت ببصري الى الطريق حتى استقر على باب الروضة . ان « رباب » تباشر الآن عملها في طمأنينـة ، ومن يدري فلعل هذا الرعب كله ان يتمخض عن لا شيء ، ولعلي ان أذكر موقفي هذا يوماً فلا ادري كيف اداري خجلي . أتكذب هاتان العينان الصافيتان ؟. ايغدر هذا القلب الطاهر؟. وتتابعت الدقائق في تفكير متواصل ، حتى انتبهت على طقطقة نافذة وهي تفتح ، فاتجه بصري بحركة عكسية الى الجانب الآخر من الطريق ، فرأيت النافذة في الطابق الثاني من عمارة كبيرة وقد اطلت منها امرأة ، ولعلها عجبت لجلوس أفندي مثـلي في قهوة النوبيين ، فنظرت صوبي باهتمام ، وكان في عينيها جراءة ، فارتد بصري في حياء . ومع ان عيني لم تثبتا

عليها الا لحظات الا انها عادتا منها بصورة واضحة لوجهها الغليظ وصدرها المكتنز ، وداخلني احساس بالقلق ، لأن النافذه تطل على مجلسي مباشرة ، وقد رفعت عيني في حذر شديد فرأيتها تدخن سيجارة وتنظر الى شيء بين يديها على حافة النافذة ، فتشجعت بتحول عينيها عني وأدمت اليها النظر . كانت فوق الأربعين ان صدق نظري – وقل أن يصدق في تقدير الأعمار – وكانت على رغم تأنقها وتزينها أقرب للدمامة منها للحسن ، ذات وجه مستدير غليظ ، وعينين بارزتين ثقيلتي الجفنين ، وأنف قصير افطس ، وشفتين ممتلئتين ، ووجنتين متكورتين منتفختين ، وشعر جعد لامع. وما لبثت أن غابت من النافذة فكاد يذهب عني القلق ، ولكن باب شرفة تجاور النافذة فتح على مصراعيه وبرزت المرأة منه تجر كرسياً ، ثم وقفت قليلاً مرتفقة حافة الشرفة ، فرأيت جسمها المكتنز المائل الى القصر ، ثم جلست على الكرسي واضعة رجلاً على رجل . كانت الشرفة أقرب الى الطريق العام من النافذة ، فأمكنني أن الحظ من فيها دون حاجة الى عطف رأسي،فاختلست نظرات من ساقيها المرتويتين السمراوين، وشبشبها الاحمر الفاقع ، وانقذني وجودها من تيار أفكاري الجهنمي وان استحوذ علي ذلك القلق الطارىء ، وراحت تنفخ الدخان من شفتيها الغليظتين وتقلب عينيها فيما حولها ، وكلما التقتا بي تفحصتاني بجراءة منقطعة النظير حتى شعرت بحرارة الخجل تلهب وجهي ، وتساءلت في ارتباك : متى تختفي ؟. فلقد اربكني تفرسها في وجهي ، ولعله ترك في نفسي أثراً آخر غريباً لا يخلو من ارتياح حذر وانفعال جنسي لم أعرف له سبباً. وكنت كلما رفعت اليها عيني حولت رأسها نحوي وحدجتني بنظرة وقحة ثاقبة كأنها ترى بأذنيها، او انها تتمتع بحساسية خارقة تنقل اليها النظرات التي تصوب نحوها من اي مكان كان ، فركبني الخوف والحذر ، وحرصت على ألا أرفع بصري القلق اليها . ترى هل يطول بي هذا الحذر والتوتر ؟. وعلى حين فجأة رن صوتها – صوت ممتلىء رنان – وهي تقول وكأنها تخاطب احداً في الطريق : « اني قادمة يا ماما » ثم نهضت قائمة ومضت الى الداخل !. ولم أتمالك ان ابتسمت في استغراب واستنكار ، فقد هالني أن تقول « ماما » وهي المرأة التي جاوزت سن الشباب ، كما أدهشني ان تستجيب لنداء أمها بهذا الصوت الذي رن في الطريق بلا داع ، وكان بوسعها ان تذهب

اليها دون ان تنبس بكلمة ، او أن تخاطبها عقب دخولها الى الحجرة ، فبدت لي – الى جراءتها – غريبة الأطوار ، محبة للظهور وللفت الأنظار ، متجاهلة لسنن العقل الذي تعتلي ذروته . على انني سررت لذهابها ، ولتخلصي من سطوة نظراتها ، وعدت الى نفسي ، وإلى الطريق الذي علي أن أراقبه حتى ينطوي النهار . وتتابع الوقت فأتعبني تثاقله ، واستحوذ علي الضجر. ألا يحسن بي أن أمضي هنا وهناك حتى يقترب موعد انصراف الروضة ؟. ولكن من يضمن لي ألا تحدث امور في اثناء تجوالي ؟. فلأظل رهين مجلسي هذا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً !.. ولبثت بمكاني متجرعاً الصبر دقيقة فدقيقة ، وجاءني صوت من الشرفة ، فرفعت عيني ، فرأيت المرأة وهي تنقل الكرسي الى موضع من الشرفة تملأه أشعة الشمس ثم تستقر عليه . ولاحت منها نظرة الى القهوة ، فلما وقعت علي لاح بعينيها الاهتمام والدهشة وكأنها تتساءلان عما دعاني الى ملازمة مكاني بهذه القهوة الحقيرة طوال هذا الوقت، وتعمدت ان تظهر لي دهشتها بغير ما حياء فلم يبق إلا ان تسألني عما يبقيني في مجلسي ذاك ؟. وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بتلذذ ، وتتسلى بالنظر الي من وقت لآخر . وصممت على أن أركز انتباهي في هدفي ، فأرسلت بناظري إلى الطريق ، ولكن ظل شعوري في شغل شاغل !. وتبددت قوة إرادتي في مقاومة ما يجذبني الى رفع بصري ، وغلبني الحياء والارتباك إذ تهيأ لي – لضيق الشارع – أنني والمرأة في حجرة واحدة . ولم أخل من إحساس بالارتياح منشؤه انني أجد نفسي محط نظرة امرأة لأول مرة في حياتي ، ولم يعد يخفي علي ذلك الانفعال الجنسي الذي بعثه في اعصابي وجهها الغليظ وساقاها المرتويتان ، ولئن كانت جرأتها قد أزعجتني فلم تعدم في نفسي إثارة من ارتياح غامض ، لعله نوع من الاعجاب الذي لا يريد أن يفصح عن نفسه ، وتساءلت في دهشة : ترى لو كان لجميع النساء ما لهذه المرأة من جرأة أكنت اقطع ما خلا من زماني موحوحاً بغير رفيق؟! وانسقت وانا لا ادري الى مقارنة هذه الجرأة الجذابة بذاك الاحتشام الجميل الذي تتجلى به زوجي المحبوبة،ولكنني سرعان ما انكرت على نفسي هذه المقارنة الوقحة، فامتلأت سخطاً وتقززاً ، ولبثت المرأة بمجلسها ساعة ثم عادت الى الداخل وأغلقت باب الشرفة ، فتنهدت بارتياح عميق وغمغمت : « لا أرجعها الله » ،

وانفرد بي الانتظار ، ومر الوقت في إعياء وسأم ، فجعلت أتسلى بمراقبة ستة او سبعة من النوبيين هم كل من بقي بالقهوة من الزبائن ، وقد واصل ثلاثة منهم الثرثرة على حين جمد الآخرون على مقاعدهم كتماثيل من البرونز . وحيناً أرمي بنظري الى الطريق العام أحصي المارة نساء ورجالاً ، وأشاهد مركبات الترام الذاهبة الآتية ، او أتساءل كلما قرع أذني أزيز ترام آت من بعيد ان يكون رقم ٣ أم رقم ٢٢ ، وهـل يجر مركبة مكشوفة او مغلقة ثم أحصي مرات الصواب والخطأ . ولما آن وقت انصراف الروضة عاودتني اليقظة ، ثم اشتد بي القلق والجزع ، وجالت عيناي في جنبات الطريق ثم استقرتا على باب المدرسة ، ولشد ما خفق قلبي حين رأيت جماعة من المدرسات يغادرن الروضة ، وعلى اثرهن خرجت « رباب » بصحبة فتاة من زميلاتها ، واتجهتا نحو شارع العباسية وهما تتحادثان وتتضاحكان . وافترقتا في الطريق العـام فاتجهت الفتاة إلى اليسار ، وسارت زوجي إلى المحطة ، ولما كانت وقفتهـا بحيث يتجه وجهها صوب شارع القهوة الجاني فقد تراجعت بالكرسي إلى الوراء منتحياً عن مرمى بصرها ، وتفحصت الطوار بعناية وقلبي يكاد يثب من موضعه من شدة الخفقان فقد حدثتني نفسي بأنني سأتلقى الضربة القاصمة بعد لحظات . وكان على « طوار » المحطة شتيت من الرجال والنساء ، ولكن زوجي انتبذت طرف الطوار البعيد ووقفت وقفتها المحتشمة لا تميل برأسها نحو أحد ، وتنظر من آن لآخر من وراء كتفها صوب الجهة التي يأتي منها الترام ، لم أر ما يريبني ، ولم تتحول عنها عيناي لحظة واحدة حتى جاء الترام وصعدت اليه ، وبارحت مكاني متعجلاً وناديت تاكسي وركبته وطلبت من السائق أن يتبع الترام عن بعد وجلست لصق النافذة اليسرى وعيناي إلى مقصورة السيدات ، حتى بلغنا العتبة ، ونزلت زوجي من الترام واخترقت الميدان إلى محطة الترام رقم ١٥ الذاهب عن طريق الروضة ، فدرت بالتاكسي حتى وقف بي على كثب من قسم الموسكي ، رأيتها تقف في زحمة من الخلق فجعل بصري يدور في الحلقة التي تحيط بها ويثبت عليها في سرعة وجنون ، وجاء الترام فصعدت اليه ، ومضى بها ، فتبعته محطة بعد محطة حتى طوى الطريق إلى محطة عمارتنا ورأيتها تغادره وتعبر الطريق صوب البيت ! . وانطلق بي التاكسي محطة أخرى ، ثم غادرته وعدت إلى البيت مشياً على الأقدام ، وشعرت في طريق عودتي براحة مشوبة بخجل ، وتساءلت في حيرة : ترى هل

فتاتي بريئة أم ينطوي الغد على ما لم اعثر به في يومي ؟ . ولما انتهيت الى الشقة وجدت امي قلقة لتأخري ، وكذلك « رباب » فأخبرتها بأن العمل يستدعي بقائي في الوزارة لهذه الساعة مدة اسبوع على الأقل ، وحين الأصيل أخذت « رباب » في ارتداء ثيابها وقالت لي انها ستزور أمها ، ودعتني – كعادتها كلما خرجت – الى مرافقتها ، وتساءلت كيف يمكنني مراقبتها في المساء ؟! ليس الأمر سهلاً كما في الصباح ، فالبيوت التي تتردد عليها في احياء متقاربة ، وهي تقصدها مشياً على الأقدام ، إلا فيما ندر. فلا أستطيع أن آمن على نفسي – إذا تبعتها – من الافتضاح ، ولكنني اذا لزمتها في تجوالها أمنت المساء ، ولم أدع لها فرصة لأمر ، مما يضطرها الى مقارفة الإثم – ان كان ثمة إثم – في نصف النهار الأول فتقع في شباكي من حيث لا تدري . لذلك تقبلت دعوتها بسرور وقلت لها ضاحكاً:

– سأذهب معك تفادياً من الملل الذي يقتلني في غيابك .

فسرت لقبولي دعوتها وقالت برجاء :

– ليتك تخرج معي دائماً فليس أحب إلي من ان نذهب ونجيء معاً ...

* * *

وفي صباح اليوم الثاني خرجنا معاً كعادتنا ، وأعدت ما صنعت بالأمس ، فاستقللت التاكسي الى قهوة النوبيين واتخذت مجلسي بمدخلها ، وجاءت رباب في موعد الأمس ومضت الى الروضة ، وخطر لي وأنا اتبعها عيني انه لو كان لها حساسية المرأة الغريبة – لم اذكرها منذ غادرت العباسية بالتاكسي امس حتى وثب لذهني هذا الخاطر – فالتفتت صوبي ووقع بصرها علي فدارت على عقبيها وجاءت إلي في دهشة تسألني عما أتى بي إلى هذه القهوة؟. تصورت هذا المنظر في فزع فانكمشت في مجلسي هلعاً، وعضني الندم والألم، ولكن زوجي مالت الى المدرسة آمنة مطمئنة ، غافلة عن العينين اللتين تراقبانها في حذر وارتياب ، حتى غيبها الباب عن ناظري ، فذهب عني التوتر والخوف ، وشعرت برهبة حيال الانتظار الذي كان علي ان اعانيه في تصبر وتجلد نهاراً آخر ، والقيت نظرة دائرية ضجرة على شارع القهوة الجانبي وما يبدو لي من شارع العباسية والقهوة بزبائنها السود ، تلك الأماكن التي قضي علي بأن أمكث بينها كالسجين المجنون المخبط في دياجير

الأفكار وشوارد الاخيلة الجهنمية . ولكنني كنت ذكرت المرأة الغريبة وأنا أراقب زوجي في ذهابها الى المدرسة ، فرفعت عيني الى العمارة على الجانب المواجه للقهوة ، فرأيت النافذة والشرفة مغلقتين ، وتساءلت كيف لي بتحمل الانتظار نهاراً كاملاً بلا تسلية أقتل بها الوقت ؟. وكان تساؤلاً مريباً أداري به رغبة في رؤيتها كرهت الاعتراف بها ، ولكن ماذا يدعوني الى انكار هذه الرغبة ؟. وهل هي رغبة في التسلية وقتل الفراغ ؟. أجل ان المرأة قد أهاجت في صدري انفعالاً جنسياً ، ولكن ليس في هذا جديد ، فقد كنت ولا زلت اتلقى هذه الانفعالات الجنسية من أقبح الآدميات وأقذرهن ، ولم يغير الزواج من حالي ، ولم يشفني من دائي ، فرددت الى عاداتي القديمة جميعاً ، وعاودت النظر الى النافذة مرة اخرى ، وكأني أعاني انتظارين !. فلأحاول فهم نفسي أكثر من هذا ، لست طالب تسلية فحسب ، اني أرغب في رؤيتها مرة أخرى لتلتهمني بنظراتها كما فعلت بالأمس فيعاودني ذاك الشعور العميق بالارتياح والزهو ، وأسترد بعض الثقة المسلوبة ، ولم أكد استغرق في افكاري حتى قرع اذني طقطقة النافذة ، فرفعت عيني ، فرأيتها وهي تنفتح على مصراعيها ، ولاحت وراءها المرأة ، والتقت عينانا ، ولم تكن تتوقع رؤيتي بطبيعة الحال . فتجلت في عينيها دهشة واضحة ، ولبثت دقيقة او نحوها وهي ترنو الي ثم تحولت عنها واختفت . وداخلني سرور لا يتناسب مع شقاء المهمة التي جئت من أجلها الى هذا المكان ، واتجه بصري صوب الشرفة المغلقة منتظراً أن تفتح ، وقد كان فدفعت يد مصراعيها حتى اصطدما بعنف بالحائط على الجانبين ، ثم دخلت المرأة تجر الكرسي بجسمها القصير المكتنز ، وقد بدت لي في الروب الوردي كبرميل الا انه مفصل تفصيلاً بهيمياً ، ووضعت الكرسي في ركن الشرفة البعيد . وجلست عليه مستقبلة القهوة بوجهها ومدت ذراعيها على حافة الشرفة الخشبي ، وجهاً لوجه ، وليس بالشارع الجانبي دكان ، ولا يكاد يمر به أحد الا فيما ندر ، وأما زبائن القهوة فعاكفون على ثرثرتهم في الداخل لا يرون شيئاً ، ومائدتي بموضعها من المدخل وحيدة ، فخلتنا منفردين على نحو ما . وشعرت في اللحظة التالية بالارتباك والحرج ، ولم أدر كيف يمكنني البقاء هكذا تحت رحمة عينيها الوقحتين ، فتمنيت لو لم تحقق رغبتي الخفية ، وجعلت انظر الى الطريق البعيد

تارة ، أو أعطف بصري من فوق كتفي الى داخل القهوة تارة اخرى ، شاعراً في اثناء هذا وذاك بوقوع عينيها الثقيلتين على وجهي . اني راغب في وجودها ما في هذا من شك ، ولكني لم احتمله ، وما من مرة استرق اليهـا نظرة الا وأجدها متفرسة في وجهي في هدوء وامعان وبلا حياء او تردد ، وان هــذا ليملأني سروراً وخفة ولكنه يسومني ما لا طاقة لي به من خجل وارتباك . ان عينيها تنظران طويلاً ولكنهما لا تنظران فحسب ، انهما تتحدثان بأجلى لسان ، كلما التقت عينانا خلتهـا تخاطبني فأغض الطرف وكأني افر فراراً . ونظرت نحوها مرة فوجدتها تشعل سيجارة ، وأطفأت عود الثقاب بهزتين ثم رمت به نحوي لولا أن ارجعه الهواء، وأخذت نفساً عميقاً وقد ابتسمت عيناها ، فخفق قلبي بعنف وازدردت ريقي بصعوبة ... ماذا تريد هذه المرأة ؟.. كيف توأتيها الجرأة على هذا النظر العارم الوقح ؟.. بل كيف تطاردني هذه المطاردة الصامتة وهي لم تسبق لهـا بي معرفة ، ولم ترني إلا مرة بالأمس ومرة اخرى اليوم . واستحوذ عـلي الاضطراب ، وشغلت بالشرفة انشغالاً تاماً فلم أعد ألقى عـلى باب الروضة الا نظرات سريعـة لا تكاد ترى شيئاً . ورأتني انظر نحوها فوضعت رجلاً على رجل جاذبة عيني قهراً إلى جانب عريض من فخذيها أحدث التقاؤهما واشتباكهما طيات سمراء مثـيرة فشعرت بمثل ثورة الخمر وجف حلقي ، وطغت عواطفي على حيائي فذاب كما يذوب الثلج تحت اشعة الشمس النارية فحملقت فيها بلا خجل ولا تردد ، وما لبثت ان نهضت قائمة وغادرت الشرفة !. تركتني في ثورة جامحة. وقلت لنفسي ساخطاً : أية هاوية تنفغر تحت قدمي !. ثم ثبت إلي الهدوء رويداً فأمضني الأسف والخجل، وألقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغمت كما غمغمت بالأمس: « لا أرجعها الله ! » . قد يكون الانتظار مؤلماً ولكنه خير من هذا الشر الذي يتهددني . ولم يكن يساورني شك في انها ستعود، وكان بوسعي ان اغادر القهوة الى غير عودة ، وان أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار، ولكني اقنعت نفسي بأن هذه القهوة المتوارية هي اصلح الأماكن قاطبة لمهمتي، ولم تطل غيبة المرأة فعادت الى مجلسها وفي عينيها نظرة باسمـة ، وتملكني الغضب لا لعودتها ولكن للسرور الذي استخفني. وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا

أقبح منها ، ولكني عدت أخالسها النظر واتمنى لو تأخذ راحتها وتضع رجلا على رجل . وعدت أتملى إيثارها لي بالنظر والاهتمام فازدهاني عطفها وشعرت بنهم الجائع الى الاستزادة منه ، وهل كان هذا الاهتمام لا لجمال وجهي ورشاقة قوامي ! وقلت لنفسي في غرور صبياني لعلها معجبة بالأعين الخضر والبشرة البيضاء والقامة الفارعة. وعلى حين بغتة انسل الى خاطري صوت هامس يتساءل في سخرية : « وهل أغنى عنك جمالك شيئاً؟! ». وتمثلت لعيني تماسة الزوجية فكأن قطعة كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسي فأخمدتها وخنقت انفاسي. فترت نشوتي وحل محلها شعور بالغ بالشقاء والخيبة ، وتناسيت الشرفة ، وهرعت افكاري الى الروضة فتمنيت لو تنكشف لي الحقيقة مهما كانت بشعة قاسية لأنتهي من الأمر كله . تمنيت – اذا لم يكن من الأمر بد – ان ارى صاحب الخطاب يلاقي رباب ويحادثها . اليوم لا غداً ولا بعد غد ، بل كان في ذهني شيء آخر – في تلك اللحظة – لا ادري كيف اعبر عنه . كأنني تمنيت ان يصدق سوء ظني !. لست مخطئاً ، كان هذا هو الواقع ، ولكن كيف افسره ؟!. هل ثقل علي الشك فرغبت ان انجو منه ولو بهذا الثمن الفادح ؟. او ضقت بهذا العجز الغريب الذي جعل من حياتي الزوجية مهزلة فتمنيت ان اجد في جريمة زوجي مهرباً من حياتي !؛ او كان ضميري الرازح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتمس عقاباً وتكفيراً !. على انه لم يكن إلا إحساساً عابراً . ولم يبق منه أثر في اللحظة التالية . وغشيتني بعد ذلك كآبة وامتعاض ، ولم تلبث المرأة ان غادرت الشرفة تلبية لنداء من الداخل كما دلت عليه استجابتها فلم تعد للظهور . وانتظرت طويلاً تتناوبني الأفكار والأخيلة المفزعة حتى انطوى يوم الانتظار ورأيت رباب – كالأمس – قادمة نحو المحطة . ولم يجد جديد فرجعنا ، هي في الترام وأنا في التاكسي . وعند المساء اقترحت علي ان نذهب معاً الى سينما رويال فقبلت بلا تردد ، وذهبنا معاً ...

* * *

وفي صباح اليوم الثالث حملني التاكسي الى نفس الهدف ، وذكرت في الطريق المرأة الغريبة فتمثلت لعيني بوجهها الغليظ وجسمها القصير المكتنز . ولم أكن أذكرها لأول مرة ذاك الصباح ، فقد لاحت لخاطري في البيت وانا آخذ زينتي

امام المرآة فكانت داعياً لمضاعفة العناية بتمشيط شعري وعقد رباط رقبتي ، وتولاني احساس حاد بالخجل والذنب والقلق ، وألقيت تبعة هذه الورطة على رباب وسوء تصرفها الذي سأقني الى هذه المراقبة الحمقاء ! ولكن هل أستطيع ان اتمنى عدم ظهورها في الشرفة صادقاً ؟ هل يمكنني احتمال يوم الانتظار الطويل بغير وجودها، وبغير وقاحتها الممتعة ؟ واتخذت مجلسي من القهوة فجاءني النادل ذو الجلباب الباهت ، والطاقية المائلة إلى قذاله كاشفة عن ذؤابة متصلبة ، والنعل المتجرد ، وحياني تحية لعله لا يلقيها إلا للذبائن القدماء ، فطلبت القهوة التي أحسوها بتقزز واستكراه ، وتساءلت ممتعضاً ماذا وراء هـذا التجسس المقيت ؟!. الا يجمل بي ان اقلع عما أخذت نفسي به ظلماً وسوء ظن ؟. لقد عاشت زوجي يومين كاملين في متناول بصري فهل وقفت منها على ما يريب ؟!.. هل لاحظت عليها ضيقاً او تبرماً ؟ أليست كالعهد بها صفاء ومودة وسعادة ؟! وطاب لي الفكر فداخلني شعور بالطمأنينة والارتياح ، ومر وقت فسارع الي الملل ، ونظرت في الساعة ، ترى هل استخبرها عما فات من زمن ام اسألها متى تفتح النافذة ؟ ومهما يكن من أمر فقد فتحت النافذة ولاحت وراءها المرأة بغلاظتها وتبرجها . اتسعت عيناها البارزتان دهشة ورفعت حاجبيها المزججتين كأنها تقول : « أما زلت ملازماً مكانك ! » ثم خفضت رأسها لتواري عن عيني ابتسامتها وخفق قلبي خفقاناً سريعاً في سرور ، وعاودني الخجل من نفسي فجعلت اقول لضميري بأنني لا أتطلع لاثم ، وان مثلي حقيق بأن يسر إذا ما وجد من امرأة اهتماماً ، أجل اني بريء ، وما جئت هذه القهوة الا لغرض لا شأن له بهذه المرأة ، وسأنقطع بعد يوم أو يومين عن هذا الحي كله فلا أعود اذكرها بخير أو بشر . أما المرأة فقد اختفت من النافذة ، ثم فتحت الشرفة ودخلت بكرسيها، وجلست في الركن المواجه لي ، وفي عينيها ابتسامة من لم يعد بحاجة إلى تعارف. بت اليوم أقدر على احتمال هذا الموقف ، ولكنني مـا زلت أتظاهر بالنظر إلى الطريق العام مختلساً من آن لآن نظرة إلى الساقين المدملجتين خلال قضبان الشرفة الحديدية ، ولم يفارقني الارتباك بل لعله تضاعف بهذه الابتسامة التي تلوح في عينيها كلما التقت عينانا ، يا لها من امرأة جسور ، بوسعها أن تفعل ما تشاء بلا خوف ، أما انا فليس لدي إلا غض البصر !. أيدور لها بخلد انني متزوج؟ وانني

ما جئت إلى هذه القهوة إلا كي أضبطزوجي متلبسة بجريمة الخيانة ؟. ترى هل تبقى على اهتمامها بي إذا عرفت هذا كله ؟ شعرت عند ذاك بخزي أليم . ثم ساءلت نفسي عنهـا من تكون ؟ أهي زوجة أم أرملة ؟. وماذا تريد ؟!. وحدث ان ارتفقت المائدة بيساري وافترشت ظاهر يدي بذقني، فما كان منها الا ان ارتفقت حافة الشرفة بيسراها وافترشت يدها بذقنها وهي ترنو إلي في دعابة !. وتلقيت الدعابة بخجل جعلني لا أرى شيئاً ، وأرسل قلبي ضربات عنيفة طنت في أذني . انها تغازلني صراحة ، وأشعر بأن « الرجولة » تقضي بأن اخرج من هذا الجمود ولكني لا ابدي حراكاً وأشتد بي الارتباك فبت في حال يرثى لها. وسحبت يسراي وشبكتها بيمناي على صدري فما أسرع ان سحبت يدها وشبكتها بالأخرى على صدرها وقد ازدادت ابتسامتها اتساعاً . وغلبتني ابتسامة فابتسمت وأنا اطرق في خجل لا يوصف . وأطلقت هـــذه الابتسامة شحنة حبيسة من ارتباكي فسرى عني قليلا ، واستطعت أن أحس بمـــا يستخفني مـــن سرور . وشعرت شعوراً قوياً بالفارق بين عمرينا فلذني هـذا الشعور ، وتمنيت لو يتقهقر بي العمر إلى العشرين أو ما دونها. رباه.. اني أهوى بلا وازع. ولكني لم أعد أبالي شيئاً. ولاحت مني التفاتة إلى شارع كال فصادفت عند ناصيته شبح فتاة تنعطف الى اليسار فحال بيني وبينها جدار القهوة. خلتني رأيت معطفاً رصاصياً كمعطف رباب فخفق قلبي خفقة عنيفة كاد ينخلع لها. ما الذي دعاها إلى مغادرة المدرسة في هذه اللحظة؟ وما الذي جعلها تتجه إلى اليسار على حين ان طريق المحطة إلى اليمين فيما لو فرض ان عذراً دعاها للعودة ؟.. وانتفضت قائماً وهرولت مسروعاً إلى الطريق العام بلا تبصر ولا احتراس ، ثم نظرت صوب المنعطف الذي ســارت اليه ذات المعطف الرصاصي ، فرأيتهـــا كانت امرأة في الخمسين تحث الخطى على الطوار ! وتنهدت من الأعماق وغمغمت كعادتي كلمـــا نجوت من مأزق « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، وعدت الى مقعدي وبي ما يشبه الاعياء والخور . لن أنسى هذه الخفقة التي كاد يتصدع لها صدري ، فماذا يكون أمري لو وقع المحذور !. ورفعت رأسي صوب الشرفة فرأيت المرأة تحملق في وجهي دهشة وعيناهــــا تتساءلان عما حل بي ؟! وارتسمت على شفتي إبتسامـــة ! أجل انساني الانزعاج خجلي فابتسمت . لم يعد يخفى مـــا بيننا من ابتسام ، وحديث صامت يعبر تارة بالعين وتارة بالحاجب !. ولم يعد يخفي علي ما يعتلج في صدري من عاطفة جهنمية

ولو كان ما بي حب لركبني الخوف وقدرت العواقب، ولكن بدا لي الأمر واضحاً لا لبس فيه فلم تزايلني الثقة. ولبثت ساعة أو أكثر أتلقى هذا الغزل في صمت وحياء وسرور جنسي عجيب، ثم نهضت المرأة قائمة وهي تتمطى فانفرج الروب عن صدر ريان منتفخ يكاد يتهتك من ضغطه القميص الوردي الشفاف، ثم ألقت علي نظرة وداع باسمة، وغمزة بعينها قبل أن تغيب وراء الباب، تركتني في سعير التهمت ناره ساعات الانتظار الباقية، وفي ميعاد الانصراف غادرت رباب المدرسة واتجهت كالعادة إلى المحطة. وعدنا إلى البيت كل على طريقته. ولم نخرج مساء إذ زارتنا أختي راضية وزوجها فقضينا سهرة عائلية ممتعة.

* * *

اليوم الرابع: قالت لي رباب ونحن ننتظر الترام على طوار المحطة: سأتأخر اليوم عن ميعاد عودتي لأني سأعود زميلة مريضة تغيبت عن المدرسة من يومين.

والقيت عليها نظرة مريبة لو رأتها لساءت العاقبة. ثم خفضت بصري بسرعة كاظماً عواطفي، وسألتها بصوت ينم عن عدم الاكتراث: أين بيتها؟

– في مصر الجديدة. ومتى تعودين؟. وقت الزيارة ومسافة الطريق.. لن أتأخر عن السابعة. وبدأت تتملص من ظلي الثقيل!. واختلست منها نظرة فبدت لي جميلة رائعة، ثم ركبتني نزوة طارئة فتمنيت لو أهوى عليها بفأس فأشقها نصفين. وجاء الترام فصعدنا اليه وأنا في أسوأ حال، وغادرته عند محطة الوزارة وناديت التاكسي، فطار بي إلى قهوة النوبيين. واستقبلت النافذة المغلقة بنظرة طويلة، ثم عدت إلى أفكاري. تلك الزيارة في مصر الجديدة! لن أدعها تذهب وحدها. كان تصميماً لا رجعة فيه ولكن هل ينجح مسعاي؟ هبني تأثرتها إلى مصر الجديدة ثم رأيتها وهي تدخل بيتاً أو عمارة فمن يدريني بما يقع وراء الجدران؟ قد تكون في عيادة زميلة حقاً، وقد تكون في أحضان عشيق!. وانتفضت انتفاضة قاسية وعضضت على أسناني حتى سمعت صريرها كالطقطقة. ولكني أبيت أن اثبط عزيمتي. لأتبعنها فلعلي أراهما معاً في الطريق، ولعلي أجد ضبط الجريمة أيسر مما اتصور. ما أفظع هذا، ولكن ما أروحه لي كذلك، فاذا لم يكن من الكارثة بد فمن الرحمة أن تقع سريعاً، واستحوذ علي القلق والجزع، وأيقنت انني لن أستطيع مع اليوم صبرا. ولاحت مني التفاتة إلى النافذة المغلقة

فتعلق بها بصري فيما يشبه الاستغاثـة ، وتملكني احساس عنيف بالضغط الذي يهتصرني، وتلهفت نفسي على منفذ تتسرب منه بعض الأبخرة المزمجرة في أعماقها. أي تنفيس ولو جر وراءه الأثم والخزي . وعند العاشرة فتحت النافذة وطالعني الوجه الغليظ بابتسامة مشرقة . وتحول انتباهي اليها فأنقذني من نفسي، وثبتت عيناي عليها في جرأة لا عهد لي بها ، وانبسطت أساريري وأنا لا أدري فردت التحية بمثلها . واختفت من النافذة فسبقتها عيناي إلى الشرفـة ولكن طال الانتظار عن المعتاد، ثم بدت مرة أخرى في النافذة ، فاذا بها قد ارتدت معطفاً وأخذت أهبتها للخروج . وخطر لي خاطر كالبرق ، هل تدعوني إلى مرافقتها إلى مكان ما ؟ وغمرتني موجة من السرور والحيره والخوف . ما أحوجني إلى هذه الدعوة ، ولكن هل أترك رباب في هذا اليوم الحاسم ؟! انه يوم بالعمر كله، وأن مصيري معلق بمصر الجديـــدة فكيف أقاوم دعوة المرأة اذا دعتني ؟!. وفرغت المرأة من زينتها ، ثم وقفت تنظر إلي في هدوء وابتسام . ونظرت إلى شيء بين يديها فتتبعها بصري فاذا بأناملها تطوي ورقة صغيرة ، ثم تثنيها من الطرفين ، وتفحصت الطريق بنظرة شاملة ثم رمت بها فسقطت على كثب من قدمي . وتناولتها بعجلة وبسطتها وقد سطع منها شذا طيب مخدر فوجدت بها هذين السطرين : « انتظرني اليوم في تمام السابعة مساء عند الجسر في نهاية خط الترام » . وداخلني ارتياح اذ أنها منحتني مهلة عن غير قصد ، ولكن ترى هل يسعني انجاز الوعد اذا ارتبطت به ؟ ألا يقع في مصر الجديدة ما يعوقني عنه؟. ولم أجد فسحة للتفكير والاختيار فقد حدجتني بنظرة متسائلة وهزت رأسها مستفسرة ، فلم أملك أن حنيت رأسي بالايجاب . وابتسمت إلي ابتسامة حلوة وحيتني بايماءة من رأسها ثم أغلقت النافذة ، فأدركت أنها ذاهبة إلى زيارة أو نحوها . هكذا ارتبطت بالموعد مدفوعاً بضعفي الذي يجهل المقاومة وان كنت لا أدري اين اكون وقت أزوفه ، وهكذا سقطت في نفس الخطيئة التي أتهم بها زوجي !. أيخلق بي ان اسر بهذه الخطوة الجسور ام اندم عليها ؟ وهل ينتهي اليوم بحب او بمأساة ؟ لشد ما كرهت الحياة في تلك اللحظة . واندمجت في تيار شعوري ألوان من المشاعر المتناقضة من سرور إلى خوف ، ومن أمل إلى يأس، ومن حماس إلى فتور ، ثم علته موجة طاغية من التلهف على المغامرة لواذا من الهم الذي ينيخ علي فيكاد يخرم بي الأرض . وطويت الورقـــة بعد ان تلوتها

عشرات المرات ثم دسستها في جيبي . وانفرد بي الانتظار حتى فتحت الروضة ابوابها ولاحت لي رباب قادمة من بعيد . هذه هي الساعة التي اتربص بها منذ اربعة ايام هي اشقى ايام حياتي . سأتبعها ما في ذلك شك تاركا الموعد للظروف وحدها . وتوقعت ان تميل إلى اليسار ، صوب محطة الترام الصاعد إلى مصر الجديدة، ولكنها عدلت إلى اليمين، إلى المحطة المعتادة التي تنتظر بها كل يوم!. وادركت لتوي انها اختلقت قصة الزميلة المريضة لتنتحل عذرا لغيابها، واضطرب صدري اضطراباً لم ادر معه كيف اتمالك انفاسي. هل آن لي ان انتهي من هذا العذاب ؟ ورمقتها بموقفها من الطوار بنظرة نارية وانا اعجب لهذا الاحتشام الزائف الذي يطوي في اعماقه شراً فظيعاً وفسقا مخجلا . ثم جاء دور المطاردة التي ارجو ان تكون مجدية هذه المرة . فصعدت إلى الترام ، وناديت التاكسي ، وجعلت ناظري إلى مقصورتها لا تتحولان عنها. ترى اين تغادر الترام؟أين تفعل فعلتها؟لشد ما يكبر علي ان اتصورها في امثال هذه المواقف المريبة !ولئن تكذبني الحقيقة الواقعة وتكشف لي عن وجهها الشائه الذميم فما يشبعني ويطفىء غلي إلا أن أدك رأسها باحجار هذه المدينة الهائلة، ماذا يدفعها إلى هذا الانزلاق الآثم هي التي تقف عن علاقة الزوجية المشروعة؟أم انها لا تبغيها إلا عوجاً؟.لشد ما مزقتني الحيرة لشد ما عذبني الغضب والحقد . على انني منيت نفسي بالراحة من هذا العذاب كله ، والخلاص من هذه الحياة المرة الطافحة بالخيبة والشك . سينتهي كل شيء بعد دقائق معدودات ، فلا يبقى داع لأن أسأل نفسي أهي بريئة أم مذنبة ،ولا يسوقني وسواس لتجشم أهوال المراقبة والتجسس ،وسيخلو البيت الا من الوجوه القديمة الآمنة ،والحياة الهادئة الوادعة . أجل وددت لو احطم الرأس الذي حطم قلبي ، ولكنني أضن بنفسي عن ان تضيع بسبب امرأة آثمة . كان غضبي قوياً وحشياً ،ولكن حبي السلامة كان أقوى واعمق .ألم يكن غريباً ان تدور أفكاري حول محور الخوف والسلامة حتى في تلك اللحظة المخيفة ؟! وتراءت لي العتبة فتساءلت مرة اخرى أين تغادر الترام ؟ورأيتها تغادره في محطة الميدان شأنها كل يوم ، فنزلت من التاكسي خوفاً من ان افقدها في الميدان المكتظ.ثم رأيتها تخترقه إلى المحطة الأخرى التي تنتظر بها عادة ، فدرت مع محيط الميدان ووقفت عند جدار القسم .وما احنقني الا ان تقف في احتشامها المألوف هادئة ساكنة كأنني لا أشتعل من أجلها ناراً .واستبعدت ان تقابل أحداً في مثل هذه الزحمة فتطلعت

إلى رؤية الترام الذي تصعد اليه ، وتتابعت المركبات بأرقامها المختلفةحتى جاء ترام الروضة فسارعت اليه واستكنت في مقصورة السيدات . وتولتني الدهشة أيكون الأمر في حينا ؟!وهرعت إلى تاكسي وتبعنا الترام . وجعل قلبي يـدق في عنف ، وتشتد ضرباته كلما مررنا بمحطة . ثم دخلنا شارع القصر العيني ، وقطعنا محطة وثانية وثالثة ورابعة حتىبلغنا محطة بيتنا ، فما راعني الا أنأراها تغادر الترام . ونظرت من نافذة التاكسي الخلفية فرأيتها تعبر الطريق وتدخل باب عمارتنا !. وتوسدت مسند المقعد وأغمضت عيني في اعياء وذهول . ماذا وراء هذا كله ؟. هل فقدت عقلي ؟. أما من نهاية لهذا العذاب ؟. وعدت إلى البيت فوجدتها لمتكد تفرغ من ارتداء الروببعد ان خلعت ملابسها ، وبادرتها قائلا في دهشة : حسبتك في زيارة زميلتك !. فافتر ثغرها عن ابتسامة وقالت:

– لم يكن بها الا وعكة خفيفة وقد عادت اليوم إلى عملها دون ان تجشم احداً مشقة عيادتها . ترى هل تنتهي وساوسي جميعاً إلى قبضة من الريح ؟. أين مني ليت !. اني احبها حباً يملك علي حياتي جميعاً ، ولا اتمنى على الله من شيءألا أن اسكن اليها في طمأنينة وسلام . وقالت لي وأنا ابدل ثيابي : دعتني خالتي بالتليفون إلى زيارتها مساء اليوم وكلفتني ان أنوب عنها في دعوتك ..

فقلت لها وأنا لا أدريماذا أقول : ان شاء الله . وادركت في اللحظةالتالية انني تسرعت باجابتي تلك إذ ذكرت الموعد عند جسر العباسية . ولكن هل أروم حقاً ان أذهب اليه ؟! اني الآن بعيد عن النافذة والشرفة وتأثيرهما أفـلا أزال أفكر في المرأة تفكيراً جدياً ؟.. أي شيطان يغرر بي ؟! ان قلبي لحبيبتي دون سواها ، فما بال نداء المرأة الغريبة قهاراً لا يقاوم ؟! وتفكرت طويلاً وما أزداد الا استسلاماً للنداء الشيطاني ،حتى لم يعد يحول بينيوبينه الا ما أخذت به نفسي من ملازمة زوجي مساء . ولكن أكانت تدعوني إلى زيارة خالتها لو كانت تضمر سوءاً ؟! وعاودت التفكير في جهد لأنه ليس أشقعلي من الاختيار بين أمرين . وترددت طويلاً قبل ان أقول :

– اوه لقد نسيت .. اني مرتبط بموعد هام !.

فتساءلت فيما يشبه الكدر : اتعني انك لا تستطيع الذهاب معي ؟.

فقلت وأنا أشعر بأن قدمي تنزلق إلى هاوية ما لها من قرار :

– اعتذري عني للست خالتك ...

* * *

بلغت جسر العباسية قبل الميعاد بدقائق . كان الجو لطيفاً والظلام شاملاً فاخترت موقفاً تحت مصباح غازي . ذهبت إلى الموعد بحال من القلق والتوتر ذكرتني بحالي يوم حملتني العربة إلى حانة شارع الألفي لأول مرة . كل هذا من أجل امرأة لا جمال لها ولا رشاقة ، يخجلني والله ان أظهر معها أمام الناس !. ولما اقترب الميعاد ركبني الخوف الذي تناوبني كثيراً في فترة الانتظار منذ العصر ، ماذا يحدث لو تكرر وقوع المأساة ؟. آه لا يزال أمامي متسع للهرب . ولكنني لم أبد حراكاً. انهذه المرأة هي فرصتي الوحيدة لاسترداد الثقة الضائعة وملكتني روح مغامرة لا عهد لي بها قالت لي : جرب ، لن تخسر شيئاً ، وعلى اسوأ الفروض فلن تخسر شيئاً جديداً .. واستيقظت من افكاري على سيارة متوسطة الحجم تقف أمامي بحذاء الطوار ،ثم انخفض زجاج نافذتها الجانبية وبرز منه وجه المرأة الغريبة وهي تجلس أمام عجلة القيادة . ابتسمت إلي ، ودعتني إلى الالتفاف حول السيارة لأجلس إلى جانبها من الباب الآخر ، فاطعت في اضطراب وفي أقل من ثانية كنت إلى جانبها ، فجذبت الباب والتصقت به وانا لا أكاد اشعر بما حولي من فرط الحياء . وأحسست بعينيها على خدي اليسرى ، فلازمت النظر إلى الأمام ، حتى ضحكت ملء فيها بصوت يعد إلى غلظة وجهها وجسمها رقيقاً وقالت بلهجة تنم عن التحريض : لم يعد من داع للحياء !.

وانطلقت بالسيارة في مهارة ويسر وهي تقول : لنذهب الى طريق الأهرام..

اندفعت بسرعة فائقة فولى قلبي خوفاً ، وجعلت كلما اعتاقها عن الاندفاع زحام أو اشارة المرور اتنفس الصعداء. والأعجب من هذا انها خففت من سرعتها الجنونية حين تركت وراءها الطرق المزحومة . واستردت انفاسي ، واسترقت اليها النظر ، فرأيت جانباً من وجهها الغليظ عن كثب ، وذاك الصدر المكتنز ، وتمثل لعيني صورة ساقها البرونزية المرتوية ، وذكرت ان قيراطاً واحداً يفصلها عن ساقي ، فاضطرب دمي . وأدهشني هدوؤها وطمأنينتها ، فكأنها تصاحب زوجها أو اخاها لا رجلاً غريباً لا يتمالك نفسه من الحياء والارتباك . سألتني دون ان تحول عينيها عن الطريق: ماذا ادعوك ؟ فقلت في اقتضاب: كامل رؤبة.

واكتفت بذلك عن ذكر اللقب الذي كثيراً ما يثير الضحك ، فتمتمت قائلة « عاشت الأسماء » وشعرت بأنه ينبغي ان اسألها كذلك عن اسمها . وتخيرت عبارة مناسبة ،واستجمعت قواي للفظها، ولكنها لم تنتظر ، وقالت ببساطة :

– ادعني عنايات اذا شئت . وغمغمت في خجل «عاشت الأسماء» ولكنها لم تسمع إلا همساً ، والتفتت نحوي فجأة وقالت مبتسمة :

– يا له من حياء غريب !. الم تعلم بأن الحياء موضة قديمة ؟. وان العذارى أنفسهن نبذنه بلا اسف ؟ ففيم تستمسك به انت ؟

فندت عني ضحكة مرتبكة ولم أنبس بكلمة ، فاستطردت قائلة : ولكن دعنا من هذا الآن فالدواء الناجع لا ينفع الا في حينه ، وخبرني بالله عليك ما الذي دعاك إلى مخالطة النوبيين في تلك القهوة القذرة ؟!. وتفكرت قليلاً متحيراً حتى وجدت في الكذب منجى فقلت : كنت يوماً راجعاً من مشوار طويل فلم أجد من مكان استريح فيه الا هذه القهوة : هذا عن أول يوم ، وما قولك عن اليوم والثاني والثالث ؟ وجاءني على البداهة جواب حسن ، فتغلبت على الحياء وقلت بصوت منخفض. انك المسئولة عن بقية الأيام.. فلحظتني ضاحكة وقالت بمكر : أحقاً تقول أم اردت التهرب بالغزل ؟. فغمغمت : بل قلت الحق..

فرمت بنظرها إلى الطريق في دلال وقالت: فلماذا اذن تلتصق بالباب مبتعداً عني كأنك تكره لمسي ! وتولاني الاضطراب ، ولم أدر ماذا أفعل ، ثم قلت كالمعتذر : ولكننا في الطريق.. واغرقت في الضحك ثم قالت : نحن في السيارة لا في الطريق . إلا ان الطريق نفسه لا يمنع أمثالنا من الالتصاق إذا شاؤوا . لا تتوار وراء الأعذار الكاذبة . وخبرني ما عمرك ؟!. – في الثامنة والعشرين من عمري.

– يا للعار !.. وكم امرأة عشقت ؟. ولذت بالصمت شاعراً بأنه لا قبل لي بها . وكأنها عجبت لصمتي فقالت بانكار : أتريد أن تقول انك لم تعشق امرأة من قبل ؟!. وهل أنا أول امرأة في حياتك ؟.. رباه وعيونك الخضر ألم تجذب أحداً ؟! لا شك انني أدركتك وأنت مشرف على الغرق ، فليجزني الله على صنيعي خير الجزاء . رباه من يصدق هذا ؟ كيف تعيش وماذا تصنع بحياتك ؟.

ولم أحر جواباً ، وأثر فيّ قولها تأثيراً موجعاً لم تدرك كنهه . ولعلها قرأت في وجهي الارتباك فرحمتني بالصمت ملياً . ثم سألتني عن عملي فأجبتها بأنني موظف . واستدركت قائلاً انني في اجازة قصيرة. وساد الصمت مرة أخرى ، وفي اثناء ذلك تزحزحت قليلاً صوبي حتى مس منكبها منكبي في رفق ، فبعثت في قلبي المنكمش حياة ويقظة فتتابع وجيبه على خوفي وخجلي ولما لازمت جمودي والتصاقي بالباب قالت باقتضاب وهي تكتم ضحكة : مني خطوة ومنك خطوة

ألا زلت هيابا ؟!. ولاقى مني النداء نفساً راغبة وقلباً خائفاً ، ولكن جالدت الخوف بجالدة وتزحزحت في حذر واشفاق حتى مس جانبي ، من أسفل الساق إلى أعلى المنكب لحماً طرياً يتطاير منه عرف طيب ساحر ، ولبثت هنيهة متملياً مسه اللذيذ وكل جوارحي تنتفض ، حتى التفتت نحوي وشعرت بأنفاسها تتردد على خدي ، وهمست في أذني: أما زلت هيابا ؟!.

كلا ، لقد أسكرتني العاطفة . وكانت أنفاسها لا تزال تتردد على خدي فمال رأسها نحوي حتى غاص فمي في شفتيها الرابيتين وسرعان ما حولت رأسها عني إلى الطريق أمامها، فأحطت خاصرتها الغليظة بيسراي وانهلت على جانب عنقها تقبيلا. وانحرفت بالسيارة إلى جانب الطريق وهي تغمغم ضاحكة « رويدك » ثم اوقفتها وهي تقول : لنسترح هنا قليلاً فهذا مكان آمن .. والقيت نظرة على الخارج فوجدتها اختارت موقفاً وسيطاً في المسافة بين مصباحين من مصابيح الطريق ، تشمله الظلمة ويكتنفه الخلاء من الجانبين ، وفيما عدا ازيز السيارات التي كانت تمر بنا مرور البرق كان الصمت عميقاً محيطاً ، سألتها هامساً : أليس ثمة خطر ؟

فقالت وهي تلف عنقي بيمناها : انه آمن من بيتك ؟ واستدرت في جلستها حتى مس منكبها المسند ، وثنت ساقها اليمنى تحت فخذتها اليسرى ، فصرنا وجهاً لوجه ، وانبرى لي صدرها العالي ينحسر عنه عنق الفستان ومال وجهي نحو صدرها فتوسده في حنان وذهول، وأسكرتني رائحة جسم آدمي أشهى من العرف الذكي . وسكنت اليه ما طاب لي السكون ويدها تعبث بشعر رأسي . ثم رفعت اليها وجهي والتهمت شفتيها، والتهمت شفتي ، وكأن كلينا يأكل صاحبه ويزدرده ، وولى الخوف إذ لم يعد له مسوغ! وامتلأت حياة وجنوناً وثقة لا حد لها ، لا أدري كيف واتتني الثقة، كانت المرأة سيدة الموقف فوجدت فيها المرشد الذي ضللته حياتي كلها ، أعادت إلي الثقة والطمأنينة لأنها اخلتني من كل مسئولية واخذتني بالهوادة والرفق ، ادركت في تلك اللحظة - اكثر من أي وقت مضى - ان القاء اية تبعة على خليق بأن يفقدني نفسي، وانني لا اجد هذه النفس المتهافتة الا بين يدين ثابتتين قويتين . ذابت الدنيا في نشوة جنونية ساحرة خرجت منها سكران بخمر الظفر والارتياح العميق. وشعرت من الأعماق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة ، بل هي الحياة نفسها والكرامة والرجولة والثقة والسعادة . افتر ثغري عن ابتسامة ظفر وسعادة، ورمقتها بنظرة امتنان لم تدرك

عمقه وهيهات لها . اني بين يديها اتمرغ في التراب ، ولكنه تراب طيب حنون يجود بالثقة والسعادة . وأدركت اخطاء الحياة الماضية ، وذكرت زوجتي المحبوبة في حزن وقنوط اوشكا ان يقصفا بعمر الساعة الساحرة ، ولم اتردد عن تحميلها تبعة تعاستي كلها !.. هكذا بدا لي الأمر . على ان قلبي هفا اليها حتى في تلك اللحظة وفي ذلك المكان!. أما المرأة فقد ضربت أنفي بأنملتها وسألتني: مبسوط؟

فقلت من قلبي : جداً . وأخذت يسراي بين راحتيها ورنت إلي طويلاً ثم غمغمت: يا لك من طفل رائع.. فتضاحكت قائلاً في حياء: طفل في الحلقة الثالثة!

ولاحت في عينيها نظرة جد واهتمام ، وانتبهت إلى أصابعها وهي تتحسس خاتم الزواج ، ثم القت عليه نظرة ذاهلة وهتفت بي: أأنت متزوج ؟! .. لم يدر لي هذا بخلد!! واستحوذ علي الخوف ونظرت اليها صامتاً. وعادت تقهقه ضاحكة ثم قالت : كيف لم يخطر لي هذا على بال ؟!. ولكن كيف أصدق هذا !؟. رباه لماذا جريت ورائي ؟.. ألا تعجبك زوجك؟! يا لك من فاسق !. فخفقت عيني في حيرة وارتباك ولم أنبس بكلمة ، فسألتني باهتمام : ألا تحب زوجك ؟

وضايقني السؤال ، وترددت لحظة لا ادري ماذا اقول ، ثم ارغمني حرج الموقف على ان اقول بصوت لا يكاد يسمع : انها ست طيبة !

فقالت بعجلة : اني اسألك الا تحبها ؟ وشعرت بأن الكذب ينقلب فضيلة في حضرة النساء فقلت باستياء اخفيته بابتسامة : كلا .. فانبسطت اساريرها وسألت باهتمام : كم مضى على زواجك ؟ فقلت قد أهاجت سيرة الزواج اشجاني:

– قرابة عامين ! ألم تكن تحبها قبل ؟ كلا .. زوجوك منها بغير سابق معرفة ؟ نعم .. فهتفت بغضب : يا له من أثم لا يغتفر ، وهي ألا تحبك !؟

فقلت صادقاً لأول مرة : انها لا تحب الحب ! واتسعت عيناها دهشة ، وفتحت فاها – رأيت في جانب فمها سنتين ذهبيتين لأول مرة – وقالت : آه (بصوت ممطوط) .. فهمت كل شيء . توجد نساء على هذه الشاكلة : لم لا ، ليس كل النساء بالكاملات ..

وتبادلنا نظرة طويلة في ابتسام وصمت ، ثم سألتها ضاحكا : وأنت ، ألست متزوجة ؟ فقالت وهي لا تحول عينيها عني :

– لست إلا أرملة ، كان زوجي لواء عظيماً يدعى علي باشا سلام ، تزوجني على كبر وتزوجته على صغر، ثم مات من بضع سنين فعدت إلى أمي نعيش معاً،

والله وحده يعلم مع من أعيش غدا !! جعلت تصفر بفمها وهي تبسم إلي . ثم تناولت حقيبتها واستخرجت منها فرشاة بودرة ومسحت على وجهها وعنقها ، وصففت خصلات شعرها المبعثرة ، وراحت تلقي نظرة علـى وجهها في مرآة صغيرة مثبتة في جانب السيارة وهي تسألني : متى تنتهي اجازتك ؟

– بعد أيام قلائل .. فقالت بهدوء :

– سنلتقي كثيراً ، كل يوم أن أمكن ، ولنا في السيارة متسع حتى نجد مكانا صالحاً .. واستوت جالسة أمام عجلة القيادة ، ولكني أمسكت بمعصمها ، ثم أحطت عنقها بذراعي ، وضحكت ضحكة قصيرة ، وضمتني إلى صدرها الرابي وهي تقول : لماذا تركتني أستعيد زينتي يا شاطر ؟!

* * *

عدت إلى البيت في تمام العاشرة ، ولم اسائل نفسي عما اذا كنت قد اخطأت لأن ما استرددته من السعادة والثقة كان فوق الخطأ والصواب ، وكانت أمي قد نامت ، أما رباب فقد جلست في الفراش تطالع مجلة . ما ان رأيت وجهها الصبيح حتى أشرق بروحي نور بهيج وأحسست بأنني أنتقل من دنيا إلى دنيا أخرى . وآلمني تقزز مفاجىء لما صنعت بنفسي ، ولكنه لم يتمكن مني ، فأنسانية ذلك الحجاب الكثيف الذي يحول بيني وبين زوجي . واستقبلتني بابتسامة وأبلغتني سلام خالتها وعتابها، ثم اخبرتني بأن عشائي جاهز على السفرة فمضيت اليه والتهمته بنهم متعب جائع. وعدت إلى مخدعنا وأنا أتساءل عما تفعل رباب لو علمت بذنبي ؟!. وأخبرتني بأنها دعيت إلى اعطاء درس خاص لابنة قاض كبير بالسنة الأولى الابتدائية وسألتني عن رأيي . ومع انني لم أقف منها على ما يريب الا انني لم ارتح للاقتراح وقلت: حسبك ما تتجشمين من مشقة طوال النهار !

فقالت بغير اكتراث : صدقت.. وسررت لموافقتها السريعة ، وقلت لنفسي في شبه ندم : « هيهات أن أقع على شبهة شك ؟ » . واضطجعت إلى جانبها ، فنحت المجلة جانبـاً ، واطفأت النور واضطجعت بسلام . كان النوم حرياً بأن يسارع إلى جفني ، لكن حالت دونه يقظة غريبة في النفس ، طار خيـالي إلى عنايات ، والسيارة في طريق الهرم ، إني زوج خائن ! أعجب بها من حقيقة ! فمن يصدق ان يتخذ الزوج العاجز عشيقة؟!. تمنيت في تلك اللحظة لو تعلم زوجي بهذه الحقيقة العجيبة ، على أنها لم تكن إلا لحظة عابرة ، وسرعان ما تقبض قلبي

خوفاً وخجلاً. لقد تعقبت زوجي وبي شك في خيانتها فعدت خائناً لا شك فيه، أما هي فما وقفت منها على غير الاستقامة والاحتشام. كيف كان نصيبي منهـا العجز والاخفاق على حـين انني نعمت بين يدي المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية ؟! لفتني حيرة شديدة، تلهفت نفسي على بصيص من النور.

وزاد من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنني لا غنى لي عنهما معاً. بل لم أجد سبيلاً الى المفاضلة بينهما، فهذه روحي وتلك جسدي، وما عذابي إلا عذاب من لا يستطيع ان يزاوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل المتسم بالطهر والكمال ؟ ولكن مـاذا يبقى لي من لذة ورجولة اذا فقدت المرأة الأخرى ؟. وأغرقت في التفكير إغراقاً لم يدع للنوم سبيلاً إلي، ومضت تتراءى لعيني رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بغتة الى امي بـلا داع فاتخذت مكانها في شريط هذه الصورة المتلاحقة!. وتناهت بي الحيرة حتى شملتني حال من الحزن والكآبة.. بيد أن أحاسيس الليل قل ان تعيش في ضوء النهار. إنها في الليل تندمج في تيار لحن غامض ينطلق في جو أثيري يكتنفه الضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه الا اصداء خفيفة لا تمنعنا من ان نلتمس سبيلنا في الحياة. جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة الى العباسية، ترى أأقتفي اثر رباب حقاً أم ألبي ذاك النداء المطاع ؟ إن سيرة زوجي لا تدع مجالاً للشك، سرها كجهرها، فلا شك انها صدقت فيما قالت عن الخطاب المشئوم، واذا كان ثمة خائن فهو انا. وذهبت الى قهوة النوبيين فمـا أوفقها رمزاً لحبي الجديد!. وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة. وغابت برهة ثم بدت لي مرة اخرى وقد أخذت أهبتهـا للخروج، وأشارت إلي إشارة ذات معنى ان انتظرها في مكان الأمس. لم أتوقع ان نتقابل صباحاً بيد أنني لم أتردد فناديت النادل ودفعت له الحساب ومضيت من فوري الى الجسر، وخيل إلي – في طريقي القصير – انني ادركت حقيقة من حقائق الحياة، هي انه لا توجد ثمة حركة بين الرجال إلا ووراءها امرأة! المرأة تلعب في حياتنـا الدور الذي تلعبه قوة الجاذبية بين الأجرام والنجوم. فما من رجـل « حي » إلا وفي خياله امرأة، حاضرة او غائبة، ممكنة او مستحيلة، محبة او كارهة، مخلصة او خائنة. وفهمت فهماً جديداً، كأنه لقوته بكر جديد، معنى قولهم: ان الحب الحياة والحياة الحب. لم تكن حياة ثم كان حب، ولكن كان حب فكانت حيـاة،

وأقسمت في تلك اللحظة ألا اعرض عن الحب ما حييت !

وجاءت السيارة فاتخذت مكاني كالأمس . وتساءلت المرأة ضاحكة :

– ما الذي جاء بك الآن ؟ ألم يكن موعدنا المساء ؟

– فقلت مبتسماً : أنت أنت السبب .. فابتسمت في سرور وقالت :

– يجب أن نلترق بالغرا فـلا ننفصل أبداً ... وتصاعد أزيراً لمحرك ينذر بانطلاق السيارة فقلت برجاء : الدنيا نهار فهلا عدلت عن الطرق المزدحمة !

– أتخاف ان يراك أحد ؟ فقلت بخجل : نعم .

– آه .. نسيت أنك متزوج !.. لا تؤاخذني يا حضرة الزوج لنذهب إلى مصر الجديدة! وانطلقت السيارة بالسرعة الجنونية ، وسألتني في الطريق قائلة:

– ماذا فعلت بزوجك الأمس ؟ فقطبت وأنا لا أدري ، ولم أحر جوابا ، فقالت : لهذا الحد لا تحب ذكرها ؟ ثم تساءلت متجاهلة صمتي وارتباكي :

– ألا تنامـان في فراش واحد ؟ وحاولت أن أغتصب ضحكة ولكني عجزت ، وشعرت بامتعاض كدر علي صفوي ، فقهقهت ضاحكة وقالت :

– لشد ما أرغب في رؤيتها .. وارادت أن تسري عني بطريقتها فداعبت شفتي بأصبعها وقالت محاكية الأم التي تداعب طفلها . كتكوتي ..

ووقفت السيارة أمـام مشرب شاي ... فجلسنا معاً نقلب الحديث ظهرا لبطن في لذة وسرور.واخبرتني أن اختيارها قد وقع على بيت الخياطة ليكون مهداً لغرامنا.وعند الظهر غادرنا المكان،وقد ارادت أن تدفع الحساب ولكنني أبيت عليها ذلك ، وافترقنا بعد أن تذاكرنا موعد المساء . وتكرر اللقاء . ولما انتهت الاجازة بعد ذلك بيومين واصلنا لقاءنا في الأماسي . واقنعتني التجربة الناجحة بأن الحب صحة وعافية . ولم يخف على أحد دأبي على السهر ، ومع أن رباب كانت تفضل – على حـد قولها – ان أمضي سهراتي معها في زياراتها التي لا تنقطع ، إلا أنها تحاشت مضايقتي ، فباشر كلانا حياته بالسبيل الذي يرضاه. ولم يخف ذلك عن امي أيضاً ، وقد قالت لي : لاحظت يا بني انك لم تكن على حالك الطبيعية في هذه الأيام الأخيرة ، وقد خفت أن أعلن لك ملاحظتي ان تغضب ، فاذا وجدت في السهر راحة فأسهر ، هكذا الرجال جميعاً !!.

* * *

وانقضى شهر او اكثر على حياة سعيدة لا يشوب صفاءها كدر . حل السلام

مكان الشك وعادت علاقتي برباب إلى اصفى ما كانت عليه من الود الطاهر والحب البريء . أما من الناحية الأخرى فقد اسلمت نفسي لعنايات في حب مضطرب وسرور ظافر . انها امرأة موفورة الثروة . وما من مرة نذهب إلى مهدنا المحبوب ببيت الخياطة الا وتنفحها بريال وأحيانا بنصف جنيه .

وأبت علي كرامتي إلا ان اكون كريماً كذلك،ولو في حدود طاقتي.وهيأت لي – وهي لا تدري – معاودة الشراب على حال لا تنقطع ، فكانت الخياطة تحتفظ لنا بقوارير الويسكي والصودا دواماً ، بل اوشكت ان تعودني التدخين . وكان لها مزايا وأي مزايا ، كانت كاملة الأنوثة والحيوية ، فهي متعة للعشاق على كهولتها ودمامتها المحبوبة ، بيد انها كانت كذلك على استهتار وجسارة يقشعر لها البدن . عندها الحب كل شيء ، وفي سبيله تستبيح اي شيء. ولعلها لم تكن من النوع الهلوك ، ولعلها لم تكن الا امرأة هالعة ، تشعر دواماً بإدبار الحياة الزاهرة ، وذبول الشباب اليانع ، فلا تطيق ان يمضي يوم بلا حب.وكان أعجب ما في حبي لها انني فتنت منها بما هو حري ان يعد من النقائص في نظر الغير ، بكهولتها ودمامتها وجسارتها ، وكانت تملؤني ثقة لا حد لها ، فلم اكن احمل لشيء هماً . ولولا ما كان ينتابني من قلق . منشؤه ذلك الانفصال المخيف بين روحي وجسدي ، لتمليت الحياة صفاء خالصاً . على انها كانت حياة سعيدة .

وفي ذات يوم ، وبعد فراغي من الغداء مباشرة ، ذهبت الى حجرة أمي لأشرب فنجاناً من القهوة وأجاذبها الحديث كعادتي كل يوم،وسرعان مالاحظت انها تردد في وجهي عينيها الصافيتين في قلق وتفكر ، فتفرست في وجهها الذابل الذي فقد مرحه وسعادته ، فأدركت لتوي انها تريد أن تقول شيئاً ، وداخلني القلق ، ولكنني قلت مبتسماً : ماذا وراءك.. هاتي ما عندك !

فلاح التردد في عينيها لحظات ثم قالت : بالأمس سمعت اموراً أدهشتني ، فهلا خبرتني عما بين رباب والست والدتها ؟.

كل شيء توقعته إلا هذا . وغامت عيناي بسحب ذكريات سود . وتساءل قلبي الخافق: هل عادت المرأة الى لجاجتها القديمة؟! ولم تكن رباب قد اخبرتني شيئاً عن زيارة امها لها بالأمس إلا ان أقرأتني سلامها .

وعدت الى امي اقول لها بصوت هادىء او جعلته هادئاً :

– ليس بينهما إلا كل خير ..

فهزت امي رأسها في ارتياب وقالت :

– لعله غابت عنك اشياء، اما انا فلم استطع استقبال نازلي هانم لأنني كنت متعبة ، ولما جاءت صباح لتخبرني بقدومها تصنعت النوم . وطالت الزيارة ، فانسللت من الحجرة لقضاء حاجة ، ودنوت من باب حجرة الاستقبال ، فما راعني إلا أن اسمع الست وهي تقول في انفعال وغضب : «هذا شيء لا يحتمل» فترد عليها رباب بعنف قائلة: « لا تتدخلي في شؤوني ! » فما ملكت ان تراجعت الى حجرتي .. التهب جبيني حياء ، ثم ركبني الغضب ، فشعرت بمقت شديد نحو هذه المرأة الفضولية . واقتحمت امي علي افكاري متسائلة : ألم تعلم عنها شيئاً ؟ . فقلت بحزم : لا شأن لنا بها ..

وعدت بعد ذلك الى مخدعي فوجدت رباب مستلقية على المقعد الطويل ، فلما رأتني ألصقت ساقيها بمسنده لتفسح لي مكاناً فجلست متفكراً، كيف أخفت عني ذاك النزاع ؟ هل اشفقت من إزعاجي ؟ ولعلها لم تلحظ تغير حالي فراحت تقول لي : ان اليوم الجمعة ، وانها تقترح علي ان نذهب معاً الى السينما ، فتركتها تتحدث حتى انتهت فسألتها قائلاً : كيف حال والدتك ؟.

فأجابتني بأنها على ما يرام ، فنظرت الى عينيها وتساءلت :

– هل مرت زيارة الأمس بسلام ؟.فلاحت في عينيها نظرة ارتباك وقالت:

– ماذا تعني ؟. فقلت بحزن وكآبة : رباب ، لا تخفي عني شيئاً . اعادت والدتك إلى ذاك الموضوع القديم ؟. فلاذت بالصمت ملياً وقد تجهم وجهها، ثم تساءلت بحدة : من ادراك بذلك ؟ اريد أن اعرف كل شيء !. فأخبرتها بما قالت لي أمي وكانت تصغي إلي باهتمام ، ثم انفجرت قائلة : امك .. امك .. ودائماً امك !.

ووخزني الألم الذي يحز في نفسي كلما لاحت لي آي الكراهية المتبادلة بينهما ، وقلت : لا داعي للغضب ،لقد سمعت ما سمعت اتفاقا . ونقلته إلي بقصد حسن كما هو ظاهر . بالله لا تستسلمي للغضب ، وخبريني هل عادت أمك إلى ذاك الموضوع القديم ؟. وسحبت ساقيها من ورائي ، والقتها على الارض، وأطرقت في تهجم وغيظ وقالت : الأمر الذي لم أشأ تعكير صفوك به انها اقترحت علي ان اعرض نفسي على طبيب ليرى أسباب عدم الحمل ، فرفضت اقتراحها بطبيعة الحال فتشاجرنا !. وواصلنا الحديث البغيض ملياً حتى طلبت إلي أن أمسك . وان اقبل طلباً للراحة من تعب اليوم ، فأذعنت لمشيئتها ومضيت إلى الفراش واستلقيت عليه محزوناً مكتئباً . ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن أغفو ،ولا ادري كم غفوت،ولكني استيقظت على شيء أطار عن عيني النوم.وفتحت عيني

في انزعاج فسكب مسامعي ضوضاء آتية من الصالة ، فأرهفت السمع ، ولم ألبث أن أدركت أن رباب وأمي تتبادلان أقسى الكلمات في ضجة وصياح . وقفزت من الفراش في هلع ووثبت إلى الباب ثم مررت منه إلى الصالة فاذا برباب تصيح وقد تطاير الشرر من عينيها : هذا تجسس لا يليق بسيدة محترمة . ووقع بصر أمي علي فخفضت بصرها وهي تقول : لا يسعني أن اجاريك في قلة أدبك !.

وهتفت برباب قائلاً : « رباب ... » ولكنها تحاشتني وعادت إلى حجرتنا في غضب جنوني . ودارت أمي على عقبيها وسارت إلى حجرتها بخطوات ثقيلة فاتجهت نحوها صامتاً متألماً . رأيتها تمسك بأكرة الباب ثم تقف دون أن تضغط عليها كأنها عدلت عن الدخول . ورأيتها تضع راحتها على جبينها فخيل إلي انها تنحني رويداً ، واسرعت نحوها ، فما كدت ألمسها حتى سقطت على يدي فتلقيتها بها في رعب وفزع . وناديتها فلم تجب ، وتدلى رأسها وذراعاها . وصرخت مناديا صباح فجاءت تجري ، فحملناها معاً وأنمناها على فراشها . وجئت بزجاجة كولونيا ورششت منها على وجهها وعنقها ، ودلكت بها اطرافها ، وجعلت أناديها بصوت متهدج مبحوح دون توقف ، وغشيها الاغماء دقائق مررن بي كالساعات ، ثم فتحت جفنيها عن عينين غائمتين ، فهتفت بها وأنا ازدرد ريقي : أمـــاه .. فشخصت ببصرها إلي ، واشارت بيدها إلى قلبها دون أن تنبس بكلمة ، وانطلقت مغادراً الشقة إلى البدال في أسفل العمارة ، وتلفنت إلى طبيبها ان يحضر ، ثم صعدت إلى الشقة وجلست إلى جانبها في حال من الذعر والحزن لا توصف . لم تفارقها عيناي لحظة واحدة حتى استلت نظرة عينيها الغائمة دمعي الحبيس . شعرت بانني أشقى انسان في الوجود ، وأفعمت نفسي كآبة وامتعاضاً . ثم جاء الطبيب وفحصها ، وقال انها نوبة قلبية ، تستلزم رقاداً طويلا ، وعناية كبيرة ، ووصف الدواء كالعادة. وكنت قد قصصت على الطبيب كيف أغمي عليها عقب شجار مع الخادم ! فقال لي: ان الشجار سبب طارىء ولكن الداء قديم ، وقضينا ليلة عبوسا . أما رباب فقد توارت في حجرتنا في شقاء بالغ وقد ناءت بثقل تبعتها ، وما زالت تبكي حتى انفطر قلبها من البكاء فلم يسعني الا أن أطيب خاطرها وأربت على منكبها قائــلاً :

– حسبك بكاء ، هذا قضاء الله ، وربنا جعل العواقب سليمة ..

* * *

وامتلأ البيت بالعواد ، فزارتنا أسرة رباب وجمع من أقاربها ، وجاءتنا أختي راضية وأسرتها ، وعادت رباب المريضة وقبلت يدها واستوهبتها العفو بعين باكية حتى رجوت أن نبدأ – بسبب هذا الحادث – حيـاة جديدة خالية من كدر

القلوب. وتحينت راضية فرصة خلو الحجرة من الأغراب وقالت لي : اني استأذنك في أن آخذ أمي إلى بيتي حتى تسترد قواها ؟ فهالني الاقتراح وقلت بارتياع :

– هذا مستحيل . فابتسمت إليّ متلطفة واستطردت قائلة : ألا ترى انها تحتاج لخدمة وعناية في كل حين ، فمنذا الذي يقوم بخدمتها هنا ؟. وأنت مشغول بعملك ، وزوجك مشغولة بعملها ، وصباح تقوم على خدمة المنزل ، فالى من تكل أمر أمنا ؟ ولكنني استفظعت اقتراحها ، وثرت على ما قدمت من حجج قوية ، وقلت باصرار صادر من اعماق قلبي : لن يطول رقادها باذن الله ، ولن تحتاج إلى من يلازمها الا في الاسبوع الأول كما قال لك الدكتور ، ولأجدن خادما خاصة تتوفر للعناية بها. وحاولت راضية أن تثنيني عن اصراري ولكن لم تجد محاولتها وانتهى النقاش بأن قررت الاقامة في بيتي حتى أوفق لايجاد خادم . وفي اليوم الثالث لمرض أمي حضر أخي مدحت – وكنت اخبرته بمرضها في خطاب مستعجل – وبـ ت معه زوجه . وقد اشتدت وطأة المرض على أمي في الأيام الأولى لمرضها لم تـ ن تبدي حراكا ، ولا تكاد تنبس بكلمة . وحل بها هزال وذبول – على نحافتها الطبيعية – فبدت كالطيف. كانت إذا فتحت عينيها المتعبتين لاحت فيهما نظرة ذابلة غائمة تقبلها بيننا في صمت وتسليم فتمزق قلبي إرباً . ولم نكن نفارقها وكانت إذا عاودتها يقظة خفيفة تردد عينيها بيننا ، وترسم على شفتيها الجافتين ابتسامة ، أو تبسط راحتها وترفع بصرها إلى أعلى وتغمغم داعية لنـا بصوت منخفض وانٍ .ولكن لم تطل بها الغيبوبة ، فتحسنت حالها قليلا في نهاية الاسبوع الأول من الأزمة . واستطاعت ان تدرك بوضوح ان ابنائها جميعاً يحيطون بها ، ولعلها رأتهم كذلك لأول مرة في حياتها . وقد جمعنا الفراش مرة فجلست راضية على الوسادة ، وجلست أنا ومدحت عند قدمها ، فجعلت تنظر الينا في صمت طويل ، ثم طفح وجهها بالبشر ، وهمست بصوت ضعيف : ما اسعدني بكم !.. الحمد لله والشكر له . ولاحت في عينيها نظرة رقيقة تنم عن الحنان والتأثر ، ثم استدركت قائلة : إذا كان المرض يجمعنا هكذا فكم أتمنى ألا يزول. وبدت – على مرضها – سعيدة ، فانتقلت سعادتها إلى قلوبنا ، التأمت أسرتنا التي قضى الله على عقدها بأن ينفرط منذ البداية. بتنا تحت سقف واحد ، وأكلنا وشربنا معاً ، وانتظمت قلوبنا خفقة واحدة . يا لها من أيام قلائل رددت انفاسنا فيها الاشفاق والحنان والسعادة . بيد انها كانت أياماً قلائل . فقد تقدمت صحة أمي تقدماً حسناً ، وزال الخطر عنها وان حتم الطبيب عليها بألا تبرح الفراش شهراً كاملا

على أقل تقدير . وعند ذاك ودعنا مدحت وعاد بأسرته إلى الفيوم واعداً بالزيارة من آن لآن . وعادت راضية كذلك إلى بيتها – وكنت قد وفقت إلى اختيار خادم لأمي – على أن تعود أمها كل يوم . وانفض السامر ، وتفرق الشمل ، وعاد كل شيء إلى اصله . ولم يكد يمضي أسبوعان حتى أخذت امي تسترد حيويتها ويقظتها ، وأمكنها أن تجلس إلى الفراش مستندة إلى وسادة منكسرة ولشد ما سرني أن تقوم رباب بواجبها نحو حماتها ، ولن أنسى ما عانت من مرارة الألم والقهر في الأيام الأولى للمرض . ولما عاودتنا الطمأنينة ، ولم يعد أمام امي الا رقاد وان يكن طويلا الا انه مأمون ، وعدنا إلى سيرتنا المألوفة في الحياة .

عادت رباب تروح عن نفسها بزيارتها المسائية ، وانطلقت إلى سبيلي القديم . وقد استأذنتها في الخروج بضع ساعات ترويحاً عن النفس ، فأذنت لي بحماس ، وأفصحت لي عما كان يساورها من ألم لبقائي إلى جانبها كالسجين . وغادرت البيت متفكراً ، متسائلا ترى لو كنت أنا المريض أكانت تستأذن هي في مغادرة الحجرة ترويحاً عن النفس ؟ وبدا لي منطق الحياة قاسياً ولكن لا حيلة لنا فيه ! .

وطرت إلى عنايات . وكانت تتلفن لي كل صباح بالوزارة فبينت لها الأسباب التي حالت دون لقائنا . وعدنا كما كنا نلتقي في مهدنا فنسكر ونحب . كانت حياة غريبة ، وأخوف ما اخافه ان تكون الذاكرة قد خانتني ولو في القليل من تفاصيلها . أكنت سعيداً حقاً ؟ كان قلبي موزعاً بين امي وزوجي وعنايات ، وبين الذكريات العميقة والهيام السامي والحب العارم . وحسبتني قد آويت من زوابع الحياة إلى مرفأ هادىء ، ولكن القلق القديم عاد يطرق بابي في حذر وتردد كأنما يمنعه الخجل من اقتحامه بلا سبب ظاهر . أجل كنت أمضي في طريقي ، ثم أتوقف حينا بعد حين في تردد كأنني أتساءل عن شيء نسيته ، هل أجد في السير أم يحسن بي أن ألقي نظرة إلى ما حولي ، ثم يتبين لي انه ليس ثمة ما يستوجب التردد فأمضي على وجهي .. ويوماً وجدت رباب على غير ما عهدتها من المرح والنشاط فسألتها عما بها ؟ فقالت لي : انها قضت نهاراً متعباً بالمدرسة ، وانها ترجح أن تكون مصابة بانفلونزا . وعدلت ذلك المساء عن الخروج . وفي صباح اليوم التالي ، وعقب استيقاظها بقليل تقيأت بغتة ، واستلقت في اعياء ووهن ، فاقترحت عليها أن استدعي لها الطبيب ، ولكنها لم توافق قائلة : انه برد خفيف وستعالجه بغير معونة الطبيب . وجاءت أمها تزورها فلبثت النهار كله بحجرتنا . على ان رباب اصرت في صباح اليوم الثالث على استئناف عملها وقالت لي : انها تشعر بأنها استردت صحتها تماماً ، ومضت بالفعل إلى الروضة

على رَغم نصحي لها بالبقاء في البيت يوماً أو يومين آخرين . وعادت من الروضة في ميعادها فوجدتها أسوأ مما كانت في الصباح ، ولكنها أصرت على انها متمتعة بكامل صحتها ، ولم تقنع بهذا فارتدت ملابسها وغادرت البيت يوماً او يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها وكنت في بيت الخياطة ولما عدت إلى البيت في منتصف الحادية عشرة لم أجد رباب في حجرتنا. وكأن صباح كانت تنتظر عودتي فجاءتني على عجل وقالت لي: ستبيت ست رباب عند والدتها وقد أرسلوا الخادم لتخبرنا بذلك.. ووقع الخبر من نفسي موقع الدهشة والانزعاج، فسألت صباح قائلاً:

– وما الذي دعاها إلى ذلك ؟. فقالت الجارية بلهجة تنم عن الاشفاق :

– انها بخير يا سيدي . ولقد زرتها ورأيتها بنفسي ، الا ان حرارتها مرتفعة قليلا فلم توافق الست الكبيرة على تعريضها للهواء ، وآثرت على أن تبيت عندها حتى تنخفض الحرارة . وغادرت الحجرة بلا تردد وأنا اقول في حنق :

– لقد حذرتها من هذا ورجوتها مراراً ألا تبرح البيت .. وقابلتني في الصالة نفيسة « خادم أمي » وأخبرتني بأن أمي ترجو أن أذهب اليها ، فمضيت إلى حجرتها فأفصحت لي عن أسفها وكلفتني بأن أحمل دعاءها إلى « رباب» فشكرت لها ، وغادرت البيت حانقاً قلقاً .

* * *

كان البيت نائماً تشمله ظلمة الا نوراً ينبعث من حجرة الأم ، فقصدتها لا ألوي على شيء ، ووجدت « رباب » مضطجعة في الفراش ، والأم جالسة في فراش يقابله بالناحية الأخرى من الحجرة، فقابلتاني بابتسامة ، وانزلقت الأم من فراشها وأقبلت عليّ وهي تقول : هذا ما قدرناه ! قلنا سينزعج ويجيء من توه، والأمر لا يعدو أن يكون انفلونزا. واتجهت صوب فراش « رباب » ، وتناولت يدها ، وقلت لها معاتباً : ألم أنصحك بعدم مبارحة البيت ؟.. ماذا بك ؟.. لماذا لم تعودي إلى بيتك ؟. فابتسمت إلي وقالت وهي تشير بأصبعها إلى أمها :

– أردت أن أعود ولكن «ماما» لم توافق . فابتدرتني نازلي هانم قائلة :

– ان حالها لا تدعو للقلق مطلقاً، بيد أن تعرضها للهواء أمر شديد الخطورة.

فقلت بحزم : سأدعو الطبيب بلا ابطاء. فقالت الأم : لم يفتنا هذا، والطبيب نفسه الذي نصح بعدم تعريضها للهواء ، ليس في الأمر خطورة البتة ، وستعود إلى بيتها بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر. وغلبت على أمري فجلست على كنبة وثيرة تتوسط الفراشين، بيد أن هدوء الأم الظاهر انتقل إلي رويداً، وجعلت الأم تقول : ان الأنفلونزا بسيطة في ذاتها ولكن ينبغي أن نتقي نكستها .

فأصغيت إليها بغير وعي على حين رنوت إلى محبوبتي بعيني وروحي، وتطلعت إلي رباب مبتسمة ابتسامة فاترة ، يلوح في عينيها الأعياء وقد ران على نظرتها العذبة اللامعة غشاوة . وساد الصمت حيناً ، ثم تذكرت جبر بك فجأة فسألت عنه ، فأجابتني الأم بأنه في رحلة تفتيشية يعود منها في نهاية الأسبوع، ولما دقت الساعة منتصف الثانية عشرة استأذنت في الانصراف ، وقبلت جبين زوجي ، وغادرت البيت. وفي صباح اليوم التالي تركت البيت قبل ميعاد خروجي المعتاد بثلث ساعة، وكانت «صباح» قد استأذنتني في زيارة رباب، فعهدنا بشئون البيت إلى نفيسة، ومضيت من توي إلى بيت جبر بك، فقابلت على السلم محمد وروحية، فسلمت عليها وسألتها عن رباب ؟ فأجابتني الأخت الصغيرة بأنها بخـــير ، ودخلت الشقة وذهبت الى الحجرة فوجدتها في الفراش، والأم جالسة على الكنبة، وردت تحيتي برقة وابتسام ، ولكني رأيت في عينيها ذبولا شديداً كأنها لم تنم ساعة واحدة في ليلتها الماضية، وساورني القلق واستحوذ علي الانقباض، ولكنني اخفيت ما قام بنفسي ان اخيفها، وقلت متعمداً الكذب: اراك احسن حالا؟!. فقالت باستسلام اوجع قلبي : الحمد لله .. وجلست على طرف الكنبة قريباً منها ، وثبت على وجهها عيني ، كانت عاصبة وجهها بمنديل بني ، يبدو وجهها تحته شديد الشحوب ، وتلوح في عينيها الذابلتين نظرة ساهمة ، فغشيت صدري كآبة ، وضاقت بي الدنيا وبدا لي وجهها قبيحاً كالحاً ، ولاحظت نازلي هانم كآبتي فقالت بدهشة : الم تجرب وعكة البرد قبل اليوم ؟. انك تدللها يا سي كامل أكثر مما ينبغي... وسرى عني قليلا بأن التي تستهين بالحال هي أمها ، ولو كان بزوجي ما يدعو للقلق لما ملكت الام نفسها . وملت نحو الفراش قليلا . ووضعت راحتي على خدها فوجدته ساخناً ، ولكنها ابتسمت الي وقالت : اذا كان بي تعب فالمسئول عنه ارق الم بي الليلة الماضية ،وسأسترد انتعاشي اذا ما نمت ولو ساعتين .. فقلت لها برجاء : حاولي ان تنامي مها كلفك الأمر .. ونظرت في عينيها طويلا ، فرنت الي دقيقة ثم خفضت عينيها بلطف ، ولم أجد بداً من الانصراف ، فنهضت واعداً بالزيارة عقب عودتي من الديوان، وذهبت. بلغت الوزارة بعد الثامنة بعشر دقائق ، وعكفت على عملي ، ولكن العمل لم يستطع أن يغيبني عن نفسي ، وعدت بفكري الى رباب فتمثلت لي نظرة عينيها

السامة واستشعرت وحشة لم ادر لها سبباً، وحاولت أن افني في العمل ولكني لم افز بطائل ، وغلبتني على امري نفسي التي تخلق المخاوف من لا شيء ، فاشتد بي القلق وجعلت أقول لنفسي : ان رباب عجزة عن العودة الى بيتها ، وهي تبدو مهزولة متضعضعة فكيف اطمئن ؟.. كيف اتركها ؟!. ولم يكن تهافت قلبي حيال أخف الملمات بجديد علي ، وطالما جافاني النوم لوعكة خفيفة تنتاب أمي ، فلعل ذلك الخوف كان أثراً من هذا التهافت المقيم . افظع بها من كآبة ثقيلة !. ان قلبي ينقبض في خوف وألم ، وكأنه يكاتم صرخة استغاثة تحاول ان تنطلق . لماذا اعذب نفسي بتجرع غصص انتظار لا موجب له؟ وعند ذاك طويت الاوراق واستأذنت في الانصراف معتذراً بمرض زوجي . وغادرت الوزارة في منتصف العاشرة ، فبلغت البيت قبل العاشرة بدقائق . وكنت كلما اقتربت من البيت ازداد قلبي وحشة ، حتى دخلته فيما يشبه الهلع ، ودققت الجرس ، وفتح الباب بعد قليل ، ولشد ما كانت دهشتي حين رأيت أمامي الدكتور أمين رضا ، وكان هو الذي فتح الباب ، وكانت الصالة الصغرى التي يفتح الباب عليها مغلقة الأبواب وليس بها سواه ، ولم اكن رأيته منذ اجتماعنا في مأدبة الغداء بهذا البيت . ترى ما الذي جاء به في هذه الساعة المبكرة ؟!. وما الذي أبقاه وحده في هذه الصالة المغلقة ؟. ومددت له يدي وانا أقول : السلام عليكم !. فمد لي يده قائلاً : « وعليكم السلام » ، وكأنني لاحظت انه يحدجني بنظرة غريبة من وراء عويناته ، فقلت له : الا تتفضل بالدخول ؟.. فتحول عني وهو يقول :

– اني منتظر في حجرة الاستقبال. واتجه بالفعل نحو باب الحجرة ، وفتحه ، ودخل ، ومضيت إلى باب الصالة الكبرى وفتحته ودخلت ، وسرت نحو حجرة نازلي هانم ، ولكنني ما قطعت خطوتين حتى قرع اذني صوت غريب لا ادري كيف أصفه ، أكان تنهداً طويلاً ، أكان صراخاً مكتوماً ؟ ولكنه كان آتياً بلا ريب من وراء باب الحجرة المغلق ، حجرة رباب ، واندفعت نحو الباب ، وأدرت الأكرة وفتحته ، ودخلت خافق الفؤاد من الهلع ، واتجه بصري إلى الفراش فرأيت رباب نائمة ، مغطاة إلى عنقها ، وقد التف منديلها حول وجهها من قمة الرأس إلى اسفل الذقن ماراً بالأذنين ، كانت عيناها مغمضتين ، وبشرة وجهها شاحبة باهتة ، يشوبها

بياض مخيف . لقد بعث الوجه المعصوب في نفسي ذكريات غامضة لم أجد وقتاً لتوضيحها ولكنه حرك رعباً كامناً في أعماقي ، ثم تبين لي في اللحظة التالية أن نازلي هانم جالسة على طرف الكنبة دافنة وجهها في وسادة الفراش ، مغرقة في نحيب موجع ، وان « صباح » واقفة عند أسفل الفراش تولول باكية فلم تنتبه لدخولي ... رباه !.. هل حقاً ماتت رباب ؟!.

* * *

هتفت كالمجنون : خبراني ماذا حدث؟. والتفتت نحوي صباح وصاحت وهي تنشج : سيدي .. سيدي .. ورفعت المرأة وجهها في فزع ظاهر ، وحملقت في وجهي بعينين محمرتين ، ولبثت لحظة جامدة لا تتكلم ولا تبكي ، كأن محضري كان عليها أشد من الموت ، ثم شهقت وأفحمت في البكاء. رددت بصري بين المرأتين في ذهول ثم استقرّ بصري على الوجه المعصوب . كيف أذعن لحكم هـذا الواقع المخيف ! ونازعني قلبي المتفتت إلى أن ارتمي على زوجي ، وأن ابكي واصرخ حتى أموت . بيد انني لم أبد حراكاً ، سمرتني قوة غريبة في مكاني ، وملأتني قسوة وجنوناً . واجتاحتني ثورة عارمة تتحدى قوة الموت نفسه وبطش القضاء. أبيت أن اصدق عيني ، واستعصى علي الاقتناع . ما معنى هذا ؟ ولوحت بيدي للأم وسألتها بصوت كنت اسمعه لأول مرة : كيف؟ .. كيف ؟.. فبسطت ذراعيها في قنوط وقد خنقتها العبرات . ولكن صباح أقبلت نحوي في حال من الهذيان مرعبة وصاحت بصوت مبحوح : العملية المشئومة !.. لعن الله العمليـة .. وتحولت الى الجارية في ذهول وصحت بها : عملية ؟.. اية عملية ؟!! وادركت عند ذاك انني اشم رائحة غريبة ، فأدرت بصري في الحجرة حتى وقع على خوان في ركن منها صفت عليه ادوات طبية وأوعية وزجاجات وقطن . اقتربت من الخوان وتفحصته بعينين زائغتين ، متى جاؤوا بهذا كله ؟ ومتى استقر الرأي عليه ؟. كيف حدث هذا ؟.. ونظرت الى المرأة فوجدتها ترمق الجارية بنظرة قاسية غريبة ، فازداد ذهولي وحيرتي ، ثم تحجر قلبي قسوة وجنونا ، فألقيت عليها هذا السؤال بصوت رهيب : اية عملية التي تتحدث عنها صباح ؟ ونظرت المرأة الي بارتياح وارتباك ثم قالت بصوت مختنق بالعبرات : اشتد حال ابنتي فجأة فاستدعيت الطبيب فأشار باجراء عملية في الحال .. فسألتها وقد استحلت

شخصاً جديداً مخيفاً غير الشخص الذي عرفه العالم قرابة ثلاثين عاماً . في أي عضو ؟ فقالت المرأة : قال الدكتور انه البروتون .. وكنت أسمع الاسم لأول مرة ، ولكني لم أبال ذلك ، وسألت بالصوت الرهيب نفسه : وهل اجرى العملية ؟ فقالت وهي تبكي : نعم .. وانتهت بما ترى ! فضربت الارض بقدم حانقة وصحت بها : ولكني كنت هنا منذ ساعتين ولم يكن بها شيء !.. ألم تؤكدي لي أن الحال أبسط من ان أجزع لها ؟! فقالت بصوت تخنقه الدموع : اشتدت وطأة الالم فجأة !.. ما حيلتي؟.. ما حيلتي ! فسألتها دون ان تأخذني بها رحمة : ومن عسى ان يكون الدكتور القاتـل ؟! فرمقتني بنظرة كسيرة خلال دموعها وغمغمت : لقد بذل ما في وسعه ، ولكن قضاء الله سبق ! من عسى ان يكون ؟ فصمتت لحظة كأنها تأخذ نفسها ، ثم قالت : الدكتور أمين رضا .. فسرت في جسدي رعدة شديدة ، ورددت قولها في ذهول : « أمين رضا ! » ثم هتفت بها في غضب وازدراء : الدكتور أمين رضا ؟!.. انه شاب مبتدىء !.. ثم انه اخصائي في الامراض التناسلية ! فتولاهـا الارتباك ، وراحت تقول : انه كان أقرب طبيب اليها ، وانها ظنت ان الطبيب يفهـم الامراض كافة مهما كان اختصاصه ، وان الوقت لم يكن يسمح بالتردد الخ الخ ، فانتظرت حتى انتهت وأنا انتفض غضباً وحنقاً ، ثم انطلقت مني ضحكة باردة كرنين النحاس وصحت : طبيب تناسلي ويجري عملية في البروتون !.. لا عجب اذا كنتم قتلتموها .. ودرت على عقبي واندفعت الى البـــاب وصحت بصوت كالرعد : يا دكتور .. وكررت النداء، حتى جاء من اقصى البيت ممتقع الوجه، ودخل الحجرة في خشوع لا يوائم كبرياءه المعهود ، فشعرت نحوه بحنق وكراهية تضيق عنهما الأرض ، وبادرته قائلاً : اخبرتني الهانم انك أجريت العملية الـتي قتلت زوجي ، فهلا دللتني على ما جعلك تأخذ على عاتقك اجراء عملية جراحية خطيرة على رغم ان الجراحة ليست من اختصاصك !؟ وبدا في وجهه الانزعاج وحدج نازلي هانم بنظرة غريبة اعادت إلى مخيلتي نظرة المرأة إلى صباح ، فطفح بي الحنق ، وداخلني شعور غامض بأنهم يداورون عني امراً خطيراً . وصحت به بوحشية : اجبني ! فالتفت نحوي مقطباً ، وصمت لحظة كأنمـا يشاور كبرياءه الضائع ، قال بصوت منخفض : كانت في حاجة إلى عملية عاجلة ..

فقلت وأنا أضرب كفاً بكف : لماذا لم تدعوني؟ .. لماذا لم تستدعوا طبيباً جراحاً؟
فقالت الأم بجذع : لم يكن في الوقت متسع !
فزعقت بها : ولكن كان فيه متسع لقتلها ..

وحملقت المرأة في وجهي بجنون وجعلت تردد : « قتلها .. قتلها .. قتلها! » ثم انفجرت بغتة ففقدت صوابها ، وانهالت على خديها لطماً ، وقد ارادت صباح أن تحول بين كفيها وخديها ، ولكنها ضربت وجه الجارية بقبضة يدها ضربة هائلة فتراجعت الجارية في فزع ، ثم التفت نحونا ممسكة عن اللطم وصرخت في وجهينا — انا والطبيب — بصوت كالزئير : انتما اللذان قتلتماها .. اغربا عن وجهي ..

وانفلت الطبيب من الباب ، ولبثت وحدي احدجها بنظره قاسية لا تأبه لثورتها . « انتما اللذان قتلتماها » .. ان المرأة تهذي ، ولن تأخذني بها رحمة ، ولن يهدأ خاطري حتى أعمل عملاً ترتج له القلوب . اني حيال جريمة ، الا تكن جريمة جهل وغباء ، ولا بد أن يؤدي الثمن غالياً . لقد تمخض خضوع العمر فيَّ عن ثورة جائحة وغضب ناري وشر مستطير . نسيت الجثة والحزن وتخايلت الشياطين لعيني . لتنقض الدواهي على رؤوس المجرمين .

وكانت المرأة تعول بصوت مزعج ، وصباح تنتحب انتحاب متواصلا ، فتحولت عنها بحركة مفاجئة ، وغادرت الحجرة لا ألوي على شيء ، ثم مرقت إلى الخارج مهرولاً كأني أفر فراراً .

* * *

بدت الدنيا لعيني حمراء قانية ، وركبني عناء جهنمي دفعني دفعاً لا قبل لي به إلى ارتكاب أي شر انفس به عن صدري . وكنت في شك من بلوغ ايـة نتيجة تشفي غليلي ولكنني لم اتردد لحظة واحدة ، وناديت تاكسي وأمرتـه ان يذهب بي إلى النيابة . ودخلت دار النيابة وليس في ذهني خطة معينة أو تهمة صريحة . وجدتني في زحمة خانقة وصكت مسامعي ضوضاء غير مميزة كهدير البحر فلبثت حائراً لحظات حتى رأيت شرطياً فتقدمت منـه وسألته أن يدلني على حجرة وكيل النائب ، فقال لي بخشونة في الطابق الثاني فارتقيت السلم واسترشدت بموظف اليها ، ثم استأذنت ودخلت ، رأيت مكتباً في مواجهة الداخل جلس وراءه شاب قصير نحيل ، مكباً على اوراق بين يديه ، فرفع رأسه حين دخولي ، وتفحصني بنظرة ثاقبة ، ثم سألني : ماذا تريد ؟

صدمني هـذا السؤال البسيط فاستحال عقلي خواء ، ووقفت ذاهلاً كأنني لا أدري على وجه التحديد لماذا جئت . ولاح التساؤل على وجه الشاب فأعاد سؤاله قائلاً : ماذا تريد ؟

ينبغي ان اتكلم مها كلفني الأمر ، فقلت تاركاً مقودي للساني : زوجي.. (كدت اقول قتلت ولكنني عدلت عن ذلك خوفاً) .. ماتت ..

فقطب الوكيل فيا يشبه الدهشة وقال :

وما شأن النيابة في ذلك ؟!.. ولكن من حضرتك ؟

وتنفست تنفساً عميقاً ، ووجدت رهبة الخوف تزايلني ، وعرفته بنفسي ثم قلت : اليك قصتي يا سعادة الوكيل: تركت زوجي متوعكة في بيت أمهاصباح اليوم ، وعدت إلى البيت بعد مغادرتي إياه بساعتين فوجدتها ميتة . وقالوا لي أن وطأة التعب اشتدت عليها فجأة فاستدعوا طبيباً قريباً من أقرباء أمها ، فرأى ان حالها تتطلب اجراء عملية عاجلة فقام بها وماتت على الأثر .. وازدردت ريقي وأنا أرمق الرجل بنظرة طويلة ، ولما وجدته غير قانع بما سمع استطردت قائلاً : الواقع أن هـذا الطبيب اخصائي في الأمراض التناسلية ، فهل يجوز أن يجري عملية جراحية ؟ وإذا انتهت هذه العملية بالوفاة ألا يعد مسئولاً عنها فيجب أن ينال جزاءه ؟! فصمت الرجل لحظة ثم سألني : هل نقلت إلى مستشفى ؟

– كلا .. أجريت العملية في البيت حيث ترقد ميتة الآن .

– ومن الذي استدعى الطبيب ؟. – حماتي ..

– وكيف استدعت طبيباً تناسلياً لا شأن له بمرض زوجك ؟

– لقد سألتها نفس السؤال فقالت لي انه أقرب الأطباء اليها ، وانهـا تظن ان الطبيب ، مها كان اختصاصه ، فلم يفهم الأمراض جميعاً ..

– وهل هو الذي أشار باجراء العملية ؟ – نعم .

– وهو الذي اجراها ؟ – نعم ! وقد سألته كيف يجري عملية جراحية على حين انه ليس جراحاً ؟ فقال لي : ان الحال كانت تستدعي عملية عاجلة .. فتفكر الرجل ملياً ، ثم سألني : هل تتهم هذا الطبيب اتهاماً معيناً ؟

فلم أفهم ما يعنيه ، ورنوت اليه في حيرة دون أن أنبس بكلمة ، فسألني :

– هل لديك من الأسباب ما يحملك على اتهامه بقتلها عمداً ؟ فخفق قلبي ،

وهززت رأسي سلباً ، فقال متسائلاً :

– هل تشك في حدوث خطأ اثناء العملية أدى إلى الوفاة ؟

– هذا جائز جداً يا سعادة البك ، ولن يكون مجرد خطأ ، ولكنه خطأ رجل ليس له خبرة بالجراحة ، فمسئوليته لا شك فيها .

فعاود التفكير مرة أخرى ثم قال : لا استطيع أن اقضي برأي قبل أن يفحص الطبيب الشرعي الجثة ، ويوضح أسباب الوفاة .. فاستحوذ عليّ خوف وكآبة ، ولم اطق تصور عبس الطبيب بالجثة ، وفاض بي الألم فقلت :

– هلا استدعيت الطبيب للتحقيق معه أولاً ؟ فلم يحفل باعتراضي ، وأمسك بسماعة التليفون وطلب رقماً ، ثم سمعته يحادث الطبيب الشرعي ، ثم سألني عن عنوان الطبيب ، وطلب منه أن ينتقل اليه ليفحص الجثة ويكتب تقريراً عن سبب الوفاة ، وأنهى الحديث ثم التفت نحوي قائلاً :

– إذا كان ثمة مسئولية جنائية فسأذهب للتحقيق ..

وغادرت دار النيابة بعد اتمام الاجراءات الرسمية وقد فقدت تهوري ، فاستشعرت خطورة ما أقدمت عليه. ليس الأمر لعباً، انه نيابة وطبيب شرعي وبوليس وفضيحة وقيل وقال ، وقد يتمخض التحقيق عن لا شيء فلا يبقى لنا إلا الفضيحة والقيل والقال، بأي وجه القى الناس بعد ذلك؟ كيف القى أهلها وأهلي والناس جميعاً ؟ ! . وألم يكف زوجي ما قدر لها من مصير تعيس حتى أجعلها معرضاً للأطباء الشرعيين ومضغة للأفواه ؟ وا احر قلباه ! هكذا عدت صوب البيت مثقل النفس بالهم والفكر ، ولما طالعتني العمارة توقفت متردداً وقد أهاب بي نداء أن أنكص هارباً ! ولكن لم يكن لي مهرب ، ولم يكن بد من أن أتجرع مرارة الكأس حتى الثمالة..ودققت الجرس، ثم دخلت واجماً مستخذياً..

* * *

كانت الأبواب مغلقة إلا باب حجرة الاستقبال كان مواربا ، ولم يكن بالبيت اثر من الضجة التي تشمل البيوت حين الموت، فتولتني دهشة عفت على اضطراب نفسي . لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة فكيف لم يطيروا الخبر المفجع إلى بيوت الأهل والأقارب ! وعاودني شعور الارتياب والحنق .

فنظرت إلى الخادم الصغيرة التي فتحت لي – وكانت ملتهبة العينين من

البكاء – وسألتها ألم يحضر أحد ؟ فهزت رأسها سلباً في صمت وحزن ، فأشرت إلى باب حجرة الاستقبال الموارب وسألتها : هل ثمة أحد هنا ؟

فغمغمت قائلة « الدكتور أمين » فانتفض جسمي غضباً ومقتاً . ثم مضت الخادم إلى باب الصالة الكبيرة فدفعته ودخلت وذهبت إلى الحجرة التي ترقـد فيها رباب في أقصى البيت . لبثت وحيداً في الصالة الصغرى لا أدري ماذا أنا فاعل . تتناوبني مشاعر الرهبة بما أقدمت عليه وأحاسيس الغضب والمقت التي يثيرها في نفسي الجو المحيط بي . ثم سمعت وقع اقدام آتية من الداخل،وظهرت من باب الصالة الكبيرة نازلي هانم مكللة في السواد ، فألقت عـلي نظرة باردة وسألتني بانفعال قائلة : أين كنت يا سيدي ؟

فاستثار منظرها وسؤالها خوفي وشعور الخزي الذي ركبني منـذ فارقت دار النيابة ، ولم أعد أطيق حبس السر الرهيب في صدري : نازعتني نفسي إلى الاعتراف ، وإلى لقاء الخطر وجهاً لوجه ، فقلت بهدوء :

– ذهبت إلى النيابة وطلبت اجراء التحقيق ! فاتسعت حدقتاها وفغرت فاها ، وجعلت تحملق في وجهي كأنها لا تصدق ما سمعت أذناها ، ثم غمغمت بذهول : النيابة... ! فقلت بهدوء رهيب ، وبصوت مرتفع لأسمع من في حجرة الاستقبال: أجل ذهبت إلى النيابة وسيجيء الطبيب الشرعي إلى هنا عما قليل.

وسرعان ما بدأ الدكتور خارجاً من الثوي ، فوقف غير بعيد ممتقع اللون ساهم الطرف ، وعادت المرأة الذاهلة تسأل : وأية تهمة وجهتها الينا ؟

فقلت وأنا أغلي الحقد والتشفي بوحشية : ليس ثمة تهمة، ولكن أجزم بوجود خطأ خطير نجمت عنه الوفاة،خطأ خليق بأن يقع فيه من ليس له خبرة بالجراحة وهو يتصدى للعبث بأرواح العباد !.. وساد صمت متوتر أليم تلاقت فيه الأعين وافترقت . ثم شهقت المرأة شهقة عصبية مرتعشة وهتفت بي :

-- كيف هان عليك أن تسلم جثة زوجك النيابة ؟

ووخزني ألم عميق فكادت تنهـار قواي ، ولكني غطيت على الألم بغضب مفتعل وصحت بعنف قائلاً : يهون علي ذلك ألا تضيع حياتها هدراً !

وفغر الطبيب فاه ليقول شيئاً ولكن الجرس دق بقوة هلعت لهـا القلوب ، فمضيت إلى الباب وفتحته ، فبدا شرطي ابتدرني قائلاً :

– هل توجد في هذه الشقة المرحومة حرم كامل أفندي رؤبة الموظف بالحربية؟

فأجبته بالايجاب ، فتنحى الرجـــل جانباً وهو يقول « سعادة الطبيب الشرعي » ، ودخل رجل ربعة يحمل حقيبة طبية وتبعـه الشرطي على الاثر ، وصادف الطبيب الشرعي الدكتور أمين في مواجهته فسأله :

– هل حضرتك الزوج الذي بلغ النيابة ؟ فقلت له وأنا أغلق الباب :

– أنا الزوج يا بك ،وهذا هو الدكتور الذي اجرى العملية .. وردد الطبيب عينيه بيننا في دهشة ، وجرت على شفتيه ابتسامة خفيفة ، ثم سأل الدكتـور أمين قائلاً : أي عملية كانت ؟ فقال الدكتور أمين بصوت منخفض :

– عملية في البروتون ... وما سبب الوفاة ؟

– حدث ثقب في البروتون نتيجة خطأ خارج عن ارادتي ..

وقلت عند ذاك في انفعال شديد موجهاً خطابي للطبيب الشرعي :

– اسأله يا سعادة الطبيب عما جعله يجري عملية جراحية وهو ليس جراحاً..

فتردد الرجل لحظات ثم قال بصوت مرتفع :

– لقد جئت لمهمة أخرى . أين الجثة من فضلكم ؟ وكانت نازلي هانم واقفة بمكانها على كثب من باب الصالة الكبرى تردد عينيها المحمرتين في وجوهنا في صمت وذهول ، فلما ان سمعت الطبيب يسأل عن مكان الجثـة ندت عنها آهة وهتفت بلا وعي قائلة : هذا لن يكون ابداً ..

فرمقها الطبيب بنظرة سريعة ثم قال لها برقـة : تجملي بالصبر يا سيدتي ...

وألقت علي المرأة نظرة مشتعلة بالغضب ثم عادت إلى الطبيب تقول برجاء :

– ان المتوفاة كريمة رجل من كبار موظفي الدولة ، جبر بك السيد ، كبير مفتشي الوجه البحري ، لعلك تعرفه يا سيدي ، فارحم ضعف امرأة مثلي وانتظر عودته ، لقد أبرقت له بالفاجعة .. فقال الطبيب برقة :

– ينبغي فحص الجثة بلا ابطاء حتى يمكن التصريح بدفنها في الوقت المناسب لا تفزعي يا سيدتي فسينتهي كل شيء في دقـــائق ... وارتمت المرأة على مقعد مغلوبة على أمرها وراحت تنشج باكية ، على حين سرت أنا بين يدي الطبيب إلى حجرة رباب ! ولما بلغت الباب جاءني نحيب صاح من الداخل ، فدفعت الباب

وناديتها دون أن تواتيني الشجاعة على النظر صوب الفراش ، ولبت الجارية ندائي فنحيتها جانباً موسعا للطبيب الذي دخل الحجرة بلا تردد ، ثم رددت الباب وراءه ، وسألتني الجارية عن الرجل الذي جئت به فانتهرتها في جزع ودفعتها خارج الصالة . ورحت اذرع المكان جيئة وذهاباً في اضطراب شمل أعصابي جميعاً ، ورانت على صدري كآبة قاتلة ، فتصورت جثة زوجي الحبيبة بين يدي هذا الطبيب الغريب ، ينزع عنها الأستار ، ويعبث بها في برود لا يعرف الرحمة .

لقد ند عني أنين موجع ، وشعرت بألم حاد يمزق قلبي إرباً ، ومرت بي لحظات ذهول فخيل إلي اني فريسة كابوس شيطاني ، وتلفت فيما حولي كأنما أتلمس منفذاً للنجاة . ولكن هل نسيت الوجه الشاحب المعصوب يجثم على جبينه شبح الموت الرهيب ؟. رباه .. اني أثوب إلى نفسي رويداً رويداً ، تاركاً دنيا الجنون الذي ركبني إلى عالم الفجيعة الواقع ، تمثلت لي الحقيقة المروعة في شيء من الهدوء الحزن ، فكأنني أدرك لأول مرة أن رباب قد ماتت حقاً . لم تعد من الأحياء . وخلت منها حياتي إلى الأبد . لن تعود إلى بيتي كما قالت أمها ، ولن اصحبها صباحاً إلى الترام ، ولن استقبلها مساء عقب عودتها من المدرسة وهي تغالب التعب بابتسامة حلوة ، انتهى الشباب الريان ، وانطفأ الحب الباهر وصوحت آمال وآمال . أين مني ذاك التاريخ السعيد الذي بدا على طوار المحطة ، فنسج ذكرياته من مادة الحب الأثيرية ، وطاف بي في وديان السعادة ، ثم خلقني خلقاً جديداً ، أين مني هذا التاريخ الساحر ؟ هل انتهى حقاً في دقيقة من الزمان بخطأ طبيب أحمق ؟.. وما ذنبي أنا ؟.. الموت كارثة فظيعة بيد انه غير مقنع !.. ألم أكن احدثها منذ ساعتين ؟ ألم تكن كالورده اليانعة منذ يوم أو يومين ؟..فكيف أصدق انها صارت وأول ميت منذ ملايين السنين سواء . ثم انها حية في نفسي ، اني اراها رؤية العين ، وأسمعها ! وألمسها ، وأشمها ، انها ملء النفس والقلب ، فهل من سبيل إلى اصلاح خطأ بسيط ؟!..

وحدثت حركة — لا أدري ان كانت جاءت من الصالة الخارجية أو من الحجرة المحزونة — ولكنها اعادتني إلى وعيي فعلق خاطري بالطبيب وما يفعله عاودني اضطرابي وقلقي ومخاوفي ، ماذا أفعل لو لم يعثر الطبيب بشيء ذي بال ؟

كيف ألقى القوم فيما بعد ؟ لشد ما تمنيت أن ينزل الله عقابه بالقاتل ؟ بيد انني لبثت على حال من الاضطراب لم تترك لي سبيلا إلى نفسي أو عقلي. وطال الزمن واستطال حتى خيل إلي اني شخت وهرمت واني أموت . ثم فتح باب الحجرة ولاح وراءه الطبيب بوجه جامد لا يبين عن شيء ، وتقدم خطوات فصار في منتصف الصالة ، فوقفت حياله فاغر الفم شاخص البصر ، ومسح بأنامله على جبينه ثم قال بنبرات واضحة : لقد انتهيت من كتابة تقريري ، وسأحوله إلى النيابة في الحال وأظنه يستوجب تحقيقاً عاجلا ..

* * *

كان ينبغي أن اشعر بارتياح وتشف ، ولكن خارت قواي فجأة فارتميت على أقرب مقعد ومددت ساقي واستسلمت لما يشبه النوم . ولم يحدث في فترة الانتظار التي أعقبت خروج الطبيب الا اندفاع نازلي هانم وصباح إلى حجرة المتوفاة ، وتصاعد النواح والبكاء . ولاحت مني نظرة إلى الصالة الصغرى فرأيت الدكتور أمين رضا يذرعها في بطء وتثاقل ، وقد جلس الشرطي على كرسي عند باب حجرة الاستقبال .

وعند منتصف الساعة الواحدة دق الجرس ، فنهض الشرطي وفتح الباب ، ودخل وكيل النائب يتبعه كاتب وشرطي ، وخفق قلبي في ارتياع لرؤية رجال الحكومة ، ونهضت قائماً واتجهت صوب الرجل ، ثم رفعت يدي بالتحية . وسأل وكيل النائب عن حجرة المتوفاة ، ثم مضى اليها تواً يتبعه الكاتب ، ولم أجد الشجاعة للحاق بهما ، فانتظرت خارجاً . ولم يطل غيابهما فعادا مرة أخرى ، ونظر الرجل فيما حوله ثم سار إلى حجرة الاستقبال وأنا في أثره ، وجلس على كنبة ، واقتعد الكاتب كرسياً قريباً باسطاً أوراقه على نضد . ووجه إلى اسئلة عن اسمي وعمري ووظيفتي وطلب إلي أن أروي معلوماتي عن الحادث . فصدعت بأمره والكاتب يسجل كل كلمة أقولها . ثم استدعي الدكتور أمين رضا فجاء الدكتور جامد الوجه شاحب اللون ، وسمح له بالجلوس أمامه ، ثم وجه إلي الخطاب قائلا : بوسعك أن تبقى معنا اذا شئت !. وخيل إلي أني وجدت في لهجته ما يشبه الأمر ، وكانت رغبتي في حضور التحقيق لا توصف ، فجلست على

مقعد ملاصق للكتبة التي جلس عليها المحقق وقد ملكتني الرهبة والتأثير. وبدأ الرجل يلقي عليه اسئلة عامة عن الأسم والعمر والمهنة ، ثم قال له :

– اخبرني كيف اتصلت بهذا الحادث من بادىء الأمر ؟ فقال الدكتور أمين بلا تردد : استدعيت إلى عيادة المريضة زهاء التاسعة صباحاً فوجدتها في حال سيئة من الألم ، ففحصتها فتبين لي أن البروتون ملتهب وانه يستوجب عملية عاجلة فقررت اجراءها انقاذاً لحياة المريضة ، وأعلنت رأيي لأمها فوافقت، وفي الحال اجريتها ، ولكن حدث أن ثقب الغشاء ثقباً خطيراً ، وذهبت مجهوداتي في انقاذها سدى ، فتوفيت ... هل سبق لك أن عالجت المتوفاة ؟ كلا ..

– ولا في هذا المرض الأخير ؟. كلا ، وقد علمت أنها رقدت ليلة واحدة وكانوا يظنونها مصابة بنزلة برد . هل من عادة هذه الأسرة أن تستدعيك فيما يلم بها من أمراض ؟. لم يحصل هذا ، إلى اني لم أزاول مهنتي إلا منذ شهور لا تجاوز العام ، ولا أذكر أن احداً من الأسرة قد مرض في هذه الفترة .. هل تظنهم كانوا يستدعونك في مثل هذه الحال ؟. الواقع أنهم استدعوني في أول حال عرضت لهم . ألا يعرفون اختصاصك ؟. بلى ولكن شدة الحال جعلت الأم تستنجد بي،لقرب عيادتي من ناحية،وللقرابة التي تربطني بها من ناحية أخرى.

– لا أرى في هذه الظروف ما يمكن أن يؤثر في اختيار الطبيب ، ثم أنت كيف توافق على تلبية دعاء لحالةٍ مرضية تعلم انها ليست من اختصاصك ؟ ألا يشير الأطباء في أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب المناسب ؟.

– رأيت اللياقة تقضي بأن ألبي الدعوة على الفور ، فذهبت وفي ظني انها حال اغماء أو مغص شديد أو ما شاكل ذلك مما لا يعجز طبيباً على الاطلاق ، وأظن هذا ما دار بخلد الذين استدعوني . ولكنك وجدت الأمر أخطر مما تصورت فكيف كان تصرفك؟. فأمسك الدكتور عن الاجابة وخفض بصره في ارتباك وترو ، فبادره المحقق قائلا : لماذا لم تشر باستدعاء جراح ؟.

– كانت الحاجة ماسة إلى عملية عاجلة .

– هل مارست الجراحة قبل ذلك ؟

– في الكلية طبعاً !.

– اعني بعد ذلك ؟. – كلا ...

- يدهشني ان اتصور اقدامك على اجراء هذه العملية الخطيرة .

فقال الدكتور أمين وقد تغيرت نبرات صوته قليلاً واعترتها حدة عصبية :

- قلت ان الحال كانت خطيره وتستدعي اجراء سريعاً !

- وكيف احضرت الأدوات الطبية اللازمة لهذه العملية ! هل كانت توجد بعيادتك

ولأول مرة تردد الدكتور قبل الاجابة ، ثم قال : كلا !..

- كيف اتيت بها؟. - من زميل . - جراح؟. - أجل...

- ولماذا لم تحضره؟. - كان مرتبطاً بعمل في نفس الوقت ..

- من عسى ان يكون هذا الدكتور ؟.

- فتردد مرة أخرى ، ثم تورد وجهه الشاحب وقال بصوت منخفض :

- الحق اني احضرتها من المستشفى ، مستشفى فؤاد الأول .

- بصرف النظر عما اذا كان هذا التصرف سليماً أم لا من الناحية الادارية . ألم يكن الأخلق بك وقد رأيت انك لا بد منفق وقتاً غير قصير في احضار الادوات بطريقة غير مشروعة ، ألم يكن الأخلق بك ان تستدعي جراحاً خصوصاً وان استدعاءه لم يكن يستنفذ من الوقت أكثر مما يستنفذه احضار الأدوات ؟.

فتفكر ملياً ثم قال بارتباك ظاهر :

- كنت متأثراً بحال المريضة فلم أفكر في هذا ...

- الأقرب إلى المنطق انه كان ينبغي ان تفكر في هذا بسبب هـذا التأثر نفسه . وهب الحق كما تقول ، فلماذا لم تنقل المريضة إلى المستشفى حيث يوجد الاخصائيون بوفرة ؟. - لم توافق أمها على نقلها ..

- ألم يكن هذا أقل خطورة من تسليمها ليد غير خبير ؟.. ولكن لنـدع هذا الآن .. وبسط المحقق صحيفة بين يديه ، جرى بصره على سطورها ، ثم قال وهو يعتدل في جلسته : ما رأيك في هـذا ، اني اراجع الآن تقرير الطبيب الشرعي فاذا به يؤكد ان التهاب البروتون لا يستوجب هذه السرعة التي تتحدث عنها كما تستوجبه بعض حالات الزائدة الدودية مثلاً ، فما رأيك في هذا ؟

فلاذ الدكتور بصمت عميق ، ونم لمعان عينيه عن تفكيره وقلقه . وعـاد المحقق يقول : ويقول ايضاً أن العملية تستدعي بضع ساعات للتأهب لها بتناول

المريض في اثنائها شربة عادة ، الم تعلم بهـذه المبادىء الأولية في فن الجراحة ؟.
– علمت ان المريضة تناولت شربة مساء امس ولم تذق بعدها طعاماً ...
– هل اخذتها استعداداً للعملية ؟.

– كلا .. أخذتها بسبب ما ظن بها من برد ، أما فكرة العملية فلم تنشأ إلا بعد حضوري اليوم . واشتد انتباهي عند ذاك ، وعجبت كيف لم يذكر لي أحد أن زوجي تناولت شربة . وذكرت كيف أبقيت بهذا البيت مع أنه كان بوسعها أن تعود إلى بيتنا ولو في تاكسي ، وداخلني شعور ثقيل بالغموض والحيرة .

– وعاد المحقق يقول : اني حيال عملية أجريت بسرعة جنونية لغير ما سبب فني يستدعي ذلك ، وبيد طبيب غير جراح كان بوسعه ولا شك ان يدعو جراحاً مختصاً .. فما معنى هذا ؟. والقى المحقق على الدكتور نظرة نافذة باردة، فتردد بصري بينهما في قلق متزايد وخوف غريب . وبعث الاضطراب في نفسي توتراً حاداً . ثم سمعت المحقق يقول : اني اتساءل عن الضرورة التي حتمت أن تكون أنت الجراح ، وفي هذا الوقت بالذات ؟. وسكت ملياً ثم استدرك متسائلاً :
– وما سبب الوفاة ؟. ثقب البروتون .. فقال المحقق ببرود :
– يقرر الطبيب الشرعي غير هذا ! فتساءل الدكتور أمين رضا مستنكراً :
– فما عسى أن يكون السبب اذن ؟ هذا ما يخلق بك أن تدلني عليه بنفسك !
فقال الدكتور وقد اعتور نبرات صوته ذلك التوتر العصبي : لا أفهم ماذا تعني ..
– سأزيد لك المسألة بياناً ، يقرر الطبيب الشرعي ان البروتون قد ثقب حقاً ولكن يؤكد انه لا يوجد به شيء على الاطلاق من مرض أو التهاب ، وأن حاله لم تكن لتستدعي علاجاً على الاطلاق فضلاً عن عملية جراحية !
– ولكني أجريت العملية بنفسي .. لم تجر عملية على الاطلاق فيما عدا ثقب البروتون .. فقال الدكتور بصوت متهدج وبحدة غاضبة :
– أتريد القول باني ثقبت البروتون بلا داع !.. ما معنى هذا ؟.
– انت ثقبت البروتون فقتلتها لم في اثناء اجراء العملية ..
– اؤكد لك انك لم تجر عمليـة في البروتون .. فصاح الدكتور في غضب :
– أتتهمني بأني تظاهرت باجراء العملية كي أقتلها ؟.. أتتهمني بالقتل ياحضرة

المحقق ؟ فقال المحقق بهدوء : انني اتهمك بالقتل حقاً ، وستوافقني عما قليل على رأيي ، وسترى بنفسك — بغير حاجـــة إلى نصيحتي — انه لن يهيء لك بعض النجاة إلا الصدق والصراحة . انكفأ وجه الدكتور وازداد تجهما ، وركبته حال تعسة من القهر . أما المحقق فقد القى نظرة أخيرة على تقرير الطبيب الشرعي ، ثم استطرد قائلاً : لماذا احدثت هذا الثقب القاتل بالبروتون ؟

فقال الطبيب في تجهم ، وفيما يشبه اليأس : لقد أجبت على هذا من قبل !

— يجدر بك الا تتغابى وأنت بلا شك شاب ذكي ، لقد أحدثت هذا الثقب لتخلق سبباً ظاهراً « مشروعاً » للوفاة التي ظننتها لا محالة واقعة ..

اطرق الدكتور صامتاً وبدأ كشخص يعترف مستسلماً ، واستطرد المحقق قائلا : كنت تجري عملية حقـــاً ولكن في موضع آخر من الجسم ، ثم حدث ثقب خطأ في هـــذا الموضع الآخر فظننت لقلة خبرتك بالجراحة انه سيقضي على المريضة حتما فما عسى أن تفعل؟ لو عرف سبب الوفاة الحقيقي لكشف الغطاء عن العملية الجراحية وهي غير مشروعة ، وهنا هداك عقلك المضطرب إلى حيلة جنونية . وهي ان تثقب البروتون فيظن انه سبب الوفاة ، ثم تدعي كذباً بأنك كنت تجري عملية في البروتون ، بذلك تحكم الستار على جريمة العملية غير المشروعة ، أما قتلك مريضاً خطأ فلا يقع تحت طائلة القانون ، ولكنك اخطأت فالمريضة لم تمت من الثقب الأول ولكنك قتلتها وأنت تثقب البروتون .

انتفض الدكتور انتفاضة عصبية عنيفة ، وهتف بالمحقق وكأنه فقد وعيه :

— كلا .. كلا .. لقد توفيت تماماً قبل أن أثقب البروتون .. !

وجرت على شفتي المحقق ابتسامة خفيفة ، والقى على الدكتور نظرة ظافرة ، على حين أطبق الآخر شفتيه في صمت وذهول ، ورفع عينيـــه مرتين إلى وجه المحقق في حنق وقنوط . بدا لي وكأنه قد صرع تحت وقع ضربة قاضية فغلب على أمره . بيد انني لم ألق بالاً اليه . كان عقلي ينتفض حرارة وحركة وهياجاً عملية اخرى !. عملية غير مشروعة ؟. عملية البروتون ما هي إلا خدعة زائفة للتستر على جريمة !. اما ان أكون مجنوناً او يكون الرجلان مجنونين !. توفيت تمامـاً قبل أن يثقب البروتون ! . رباه ! اكاد أخرج عن طوري فينفلت لساني

هاذياً رغم وجود هذا المحقق المخيف . على ان المحقق خرق الصمت الثقيل قائلا في هدوء : اتفقنا ، وأظن انه آن ان تعترف بأنه وقع الاختيار عليك بالذات دون أطباء مصر جميعاً لاجراء عملية اجهاض !.

لم يتوقف عند هذا الحد ، ولكنه واصل حديثه ، ولعله ذكر فيما قال البنج وأثره أو شيئاً من هــــذا القبيل ، ولعل الآخر نطق ببضع كلمات كذلك ، ولكني لم أعد أعي شيئاً مما يقال . تعلق ذهني بقوله : « عملية اجهاض »وامتنع عن السير . لقد وقعت علي هــذه العبارة فشطرتني شطرين ، ثم مزقتني أرباً ، ودوت في رأسي حتى ذهلت بها عن كل شيء ، غاب الرجال الثلاثة عن ناظري. وغابت الحجرة ، ورأيت فراغاً مخيفاً تمتزج فيه الحمرة بالسواد : وتتراقص فيه أشباح مرعبة من الذكريات والخواطر .. عملية اجهاض.. كانت رباب حامل!. الخطاب .. هذا الطبيب الشاب!. يستطيع الشيطان ولا شك أن يؤلف من هذه الحقائق المتناثرة جريمة مروعة ، ساخراً من شكي الذي دفعني إلى التجسس حيناً ، هازئاً بالطمأنينة التي آويت اليها سادراً حيناً آخر .. ان المحقق يسعى جاهــداً وراء جريمة طبية ، وسيعثر في طريقه الشائك بجريمـــة أدهى وأمر . ألم يحدس قلبي الكارثة من بادىء الأمر ؟.. أيكون الطبيب هو صاحب الخطاب ؟ أم أنهـــم استشفعوا بقرابته على التستر والكتمان ؟. ولكن لا شك أن الأم كانت تعلم كل شيء .. كل شيء عن حياتي الزوجية ، وزلة ابنتها ، ولعلها ارادت أن تطمس آثار الفضيحة بالعملية لولا أن هتك الموت تدبيرها .. آه يا ربــاب !.. ان كل عذاب نصاب به في هذه الدنيا حق وعدل لأننا نتفانى في حبها على حين انها لا تستحق الا المقت . واستيقظت على صوت المحقق وهـــو يهتف بي : « هوه .. اصح ! » . فرفعت اليه عيني مرتجفاً وعددت رويداً رويداً إلى الشعور بما حولي قال الرجل : اني اسألك ألم تصارحــك زوجك بكراهيتها للحمل ؟. ألم تفض اليك برغبتها في اجهاض نفسها ؟.

واسترقت من الدكتور أمين نظرة سريعة ، وقلت لنفسي انه يعلم السر كله من بادىء الأمر ، ولعله يعلم أضعاف ما أعلم ، فعز علي أن أكذب وان أعرض نفسي لأهانة جديدة ، وتمتمت قائلا : كلا ... أكنت تراها مسرورة بحملها ؟

فقلت في غير مبالاة وقنوط : لم أعلم أنها كانت حامل إلا هذه الساعة !.
فارتفع حاجبا المحقق فوق نظاراته ، وثبته على عينيه وهو يقدح فكره ثم سألني : كيف تعلل اخفاءها الأمر عنك ؟.
لشد ما زلزلني هذا السؤال ! انها كلمة واحدة ثم يصبح سري نادرة المتندرين. ان مشاعر الحقد والانتقام تستفزني جميعاً إلى نشر هذا السر الدفين كي أهتك سر الآثمة وانزل انتقامي بالمجرم. أريد ان أقول انه لم يكن في حياتنا ما يدعو إلى الحمل ليضع المحقق يده القاسية على الفاسق . ولشد ما نازعتني نفسي إلى ذلك ، وأوشكت الكلمات أن تثب إلى طرف لساني .بيد انني لم أنبس بكلمة ، وحلّ بي شلل عام لا أدري ما كنهه . هل يمكن أن يكون للخجل أثر حتى في مثل هذه الحال؟.. هل يمكن أن تفوق رغبتي في التستر على عجزي تحرقي إلى الانتقام ؟ لم أستطع التفوه بالكلمة الفاصلة ، وكلما مرت ثانية ازددت عجزا ونكوصاً ، ثم تمتمت قائلا وانا ألهث : لا أدري .
وما أدري إلا والدكتور ينتفض واقفاً ثم يتراجع خطوتين شابكا ذراعيه على صدره في تحد وكبرياء وغطرسة ! ويقول للمحقق بثبات وعجرفة :
– تسأله عما لا يدري . انها لم تكن زوجه إلا رسميا فحسب ، واني أنا المسئول عن كل شيء من البداية إلى النهاية ...
* * *
غادرت البيت دون ان أرى أحداً من أهله ، فلم يعد البيت بيتي ولا الأهل أهلي . ووقفت عند باب العمارة فجرى بصري إلى المحطة ، محطة الذكريات وطاب لي أن أردده بينها وبين الشرفة ،ثم اغمض عيني لأرى موكب الذكريات يمر كلمح البصر ، صورة صادقة من الحياة ، جامعاً بين طرفي ملهاتها ومأساتها . ثم انطلقت في الطريق بلا غاية كأنما أجدّ في الهروب. استحال قلبي جمرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والشقاء والمقت .وقد خيل إلي أن هذه الدنيا العاكفة على همومها ستتناسى شجونها غداً وتغرق في الحديث عن فضيحتي ، على انني لم أكن قد أفقت من دهشتي ولم أزل أتساءل عما حمل الدكتور المجرم على الاعتراف بالحقيقة الماثلة القد هاضني الجبن فكتمت الحقيقة ، ووهبته بذلك فرصة للهرب

لو أراد هرباً ، ولكنه انتفض واقفاً غاضباً ، والقى بالحقيقة من بـين شفتيه في غطرسة وكبرياء: «لا تسأله عما لا يدري ،انهالم تكن زوجة إلا رسمياً فحسب».. رباه ، لماذا لم أدق عنقه .. لماذا لم أرم بنفسي عليه وأنشب أظافري في قلبه .. لتلهبني هذه الذكرى حتى الموت بمثل السوط اشتعلت أطرافه بالنار . ولكن ما الذي جعله يرمي بنفسه إلى الهلاك !.. هل حمله اليأس من تبرئة نفسه من أحدى التهمتين على الاعتراف بالأخرى ؟ أو انه راعـــه ما جنى الحب على حبيبته فنازعته نفسـه في ساعـة يأس إلى ان يشاطرها المصير الأليم ؟ أهي ثورة ضمير أم ثورة قلب أم الاثنين معاً؟!. من لي بأن أطلع على سر هذا القلب المتغطرس؟ بيد انني أزددت حيرة وجعلت أتساءل: كيف هان عليه أن يرسلها إلى القبر مكفنة بالفضيحة ؟ ألم يكن الأخلق به أن ينتهز الفرصة المبذولة فينقذ نفسه ، ويستر شرف المرأة التي أحبها .. وأحبته ؟!.. أتراه نادماً الآن على ما بدر منه أم لا يزال منتصب القامة غطرسة وعجرفة ؟.. أنه لغز ، وسيظل لغزاً بالنسبة لي إلى الأبد ، وكان قلبي متورماً من الحقد والغضب فوجدت في المصير الذي قضى عليهما به – هي في القبر وهو في السجن – راحة وغبطة .

وكانت قدماي قد حملتاني إلى ميدان الاسماعيلية ، فلم أجد مهربا خيرا من حدائق قصر النيل فاتجهت صوب الجسر . آه لو أستطيع أن أغيب عن القاهرة عاماً ! ولم يدر لي بخلد أن أشيع جنازة المرأة التي كانت زوجاً لي ، اذ لم يعد بوسعي أن أبدو أمام أحد ممن يعلمون بحقيقة المأساة. ولكن هل تزوجت حقاً ؟ لم تكن الا مهزلة طويـلة ، أو مأساة على الاصح ، ولشد ما تملك الدهشة أهلي اليوم أو غـدا اذا علموا بأن زوجي ماتت ودفنت دون أن يدعى أحد منهم لتشييع الجنازة،ولكن سرعان ما تذهب دهشتهم اذا عرفوا الحقيقة ، وسرعان ما يلهيهم التندر بها عما عداه،ويا لها من أحدوثة حقيقة بأن تحيي محافل السمر !. وتقبض قلبي وشعرت ببرودة تسري في اطرافي . لشد ما تعاودني تلك الرغبة القديمة في الهرب !. أين مني بلد بعيد لم يطرق أبوابه طارق ، من لي بأن أقطع كل صلة تربطني بماضي البغيض !. آه لو يمكنني أن اولد من جديد في عالم جديد لا تطالعني فيه ذكرى من ذكريات هذا العالم ، أجل لن استطيع ان اواصل

حياتي على حين يتبعني هذا الماضي كالظل الثقيل.. وقضيت بقية النهار متخبطا في الطرق أو جالساً شارداً في الحدائق ، لا أشعر بحر ولا ببرد ، ولا بجوع ولا بظمأ ، حتى آذنت الشمس بالمغيب وانتشرت سمرة المساء فوق رؤوس الشجر . فعدت من حيث أتيت في خطو ثقيل ، وبلغت ميدان الاسماعيلية وقد هبط الظلام على الكون فملكتني الحيرة ولم اعرف لنفسي مـذهباً ، ثم وثبت إلى ذهني صورة الحانـة فجأة فتنهدت من الأعماق ، وندت عن اعصابي المتوترة المكلومة آهة ارتياح كأنما حظيت بفرجة بعد طول اختناق. وفي اللحظة التالية كان التاكسي ينطلق بي إلى شارع الألفي . بيد ان ارتياحي ولى سريعاً ، وحل محله قلق وانقباض وتردد ، وجعلت اتساءل : الا يجمل بي ان اولي وجهي وجهة اخرى ! وغادرت التاكسي حيال الحانة ولكني لم امض اليها ، ورحت أتمشى على الطوار في خطى بطيئة مثقل الرأس والقلب ، وغلبني اليأس، فانسقت معه إلى داخل الحانة وانتبذت ركنا منفرداً ، وشربت كأساً واخرى ، وعلت ، ومـا تكاد رأسي تستجيب للخمر ، ولكني شعرت بالجوع بغتة فأكلت بنهم وشهوة عجيبة وما كدت أفرغ حتى حل بي تعب شمل معدتي ورأسي واعضائي جميعاً فكأن جهد اليوم المبرح قد وجد غرة فزحف علي بجحافله وناخ علي بكلكله ، ونهضت مترنحا، وغادرت الحانة إلى تاكسي واقف غير بعيد، فانطلق بي صوب قصر العيني ، علاني التعب والجهد ، وسرى في جسدي تخدير ، وتولاني شعور طارىء بعدم المبالاة، فرمقت مأساتي بعين ساخرة، فبدت لي لحظة كأنها مأساة شخص غريب، أو كأنها انتزعت من حياتي الخاصة واحتلت موضعها من موكب المأساة الانسانية العامة . وجعل التاكسي يطوي الطريق حتى شارف موقـع العمارة التي امتحنتني بها الدنيا ، وانطلق بصري صوبها لا يغمض وقد تقلص قلبي وتوالت ضرباته فرأيت النور يشع من الشرفة والنوافذ . أما امام مدخل العمارة فقد أقيم عمودان طويلان يتـدلى منهما مصباحان كبيران مضاءان . قضي الأمر ...

* * *

ذكرت وأنا ارتقي سلم بيتنا أمي فارتعدت فرائصي واستحوذ علي حنــق فظيع كأنه شيطان ، ترى ماذا احنقني ؟. وسألت نفسي في حيرة عما عسى أن اقول لها .. رباه ! ما الذي جاء بي إلى البيت ؟. هل ظننت انه يسعني أن اقضي هذه الليلة في حجرة «رباب» وعلى فراشها ؟. على انني واصلت ارتقاء السلم كأنه قضاء محتوم ، ودخلت الشقة بصدر منقبض ووجه مكفهر ، وجاءني صوت أمي وهي تتساءل في لهفة وجزع قائلة : « من ؟ » فجمدت في مكاني غاضباً حانقاً ثم قلت بخشونة : « أنا » فهتفت بي بصوت باك : كامل . تعال يا بني ..

فخفق قلبي بعنف ، وأيقنت انها علمت بمصير «رباب» . وذهبت إلى حجرتها وكانت جالسة في الفراش ، فمدت إلي يديها وهي تنشج باكية وقالت بصوت تخنقه العبرات : ليتني كنت فداءها !.. كان ينبغي ان تبقى هي لك.. فوقفت في وسط الحجرة متجاهلا يديها الممدودتين ، وسألتها في جمود وغلظة : كيف علمت بالخبر؟

فهتفت بصوتها المختنق : كيف نسيت يا بني ان تخبرني ؟ اني ادرك من هذا شدة حزنك .وقد تفتت قلبي رثاء لك .. ليتني كنت الفداء لكما ، أنا العجوز المريضة ، ولكنه قضاء ربنا .. لم ينل تأثرها من جمود نفسي . فلم استجب لها ، وسألتها وكأنني لم أسمع كلامها : كيف علمت بالخبر ؟.

– لقد انتظرت عودتك اليوم في قلق ، ولما جـاء المساء ولم تحضر بلغ مني الخوف ، فوصفت للخادم موقع العمارة وارسلتها إلى هناك ، فعادت إلي بالخبر الأسود .. ورمقتها بنظرة مستريبة وسألتها بصوت منخفض :

– هل علمت كيف ماتت ؟. فعاودهـا البكاء وهي تقول : كلا يا بني ! ولا زلت في حيرتي وذهولي ، أسفي على الشابة المسكينة ، كيف وافاها الاجل على غير ميعاد ؟. وداخلني ارتياح سرعان ما فتر وخمد .. ففيم اخدع نفسي براحة كاذبة وما من قوة في الأرض تستطيع أن تواري فضيحتي ؟ وأضجرني بكاؤها ، ووقر في نفسي انه أمارة حزن كاذب مما يصطنعه النساء فقلت بفظاظة :

– ماتت كما يموت الناس آناء الليل واطراف النهار ، وكما مات جـدي وأبي وكما سنموت جميعـاً .. وضغطت على « جميعاً » في حنق ، ثم بادرتها متسائلاً في سأم : لماذا تبكين ؟.

فرنت الي خلال دموعها بوجوم وكآبة وتمتمت : وددت لو كنت فداءها ..

فقلبني الانفعال وقلت بحدة : كذب !!.. محال ان يرضى انسان بأن يفتدي آخر من الموت .. أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة ؟!.

وحدقت في وجهي بارتياع ، ثم غضت بصرها في وجوم وألم ، وساد الصمت ملياً ، حتى خرقته متمتمة :

– أسأل الله أن ينزل سكينته على قلبك .. فقلت بجفاء :

– لا حاجة بي الى دعاء . بيد انني أكره الرياء ، ولا يمكن ان انسى أنك أبغضتها حتى قبل ان تقع عليها عيناك .

فرفعت الي وجهها في استعطاف وألم وقالت : كامل لا تقس على امك ، لا تقل هذا ، لم اكرهها علم الله ، ومثل ما كان بيننا من نقار لا يكاد يخلو منه بيت .. ولكني لم ارحمها ، ولم افهم في الوقت نفسه كنة القوة التي دفعتني الى تذكيرها بالماضي الأسيف كأنما اسى حقاً على « رباب » ، بل غاليت في الحنق عليها كما لو كانت السبب فيما حل بي من كارثة ، وضاعف من حنقي ما وقع في نفسي من انها تداري بهذا الحزن فرحاً وشماتة ، فأردفت في غضب قائلاً . الحق ان الدنيا لا تسعك من الفرح !. اني اعرفك حق المعرفة كما اعرف نفسي سواء بسواء ، فلا تحاولي خداعي ، انك تدارين فرحك بهذه الدموع الكواذب .

فتأوهت هاتفة : كامل ! رحمة بأمك .. يعلم الله انني لا اخادعك ، ولكن يحزنني ما يحزنك .. فبدرت مني ضحكة باردة كفرقعة السوط في الهواء وقلت : لأزيدك فرحاً فأعلمي انها لم تمت ولكن قتلت !. فحملقت في وجهي في فزع ولعلها خافت علي الجنون وغمغمت : الله لطفك .. فصحت باستهانة وجنون : قتلت حين كان الطبيب يجهضها. فضربت صدرها بيدها وهتفت : يجهضها !!.. وهل كانت حامل ؟.. رباه لم اكن اعلم هذا . ولا انا !.. لقد أخفته عني لأنني لم أكن أبا الجنين !.. وصرخت أمي في فزع : كامل .. رحمة بنفسك ، رحمة بي ، انت لا تدري ماذا تقول . بل أدري اكثر مما تتوقعين ، لقد عرفت في يوم ما لا يعرفه مثلي في جيل ، قلت لك انها أخفت الأمر عني وذهبت الى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها ... اللهم لطفك يا ارحم الراحمين .

– الا يزال أرحم الراحمين ؟.. وداعاً فلن أعبده بعد اليوم! اما أنت فلعلك تقولين لنفسك في سرور غريب : « لقد نالت الأثمة بعض ما تستحق من جزاء ، لقد حدثني قلبي بذلك من اول يوم ولكنك لم تصغ الي ! »

فزفرت امي في شقاء وتعاسة وقالت بصوت كالأنين: لشد ما يحزنني كلامك، انك تقتلني بلا رحمة. فصحت بها كالمجنون: اشمتي ما شاءت لك الشماتة ، ولكن اياك وان تتصوري اننا سنعيش معاً . انتهى الماضي بخيره وشره ولن أعود اليه ما حييت . سأنفرد بنفسي انفراداً ابدياً . لن أعيش معك تحت سقف واحد ، وسأطلب من الوزارة نقلي الى مكان قصي افضي فيه البقية من عمري .

أشرق الدمع بعينيها وعقد الألم لسانها ولبثت ترنو الى في فزع ووجوم . وكأنه لم يكفني ما قلت فأردفت مرغياً مزبداً : اذهبي الي اختي او الى أخي واحسبيني منذ اليوم في عـداد الأموات .. ووليتها ظهري وغادرت الحجرة ونحيبها يقرع اذني ..

* * *

لم يخطر لي لحظة واحدة أن أذهب إلى حجرتي ، كان ذلك أبعد شيء عن تصوري ، حتى النظر اليها تحاميته ، ومضيت إلى حجرة الاستقبال وأرتميت على الكنبة في أعياء وقنوط ، ومضى الليل ثقيلاً مضجراً فـلم يعد نصيبي من النوم اغفاءات متقطعات تتخللها أحلام مزعجة . ثم أخذ خصاص النوافذ ينضح بنور خافت أيـذانا بمطلع الصبح فتنفست الصعداء وتمطيت متعباً ، ثم نهضت قائماً وغادرت الحجرة مدفوعاً برغبـة في الهروب والاختفاء . واقتربت من الباب الخارجي في خطو خفيف حذر حتى وضعت يدي على مقبضه ، ولكني جمدت متردداً دون أن أبدي حراكاً، ثم تراجعت في سكون نحو حجرة أمي،ودفعت بابها الموارب في حذر بالغ وأدخلت رأسي. كان شخير الخادم يتصاعد في انتظام، وعلى الفراش رقدت أمي في سكون عميق لا يـكاد يرى من وجهها إلا نصفه الأعلى. ألقيت عليها نظرة قصيرة ، ثم تراجعت إلى الخارج ، واتجهت نحو الباب الخارجي مرة أخرى ومررت منه ثم أغلقته دون أن أحدث صوتاً، وترامى إلى أذني ، أو خيل إلي أن صوتا يهتف بي ، فظننتها أستيقظت على حذري وحرصي

وأنها تناديني. وتوقفت ويدي على الدرابزين على حين تراخي قلبي ورق، ولكني كنت على حال من القنوط لم أحسن معها التدبير فهززت منكبي استهانة ونزلت. واستقبلت الصباح الباكر في طريق مقفر أو يكاد فهفا على وجهي نسيم رطيب بارد، وتلبثت متحيرا لا أدري أين أذهب ثم قصدت محطة البترول حيث موقف التاكسي واستقللت واحداً إلى ميدان الاسماعيلية . ومال بصري إلى العمارة الأخرى في الطريق فرأيت نوافذ مغلقة وسكونا مطبقاً والمصباحين المعلقين وقد أنطفأ نورهما. وانتهيت إلى الميدان فمضيت إلى لبان وجلست إلى مائدة في أقصى المحل، وتناولت فطوراً بسيطاً ، وعلاني تعب مباغت فمددت ساقي ، ثم زحف على جوارحي نعاس قهار لم أعد أملك معه رأسي، فاستسلمت لسلطانه. وسرعان ما رحت في سبات عميق . وعاودتني اليقظة فوجدتني منكفئا على المائدة وقد توسدت ساعدي ، فرفعت رأسي ناظراً فيما حولي في دهشة وارتباك ، وسرعان ما استحوذ علي حياء شديد .

وغادرت المكان مغمضا عيني عن الجلوس وما كان أشد دهشتي حين رأيت ساعة الميدان تجاوز الثانية عشرة !. نمت دهرا طويلا غائباً عن دنياي المتجهمة فما ألذ أن أنام إلى الأبد !. واتجهت صوب حدائق قصر النيل وأنا اشعر شعوراً أليما برثاثة هيئتي وذبول منظري !. وساءلت نفسي وأنا أجدّ في السير عما عسى أن أصنع بحياتي ، ولكن وسوست لي النفس ان أؤجل البت في هـذه المسألة جريا مع طبيعتي التي تنكص عادة عن مواجهة المشكلات الخطيرة . ثم وجدتني افكر في رباب !. ان بنفسي غضبا عليها لا يزول كأنه عاهة مستديمة، ولشد ما أتمنى لو تبعث حية ولو دقيقة واحدة ريثما أبصق على وجهها !. وهل أنسى أنني فرحت لموتها فرح حاقد شامت ؟.. هكذا أنا ولا داعي للخفاء !. بيد أنني على حال من السكينة استطيع معها أن افكر وان اتأمل . ومن عجب انني عـلى انانيتي المفرطة لا أبخـل على خصمي بالانصاف والعدل . لا حبا في الانصاف والعدالة ولكن لأنني ألفت ان أقيم الأعذار للخصم مداراة لعجزي عن الانتقام منه ! لذلك تلمست الأعذار لرباب في مأساتها ، وقلت لنفسي : انني اخطأت في تصديق ما ادعت مـن انها تكره الحب الجنسي ، وان عجزي حيالها هو

الذي رمى بها إلى احضان الغواية ، وكيف يمكنني أن أشك في انهـــا احبتني باخلاص ؟. وهبت على خيالي الذكريات كما تهفو نسائم عطرة على نار مؤججة ، ذكريات النظرات المتبادلة ، واللقاء الخالد في الترام ، وصدودها عن خطيبها الأول وميلها الي في سحر هو ابهج ما اقتنيت من تحف السعادة المولية . كان حباً صادقاً ، ولكن عرضت له ريح ثلجية فاقتلعت جذوره وأغاضت منها ماء الحياة . الست شريكاً في قتلها ؟!. ودعوت الله في تلك اللحظة ان يختصر الطريق فيقيم القيامة ويرحم العباد من محنة الحياة ، كان حبي سروراً الهياً ثم مضى مخلفاً وراءه مقتاً وغضباً . ولكن هل مضى حقاً ؟ هب ما حل بي قـد تمخض بمعجزة عن حلم مزعج ولا شيء غير هذا الا يعود حبي اقوى مما كان ؟ بلى ، فهو موجود اذن تحت ركام البغض والمقت ، ان العضو الذي ينفصل عن الجسد لا يعود اليه أبداً فهو غير موجود حقاً ، أما الحب الذي يعود فلا يمكن أن يكون قد ذهب حقاً. ولكن ما جدوى هذا التفكير الالم ؟! وقطبت كأنما لأخيف الذكريات التي تنهال علي . وصممت على الهرب منها ولو بمواجهة المشكلة الخطيرة التي تهربت منها منذ حين قصير الا وهي مشكلة حياتي وماذا اصنع بها. لا ينبغي أن اترك اموري للمقادير . سأجد طريقة للتخلص من أثاث رباب ثم انتقل الى حي جديد . أأسعى حقاً الى الانتقال لبلد بعيد ؟ لشد ما تنازعني نفسي الى الفرار ، بيد انني إعجز من ان أهجر القاهرة .هذا شعوري ويقيني. فهل أهجر أمي حقاً ؟ هل يسعني هجرها ! طالما رفت على خاطري الرغبة في هجرها في صور احلام غامضة ، ولكن هل يسعني حقاً ان اهجرها ؟ يا لها من خطوة خطيرة ما أخلقني ان اقف منها موقف المتفكر المتردد . لماذا أقسو عليها ؟ فيم انتقم منها ! واني لأعلم ان خطرة منها تخطر على الفؤاد حقيقة بأن تردني الى احضانها نادماً باكياً، يا له من حب بغيض لا أجد الى الخلاص منه سبيلا.

* * *

ورجعت الى الميدان بعد الساعة الثانية بقليل ، ووجدتني أذكر شارع الألفي بلهفة معهودة . وعلى كثب من محطة الترام لمحت زميلاً لي من الوزارة فتجاهلته ، ولكنه لمحني أيضاً وأقبل نحوي في اهتمام ووجوم وبسط لي يده

قائلاً : البقية في حياتك يا كامل أفندي فسرت في جسدي رعدة وتساءلت في قلق كيف علم بالخبر وماذا علم عنه ، وتمتمت في ارتباك : حياتك الباقية .

فقال الرجل وهو يضغط على يدي : عن اذنك ريثما اتناول لقمة ثم اعود للاشتراك في تشييع الجنازة . رباه ، كنت اظن ان الجنازة شيعت أمس او صباح اليوم وانتهى المأزق الحرج ، ولكنها لا تزال تنتظر مقدمي وقد اذاعوا النعي في الصحف ! اي مأزق يتربص بي !. وسألته بصوت منخفض : هل قرأت النعي في الأهرام ؟. فقال لي بدهشة : كلا ، لا أظنه ظهر في الاهرام والا لكنا علمنا به في الوزارة ، ولكني اطلعت عليه في البلاغ . واستخرج الجريدة من تحت ابطه وفتحها ثم أشار الى عمود وهو يقول : « هاك النعي » ، وتناولت الجريدة في ارتباك وخجل وجرى بصري على السطور القلائل الآتية : « انتقلت الى رحمة مولاها كريمة المرحوم الاميرالاي عبد الله بك حسن ، والدة مدحت بك رؤبة لاظ من اعيان الفيوم وكامل افندي رؤبة لاظ الموظف بالحربية وحرم صابر افندي امين ... » حملقت في وجه صاحبي كالمجنون ، ثم اعدت تلاوة النعي ، وجميع جسمي ينتفض ، وصرخت بلا وعي :

— هذا محال ... هذا كذب ...

ركضت لا ألوي على شيء نحو تاكسي غير بعيد وارتميت داخله وأنا احث السائق على السرعة . انه لكذب وافتراء ، ولأعلمن جلية الخبر وعندها اعرف كيف اؤدب من رامني بهذا العبث السخيف . وانطلق التاكسي يطوي الأرض وعنقي مشرئب صوب الطريق ، حتى تراءى لعيني سرادق مقام أمام بيتنا ، وتنزى قلبي في صدري وارتعشت اطرافي جميعاً ، وتوقف التاكسي فغادرته زائغ البصر ، لم أكن حزيناً أو متألما وانما كنت مجنوناً ، ها هو عمي جالساً عند مدخل السرادق ، وهذا أخي مدحت قادماً نحوي . وقد هرعت اليه فاقد الوعي وقبضت على رباط رقبته وصرخت في وجهه : كيف تخفون عني الخبر !

وتخلص أخي من قبضة يدي بجهد وهو يرمقني بقلق وانزعاج ، على حين تدانى منا عمي وهو يقول : أين كنت يا كامل ؟. لقد بحثنا عنك في كل مكان فلم نعثر لك على أثر .. فرددت بصري بينهما ، ثم ألقيت على السرادق نظرة

غريبة وغمغمت : أحق هذا ؟. فقال لي عمي : تمالك نفسك وكن رجلاً .
فسألت أخي في همس واشفاق : ماتت حقاً ؟.. كيف ؟.. متى علمتم ؟
فقال مدحت في كآبة : تلقيت برقية في التاسعة صباحاً . هذا قضاء ربنا . أين كنت ؟ لشد ما أرعبني أن نضطر إلى الخروج بالجنازة في غيابك .
فصحت به في غضب : فيم هذه العجلة ؟.. لماذا لم تؤجلوا الجنازة إلى غد ؟
فقال أخي معترضاً : أكد الطبيب ان الوفاة حصلت عند منتصف الليلة البارحة فقر رأينا على أن نخرج الجنازة اليوم .. وارتعد جسمي المحموم وتمتمت في ذهول : منتصف ليلة البارحة ؟. ولكني رأيتها نائمة في فراشها هذا الصباح !.
ولاحت في عيني مدحت نظرة حزينة وقال برثاء : لم تكن نائمة . انه القلب يا كامل . وتخيلت صورة ما بدا لي في وجهها من قنوط ، وأطرافي ترتعش ، وأعملت ذاكرتي لأستحضر الصورة كما رأيتها ، وساءلت نفسي أكان وجه ميت حقاً !. .وخارت قواي ،ثم قلت بصوت ضعيف: اريد ان القي عليها نظرة الوداع..
فوضع أخي يده على منكبي وقال : اصبر حتى تتمالك قواك . ثم ان الحجرة ملأى بالنساء . ولكني نحيته عن سبيلي واندفعت إلى داخل العمارة ، وجرى أخي ورائي ، فارتقينا السلم وثباً ، ثم مررت إلى الشقة وأصوات البكاء تملأ أذني، فما راعني الا أن اجد نفسي محاطاً بالنسوة من جميع الجهات . وزاغ بصري وحل بي أعياء وارتباك ، ولكن أدركني أخي فقبض على ذراعي واتجه بي إلى حجرة النوم وهو يقول : لا تقاوم .. ينبغي ان تخلو إلى نفسك قليلاً ..
واجلسني على المقعد الطويل ، وأغلق الباب ، ثم جلس على حافة الفراش امامي وقال بحزن :
– ثب الى رشدك . لا ينبغي ان يغلبنا الحزن كالنساء ، أليست هي امي ايضاً ؟ ولكننا رجال .. وراح عقلي يتردد ، كبندول الساعة ، بين أمرين في تركيز جنوني بين شجار الأمس المشئوم وبين رؤيتي لها هذا الصباح . وعلى حين بغتة وثبت الى ذهني ذكرى فهتفت بأخي :
– كذب الطبيب !.. لم تمت عند منتصف الليل ، .. لقد سمعتها تناديني وانا اغادر الشقة ..

فلاحت الدهشة في وجهه وسألني :

– وهل لبيت نداءها ؟.. هل تحدثت اليها ؟

فتنهدت من الأعماق في شقاء مميت وقلت :

– لم ألبّ نداءها لأنني كنت ناقماً عليها !. لشد ما كنت فظاً غليظاً معها.. وسادنا صمت وحزن . وكان رأسي يـــكاد ينفجر من الألم والحمى . ثم قلت وكأنني أحدث نفسي :

– لقد قتلتها ما في ذلك ريب. رباه. كيف هان علي أن أقول لها ما قلت !.

فرمقني أخي بوجوم ، وقال بلهجة تنم عن تحذير :

– إياك وان تستسلم لهذه الأفكار !..

فقلت بعناد ورأسي يدور دواراً جنونياً : لم أعد الحق في قولي . لقدقتلتها، ألا تفهم ؟ اذا اردت ان تستوثق من صحة قولي فادع النيابة والطبيب الشرعي.

فتأوه مدحت قائلاً فيما يشبه الخوف:

– أنت تهذي بلا ريب،وألا تمالك نفسكفلن أسمح لك بالسير في الجنازة..

فندت مني ضحكة باردة وقلت : إن أسرتنا مصابة بداء قتـل الوالدين ، ولقد حاول والدنا ان يقتل جدنا فأخفق ، وأعدت الكرة على أمنا فنجحت ، وهكذا ترى انني كنت أعظم توفيقاً من أبي ..

فلاح القلق في وجه الشاب ونهض قائماً . ثم ثبت عينيه في وجهي وتساءل :

– ماذا تنوي ان تصنع بنفسك ؟. لم يبق إلا ساعة على تشييـع الجنازة .

فقلت في دهشة :

– أتسمح بتشييـع الجنازة دون تحقيق؟ يا لك من أخ رحيم ! ولكن الواجب فوق الأخوة . ادع النيابة ، وسأدلك على الطريق اليها فقد عرفته بنفسي أمس، وقل لوكيل النيابة انك تدعوه للتحقيق مع الشخص الذي دعاه امس للتحقيق في مقتل زوجه . وبدا أخي كأنه تذكر أمراً مزعجاً فصاح :

– يا له من حدث أليم !.. كيف لم تبرق إلي يا كامل ؟.. لقـــد أخبرتني الخادم اليوم فلم أكد أصدق .. فقلت فيما يشبه الهذيان :

– صدق يا اخي. انك اذا لم توطن نفسك على تصديق هذه المآسي وأمثالها

خرجت من الدنيا كما دخلتها غراً جاهلاً . لقد قتلت زوجي ايضاً ولكن كان كان معي شريك هذه المرة هو عشيقها. وضرب مدحت كفاً بكف وهتف بي:

ـ لا يمكن ان تغادر الحجرة وانت على هذه الحال ..

فهززت رأسي في غضب ونهضت قائماً وانا أقول : هلم بنا .

ولم أكد أتم هذه الجملة حتى غبت عن الوجود ..

* * *

لا علم لي بالساعات الطوال التي قضيتها في غيبوبة تامة ، ولكن ثمة اويقات أخريات كنت أتخبط في ظلمات بين الغيبوبة واليقظة . انها دنيا غريبة معتمة ، تتوزعها الأحلام ، فكان يداخلني شعور انني حي ، ولكن حي كميت وهناً وعجزاً . وكم مـــن مرة جهدت في شقاء ويأس كي أحرك عضواً من اعضائي فأعياني الجهد وسلمت للضغط الخانق والخوف المبهم ، وفي احوال أخرى عابثني الوهم فخيل إلي اني غير بعيد من اليقظة ، واني أكاد أميز أصواتاً مألوفة وأرى وجوهاً أعرفها حق المعرفة ، فأستصرخها ان تهرع إلى نجـــدتي ، وناديت أمي كثيراً حتى احتقنني تقاعسها عني وعجبت له عجباً شديداً ، وطافت برأسي المحموم أحلام غريبة ، فرأيت فيما يرى النائم انني ممتط منكب أمي وأنهـــا تذهب بي وتجيء كما كانت تفعل على عهد طفولتي ، ورأيتني حيناً آخر ممسكاً بتلابيب أخي مدحت في نضال عنيف في جو صاخب وهو يصيح بي :لا تقتلني وخيل إلي اني رأيت احلاماً كثيرة ولكن ابتلعتها الظلمة . وطالت غيبوبتي حتى ظننتها لا تنتهي ، ثم تفتحت عيناي ، وعدت إلى نور الدنيـــا ، وتنهدت من الأعماق . ووقع بصري على مرآة تعكس صورتي ، وشعرت بوجود شخص عند رأسي فحركت عيني نحوه فرأيت أختي راضية جالسة على الفراش ويدها على رأسي ، والتقت عينانا فابتسمت أساريرها ولاحت في عينيهـــا نظرة اشفاق وغمغمت بصوت حنون : كامل ..

وحاولت ان ابتسم . وندت عنها تنهدة حارة وتمتمت :

ـ أشهد ان لا اله الا الله .

تشهدت بصوت ينم عما يرح بهامنخوف وعذاب. ووجدتها لا ترفع يدها عن

رأسي ، ثم شعرت في اللحظة التالية بوجود شيء تحت راحتها ، فسألتهابصوت ضعيف وقع في أذني كالصفير المكتوم : ما هذا الشيء على رأسي ؟.

فجاءني صوت آخر يقول : كيس ثلج يا سيدي ...

فالتفت إلى الناحية التي جاء منها الصوت فرأيت أخي مدحت جالساً على المقعد الطويل ، وأدركت في تلك اللحظة اين اكون ، وهجمت علي الذكريات التي فررت منها بهذه الغيبوبة الثقيلة ، وطالعتني الحياة بوجههـــا الكالح مرة أخرى ، ووقع بصري على المنبه فاذا بعقربه قد جاوز العاشرة بقليل ، العاشرة صباحاً كما يدل عليه ضوء النهار . واذن فقد انقضت الليلة الكئيبة وأنا في نوم عميق !. ونظرت إلى أخي بطرف كسير وتساءلت : هل شيعت الجنازة ؟.

فألقى علي نظرة طويلة ثم قال باقتضاب : طبعاً ..

وصمت ملياً ثم استدرك قائلاً :

– لعلك لا تدري أنك غبت عن الوجود ثلاثة أيام كاملة ..

ورنوت اليه بدهشة ، ثم اغمضت جفني في ذهول ، وتمتمت في حزن بالغ :

– قضى الله بالأ أشيع لا أمي ولا زوجي إلى مرقدهما الأخير .

وتحول بصري الى اختي فرأيت عينيها مغرورقتين بالدمـــوع ، فغشيتني كآبة موحشة بدت الحياة خلالها كالموت . لشد ما بدت لي الحياة في تلك اللحظة الرهيبة غريبة خالية . وشعرت بفراغ مخيف جداً . فقد خلا البيت ، وخلت حياتي وخلت الدنيا جميعاً . وكنت في حياتها اجد طمأنينة راسخة ، وأشعر في اعماق قلبي بأنه مهما نكدت الدنيا فلي فيها حجرة دائمة الاشراق بالابتسام والحنـــان ، اما الآن فما أشبهني بقارب تمزقت حبال مرساته في بحر هائج عاصف . وحتى شقيقتي التي تحنو علي في مرضي فما اسرع ان تعتذر لي غداً أو بعد غد ببيتهــــا وأولادها وتتركني وحيداً . رباه ، هل خلقت ، انا الطفل المدلل – لمثل هذه الحياة ؟!.

ونظرت الى أختي طويلاً في حب وامتنان ، وأنعمت النظر في وجهها بشوق لا تدريه مجذوباً إلى ما شابه فيه من وجه أمي ، فاهتز صدري ودر حناناً وحزناً عميقاً . وألقيت على ما حولي نظرة حائرة فوجدت أثاث رباب يحدجني بنظرات غريبة ، فقلت في ضيق :

– هيهات ان تطيب لي الاقامة في هذا البيت . سأقيم عندك يا اختاه ..

فقالت اختي بصدق وإخلاص :

– هذا ما كنت عقدت العزم عليه .. أهلاً بك وسهلا !

وسألتها ان تقرب أذنها مني ثم قلت لها بحزن :

– خذيني الى حجرتها لألقي عليها نظرة ..

فأظلمت عيناها واغرورقتا بالدمع ، وقالت لي همساً:

– لا يمكن ان تفارق الفراش الآن ، ثم انه لم يعد بالحجرة شيء .

تخيلت الحجرة الخالية ، أربعة جدران وسقفاً وأرضاً . ما أشبهها بحياتي .

وتنهدت محزوناً وتمتمت : ما أشقاني ...

فقالت راضية برجاء وضراعة :

– هلا أجلت الحزن حتى تبرأ !!

ولازمت الفراش زهاء شهر ، وأقامت راضية عندي أسبوعاً ، ثم عادت إلى بيتها مضطرة ولكنها دأبت على زيارتي كل يوم عصراً ، ولم تكن تفارقني قبل ان يغمض النوم جفني . وعاد مدحت كذلك الى الفيوم ، ولكنه كان يمضي عندي نهاية الأسبوع .

ولما دخلت طور النقاهة كانت الحمى قد عرقتني وخلفتني جلداً على عظم . ولم تكد تبقى ثمة حياة إلا في خيالي ، فازدهرت حيويته وامتلأ قوة ونشاطاً فكاد يبلغ حد الهوس . ولم يكن شعور الوحشة والخوف ليفارقني ساعة من ساعات اليقظة . فبدت لي الحياة شاقة مرعبة لا قبل لي بها ، وامتلأت أذناي بذاك النداء القديم الذي يهيب بي – عند الشدائد – أن أولي فراراً . ولكن أين المفر ؟. ليتني أخلق شخصاً جديداً ، سليم الجسم والروح ، لا يمشعش بأركان نفسه الخوف والجفاء ، فألقي بنفسي في خضم الحياة الانسانية بلا خجل ولا نفور ، أحب الناس ويحبونني ، وأعينهم ويعينونني ، وآلفهم ويألفونني ، وأندمج في كائنهم الكبير عضواً عاملا نافعاً !. ولكن أين مني هذه السعادة ؟! وفيم أعلل النفس بالأماني الكاذبة ؟. لم أخلق لشيء من هذا ، وإنما خلقت للتصوف ، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهني بغير قصد ، ولكن

سرعان ما تشبثت بها بدهشة وحيرة . التصوف ؟ لست أدري ما هو على وجه التحقيق ! ، ولكنة وحدة وعزوف وتكفير وما أحوجني للوحدة والعزوف والتكفير . عجباً ألم أكن أشكو الوحدة طوال رقادي ؟. الحق انني لم أشكُ الوحدة التي ألفتها العمر كله ولكنني استوحشت الوحدة التي خلفتها أمي . اما الوحدة المعهودة فما أشد لهفتي اليها ؟. اجل ينبغي قبل ذلك ان اطهر جسمي ظاهره وباطنه ، ثم أكرس قلبي للسماء . لقد خلقت في الواقع متصوفاً ولكن أضلتني نوازع الحياة وتصورت نفسي في طهر عجيب ، يستحم جسدي بماء عطر وتتسامى روحي في صفاء ونقاء ، فلا مشهد أرنو اليه إلا السماء ولا خاطر ينبثق في نفسي إلا الله ، وهذه بلابل الجنة تسجع في أذني ، وتلك طمأنينة السلام تقر في قلبي !. كان خيالي نشيطاً ولكنه كان غادراً في كثير من الأحايين، فلم يكن يصعد بي إلى ذاك المرتقى حتى يتخلى عني بغتة فأهوي من عل ، ثم اعود الى قلقي القديم وخوفي المقيم ...

وفي ذات صباح من ايام النقاهة الأخيرة جاءتني الخادم العجوز وقالت لي :

– جاءت سيدة تريد مقابلتك وقد أدخلتها حجرة الاستقبال .

فرفعت اليها عيني في دهشة وسألتها : ألا تعرفينها ؟.

فهزت المرأة رأسها قائلة : لم أرها يا سيدي قبل اليوم ...

ووثب إلى خاطري طيف فانتفض قلبي الضعيف واشتدت ضرباته حتى انبهرت أنفاسي. رباه أتكون هي حقاً؟. وهل واتتها الجرأة على اقتحام البيت؟ ألم تقدر العواقب ؟. ونظرت الى الخادم في حيرة شديدة ثم تمتمت :

– ادعيها الى حجرتي ...

وألقيت على المرآة نظرة متفحصة ، ثم تناولت المشط ورجلت شعري على عجل وفي حياء شديد ، اتجه بصري نحو الباب . ترى هل يصدق ظني .. وكيف غابت عن ذاكرتي طوال ذاك العهد كأنها كانت كامنة في دم الصحة الذي نضب ؟. ثم سمعت وقع اقدام تقترب ، وأطل علي وجه القادم يبتسم في شوق وإشفاق ، فهتفت فيما يشبه الاستغاثة وقد وشي صوتي بما شاع في صدري من الانفعال : – أنت !..

« انتهى »

مطبعة عيتاني الجديدة
شارع الشدياق – خندق الغميق
بيروت – لبنان

هذا الكتاب

الزواج !.. الزواج !.. لم يعد لي من فكرة سواه ، ولم اجد لحياتي معنى الا ان تتم به . اذا لم نتزوج فلماذا اذن نحيا ، بل لماذا وجدنا في الحياة ؟ اني احن اليه حنينا موجعا تندى له الضلوع فتسح اشواقا : انه جنة المبتلى بنار الجحيم . ولست اكف لحظة عن تخيله في احلام اليقظة الشاردة التي تغيب بي عن الوجود . اني اراني لصق حبيبتي وعلى وجهها الانيق نقاب الحرير المطرز بالفل ، والشمع يزهر من حولنا . واراني أمضي بها الى مسكن في آخر القاهرة ولا ادري لماذا احب ان يكون في آخر القاهرة ثم اراها تنتظرني بالشرفة فأهرع نحوها وقد انطلقت من قفص ادارة المخازن فتجود لي سعادة هفهافة يعجزني تصورها حتى في الاحلام بيد اني لم اتمل الاحلام صافية فطالما اعقبت نشوة الفرح الوهمي كآبة غامضة لا ادريها ، ولم يخل خاطري قط من وجه امي المحبوب فكان ينتابني حياء شديد يتصبب له جبيني عرقاً ، ويخامرني شعور بالذنب تعافه النفس . فيتلوى بوزي اشمئزازا ......